

التطوُّر اللغوي

بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم

دراسة دلالية مقارنة

تأليف
عودة خليل أبو عودة

مكتبة المنار
الأردن - الشرقاء

المجلة
غفر الله له ولوالديه

2009-05-25

التطوُّر اللغوي

بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم

دراسة دلالية مقارنة

تأليف
عودة خليل أبو عودة

مكتبه المنار
الأردن - الترقاء

www.alukah.net

المجلة
غفر الله له ولوالديه

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



شارع الفاروق - بجانب جمعية المركز الإسلامي

مكتبة المنارة هائف ٩٨٣٦٥٩ - ص.ب ٨٤٢ الزرقاء - الأردن

أعضاء لجنة المتحنيين

هذا الكتاب ، هو في الأصل رسالة ماجستير بعنوان « دراسة دلالية للمصطلحات الإسلامية في القرآن الكريم » كتبها صاحبها بإشراف الاستاذ الدكتور كمال محمد بشر ، عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سابقا ، ورئيس قسم فقه اللغة فيها . وقد نوقشت الرسالة يوم الأحد بتاريخ ١٩٨١/١٢/٦ من لجنة مكونة من :

الاستاذ الدكتور كمال محمد بشر	مشرفا
الاستاذ الدكتور علي عشري زايد	عضوا
الاستاذ الدكتور السعيد بدوي	عضوا

وقد نال بها صاحبها درجة الماجستير في اللغة العربية (مادة علم اللغة والدراسات السامية والشرقية) بتقدير ممتاز .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس الموضوعات

الصفحة

٣	أعضاء لجنة المتحنين
٥	فهرس الموضوعات
١٣	المقدمة
١٧	تمهيد « معنى المصطلحات الاسلاميه ونظام تقسيمها »
١٩	المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي
٢٢	المعنى الشرعي
٣٣	الدراسات والبحوث السابقة في المصطلح القرآني :
٣٨	كتاب الأشباه والنظائر في القرآن الكريم
٣٩	كتاب الزينة في الكلمات الاسلاميه العربيه .
٤٣	الفصل الأول : التطور اللغوي معناه وصوره ونتائجه :
٥٠	* أسباب التطور الصوتي ومظاهره
٥٢	* التطور الدلالي عوامله ومظاهره
٥٣	* عوامل التطور الدلالي
٥٦	مظاهر التطور الدلالي
٥٧	* نتائج التطور اللغوي
٥٨	* الترادف
٥٩	* المشترك اللفظي
٦٠	* التضاد
٦١	* الاشتقاق وأنواعه
٦٣	الدخيل في اللغة العربيه

الصفحة

٦٤	* النحت في اللغة
٨٥	الفصل الثاني : دور السياق في بيان الدلالة
٨٩	الفصل الثالث : مصطلحات في العقيدة :
٩٦	* الله ، إله
١٠٢	* الواحد ، الاحد ، التوحيد
١٠٤	* الصمد
١٠٧	* الجبار
١١٠	* الرحمن الرحيم ، أولوالأرحام ، الرحمة ، صلة الرحم
١١٤	* سبحانه ، التسبيح
١١٤	* الدين
١٢١	* الشريعة
١٢٧	* الرب
١٣٢	* الرسول والنبي
١٣٧	* القضاء والقدر
١٤٠	* الاسراء والمعراج
١٤٠	* العبادة
١٤٦	* العباد والعبيد
١٥٠	* الجاهلية
١٥٧	* الأنصاب والأصنام والأوثان
١٦١	* الحنيفية
١٦٦	* الحلال والحرام
١٧٠	* الفرض والسنة
١٧٥	* الفقه
١٧٧	الفصل الرابع : مصطلحات في أركان الاسلام
١٨١	* الشهادة والشهيد
	* الصلاة والمصطلحات التي تلحق بها

الصفحة

١٨٣	الطهارة
١٨٥	* الوضوء والتيمم
١٨٨	* الأذان والمؤذن
١٨٩	* الركوع
١٩٢	* السجود ، المسجد ، المسجد الحرام ، المسجد الأقصى
١٩٦	* المحراب
١٩٩	* الخشوع
٢٠١	* الذكر
٢٠٤	* المغفرة والاستغفار
٢٠٧	* التبتل
٢١١	* القنوت
٢١٤	* الزكاة ومصطلحاتها
٢١٧	* الصدق ، الصّدّيق ، الصّدّيق ، الصدقة
٢٢٠	* الصيام ومصطلحاته
٢٢٣	* رمضان
٢٢٥	* السحور والامساك والفقور
٢٢٦	* العاكفون
٢٢٧	* الحج ومصطلحاته
٢٣١	* الحج
٢٣٤	* العمرة
٢٣٧	* الكعبة
٢٣٩	* الاستطاعة
٢٤٠	* الميقات
٢٤٢	* الاحرام
٢٤٥	* النسك والمناسك
٢٤٥	* الطواف والسعي

الصفحة

٢٤٧	* الافاضة
٢٤٩	* عرفات
٢٥١	* المشعر الحرام
	الفصل الخامس : نماذج البشر في القرآن الكريم :
٢٥٤	* المسلم والاسلام
٢٥٧	* المؤمن والايمان
	* المحسن والاحسان
٢٦١	* الذي في قلبه مرض
٢٦٤	* المنافق والنفاق
٢٦٨	* الفاسق والفسق
٢٧٠	* الكافر والكفر والكفارة
٢٧٣	* المشرك والشرك
٢٧٦	* الملحد والالحاد
٢٧٨	* الظالم لنفسه

الفصل السادس : مصطلحات في الجهاد والسلوك والطبائع :

٢٨٣	* الجهاد في سبيل الله
٢٨٦	* المخلفون
٢٨٩	* القاعدون
٢٩٢	* الرباط ، المراقبة ، الربط على القلب
٢٩٥	* النصر والفتح
٢٩٧	* الحمد والشكر ، والحميد والشكور
٣٠٥	* المعروف والمنكر
٣٠٩	* التقوى والفجور
٣١٥	* الهدى والضلال

الصفحة

٣٢٢	* الرشد والغي
٣٢٤	* الاثم والذنب والفاحشة
٣٢٨	* الجبت والطاغوت والطغيان
٣٢٩	* الباطل
٣٣١	* السحت
٣٣٢	* شهادة الزور
٣٣٤	* النسيء
٣٣٦	* النجوى
٣٤١	الفصل السابع : مصطلحات في صفات الدنيا والآخرة :
٣٤٣	* الحياة والموت
٣٤٦	* جاء الموت وحضر الموت
٣٤٨	* الدنيا وصفاتها
٣٤٩	* الدنيا
٣٥٠	* الحياة الدنيا
٣٥١	* الأولى
٣٥١	* الخافرة
٣٥٣	* البرزخ
٣٥٧	* الصور والناقور والساعة
٣٥٥	الساعة
٣٥٩	النشر
٣٦١	* البعث والنشر
٣٦٢	* يوم الحشر وصفاته
٣٦٤	* القيامة والقيوم
٣٦٦	* الحاقة والحق
٣٦٧	* الصاخة

الصفحة

٣٦٨	* القارعة
٣٧٠	* التغابن
٣٧٣	* الآخرة

الفصل الثامن : مصطلحات الجزاء وصفات الجنة والنار

٣٧٥	* القسط والعدل
٣٧٩	* الميزان
٣٨٢	* الجزاء والجزية
٣٨٥	* الأجر والثواب
٣٨٨	* الفلاح والفوز
٣٩٤	* العذاب والعقاب
٣٩٤	* الحد والتعزير
٤٠٠	* الجنة وصفاتها
٤٠١	* الجنة
٤٠٣	* الفردوس
٤٠٥	* عدن
٤٠٨	* النعيم والنعمة
٤١٢	* الخلد
٤١٣	* بقية صفات الجنة ، طوبى ، المأوى
٤١٤	* الغرفة والغرفات
٤١٦	* النار وصفاتها
٤١٦	* النار
٤١٨	* جهنم
٤١٩	* الجحيم
٤٢٠	* السعير وسقر
٤٢٢	* الحطمة

الصفحة

٤٢٣	* لظى
٤٢٤	* الهاوية
٤٢٥	* الغاشية
٤٢٧	* مصطلحات في طعام أهل النار وشرابهم
٤٢٩	* الضريع
٤٣٢	* الزقوم
٤٣٣	* الغسلين
٤٣٥	* الشراب : الغساق
٤٣٧	* المهل
٤٣٩	* الحميم

الفصل التاسع : مصطلحات في عالم الغيب

٤٤٤	* الغيب
٤٤٥	* الغيبة
٤٤٦	* الوحي
٤٤٩	* الأمر
٤٥٢	* العرش
٤٥٥	* الكرسي
٤٥٩	* القلم
٤٦٢	* اللوح المحفوظ
٤٦٤	* الصراط المستقيم
٤٦٧	* الجن
٤٧١	* ابليس
٤٧٥	* الشيطان
٤٧٩	* العفريت
٤٨٠	* الملائكة

٤٨٩	الفصل العاشر: دلالات جديدة في السياق القرآني:
٤٩٢	تلا - وقرأ
٤٩٤	* القرآن
٤٩٧	* السورة
٥٠٠	* الآية
٥٠٣	* التوكل والاستخارة
٥٠٥	* التوفيق
٥٠٩	* الغيث والمطر
٥١٣	* الريح والرياح
٥١٧	* الحلف والقسم
٥٢٠	* القدرة والاستطاعة والطاقة
٥٢٣	* الكسب
٥٢٤	* الانفال
٥٢٦	* الفيء
٥٢٨	* السعي
٥٣١	* أصحاب اليمين وأصحاب الشمال
٥٣٧	خاتمة
٥٤٣	المصادر والمراجع

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله وحده لا شريك له ، ما شاء الله كان . وانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، أرسله ربه بالنور والكتاب المبين ، هدى ورحمة للعالمين ، فاللهم اجزنا نبينا خير ما جزيت نبيا عن قومه ، صلى الله عليه وعلى آله ، وأصحابه ، وأتباعه الى يوم يعثون . وبعد .

فهذه «دراسة دلالية للمصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم» حقق الله عز وجل لي فيها أمنية طالما سألته سبحانه أن يسرها لي . وهي أن تكون رسالتي في الدراسة العليا — اذا شاء الله أن تكون — بحثا في جانب من جوانب القرآن الكريم الذي لا تنتهي عجائبه ، ولا يخلق على طول الرد ، عسى أن يكتب الله لي فيها أجرا في الدنيا والآخرة ، قبل أن أنال بها شهادة في الدنيا ، تزيد من صلابة الأرض تحت قدمي ، في معترك الحياة هذا الرهيب .

وقد كان هذا البحث في أساسه فكرة حفظتها عن أستاذي الأستاذ الدكتور كمال بشر في سنوات الدراسة الجامعية الأولى ، وشاء الله له أن يتحقق الآن ، لظروف يعلمها الله عز وجل ، واني أحمد الله عز وجل أن يسر لي كتابته ، وأعاني على انجازه .

وتشمل هذه الدراسة ، بعد هذه المقدمة تمهيدا وعشرة فصول ، وخاتمة . عرضت في التمهيد عنوان البحث وأهميته ، والمعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ، وأسس تقسيم المصطلحات القرآنية ، وفصول الدراسة ثم الدراسات والبحوث السابقة في مجال الدلالة القرآنية .

وفي الفصل الأول تحدثت عن التطور اللغوي : معناه وصوره ونتائجه . عرضت فيه أسباب التغير في المعنى ، وأسباب التطور الصوتي والدلالي ، ونتائج التطور اللغوي بشكل عام .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن «دور السياق في بيان الدلالة» وعرضت آراء العلماء السابقين في العلاقة بين اللفظ والمعنى ، ثم رأي العلماء المعاصرين ، ثم وجهة نظر علماء الغرب في هذه القضية .

ويعد هذان الفصلان ، الأول والثاني ، دراسة فنية تكون ما يشبه القاعدة التي بنيت عليها الدراسة التطبيقية لدلالة المصطلحات في الفصول التالية .

الفصل الثالث ، مصطلحات في العقيدة ، وهو أطول فصول الرسالة ، لأن مصطلحات العقيدة أكثر مصطلحات الدراسة ، ومنها مصطلحات الله ، والرب والدين والشرعية والرسول والنبي والقضاء والقدر والعبادة وغيرها .

الفصل الرابع ، نماذج البشر في القرآن الكريم . درست فيه صورتين متقابلتين للناس ، في الصورة الأولى المسلم فالمؤمن فالمحسن ، والصورة الأخرى المقابلة الذي في قلبه مرض فالمنافق فالفاسق فالكافر فالمشرك فالملحد . وقد حاولت أن أرسم ملامح كل شخص من هذه الشخوص الحية المتحركة في القرآن الكريم .

الفصل الخامس ، مصطلحات أركان الاسلام الخمسة . الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وما يتبع كلا منها من مصطلحات فرعية .

الفصل السادس ، مصطلحات الجهاد والسلوك والطبائع ، وهي المصطلحات التي تتعلق بالعمل وتكشف عن دخيلة النفس الانسانية .

الفصل السابع ، مصطلحات في صفات الدنيا والآخرة ، وفيها درست مصطلحات الحياة والموت والدنيا وصفاتها والآخرة وصفاتها .

الفصل الثامن ، مصطلحات في الجزاء وصفات الجنة والنار . ودرست فيه مصطلحات الجزاء والعدل والميزان والأجر والثواب والعذاب والعقاب ، وصفات الجنة وصفات النار ، وطعام أهل النار وشرابهم .

الفصل التاسع ، مصطلحات في عالم الغيب ، وقد درست فيه المصطلحات التي أمر الانسان بالايمان بها مثل الملائكة والجن ، والعرش ، والكروني والقلم واللوح المحفوظ وغيرها .

الفصل العاشر . دلالات جديدة في السياق القرآني . وقد درست فيه الألفاظ والعبارات التي أضفى عليها سياق القرآن الكريم دلالات جديدة لم تكن معروفة بها من قبل في الشعر الجاهلي مثل : القرآن ، الآية ، السورة ، الريح والرياح . الغيث والمطر ، النعمة والنعيم ، الكسب ، السعي . وغيرها .

وقد حرصت على اعتماد منهج مطرد في البحث كله ، وهو دراسة المعنى اللغوي للكلمة ثم المعنى الاصطلاحي لها في القرآن الكريم . ثم نظرت في وجه التطور الذي لحق بها . وغالبا ما كان التطور لا يخرج عن مظاهره التي أوردتها في الفصل الأول ، من حيث تخصيص الدلالة أو تعميمها أو نقلها عن طريق المجاز . وهناك مصطلحات جديدة أشرت إليها في البحث .

وقد حرصت — أيضا — أن تكون شواهد البحث من الشعر الجاهلي . الا بعض الأبيات التي لم يذكر المحققون لها قائلًا يعرف ، في كتب المجموعات الشعرية الموثوق بها . والا بعض الأبيات التي وردت خلال شرح بعض المعاجم لمعنى الكلمة دون تسمية قائلها . وقد كنت أحتفظ بهذه الأبيات اذا كانت لا تسبب اضطرابا في تتبع سير الكلمة في تطورها الدلالي من الجاهلية الى استعمال القرآن الكريم . وفي البحث أيضا بعض الشواهد لشعراء مخضرمين حاولت أن تكون من أقوالهم في الفترة الأولى من حياتهم ، وهي فترة الشعر الجاهلي .

وفيما يتعلق بالمصادر والمراجع فقد استعنت بكثير من معاجم اللغة المعتمدة كتهذيب اللغة ولسان العرب ، ومقاييس اللغة ، والمصباح المنير وتاج العروس ، وغيرها . كذلك رجعت الى عدد وافر من كتب التفسير القرآني في مختلف العصور كتفسير القرطبي وتفسير ابن كثير وتفسير المنار والتسهيل والكشاف وفي ظلال القرآن . إضافة الى عدد وافر من كتب الدراسات القرآنية المختلفة .

وقد قرأت دواوين الشعر الجاهلي كلها الى جانب كتب المجموعات الشعرية المعروفة المحققة كالحماسة لابن قتيبة والمفضليات والأصمعيات .

وأود هنا أن أعرف الفضل لأهله ، فأقدم شكري الخالص الى أستاذي الاستاذ الدكتور كمال محمد بشر ، الذي تلقيت العلم عليه في سنوات دراستي كلها ، فزرع حب العلم — وبخاصة علم اللغة — في قلبي ، بأسلوبه المتميز في الدرس ، وعلمه الغزير ، ومعاملته الفريدة لطلابه في أثناء الدراسة وبعدها . ثم لاشرافه على هذا البحث ومتابعته لي وله ، مع كل فكرة تكتب أو فصل ينظم . وأشهد أن إشرافه العلمي الدقيق قد ارتقى بهذا البحث من حال الى حال ، بفضل ملاحظاته الدقيقة وآرائه السديدة .

واني أشكر قسم علم اللغة ، بكلية دار العلوم ، التي أتشرف بالانتساب إليها والانتظام فيها في مراحل الدراسة الجامعية كلها . وأعتز بكل من علمني حرفا فيها ، في أقسامها المتنوعة ، ومباحثها المتعددة .

وأرجو أن أسجل في هذه الوثيقة الشكر والعرفان والامتنان لأهل قرية هناك في أقصى الشمال الشرقي في المغرب الشقيق ؛ الى قرية بركان ، التي تبعد عن العاصمة أكثر من ستمائة كيلومتر ، وليس فيها مكتبة عامة . وقد وصلت إليها ساعياً وراء لقمة العيش وليس معي من أدوات البحث إلا الرغبة الأكيدة والأمل والتصميم ، فمدّ إليّ أهلها وأعيانها يد المساعدة ، فما من تفسير للقرآن ، وما من ديوان شعر ، أو معجم لغة ، أو كتاب أدب ، إلا وضعوه تحت تصرفي حتى أفرغ من النظر فيه ، وإني أحاول أن أذكر الآن أسماءهم فذكرت بعضها وذهب مني أكثرها ، وما ضرهم أني نسيتهم والله عز وجل أحصاهم ، فجزاهم الله عني خير الجزاء .

واني أسأل الله عز وجل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين ، فعملي هذا كله ، محاولة لا ثبات دليل جديد على اعجاز القرآن الكريم من وجه التطور الدلالي ، الذي بدا واضحاً خلال هذه الدراسة .

والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

تمهيد

معنى المصطلحات الإسلامية ونظام تقسيمها

معنى المصطلحات الاسلامية ، ونظام تقسيمها :

كانت البذرة الأولى لهذا البحث ، فكرة ألقاها علينا — طلبة الفرقة الثالثة بكلية دار العلوم — أستاذنا الدكتور كمال محمد بشر ، عندما كان يحاضر فينا في قسم علم اللغة . كان الاستاذ يتحدث عن تطور الدلالات والمعاني في ألفاظ اللغة مع مسيرة الزمن نتيجة الظروف المختلفة التي تمر على تلك اللغة . وقد تعرض خلال حديثه هذا الى محاولة بدأ بها أحد المستشرقين الألمان لدراسة « ألفاظ القرآن الكريم في الأدب القديم » . وذكر أن المستشرق توفي قبل أن يبدأ بحثه بداية جادة . وظل البحث فكرة معروضة أو بذرة ملقاة على أرض الدراسة والبحث ، في انتظار من يتعهدا بالبحث الطويل ، والصبر على المقارنة والتحليل .

وقد عاشت تلك الفكرة معي لم تفارقني بعد ذلك يوماً واحداً ، وبخاصة أنها صادفت هوى في النفس . فقد كنت أرجو دائماً أن تكون رسالتي في الدراسات العليا دراسة تجمع بين اللغة وبين القرآن الكريم . أي أن تكون اللغة العربية قاعدتها وفكرة البحث فيها ، ويكون القرآن الكريم مجال التطبيق والتمثيل لها . وانتهت السنة الثالثة والرابعة بعدها ، ثم انصرفت سنوات وسنوات . وعندما تيسر لي اجتياز الامتحان التمهيدي للماجستير وحانت ساعة البحث عن موضوع ، كان الموضوع في نفسي جاهزاً . وعندما أُلقيت موضوع البحث على أستاذي سر به ، ولكنه لاحظ أنه موضوع طويل متشعب ينبغي اختصاره . وقد اجتهد أستاذي في سبيل ذلك . فاستبدل المصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم بألفاظ القرآن الكريم . واستبدل الشعر الجاهلي بالأدب القديم . وهكذا وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام « دراسة دلالية للمصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم » كما وردت في الشعر الجاهلي » .

وهذا هو البحث الذي سأكمل معه هذه الطريق .

المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي :

تطلق كلمة « مصطلح » في أوساط الناس اليوم ليراد بها المعنى الذي تعارفوا عليه ، واتفقوا عليه في استعمالهم اللغوي الخاص أو في أعرفهم الاجتماعية ، وعاداتهم السائرة ، وتساعد الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية على أن تحمل كلمة ما معنى غير الذي وضعت له في أصل اللغة التي تنتمي إليها . ويسير هذا المعنى الجديد بين الناس

حتى يصبح في استعمالهم اليومي شيئا مألوفا ينسى معه ذلك المعنى اللغوي الأساسي أو يكاد . وهذا المعنى الجديد هو ما نقصده عندما نقول « المعنى الاصطلاحي » ، أما ذلك المعنى الأساسي فهو المقصود بقولنا في أثناء هذا البحث « المعنى اللغوي » . ونضرب مثلاً لذلك كلمتي الأدب والنقد . فكلمة الأدب تعني في الاستعمال اللغوي : الطعام ، ومشتقاتها تحمل هذا المعنى أيضاً أو ما يتعلق به . فالآدب هو صانع الطعام . والأديب هو الذي يكتر من صنع الطعام للناس والأضياف ، والمأدبة هي اجتماع الناس حول الطعام ، وهكذا .. يقول طرفة ابن العبد مفتخراً بقومه (١) :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

فهو يفتخر بأن الآدب في قومه ، يدعو كل الناس ، لا يستثنى أحدا منهم ، و يكون ذلك في الشتاء ، حيث تقل أقوات الناس ، وخاصة الذين يعتمدون على الرعاية وتربية المواشي ، في الصحاري ، وهذا المعنى مشهور في الشعر الجاهلي ، حيث الصحراء العربية وطبيعة حياة القبائل فيها . وكأني بهذا اللفظ قد تطور معناه حتى صار يقصد به الرجل الكريم ، لكثرة ما يقيم الآدب والأديب من موائد للناس . والرجل الكريم لابد أن يكون كلامه كريماً وجميلاً ، وأن تكون معاملته للناس فاضلة ، ولعله من هنا صار يطلق على كلام الكريم أدبا ، لأنه كلام سام جميل يصدر عن إنسان كريم . وبهذا المعنى الأخير يفسر قوله عليه الصلاة والسلام « أدبني ربي فأحسن تأديبي » (٢) « أي علمني كريم الأخلاق وزينني بجميل الصفات . ثم تطورت الكلمة وانتشر استعمالها حتى صارت علما أو مصطلحا على كل كلام جميل مؤثر يعبر عن أفكار الإنسان وعواطفه . جاء في معاجم اللغة ، « الأدب ملكة تعصم من قامت به عما يشينه » (٣) . وفي المصباح « هو تعلم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق » . قال أبو يزيد الأنصاري : الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل (٤) . وإذا أطلقت كلمة أدب الآن فهي تعني هذا المعنى

١ - ديوان طرفة ، تحقيق الدكتور على الجندى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٢ ، ص ٧٣ .

٢ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس ، اسماعيل العجلوني ، مكتبة التراث الاسلامي ، حلب ، ج ١ ، ص ٧٢ .

٣ - تاج العروس في جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، مادة أدب .

٤ - تاج العروس ، مادة أدب .

إضافة الى التعبير الجميل المؤثر. ويكاد المعنى اللغوي أن يذهب من ذاكرة الناس ، ولم يبق منه سوى كلمة مأدبة تذكرهم به .

ومثل هذا يقال في كلمة «نقد» التي كانت تحمل في العصر الجاهلي معنى فحص النقود والنظر فيها لميز الجيد عن الزائف منها . وهذا ما يفهم من قول الشاعر (١) :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدراهم تنقاد الصياريف

ثم اتسع هذا المعنى حتى لم يعد مختصا بنقد الدراهم ، بل صار يشمل نقد كل شيء ، حتى نقد الناس والاشارة الى صفاتهم السيئة ، وعلى هذا المعنى ورد قول أبي الدرداء رضي الله عنه « اذا نقدت الناس نقدوك واذا تركتهم تركوك » (٢) . واستمرت كلمة « النقد » تعني التمييز بين الجيد وبين الرديء من الأشياء ، وتوجه نحو التخصص للتمييز بين الجيد وبين المعيب من كلام الناس ، حتى صارت في النهاية مصطلحا على هذا المجال الأخير . وقد انتشر استعمال النقد بمعنى الاشارة الى عيوب الكلام والاعلان عن محاسنه أيضا في القرن الثالث الهجري . وأخذ الناس يقولون : نقد الكلام ، وهو من نقّدة الشعر ونُقّاده ، وانتقد الشعر على قائله ، واستعمل الشعراء هذا المعنى ، فقال أحدهم (٣) :

ان نقد الدينار إلا على الصي — عرف صعب فكيف نقد الكلام

ثم استخدم المؤلفون هذا التعبير . وهو المعنى الاصطلاحي اليوم لكلمة « النقد » ولا يكاد المعنى الأساسي يذكر الآن ، ولم يبق من مشتقات الكلمة ما يذكر به سوى كلمة « نقود » .

وانما قدمت بهذا التعريف للمعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ، لأنني سأدرس في هذا البحث تطور الدلالات بين اللغة العربية التي يمثلها الشعر الجاهلي وبين اللغة الاسلامية

١ - أسس النقد الأدبي عند العرب ، د . أحمد أحد بدوي ، مكتبة نهضة مصر للطباعة الثانية ، ١٩٦٠ ، ص ١ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢ .

٣ - المرجع السابق ، ص ٢ .

التي يحددها القرآن الكريم . ولا أعني أن هناك لغتين مختلفتين بين الشعر الجاهلي وبين القرآن الكريم ، بل أقصد تلك الكلمات التي استعملها القرآن الكريم في معنى خاص ، فصارت على ألسنة الناس مصطلحات خاصة بهذا المعنى الذي حملته في استعمال القرآن الكريم .

المعنى الشرعي :

وهذا المصطلح الاسلامي الذي أعنيه هنا ، سبق أن تحدث عنه الباحثون المسلمون ، ولكنهم أطلقوا عليه « المعنى الشرعي » . فقد لاحظ المفسرون وعلماء اللغة ورود كلمات في القرآن الكريم بمعانٍ غير المعاني التي وردت فيها في الشعر الجاهلي ، وفي استعمال العرب قبل نزول القرآن ، فأرادوا أن يميزوا بين المعنى العربي والمعنى الاسلامي فقالوا هذا اسم لغوي وهذا اسم شرعي . وقد تنبه أحمد بن فارس في كتابه « الصحاحي » لهذا فقال : كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرايينهم ، فلما جاء الله جل ثناؤه بالاسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة الفاظ من مواضع الى مواضع أخرى ، بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت ، فعفى الآخر الأول ، وشغل القوم بعد المناورات والتجارات وتطلب الأرباح والكدح للمعاش في رحلة الشتاء والصيف ، وبعد الاغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وبالتفقه في دين الله عز وجل ، وحفظ سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الاسلام ... » (١) .

وبعد أن يقرر أحمد بن فارس أن ألفاظاً نقلت من مواضع الى مواضع أخرى ، بدأ يمثل في كتابه لمثل هذه الألفاظ ، فقال : « فكان مما جاء في الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق (٢) ... » ويعضي متحدثاً عن الفسق وعن الصلاة والسجود والصيام الى أن يقول : « وكذلك الحج لم يكن عندهم فيه غير القصد وسبر الجراح ، من ذلك قولهم : وأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سبّ الزبرقان المزعفرا

١ - الصحاحي ، أحمد بن فارس ، المكتبة السلفية ، ١٩١٠ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

٢ - المرجع السابق ص ٤٥ .

ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره . وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها الا من ناحية النماء ، وزاد الشرع ما زاده فيها مما لا وجه لاطالة الباب بذكره ، وعلى هذا سائر ما تركنا ذكره من العمرة والجهاد وسائر أبواب الفقه . فالوجه اذا سئل الانسان عنه أن يقول في الصلاة اسمان :

لغوي

وشرعي

و يذكر ما كانت العرب تعرفه ثم ما جاء الاسلام به ، وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم كالنحو والعروض والشعر ، كل ذلك له اسمان : لغوي

وصناعي « (١) » .

وهكذا يبدو من هذا النص القيم أن الذي أردته بالمصطلح الاسلامي هو ما أراده الباحثون الأولون بالمعنى الشرعي . ومنه يظهر أيضا أن الباحثين القدماء أدركوا أن هناك مصطلحات كثيرة في غير علوم القرآن وقد أطلقوا عليها الاسم الصناعي .

وقد تحدث أبو هلال العسكري عن هذا الموضوع أيضا في كتابه « الأوائل » فقال : « وقد حدثت في الاسلام معان وسميت بأسماء كانت في الجاهلية لمعان آخر ، فأول ذلك القرآن والسورة والآية والتيمم ، قال تعالى « فتيمموا صعيدا طيبا » أي تحروه ، ثم كثر ذلك حتى سمي التمسح تيمما . والفسق هو الخروج من طاعة الله تعالى ، وانما كان ذلك في الرطوبة اذا خرجت من قشرها ، والفأرة اذا خرجت من جحرها . وسمي الايمان مع إسرار الكفر نفاقا . والسجود لله ايمانا وللوثن كفرا ، ولم يعرف أهل الجاهلية من ذلك شيئا » (٢) .

وقد سمي هؤلاء الباحثون مثل هذه الأسماء التي استحدثها القرآن اسما اسلاميا ، ورد في المزهري « ان لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمان الذي كان قبل البعثة ، والمنافق اسم اسلامي لم يعرف في الجاهلية » (٣) .

١ - المرجع السابق ص ٤٧ . وسيرد تفصيل هذه المصطلحات التي أشار اليها المؤلف في أبوابها المقررة .

٢ - الأوائل ، أبو هلال العسكري ، نشر أسعد طرايزوني الحسيني ، مطبعة دار أمل طنجة ، المغرب الأقصى ، مارس ١٩٦٦ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

٣ - المزهري في علوم اللغة وآدابها ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، القاهرة ، البابي الحنبلي ، ج ١ ، ص ٣٠١ .

و يبدو أن مصطلح الاسم الشرعي والاسم الاسلامي لم يقتصر في أذهان الناس على الاسم الذي خصصه القرآن لمعنى ما ، بل تعداه الى كل معنى يتصل الى الاسلام بسبب . ولذلك أطلق الاسم الشرعي على الأسماء التي تحمل مدلولات اسلامية ، ويدل على ذلك قول أبي العلاء المعري : « وأبو الهندي اسلامي ، واسمه عبد المؤمن ابن عبد القدوس ، وهذان اسمان شرعيان ، وما استشهد بهذا البيت الا وقائله عند المستشهد فصيح » (١) .

يتبين لنا مما سبق أن المسلمين أدركوا أن هناك معان اسلامية قد كونها القرآن الكريم ، وأن بعض الكلمات قد تحول معناها عما كان عليه قبل نزول القرآن الكريم ، وأن هذه المعاني الجديدة انما عرفت مع القرآن الكريم ونتيجة استعماله لها في مواقعها وسياقاتها الجديدة ، وقد حق لأبي هلال العسكري أن يقول « ولم يعرف أهل الجاهلية من ذلك شيئا » .

وفي العصر الحديث اهتمت بعض كتب أصول الفقه بدراسة الدلالات القرآنية تمهيدا للبحث في أصول التشريع الاسلامي كالقرآن والسنة والاجتهاد والقياس . وكان الحديث عن الأسماء اللغوية والشرعية فيها ممهدا لتفصيل القول في الاحكام الأخرى كطرق الاستنباط وتفصيل الأحكام .

وقد عرض الأستاذ علي حسب الله في كتابه « أصول التشريع الاسلامي » تحت عنوان « القواعد اللغوية » الى معاني الألفاظ لغة وشرعا . فقال « ان الأسماء اللغوية تنقسم الى قسمين : وضعية وعرفية » (٢) . ومضى يعرف كلا من هذين القسمين حتى وصل الى الأسماء الشرعية التي قال فيها « وقد وجدنا الشارع يستعمل ألفاظا عربية في معان لم يعرفها العرب من قبل ، فهل وضعها الشارع لهذه المعاني وضعاً مبتدأ لا علاقة له بمعانيها الأولى ، كما يضع المحترفون الأسماء لأدواتهم ؟ أم هي لا تزال مستعملة في معانيها الأولى من غير نقل ؟ أم نقلها بطريق التجوز الى معان تتصل بمعانيها الأولى ، وذاعت المعاني الجديدة حتى أصبحت حقائق شرعية عرفية فيها ؟

١ - رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري ، الشركة اللبنانية للكتاب ، ص ٦١ .

٢ - أصول التشريع الاسلامي ، الشيخ علي حسب الله ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ١٩٧٦ ، ص ٢٤٣ .

- ١ - ذهب الخوارج والمعتزلة وطائفة من الفقهاء الى أن الشارع مجرد الالفاظ من معانيها اللغوية ، ويضعها وضعاً مبتدأً للمعاني الشرعية أو الدينية (١) .
ثم عرض المؤلف أدلة هذا الفريق . ومضى يعرض الآراء الأخرى .
- ٢ - وذهب أبو بكر الباقلاني الى أن الشارع يستعمل الالفاظ العربية في معانيها اللغوية ، ولا يتصرف فيها الا بوضع شروط وقيود يتحقق بها المقصود الشرعي . وجاء المؤلف بأدلة هذا الرأي .
- ٣ - وذهب الغزالي والرازي وجماعة الى التوسط ، فأذكروا أن تكون الالفاظ الشرعية منقولة نقلاً كلياً عن معانيها اللغوية على نحو ما ذهب اليه الخوارج والمعتزلة وأن تكون باقية عليها من غير تصرف فيها الا بوضع الشروط والقيود على نحو ما ذهب اليه أبو بكر الباقلاني . وقالوا إن الشارع تصرف في الالفاظ العربية كما تصرف العرف فيها ، فخصص بعض الأسماء ببعض مسمياتها كالألفاظ الايمان والحج والصوم ونحوها ، وأطلق بعض الألفاظ على ما له صلة بمعناها ، كما أطلق لفظ محرمة على الخمر ، والمحرم شربها (٢) .

ولم يكن من السهل تحديد المصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم ، لأن أمرين في غاية الأهمية يتحكمان في عملية التحديد هذه :

أولهما : كيف يمكن اعتبار كلمة ما داخلية في حيز الاصطلاح ؟

وثانيهما : مدى شيوع هذا الاصطلاح في حياة الناس العملية شيوعاً يستحق معه الدراسة والتسجيل .

ولاجتياز العقبة الأولى كان لابد من قراءة القرآن الكريم عدة مرات ، وتسجيل الكلمات التي يظن أنها من الكلمات الاصطلاحية ، ثم عرض هذه الكلمات على كتب الفقه الاسلامي المتعددة ، وكتب التفسير المتنوعة ، لمعرفة المجال الذي تحركت فيه الكلمة ، والأثر الذي تركته في حياة المسلمين . وفي أثناء عملية الحصر هذه كانت بعض المصطلحات تفرض نفسها على هذا البحث لأنها تكون مفهوماً محدداً ، وشائعاً في الوقت نفسه ، مثال

١ - المرجع السابق ص ٢٤٤ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٤٦ .

ذلك مصطلحات : العبادة والتوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والجنة والنار ، والجهاد وما الى ذلك . ولكن كلمات أخرى كانت تقتضي بعض التوقف والتساؤل : هل هي من المصطلحات أم لا ؟ مثال ذلك بعض أسماء الله الحسنى . فالقادر والسميع والبصير والودود مثلا يمكن أن تكون مصطلحات اسلامية اذا نظرنا اليها على أنها من الأسماء الحسنى ، ويمكن ألا تكون كذلك اذا سمينا بها انسانا ما . فعندما نقول « عبد الودود » يتوجه الذهن حالا الى أن الودود هو الله عز وجل ، وأن فلانا المسمى بهذا الاسم ان هو الا عبد من عباد الله . أما اذا قلنا : « فلان رجل ودود كما يظهر من تصرفاته مع زملائه » فان هذه الكلمة لا تتعدى أن تكون صفة عادية يمكن أن يتصف بها أي فرد من الناس .

ولا يكفي في هذا المجال القول ان هذه الكلمات اذا وردت معرفة بأل فانه يقصد بها الله عز وجل ، أما اذا وردت نكرة فانها تكون صفة عادية لأي فرد من الناس . فنحن يمكن أن نقول : الأعلى : العزيز : الحكيم : مثلا ونقصد به واحدا من الناس ، بل إن القرآن الكريم فعل ذلك عندما قال الله عز وجل مصورا جبروت فرعون وطمغيانه :

فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ سَعْيَ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (١) .

وفي سورة يوسف أيضا ورد أن حاكم مصر كان اسمه العزيز ، قال تعالى

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَلْهَى عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) .

ودلالة مثل هذه الكلمات انما يكشفها السياق الذي تقع فيه ، وسوف يرد تمثيل لذلك في بحث « السياق وأثره في بيان الدلالة » في نهاية هذه المقدمة . ولذا فاني اقتصر من هذا البحث على الأسماء الحسنى التي اختص بها الله عز وجل ولم يسم أو يوصف بها غيره سبحانه ، قبل نزول القرآن وبعده ، مثل الله والأحد والحمد وسبحان وغيرها . أما الأسماء الحسنى الأخرى فقد كنت أشير اليها أحيانا في سياق بعض المصطلحات التي تتصل بها .

١ - التازعات ٢١ - ٢٥ .

٢ - يوسف ٣٠ .

فعند دراسة مصطلح القضاء والقدر أشرت الى معنى القادر في أسماء الله الحسنى . وعند دراسة الحمد والشكر أشرت الى معنى الحميد والشكور ، وهكذا .

وهناك كلمات أخرى كان من الصعب اعتبارها مصطلحات اسلامية لأنها تحمل دلالات اسلامية عامة لا يمكن حصرها في اطار معين ، مثل الخير ، والشر ، والدعاء والسلطان ، والغلول ، والرجس ، والخبائث والزنا ، فهذه كلمات عامة الدلالة ، يستوي في فهمها كل الناس ، مسلمين وغير مسلمين ، فاذا أطلقت هذه الألفاظ فانها لا تكون معنى محدداً يمكن اعتبارها معه معنى اسلامياً أو مصطلحاً اسلامياً .

وكان يمكن دراسة هذه الكلمات مع غيرها من المصطلحات في هذا البحث ، إلا أن ذلك يخرج هذه الدراسة عن الغاية التي عقدت من أجلها ، وهي دراسة التطور اللغوي ، في مجال الدلالة والمعنى عبر عصرين متوالين هما العصر الجاهلي والعصر الاسلامي الأول . وعدم وضوح هذه الغاية هو السبب الذي جعل بعض الكتب القديمة التي تعرضت لمثل هذه الدراسة تخرج عن قصدها ، كما سيأتي بيانه عند الحديث عن الدراسات السابقة في هذا المجال .

وهناك نمط ثالث من الكلمات تخضع لهذا الحكم نفسه . وهي الكلمات الخاصة بالأحوال المدنية في حياة الناس كالزواج والطلاق والميراث والوصية ، فهي على الرغم من أنها تحمل دلالات اسلامية معروفة ، إلا أنها لا تكون مصطلحات اسلامية ، لأنها عامة في كل الشعوب ، لذلك فإن الأولى بها أن تعالج في كتب الفقه ليتعرف الناس هناك الى أحكامها وشروطها .

أما الأمر الثاني في تحديد المصطلحات الاسلامية وهو مدى شيوع المصطلح في حياة الناس ، فقد كان سبباً في استبعاد بعض المصطلحات عن هذا البحث . وانني أقرر— قبل التمثيل لهذه المصطلحات — أن المنهج الذي أقمت عليه بناء بحثي هذا يمكن القارئ من أن يدرس — ان شاء — هذه المصطلحات القليلة ليتعرف الى التطور الدلالي فيها . وهنا قد يحسن التنبيه على أن الغاية عندي ليست هي في حصر المصطلحات مثلما هي في استخراج قاعدة هامة للبحث ، تكون أساساً لدراسات أخرى في تطور الدلالات اللغوية في التراث العربي .

على أن هذه المصطلحات المستثناة قليلة العدد ، وهي في مجموعها تنقسم الى طائفتين :
الأولى : مصطلحات عرفت في مطلع العهد النبوي ، وفي أول البعثة ، دعت اليها

ضرورة الدعوة في مراحلها الأولى ، ثم سرعان ما اختفت بعد أن عرف الناس الحكم فيها . مثال ذلك مصطلح « الظهار » . وظاهر الرجل امرأته مظهارة وظهارا اذا قال هي على كظهر أمي . وكانت العرب تطلق نساءها في الجاهلية بهذه الكلمة . وكان الظهار في الجاهلية طلاقا ، فلما جاء الاسلام نُهوا عنه ، وأوجب الكفارة على من ظاهر من امرأته (١) . وقد أشار القرآن الكريم الى هذه العادة في قوله عز وجل

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢)

فهذا المصطلح — مثلا — قد اختفى من حياة الناس ولم يعد يذكره أحد ، ولم يعد يلجأ اليه أي من الناس بعد أن وضحت حدود الأحوال المدنية في حياة المسلمين .

الثانية : مصطلحات عرفت في أول الدعوة أيضا . ولكنها كانت قليلة الاستعمال ، ثم ندر استعمالها كلما تقدم الزمن . مثال ذلك المباهلة .

والمباهلة تعني الملاعة . يقال باهلت فلانا أي لاعنته . والمقصود بها أن يجتمع القوم اذا اختلفوا في شيء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا (٣) . وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، « من شاء باهلته أن الحق معي » .

ذلك هو المجال الذي تحركت خلاله عند احصاء المصطلحات التي أقيمت عليها هذه الدراسة . فبعد استبعاد المصطلحات ذات الدلالة العامة ، والمصطلحات التي أهمل استعمالها ، والمصطلحات غير الشائعة في الاستعمال ، بقي لدى حوالي مائتين وخمسين مصطلحا استوعبتها فصول البحث .

وهنا أصل الى نقطة غاية في الصعوبة والأهمية ، وهي : كيف تم تقسيم تلك المصطلحات في الفصول التي ذُكرت فيها ؟ .

١ - النهاية لأبي الفضل ولي الدين البصير . تحقيق لجنة من علماء الأزهر . المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الرابعة ، الجزء الثاني ص ٥ .

٢ - المجادلة ٢ .

٣ - لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين بن منظور . مادة « بهل » .

ان تقسيم تلك المصطلحات كان هو العقبة أمامي في هذا البحث . لقد أنفقت شهورا طويلة في محاولة العثور على مقياس مناسب ، وأساس صالح لذلك التقسيم . وأقرر الآن — حتى بعد أن صار هذا البحث في موضع الحكم عليه — أن المقياس الذي اخترته لتقسيم المصطلحات ليس مطردا .

كان أمامي عدة احتمالات لتقسيم المصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم :

- ١ - أن أرتب المصطلحات حسب الحروف الهجائية التي تبدأ بها . أي أضع المصطلحات التي تبدأ بالهمزة أولا ثم التي تبدأ بالباء ثم بالتاء وهكذا .
 - ٢ - أن أرتبها حسب ورودها في سور القرآن الكريم .
 - ٣ - أن أرتبها حسب التطور الدلالي فيها ، أي أن أضع المصطلحات التي وجدت فيها صورة من صور التطور ، بعضها مع بعض ، ثم المصطلحات التي لم تتطور دلالاتها عن الاستعمال الجاهلي لها .
 - ٤ - أن أرتبها حسب تطورها الزمني . أي أن أضع المصطلحات المعروفة في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم أولا . ثم اتبعها بالمصطلحات التي صنعها القرآن الكريم ولم تكن معروفة في العصر الجاهلي .
 - ٥ - أن أرتبها حسب الموضوعات العامة التي تنتمي اليها .
- ولكل من هذه الاحتمالات أسباب تدعو الى الأخذ بها ، وأسباب أخرى تدعو الى الابتعاد عنها .

ففيما يتعلق بالاحتمال الأول ، وجدت أن تقسيم المصطلحات وترتيبها — حسب الترتيب الهجائي — سيؤدي في النهاية الى عمل احصائي لا غير ، دون أن يكون له أي مضمون فكري .

ثم ان هذا التقسيم يحتم — من جهة أخرى — على الفصل بين مصطلحات لا بد من دراستها دراسة متكاملة ، مثل مصطلحات : أذان ، وضوء ، صلاة ، خشوع ، ركوع ، سجود ، لأنها تتعلق بموضوع واحد .

وفيما يتعلق بالاحتمال الثاني وجدت أن المصطلحات لم ترد في القرآن الكريم بترتيب خاص ، لأن المصطلح الواحد يرد في آيات كثيرة مبثوثة في سور متعددة ، وقد يحمل المصطلح الواحد عدة معان حسب السياق القرآني الذي يرد فيه ، مثال ذلك مصطلح الدين

ومصطلح السَّعي . ولذا فانه من غير الممكن دراسة المصطلح الا بعد جمع الآيات التي ورد فيها . والى جانب هذا فان بعض المصطلحات المتباعدة في المضمون ترد أحيانا في آية واحدة ، في مثل قوله عز وجل

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا^(١)

فاسم الجلالة مصطلح ، وكذلك كلمة الرسول ، ثم مصطلح « الضلال » . ولهذا وجدت أنه من الأنسب البحث عن مقياس آخر يكون أساساً لتنظيم المصطلحات ودراستها .

وفيما يتعلق بالاحتمالين الثالث والرابع وجدت أنه من الصعب الأخذ بأي منهما دون الاخلال بالمضمون المتكامل للمجموعات المتحدة في المضمون والمعنى . لأنه يمكن أن نجد مصطلحا تطور في الدلالة الى جانب مصطلح آخر لم يصبه التطور وكلاهما ينتمي الى مجموعة فكرية واحدة أو أسرة دينية متكاملة . مثال ذلك مصطلحا الصلاة والحج . فالصلاة كلمة أصابها التطور في المعنى بين الشعر الجاهلي وبين القرآن الكريم على حين لم يحدث مثل هذا التطور في كلمة الحج . ومن غير المناسب الفصل بين الصلاة والحج لأنهما ركنان من أركان الاسلام يجب دراستهما في فصل واحد . ومثل هذا يقال في أثر التطور الزمني لبعض المصطلحات ، ففي الوقت الذي نجد فيه مصطلحات: الصلاة والزكاة والصيام غير معروفة في العصر الجاهلي نجد أن مصطلحات الحج والعمرة والطواف كانت معروفة لدى الجاهليين ، وان لم يكن ذلك بالهيئة التي خصصها الاسلام فيما بعد . وينسحب هذا الحكم على كثير من المصطلحات التي لا بد من الفصل بينها لو اعتمدت أحد هذين الاحتمالين عند التقسيم .

وربما كان ترتيب المصطلحات حسب المواضيع العامة التي تنتمي اليها أفضل مقياس يمكن الاعتماد عليه . فهذا المقياس يجمع المزايا التي تكمن في المقاييس المحتملة الأخرى ويزيد عليها . ففي هذا الترتيب تظهر الوحدات المتكاملة في القواعد الاسلامية العامة . وهذا من شأنه أن يفيد القارئ معلومات نافعة في الدين الى جانب الفائدة المقصودة الأولى من هذا البحث وهو الدراسة اللغوية المقارنة من حيث تطور المعاني في عصرين متوالين .

ومرة أخرى كان لا بد من استشارة كتب الفقه وأسفار التفسير ، وأهل الرأي والنظر ، في محاولة تقسيم المصطلحات الى وحدات مستقلة يجمع بين عناصر كل وحدة منها مفهوم

ديني واحد . وبعد طول عناء ، وكثرة الاضافة والحذف ، والتقديم والتأخير ، استقر الرأي على تقسيم المصطلحات حسب الفصول التالية :

— فصل في مصطلحات العقيدة ويتضمن مصطلحات « الله » والأسماء الحسنى . والرب والدين والشريعة والرسول والنبي والقضاء والقدر والاسراء والمعراج والحلال والحرام ، والأصنام والأوثان والعبادة .

— فصل في « نماذج البشر في القرآن الكريم » وهو يتضمن المصطلحات التي تتعلق بدرجات الايمان ودركات الكفر مثل المصطلحات : مسلم ومؤمن ومحسن في جهة . ومصطلحات الذي في قلبه مرض والمنافق والفاسق ، وهكذا صعودا في منازل الكفر حتى نصل الى الملحد في الجهة المقابلة . وكان يمكن أن توضع مصطلحات هذا الفصل ضمن مصطلحات العقيدة ، لأنها شديدة الارتباط بها . لكنني أحببت أن أفرد لها فصلا خاصا تمييزا لها ، واعلانا عنها وتعريفا بها . لأن الناس كثيرا ما يخلطون بين هذه الشخوص فلا يميزون بين المسلم وبين المؤمن مثلاً أو بين المؤمن وبين المحسن . ولا يميزون كذلك بين المنافق وبين الفاسق ، على حين أن القارئ المدقق لكتاب الله عز وجل يمكن أن يرسم ملامح خاصة لكل شخص من هذه الشخوص الحية المتحركة في القرآن الكريم .

— فصل في أركان الاسلام . ويتضمن مصطلحات الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وما يتعلق بكل وحدة من هذه الوحدات العامة من مصطلحات خاصة بها .

— فصل في الجهاد والسلوك والطبائع . وقد وضعت في هذا الفصل المصطلحات التي تتعلق بالعمل ، وتلك التي تكشف عن دخيلة نفس الانسان ، وطرق تفكيره ، ونقاء طبعه أو فساد سريره . مثل مصطلحات الجهاد وما يتعلق به ، كالنصر والفتح والمخلفين والقاعدتين ثم مصطلحات المعروف والمنكر ، والتقوى والفجور والهدى والضلال والاثم والذنوب والفاحشة والرشد والغي والنجوى والنسيء والزور وما الى ذلك .

— فصل في مصطلحات الجزاء وصفات الجنة والنار . وفيه مصطلحات القسط والعدل والميزان والجزاء والأجر والثواب والفلاح والفوز والعذاب والعقاب والحد والتعزير ثم مصطلحات الجنة وصفاتها والنار وصفاتها ومصطلحات تتعلق بطعام أهل النار وشرابهم .

— فصل في صفات الدنيا والآخرة . وهو الفصل الذي أعتربه كثيرا ، لأنني وجدت من خلاله أن المصطلحات التي ذكرها الله عز وجل فيما يتعلق بالانسان وحياته ومماته

وبعته وحسابه ، كلها أحوال منظمة متوالية . يتبع بعضها بعضا في ترتيب عجيب قلّ ما يتنبه الانسان له . فبعد الحديث عن مصطلحات الحياة والموت والدنيا والحياة الدنيا وما بينهما من فرق دقيق تحدثت عن البرزخ والصور والناقور والساعة والبعث والنشر والحشر والقيامة والحاقة والصاخة والقارعة والتغابن ثم الآخرة .

— فصل في مصطلحات عالم الغيب : ويشمل كلمات الغيب والوحي والأمر والعرش والكرسي والقلم واللوح المحفوظ والصراط المستقيم والجن وإبليس والشيطان والعفريت والملائكة .

— فصل في المصطلحات الجديدة في التعبير القرآني وسميته « دلالات جديدة في السياق القرآني » ويتضمن هذا الفصل المصطلحات التي لا أظن أن أحدا من الباحثين قد تطرق إليها من قبل ، أوتنبه الى الفروق الدلالية في المعنى الذي يحمله كل مصطلحين متقاربين منهما . وربما كانت هناك اشارات الى معاني بعض منها في ثنايا الكتب ، ولكنها اشارات ناقصة لم توضح الفرق الدقيق الذي صنعه السياق القرآني . مثال ذلك مصطلحات الكسب ، والحلف والقسم ، والقدرة والاستطاعة والطاقة ، والريح ، والرياح ، والانفال والفيء ، والسعي ، وغيرها .

قلت من قبل إنه ربما كان هذا التقسيم — الذي فصلت القول فيه — أفضل تقسيم من ناحية منهجية ، الا أنني أشير الى بعض النقاط التي يمكن أن تثير الانتباه فيه . ومنها أن هذه الفصول يمكن أن يحدث بينها تداخل في المعنى ، أو في حدود الوحدات المعنية في كل منها ، مما يؤدي الى نقد هذا الترتيب ونقضه .

فان مصطلحات الغيب مثلا هي من صميم مصطلحات العقيدة ، وكذلك مصطلحات أركان الاسلام . ولكن الضرورة دعت الى هذا التقسيم لايجاد نوع من المنهجية فيه ، وهذا من شأنه أن يساعد الباحث على اتمام عمله ، ولأنه يمكن في النهاية أن نجعل كل كلمة في القرآن ضمن معنى كلمة عقيدة ، لأنها تشكل خطا من الخطوط التي تكمل ايمان الانسان بخالقه .

على أن هناك مصطلحات أخرى فرضت نفسها على البحث ، ولكنها شكلت عقبة أخرى عند التقسيم ، لأنه كان من الصعب وضعها في أي من الفصول السابقة ، مثال ذلك مصطلحات الشورى والفرض والسنة والفقہ ، والجاهلية . فأين توضع مثل

هذه المصطلحات؟ هل يفرد لكل منها فصل خاص؟ هل تلحق كل منها بالفصل الذي يناسبها أكثر من غيره؟ ان هذه المشكلة، الى جانب الرغبة في اخضاع هذا البحث الى منهج مطرد، هو الذي شكل فرقا جوهريا بينه وبين بعض الكتب التي تعرضت لمثل هذه الدراسة من قبل. فقد وجدت أن بعض تلك الكتب تعرض هذه المصطلحات على سبيل التداعي دونا منهج مرسوم أو هدف محدد.

وقد عملت على وضع تلك المصطلحات في الفصول التي تناسب دلالتها أكثر من غيرها. وهكذا ألحقت بعضها بفصل العقيدة، وبعضها بفصل السلوك والطبائع وهكذا. وهنا أصل الى نقطة هامة، لابد من معالجتها في هذه المقدمة، وهي الاجابة عن السؤال التي لابد من طرحه، وهو الى أي مدى عالج العلماء السابقون والمحدثون هذا الموضوع؟

الدراسات والبحوث السابقة في المصطلح القرآني:

اقتضى هذا البحث أن استعرض كتب التفسير المختلفة، وكتب الدراسات القرآنية في محاولة تحديد معنى الكلمة القرآنية التي دخلت حيز الاصطلاح الإسلامي. ومن أجل مقارنة هذا المفهوم بما حملته الكلمة من دلالات في الشعر الجاهلي كان لابد من دراسة دواوين الشعر الجاهلي، ومختاراته العديدة لخصر معنى الكلمة حسب استعمال الناس في ذلك العصر.

وفي هذه الجولة الواسعة لم أجد أحدا من الباحثين قد توفر على مضمون هذا البحث في دراسة متخصصة يخرج بعدها في النهاية بكتاب مستقل. انما كانت ترد شذرات هنا وهناك في ثنايا الكتب تقارن بين معنى ومعنى أو تتابع اشتقاق كلمة، أو تمثل بيت من الشعر الجاهلي لمعنى من المعاني الواردة في القرآن الكريم. ويبدو هذا الأمر طبيعيا عندما نعلم أن الألفاظ ودراساتها في العصور المختلفة لبيان مدى تطورها من حيث الدلالة للوقوف على ما أصابها كلها أو بعضها من تغير في الاستعمال جيلا بعد جيل، انما هي دراسة حديثة نسبيا.^(١)

مثال ذلك ما ورد في تفسير القرطبي «الجامع لاحكام القرآن» في معرض تفسيره لقوله تعالى «ويقيمون الصلاة» حيث قال: «واقامة الصلاة أدائها بأركانها وسننها وهيأتها

١ - انظر الزينة في المصطلحات الاسلامية العربية. أبو حاتم الرازي، دار الكتاب العربي بمصر الطبعة الثانية، ١٩٥٧. الجزء الأول، مقدمة بقلم الدكتور ابراهيم أنيس ص ٥.

في أوقاتها على ما يأتي بيانه ، يقال قام الشيء أي دام وثبت ، وليس من القيام على الرجل ، وإنما هو من قولك : قام الحق أي ظهر وثبت ، قال الشاعر: وقامت بنا الحرب على ساق

وقال آخر:

وإذا يقال أتيتم لم يبرحوا حتى تقيم الخيل سوق طعان» (١)
وقال في تفسير قوله تعالى «والله محيط بالكافرين» ، أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة ، قال الشاعر:

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا بما قد رأوا مالوا جميعا إلى السلم (٢)

على أن هناك بعض المحاولات المفيدة لعلمائنا السابقين في هذا المجال يمكن اعتبارها المحاولات الأولى في الدراسات التي تعنى بتطور الدلالات . ولكن هذه المحاولات كان ينقصها المنهج العلمي في البحث أولا ووضوح الغاية من البحث ثانيا . لأن غاية الباحثين في دراساتهم اللغوية غالبا ما كانت هي خدمة الدين ، وذلك للصلة الوثيقة بين اللغة العربية والدين الاسلامي . ولهذا وجدت أن معظم الاشارات التي تخدم هذا البحث ، وكثيرا من الأمثلة التي استعنت بها فيه ، مبنوثة في الكتب التي ألقت لخدمة القرآن الكريم ابتداء ، ومنها على سبيل المثال كتاب «تأويل مشكل القرآن» وكتاب «تأويل غريب القرآن» لابن قتيبة . وكتاب «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي . «جواهر القرآن» للامام الغزالي . و«الأشباه والنظائر في القرآن الكريم» لمقاتل بن سليمان البلخي . هذا الى جانب كثير من الكتب التي ألقت في علوم اللغة العربية ، وكانت الغاية منها — أيضا — خدمة الدين والنظر في أسرار القرآن الكريم . وقد كان بعض مؤلفي مثل هذه الكتب يصرحون بهذه الحقيقة أحيانا ، من هؤلاء أبو هلال العسكري الذي يقول في مقدمة كتابه «الصناعتين» : «اعلم — علمك الله الخير ، وذلك عليه ، وقضه لك ، وجعلك من أهله — أن أحق العلوم بالتعلم وأولها بالتحفظ — بعد المعرفة بالله جل ثناؤه — علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، الذي به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى ، الناطق بالحق ، الهادي الى سبيل الرشd ، والمدلول به على صدق الرسالة ، وصحة النبوة ، التي رفعت أعلام

١ - تفسير القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب ، كتاب الشعب ، بلا تاريخ ، المجلد الأول ص ١٤٣ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٩١ .

الحق ، وأقامت منار الدين ، وأنارت شبه الكفر ببراهينها وهتكت حجب الشكك بيقينها «^(١) . ومن كتب علوم اللغة العربية أيضا كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الصاحبى لأحمد بن فارس وكتاب المزهري في علوم اللغة وآدابها للسيوطي .

وأكثر هذه الكتب كانت تنطرق للفكرة القيمة ولا تكملها ، لأن الهدف أمام المؤلف لم يكن محمدا . وقد سبق أن أوردنا قول أحمد بن فارس في كتابه الصاحبى :

« وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها إلا من ناحية النماء ، وزاد الشرع فيها مما لا وجه لإطالة الباب بذكره ، وعلى هذا سائر ما تركنا ذكره من العمرة والجهاد وسائر أبواب الفقه »^(٢) . وليت هذا العالم المتفوق وجد وجهها لإطالة الباب ، أو معالجة ما ترك ذكره ، اذن لوجد الباحث أمامه اليوم كتابا يعالج هذا الموضوع معالجة متخصصة . ولكنه كغيره من الباحثين كان يطرق الفكرة ، ولا يستقصي فيها البحث ، ثم ينتقل الى غيرها حسب دواعي الكلام ، أو دواعي المقام في الدرس الذي يليه أو الاجابة عن سؤال يطرح عليه .

وهذه وحدها ظاهرة تستلقت النظر ، ولا بد لها من دراسة واعية متخصصة ، لتضع الاجابة عن تساؤل كبير حول السبب الذي من أجله كان العلماء يوسعون القول ويفصلونه في كل شيء ، ولكنهم يتخرجون من الخوض في معاني القرآن الكريم ، وبيان دلالاتها . ففي المجالات المختلفة نجد المؤلفات القيمة حول « الحيوان » و « الخيل » و « أنساب العرب » ، والمجلدات الواسعة في « تاريخ الرسل والملوك » و « الملل والنحل » ونجد كذلك الكتب المتخصصة في نحو اللغة وصرفها ، وفي شعر العرب ونثرهم .

والناظر في تراث العرب الثقافي في المجالات اللغوية والأدبية والتاريخية وغيرها يكون على يقين من أن هذه العقول الصافية التي أبدعت هذه العلوم الوفيرة ، تبذع مثلها في مجال الدلالات القرآنية لتوفر لها الجوانب المناسبة ، وسهلت أمامها الطريق . وأغلب الظن أن ما يحيط كلمات القرآن الكريم من قدسية وروحانية ، وما يتلبس الباحث فيها من حيطة وحذر ، هو أول ما يمنع الباحث فيها من الخوض في بحوث مستفيضة . وإذا ذكرنا ما كانت

١ - كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه . ص ٧ .

٢ - الصاحبى ص ٤٧ .

عليه الفرق الاسلامية من تطاحن وتضارب في الآراء والمعتقدات حول المفاهيم الاسلامية والصفات الالهية أدركنا السر وراء امتناع العلماء وخاصة في مجال التفسير عن البحث في مثل هذه المعاني . وهذا ما يقصده الدكتور ابراهيم أنيس في مقدمته لكتاب الزينة حيث يقول « فهي كلمات شائكة الدلالة ، وعليها ظلال من القدسية أو الروحانية ، وتتطلب ممن يعرض لها الحيطة والحذر ، وذلك لأن أقل انحراف في شرحها قد يجلب على الشارح نقمة العامة أو الخاصة أو الحكام . وقد يوصف شارحها بالاحاد أو الزندقة . وهي نفس الكلمات التي فرقت المسلمين الأولين شيعة وأحزاباً ، وجعلت منهم فرقا متناحرة متخاصمة ، وأشعلت بينهم نار الفتن والخصومات ، فلا غرابة إذن أن تناولها المتأخرون على حذر واقتصدوا في الخوض فيها أو الإسهاب في شرحها » (١) .

ولعل خشية المسلمين من الوقوع في الخطأ ، وإيثارهم السلامة في أعمالهم ، وأقوالهم ، هو أيضاً من الأسباب التي أشعرتهم بالخرج من الخوض في كتاب الله ، ومعاني كلماته ، خاصة وأنهم يقرأون في كتاب الله عز وجل أخبار بني اسرائيل الذين حرقوا الكلم عن مواضعه فاستحقوا بذلك لعنة الله وعذابه .

ولا يتعارض مع هذا الرأي وجود المجلدات الكبيرة التي كتبت في تفسير كتاب الله عز وجل . فجل تلك التفاسير كان يعتمد على حقيقة راسخة من الايمان الوثيق بما جرت عليه السنة وارتآه الجمهور من المسلمين . فهم لا يتعرضون للمسائل الخلافية اذا كانت تمس العقيدة ، بل يتجاوزونها . واذا كان الخلاف حول مسألة تاريخية أو لغوية فإن الشارح كان يفيض فيها القول . ولعل هذا سبب آخر يدعونا للوقوف أمام هذه المسألة بكثير من التساؤل والاهتمام . ان معظم تفاسير القرآن اهتمت بالناسخ والمنسوخ وأسباب ووقائع السيرة وأحداث التاريخ وقصص الأنبياء وأساطير الأولين ، وبعض الأحكام الفقهية ، ولم تتعرض بكثير من العمق لما كانت تشير اليه بعض المصطلحات القرآنية كمعنى الكسب والربح ، والفلاح والفوز ، والقضاء والقدر ، والرسول والنبي ، وحضر الموت وجاء الموت ، وما الى ذلك من كلمات يستدعي فهمها تجاوز النظره الأولى الى النظرة المحققة والدراسة المقارنة في كل مواقعها في كتاب الله عز وجل . كذلك لم يتعرضوا بكثير من التدقيق لكلمات مثل الأمر والروح والبعث والنشر ، والهدى والتقوى .

١ - الزينة ، لأبي حاتم الرازي . مقدمة بقلم الدكتور ابراهيم أنيس ص ٩ .

وربما كان موقف الاسلام من الشعر عائقا أيضا في سبيل من يريد دراسة الدلالات القرآنية ، وما يقابلها من دلالات عربية وردت في أشعار العرب قبل نزول القرآن . وهذا فيما أرى هو سبب اقدام المفسرين على وضع فصول واسعة في كتبهم حول موقف الاسلام من الشعر^(١) ، يقررون فيها أن النبي عليه الصلاة والسلام أجاز الشعر الصحيح الذي لا يتعارض مع كلمة الحق ، كأنما يعتذرون بذلك عما قد يرد في كتبهم من بعض الأمثلة الشعرية .

وعلى الرغم من الملاحظات السابقة التي تفسر إجحام كتب التراث عن دراسة الدلالة في مفردات القرآن دراسة مفصلة متخصصة ، الا أن هناك بعض الكتب التي لا يمكن إغفالها في هذا المجال . وأهم تلك الكتب :

١ - كتاب المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني . وقد اهتم هذا الكتاب بدراسة المفردات ، وكان يحاول بحث الأصل اللغوي للكلمة ، ومصدر اشتقاقها ، ويستشهد على ذلك ببعض الشعر . من ذلك قوله : « أصل الرّسل : الانبعاث على التّودة ، ومنه الرسول المنبعث ، وتصور منه تارة الرفق فقيل على رسلك اذا أمرته بالرفق ، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول . والرسول يقال تارة للقول المتحمل ، كقول الشاعر :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا

وقال الشاعر : أَلِكُنِي إِلِيهِمْ وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر »^(٢) .

وقال في الحديث عن النبي : « قال بعض العلماء هو من النبوة أي الرفعة وسمي نبيا لرفعة محله عن سائر الناس ، المدلول عليه بقوله « ورفعناه مكانا عليا » فالنبي بغير الهمز أبلغ من النبيء بالهمز ، لأنه ليس كل منبأ رفيع القدر والمحل ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال يا نبيء الله ، فقال لست بنبيء الله ، ولكني نبي الله ، والنبوة والنباوة الارتفاع »^(٣) .

٢ - بصائر ذوي التمييز ، للفيروزابادي . ويحوي هذا الكتاب مقدمة فيها فضل القرآن وشيء من المباحث العامة المتعلقة به ، كالنسخ ، ووجوه مخطباته ، ثم يأخذ في ذكر

١ - كما فعل الجرجاني في كتابه « دلائل الإعجاز » والرازي في كتابه « الزينة » .

٢ - المفردات في غريب القرآن ، الراغب الاصفهاني ، المطبعة الميمنية ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ ، ص ١٩٤ .

٣ - المرجع السابق ، ص ٥٠٠ .

مباحث تتعلق بالقرآن سورة سورة ، على ترتيبها المعروف في المصحف ، فيذكر في كل سورة مباحث تسعة : ١ - موضع النزول . ٢ - عدد الآيات والحروف والكلمات . ٣ - اختلاف القراء في عدد الآيات . ٤ - مجموع فواصل السورة . ٥ - اسم السورة أو أسماؤها . ٦ - مقصد السورة وما هي متضمنة له . ٧ - الناسخ والمنسوخ من السورة . ٨ - الآيات المتشابهة منها . ٩ - فضل السورة .

وبعد هذا يعقد بحثا اجماليا في عدد آيات القرآن ، وعدد كلماته وحروفه ، وما يجري هذا المجرى كعدد كل حرف من الحروف الهجائية ، فيذكر مثلا أن عدد اللامات فيه كذا ، ثم يعرض تفسير المفردات في القرآن على نحو عمل الراغب في مفرداته ... (١) .

وهذا الكتاب يعرض معاني المفردات . بصورة موجزة جدا ، ويرتبها على حسب حروف المعجم ، وقلما يورد شواهد شعرية على المعاني التي يطرحها .

على أن كتابا أو كتابين قد تعرضا لموضوع الدلالات القرآنية قصدا .

١ - كتاب « الأشباه والنظائر في القرآن الكريم » لمقاتل بن سليمان البلخي المتوفي سنة ١٥٠ هجرية . وقد قام الدكتور عبد الله محمود شحاته بدراسة هذا الكتاب وتحقيقه في بحث قيم أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٥ م . وفي هذه الدراسة يقرر الدكتور عبد الله شحاته أن هذا الكتاب هو أول ما كتب في موضوعه (٢) . وعلم الأشباه والنظائر فرع من علوم التفسير . ويقصد بالأشباه الألفاظ المشتركة التي تستعمل في معان متعددة ، وهو ما سمي في الدراسات الحديثة بالمشارك اللفظي . كلفظ العين يطلق على العين المبصرة والعين الجارية . ويقصد بالنظائر الألفاظ المتواطئة التي تستعمل بمعنى واحد مثل جواد كريم (٣) . وهذا قريب من معنى الترادف في الدراسات اللغوية الحديثة . ويظهر أن هذا الكتاب أريد به أن يكون كتابا في التفسير القرآني . وقد درج فيه مؤلفه على ذكر اللفظة الواحدة من القرآن ثم ذكر الوجوه التي استعملت بها في القرآن الكريم .

١ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مجد الدين الفيروز بادي ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ، القاهرة ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، ١٩٦٣ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

٢ - الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، مقاتل بن سليمان البلخي ، تحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاته ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ص ٨٢ .

٣ - المرجع السابق .

وقد استعنت بكتاب « الأشباه والنظائر » في محاولة تحديد بعض المعاني الاسلامية التي وردت للكلمة الواحدة في القرآن الكريم . ولكن خلال دراستي له كنت أجد كثيرا من المعاني التي يسوقها مؤلفه لكلمة ما يمكن أن ترد كلها الى معنى واحد ، حيث أنني لم أجد بينها من فرق أساسي يذكر .

كذلك لا نستطيع اعتبار هذا الكتاب بحثا في الدلالات اللغوية المتطورة للكلمة الواحدة ، لأنه لا يتطرق أبدا للمعاني السابقة للكلمة الواردة في القرآن الكريم . إضافة إلى أنه لم يمثل على المعاني التي جاء بها بأبيات من الشعر الجاهلي أو الشعري العصور التالية .

٢ - كتاب « الزينة في الكلمات الاسلامية العربية » لمؤلفه أبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٢ هجرية . وكما يظهر من عنوان هذا الكتاب فإن مؤلفه قد أدرك تماما أن هناك كلمات اسلامية وكلمات عربية . وأن الكلمات الاسلامية ان هي الا الدلالات الجديدة التي أعطاها القرآن الكريم للكلمات العربية . وفي أثناء هذا الكتاب يجد الدارس الكلمة من القرآن وقد بين المؤلف معناها كما فهمه من النص القرآني ثم يتعرض لمعناها اللغوي كما ترد في المعاجم ثم يورد ما قد يسند رأيه من أشعار العرب .

وقد اشتمل هذا الكتاب على أربع مئة كلمة من كلمات القرآن الكريم . ولكن الذي يجعل هذا الكتاب غير مستوف لشروط هذا البحث الذي نحن بصدده ، ويجعل دراسته غير محققة للهدف الذي نرمي اليه ، أن مؤلفه لم يقتصر فيه على المصطلحات الواردة في القرآن الكريم فقط ، بل تعداها الى المصطلحات الواردة في الحديث النبوي الشريف ، ثم المصطلحات الواردة في باب الأحوال الشخصية ، والمصطلحات التي تتردد على ألسنة الفقهاء والعلماء والمؤلفين^(١) . وهذه في الحقيقة ميزة له لو تحقق له المنهج السليم ، حيث أن هذه الأبواب التي طرقها يشمل كل منها مئات المصطلحات . لكن هذا يدل على أن المؤلف لم يستوعب المصطلحات الاسلامية التي يمكن أن ترد في كل باب ، أو التي يطرحها الموضوع المخصص . انما كان المؤلف يتناول المشهور المتداول على ألسنة الناس ، خاصة اذا علمنا أنه استغرق في الجزأين الأولين منه في الحديث عن أسماء الله الحسنى . وحتى هذه الأسماء الحسنى لم يتحدث المؤلف عنها كلها ، ولم يبد سببا أو اشارة تدل على سبب حديثه عن بعض منها دون الأسماء الأخرى . وقد يظهر هذا أن المؤلف لم يضع لنفسه

١ - انظر الزينة ص ٩ .

منهجاً أو مقياساً يقيس به المراد بالمصطلحات أو الكلمات الإسلامية . وقد اهتم أبو حاتم بالجانب اللغوي أكثر من اهتمامه بالمعنى الاسلامي للكلمة ، وربما كان ذلك من باب الحيلة والحذر والابتعاد عن مجال الظنة والمسائل الشائكة (١) .

ومما يؤخذ على هذا الكتاب أيضاً أن مؤلفه لم يحاول أن يجمع بين المعاني الإسلامية التي يظن الدارس العادي أنها متشابهة أو مترادفة ، فيعقد بينها دراسة مقارنة تبين الفرق الدقيق بينها كما في كلمات الأمر والروح مثلاً . ولم يلتزم المؤلف كذلك بعصر معين في الاحتجاج بالشعر ، فهو يمثل بأي بيت من الشعر يراه مناسباً للموضوع الذي هو بصده ، وهذا وحده كاف لهدم الدراسة الدلالية التطورية في كتابه ، لأن العصور المختلفة تغير من معنى الكلمة الواحدة في استعمالات الشعراء . كذلك لم يحدد المؤلف المقياس الذي اختار على أساسه الكلمات الإسلامية والكلمات العربية . فمن المعروف أن كل كلمة في القرآن يمكن أن تعد كلمة إسلامية وكلمة عربية في الوقت نفسه . هذا إلى أنه لا يمكن اعتبار كل كلمة في القرآن الكريم مصطلحاً إسلامياً بالمعنى الذي حددناه من قبل .

ولسنا مع ذلك ننكر فضل هذا الكتاب القيم في التنبيه على مثل هذه الدراسات اللغوية . ويكفي أنه أشهر كتاب ينص على مثل هذه الدراسات المقارنة نصاً صريحاً . و يفتح باباً كبيراً في الدراسات الدلالية لألفاظ اللغة العربية .

وقد تحدث الدكتور مازن المبارك في كتابه « نحو وعي لغوي » في فصل « تطور الدلالة والألفاظ الإسلامية » عن كتاب أبي حاتم الرازي . فذكر في حديثه الملاحظات التي أشرت إليها حول منهج كتاب الزينة . يقول الدكتور مازن المبارك « لقد كانت لبعض علمائنا المتقدمين محاولات ناجحة وآراء سديدة في الكثير من قضايا اللغة ، ولعل من أبرز المحاولات الناجحة في دراسة تطور دلالة الألفاظ تلك المحاولة العلمية التي قام بها أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي المتوفي سنة ٣٢٢ هـ والتي سجلها في كتابه المسمى « الزينة في المصطلحات الإسلامية العربية » . ان كتاب الزينة في حقيقته كتاب في تطور دلالة الألفاظ ، بين واضعه فيه معاني عدد من الألفاظ التي اختارها من القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام الفقهاء ، ذكراً ما كان لبعضها من معان قبل الإسلام ، وما طرأ على دلالتها من تبدل بظهور الإسلام ... لقد أراد الرازي من وراء محاولته اللغوية خدمة دينه نظراً لما بين العربية والإسلام من صلة وثيقة ... على أن الرازي لم يقصر كتابه على المصطلحات

١ - انظر الزينة ص ١٠ .

الاسلامية العربية وانما تحدث في كتابه عن اللغة العربية وفضلها ، كما تحدث عما اتسعت له من نحو وشعر وعروض ... حتى وصل الى موضوعه فافتتحه بذكر أسماء الله عز وجل وصفاته ، ثم شرح بعد ذلك معاني أسماء كثيرة تذكر في الشريعة وذكر معانيها واشتقاقاتها» . (١) .

وفي العصر الحديث تعددت الدراسات القرآنية المتخصصة ، وبدأت الدراسات أكثر تحديدا للهدف الذي يسعى اليه المؤلف ، وأكثر موضوعية ، وأوضح منهجية في البحث . وفي أثناء هذه الدراسات يلتقط القارئ بعض اللطائف والاشارات الممتازة في فهم آيات الله عز وجل ، وكلمات كتابه الكريم ، ولكن مع ذلك لم أجدها فيها دراسة متخصصة حول المصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم مقارنة بما سبقها من دلالات مستمدة من الشعر الجاهلي ، وربما يكون هذا البحث دراسة علمية في الطريق نحو هذا الموضوع .

١ - نحو وعي لغوي ، الدكتور مازن المبارك ، مكتبة الفارابي ، دمشق ، ١٩٧٠ ، ص ١١١ وما بعدها .

الفصل الأول

التطور اللغوي .. معناه وصوره ونتائجه

لما كان هذا البحث في مجموعه دراسة للتطور الدلالي في عصرين متوالين ، رأيت أن أقدم بين يديه هذا البحث الموجز في التطور اللغوي ، معناه وصوره ، قاصدا فيه دراسة التطور اللغوي العام ، مستمدا أمثلته من العصور المختلفة ، لكي أعطي القارئ فكرة واضحة عن معنى التطور وأشكاله ومظاهره ونتائجه ، حتى اذا وضحت هذه الفكرة ، كان ذلك وسيلة لتقريب الصورة وشرح الغاية من هذه الدراسة التي خصصت لبحث التطور اللغوي في العصر الجاهلي وفي المصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم .

والتطور في اللغة أمر حتمي يشبه أن يكون وجهها من وجوه تطور الحياة نفسها . وهو في معناه البسيط التغير الذي يطرأ على اللغة سواء في أصواتها أو دلالة مفرداتها ، أو في الزيادة التي تكتسبها اللغة أو النقصان الذي يصيبها ، وذلك كله نتيجة عوامل مختلفة ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الأمم في كافة مجالاتها . وليس من شك أن التطور اللغوي مرتبط بسنن التطور العام في حياة الانسان . واللغة ظاهرة اجتماعية تتأثر بكل ما يعترى الانسان من أحوال عامة يشترك فيها جميع أفراد الأمة المعينة في فترات حياتها . وليس في مقدور أمة من الأمم أن تقف تطور لغة من اللغات أو جعلها تجمد على وضع خاص ، ذلك أن الأمة نفسها لا يمكنها أن تتصف بذلك ، حيث تتضافر العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما الى ذلك في تشكيل البنية العامة للامة مع مرور الأيام .

وتتأثر اللغة في تطورها وارتقائها بعوامل عامة كثيرة ، ويعد التغير في المعنى جانبا من جوانب التطور اللغوي ، وهناك أسباب كثيرة لتغير المعنى منها ما هو معروف مألوف لنا من قبل ، وهو الحاجة الى كلمة جديدة أو كلمة أقدر من غيرها على التعبير عن المقصود ، ومنها ما هو مرتبط بأية حاججة عملية (١) .

وهناك نظريات متعددة توضح أسباب تغير المعنى ، منها ما يراه اللغوي الفرنسي انطوان ميه من أن هناك ثلاث مجموعات رئيسية من الأسباب التي تكمن خلفها تغيرات المعنى في العادة ، وهي أسباب لغوية وتاريخية واجتماعية (٢) .

فينبغي الإشارة هنا الى أن اللغة ليست سببا مباشرا في تغير المعنى انما هو مرآة تظهر هذا التغير ، فعندما نقول « محرر المرأة » مثلا فان هذه العبارة في اللغة تعنى معنى آخر غير ما

١ - دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة الدكتور كمال بشر ، القاهرة ، دار الطباعة القومية ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٥ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

تعنيه الآن حيث ينصرف الذهن الى شخص بعينه ارتبط اسمه ارتباطا وثيقا بهذه العبارة .
كما أن الأسباب التاريخية لا تعني أن مجرد بقاء الكلمة عبر التاريخ يستلزم تغير معناها ،
انما تعني أن هناك ظروفًا متعددة ظهرت بمرور التاريخ عملت على هذا التطور في معنى كلمة
ما . أما الأسباب الاجتماعية فانها تحدث نتيجة الاختلاط بين البيئات المختلفة . فقد
يحدث أن تستعمل احدى البيئات الفنية الخاصة كلمة عادية في معنى جديد ذي صبغة فنية
خالصة . وقد حدث مثل هذا لكلمات مثل الصلاة ، الحج ، الاخراج ، التمثيل التي
اكتسبت معانيها الاصطلاحية المعروفة بها الآن بسبب استعمالها في هذه المعاني في البيئات
الفنية الخالصة .

على أن تلك الأسباب لا تكفي وحدها لتفسير كل مظاهر التغير التي تصيب المعنى
فهناك عوامل نفسية صرفة كثيرة . فالبواعث الابداعية أو الخلاقة التي تكمن خلف بعض
المجازات التي تستعمل في الشعر أو في الكلام العادي مثلا ، لا يمكن ارجاعها الى واحد من
العوامل السابقة كما لا يمكن تفسيرها بها . ومن هنا ظهرت نظرية جديدة تعمل على سد
هذا النقص ، هي نظرية « سبيريار » الذي تأثر بفكرة التحليل النفسي . وفيها يرى
« سبيريار » أن المعنى الجديد كي يظفر بالدخول الى نظام اللغة ، لابد له أن يتغلب على
المقاومة الشديدة التي قد تبديها ملايين المتكلمين . وهذا بالطبع يحتاج الى بذل قدر كبير من
الطاقة . وهذه الطاقة تستمد من القوى الانفعالية أو العاطفية التي ترتبط بالكلمات . ويمكن
التمثيل على هذه النظرية بتلك الإستعارات التي تملأ التقارير الخاصة ، عن مختلف
أساليب الغارات والمعارك الجوية ، مع ما يجري فيها من حركات الطائرات ، ومراوغتها
وغطسها وانقضاضها (١) .

ولكن نظرية « سبيريار » هذه اهتمت بضيق الأفق ، لأنها تميل الى تبسيط الأمور
تبسيطا مبالغًا فيه ، والى ارجاع الحقائق المعقدة المتشابكة الى عامل واحد مقبول في ظاهره .
ولكن قيمتها تظل في أنها أوجبت عدم النظر في الكلمات منعزلة أو منفردة ، بل يجب
الاهتمام بكل القطاع اللفظي الذي تنتمي اليه الكلمات اذا كان لنا أن نفهم تاريخ
مفرداته فهما صحيحا (٢) .

١ - المرجع السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

وفي الدراسات اللغوية العربية الحديثة، ألفت كتب في التطور اللغوي، وأسباب تغير المعاني، استفاد أصحابها فيها من هذه النظريات وغيرها. ومن هؤلاء الدكتور علي عبد الواحد وافي الذي يجمع عوامل تطور المعنى في أربعة طوائف:

— أحداها: انتقال اللغة من السلف الى الخلف.

— وثانيتهما: تأثير اللغة بلغة أو لغات أخرى.

— وثالثتها: العوامل الاجتماعية والنفسية والجغرافية كحضارة الأمة ونظمها وتقاليدها وعقائدها وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومتاحي وجدانها وهيئتها الجغرافية... الخ.

— ورابعتها: العوامل الأدبية التي تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما شابهها في حاية وتنظيم صلاتها باللغات الأخرى (١).

ولكن هذه العوامل العامة تتفرع عنها عوامل وأسباب كثيرة للتطور يمكن تسميتها بالأسباب المباشرة، وسوف يأتي الحديث عنها بعد قليل، عند عرض أسباب التطور ومظاهره ونتائجه بشيء من التفصيل.

ولقد توفرت في الفترة التي ترصدها هذه الدراسة عوامل متعددة ومتنوعة تجعل من التطور أمرا بينا ملحوظا في معظم المصطلحات التي تتناولها. ففي العصر الجاهلي تعددت القبائل العربية، وكثرت دواعي الاحتكاك فيما بينهما. وتبادلت شعوب هذه القبائل - نتيجة لذلك - عاداتها الاجتماعية، ونظمها القبلية، وطرائقها في النطق والتعبير والفهم والتفكير. وأكثر ما يمثل ذلك الأسواق الأدبية، والمناسبات الدينية، والمواسم التجارية، التي تعد بحق أوسع عملية أسهمت في التقريب بين تلك القبائل، وتوسيع قاعدة الاتصال فيما بينها، ثم أسهمت بالتالي في خلق ظاهرة التأثير والتأثر في لهجاتهم المتنوعة، ولغاتهم المختلفة. ومن المعروف في هذا المجال أن تلك الأسواق الأدبية والتجارية والمواسم الدينية كانت تجمع القبائل من شتى الأطراف، الشام والعراق واليمن، ومن مختلف نواحي الجزيرة العربية، فيستقبل أهل الحجاز كل تلك الحشود، وتلتقي في شعاب مكة العادات والتقاليد، وتتقابل العقائد والثقافات، ويتبارى الخطباء والشعراء، ويتغنّى المطربون والسمار. ولا بد أن استمرار هذه المهرجانات، عاما بعد عام، كان يدفع باللهجات العربية الى نوع من السلوك نحو الوحدة. ولما كانت مكة هي مركز ذلك التجمع، وملتقى تلك

١ - انظر: علم اللغة. د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة. الطبعة السابعة، ص ٢٤٩ وما بعدها.

القبائل ، فانه يمكن القول أن وحدة لغوية قد بدأت تظهر وتتشكل بوضوح قبيل نزول القرآن الكريم .

وقد اتفق علماء اللغة والباحثون في هذا المجال على أن القرآن الكريم قد نزل بتلك اللغة المشتركة أو اللهجة المتوحدة التي صنعتها تلك الظروف عبر السنين . وقد كانت لهجة قريش هي القاعدة العريضة لهذه اللغة ، ولكنها أخذت من لهجات القبائل الأخرى ما رآته أخف وقعا وأحسن دلالة وأسهل نطقا وأكثر انتشارا على ألسنة الناس ، وربما يؤكد هذه الحقيقة أن ما روي من شعر جاهلي في السنوات الأخيرة قبيل نزول القرآن ، كان خاليا من كل أثر لعننة أو عجبجة أو كشكشة . أو تلتلة . وقد يزيد الأمر وضوحا ما يرويه الرواة في أن الشعراء كانوا يتناشدون في أسواق عكاظ والمجنة والمجاز ، وأن الحكام كانوا يقومون بينهم ، يفصلون في تلك المفاخرات ، وما كان في الامكان أن يتناشد الشعراء ، وأن يقضي بينهم النقاد والحكام ، لو كانت لغة القول متباينة أو كان المقياس مختلفا (١) .

وإذا كان للحياة — في كل مظاهرها — أثر هام في تطور اللغة ، كما أشرنا قبل قليل ، فإن الحياة في العصر الجاهلي وما تبعها من انقلاب تام في الحياة الإسلامية التي صنعتها القرآن الكريم ، قد أحدثت تطورا واسعا في معاني الكلمات ، ومدلولاتها أو هكذا يجب أن يكون الأمر على الأقل . وما دام الشعر الجاهلي هوديون العرب ، الذي يحكي عاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم ونظمهم وشرائعهم ، وما دام القرآن الكريم هو الأساس الذي استمدت منه كل القيم والنظم والأحكام التي تخضع لها الحياة الإسلامية ، فإننا نتوقع أن نجد تطورا واسعا في مضامين المفردات اللغوية على اعتبار أن اللغة هي الوعاء الذي يمثل كل مظاهر الحياة وطرئها المختلفة لكل شعب من الشعوب .

وعلى الرغم من أن الفترة الزمنية بين الشعر الجاهلي وبين القرآن الكريم قصيرة جدا ، إلا أننا وجدنا مظاهر التطور الدلالي كثيرة ومتنوعة . فقد تجرد كثير من الالفاظ العربية من معانيها العامة القديمة ، وأصبحت تدل على معان خاصة تتصل بالعبادات والشعائر أو شئون السياسة والادارة والحرب أو مصطلحات العلوم والفنون (٢) . وقد ضاقت معاني بعض

١ - انظر اللهجات العربية ، د . ابراهيم أنيس . مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٠ .

٢ - فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر ، الطبعة السابعة ، ص ١١٥ .

المفردات واتسعت معان أخرى . وربما تغير معنى ما تغيرا كليا كما سيأتي بيانه مفصلا .
وإذا علمنا أن من خصائص التطور اللغوي بشكل عام البطء في الحركة والتدرج في الظهور
فانه يحق لنا أن نتساءل هل كانت الفترة بين الشعر الجاهلي وبين القرآن الكريم من
الاتساع بحيث يكفي لتفسير هذا التطور؟ وإذا كان الجواب سلبيا فما السر في هذا التطور،
وما أسبابه؟ .

ان السر في ذلك يكمن في أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين كما قررت كثير
من آياته الكريمة . وهنا يجب أن تستوقفنا كلمة « مبين » هذه لتتعرف الى مدلولها العميق .
ان الله عز وجل خاطب بالقرآن الكريم الناس كافة في كل الأزمان . وكلف أصحاب
اللغة العربية بتبليغه للناس . ولذلك شاعت حكمة الله تعالى أن تكون لغة القرآن — رغم
صلتها بلغة الشعر الجاهلي — لغة فيها كثير من التطور والتخصص في أداء المعاني . وهذا
يفسر الدهشة والحيرة التي كانت تنتاب الناس عند سماعهم آيات القرآن الكريم لأول
مرة، رغم أنه نزل بالحرف والكلمات التي كانوا يتحدثون بها . بل والذين كانوا بها
أرباب الفصاحة والبيان . لقد حرص القرآن الكريم أن يبدأ كثيرا من سوره بحروف
مُقَطَّعة مثل الم . الر . حم . يس ، طه ، طسم . ق . ص . كهيعص ، كأنما ليثبت لهم هذه
الحقيقة . ثم سمعه الناس بعد ذلك الزمن الأول ، ولا يزالون يرون فيه شيئا عجبا . هذا هو
معنى كلمة مبين كما أراه . مبين في كل عصر . مبين في كل مكان ، رغم اختلاف
العصور، وتطور اللغات . وعندما نقول أن القرآن الكريم سيظل لغة المسلمين الى قيام
الساعة ، لا نعني بذلك أن اللغة العربية سيصيبها الجمود والتحجر، وستخرج عن سنة
التطور . لا بل أنها لغة حية لا تزال . وها نحن اليوم نرى اختلاف اللهجات العربية في
الأمصار العربية ، وها نحن كذلك نرى كيف أثرت اللغة العربية وتأثرت — في مسيرتها
الطويلة — باللغات التي احتكت بها كالفارسية والسريانية والعبرية واليونانية والهندية
قديما . وبالانجليزية والفرنسية والاسبانية في العصور القريية . ولكن القرآن الكريم رغم
كل ذلك ظل كما هو، التي أنزله الله بها ، بلسان عربي مبين . يتكلم به كل مسلم ،
 ويفهمه كل مؤمن ، مهما كانت لهجته وحيشما كان مكانه . ولذلك فان الدلالات التي
حملتها مفردات القرآن كان مقصودا بها أن تكون دلالات القرآن في كل زمن . ولذلك فاني
أرى أن لغة القرآن رغم قربها من لغة العصر الجاهلي ، الا أن بينهما من دواعي التطور
عوامل كثيرة ، تفسر كثرة مظاهر التطور التي يجدها الدارس في هذا البحث .

وهنا قد ينشأ اعتراض علمي حول تطور الدلالات في اللغة الإسلامية التي صنعها القرآن الكريم . وهو أن التطور لا يكون الا نتيجة أسباب كثيرة متشابكة ، وعبر عصور طويلة متداخلة . فما بال القرآن الكريم قد صنع هذا التطور في فترة وجيزة ؟ هل كان التطور فيه توقيفيا — ان جاز لنا هذا التعبير — ؟ .

والجواب السريع على هذا التساؤل هو النفي . انه كان تطورا طبيعيا . لأن تطوره مر في الحقيقة بتلك المراحل المتشابكة ، والعصور المتداخلة ، عندما كانت مكة المكرمة تجذب اليها مختلف الوفود العربية في أسواقها التجارية والأدبية والسياسية . وقد نزل القرآن بهذه اللغة التي تكونت نتيجة ذلك الاختلاط الواسع بين اللهجات العربية . يضاف الى هذا أن مظاهر التطور في القرآن لا تعدو أن تكون تخصيص معنى عام أو توليد دلالة خاصة في دلالات كثيرة تحملها مادة لغوية معينة . وفي كثير من الأمثلة كان التطور يكمن في تهذيب المعنى القرآني في كثير من الإيحاءات والظلال التي كانت تحيط بالكلمة في الاستعمال الجاهلي .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الدراسة هي محاولة في طريق دراسة الدلالات في اللغة العربية . أرجو أن تتبعها دراسات أخرى تتناول التأثير والتأثر الذي انتاب اللغة العربية في العصور التالية بعد نزول القرآن الكريم .

والتطور اللغوي العام يسير في خطين أساسيين : التطور الصوتي والتطور الدلالي . وقد قررت الدراسات اللغوية أن كلا من هذين المظهرين يمكن أن يكون سببا في وجود الآخر . وسوف أبدأ هنا بعرض عوامل التطور الصوتي مشيراً خلال ذلك الى بعض أمثله . ثم اتبعه بعوامل التطور الدلالي وما ينتج عنه من اختلاف الدلالات وتغيرها . واختتم هذا الفصل بعرض الظواهر اللغوية الكبيرة التي يشترك كل من التطور الصوتي والتطور الدلالي في تكوينها .

أسباب التطور الصوتي ومظاهره :

١ — من أهم أسباب التطور الصوتي ما يحدث من انقلابات صوتية في نطق بعض الأصوات نتيجة العادات اللغوية التي تتحكم في مناطق معينة . وهذه ظاهرة شائعة في اللغة العربية حيث نشاهد تغيرا في بعض الحروف أو الحركات من لهجة الى

أخرى . كذلك يمكن أن تكون هذه الظاهرة نتيجة أخطاء السمع خاصة في محيط الأطفال ، وهذه الأخطاء يمكن أن تنتشر وتوسع حتى تصبح حقائق مقررة في لهجة من اللهجات ، وأكثر ما تحدث هذه الأخطاء في الأصوات المتقاربة في مخارجها (١) .

٢ - ومن أسباب التطور الصوتي ما سمي بقانون المماثلة . حيث تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض عند النطق بها في الكلمات والجمل . وتتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها لكي تتفق في المخرج أو في الصفة مع الأصوات الأخرى المحيطة بها في الكلام ، فيحدث عن ذلك نوع من الانسجام بين الأصوات المتنافرة في المخارج أو في الصفات .

٣ - كذلك يسهم قانون المخالفة ببعض أمثلة التطور الصوتي في نطق بعض الأصوات . ويحدث ذلك عندما يجتمع صوتان متماثلان تماما في كلمة من الكلمات فان أحدهما قد يتغير الى صوت من أصوات العلة الطويلة في الغالب أو الى صوت من الأصوات المائعة ولا سيما اللام والنون . مثال ذلك قراط ودنار وبدلا من قيراط ودينار ، بدليل الجمع فراريط ودنانير . وقد يحدث هذا اذا كان الصوتان متجاورين وان لم يكونا متماثلين في مثل كلمة عنوان التي قد تصبح علوان ، وكلمة لعل التي رويت في بعض اللهجات لعن ، وهكذا (٢) .

٤ - كذلك يسهم القياس الخاطيء في بعض مظاهر التطور الصوتي أو التغير الصوتي في نطق بعض الأصوات . « فليس كل ما ننطق به قد سمعناه من قبل ، بل يلعب القياس دورا كبيرا في كلامنا . ونحن اذا سمعنا متحدثا ينطق بصيغة من الصيغ فمن الصعب الحكم عما اذا كانت هذه الصيغة قد سمعها هذا المتحدث من قبل أو أنها بنت الساعة ، قد كونها على قياس خاطيء على ما سمع من قبل . ومن الصعب أن نحكم بهذا أو بذاك على الأخص حينما يكون القياس صحيحا موافقا لما تتطلبه اللغة وشاع فيها . أما اذا خالف هذا القياس ما شاع في اللغة فاننا حينئذ نعلم أنه من عمل الفرد ، وليس مما سمعه من قبل . وهذا ما يسميه اللغويون بالقياس الخاطيء . ومثال ذلك كلمة « عتيد » بمعنى حاضر كما ورد في الأشعار القديمة ، والقرآن

١ - لحن العامة والتطور اللغوي ، دكتور رمضان عبد التواب ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ، ص ٣٦ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٣٧ . وفيه بحث واف عن قانون المماثلة وأمثله الكثيرة في تغير بعض المفردات .

٣ - المرجع السابق ص ٤٠ .

الكريم ، قد شاعت في أيامنا هذه بمعنى عتيق قديم ، أو جبار قوي وما ذلك الا لأنها تشترك في أكثر أصواتها مع كلمتي عتيق وعنيد فقيست قياسا خاطئا في معناها عليهما (١) .

٥ - وهناك أسباب أخرى لتطور بعض الأصوات في الكلمات ، منها نظرية السهولة واليسير . وتذهب هذه النظرية الى أن اللغة تميل في تطورها نحو السهولة واليسير ، فتحاول التخلص من الأصوات العسيرة ، وتستبدل بها أصواتا أخرى لا تتطلب مجهودا عضليا كبيرا ، كما أنها تحاول أن تتفادى تلك التفريعات المعقدة والأنظمة المختلفة للمظاهرة الواحدة (٢) .

٦ - ويتبع هذه النظرية ما سمي بظاهرة القلب المكاني . وهو عبارة عن تقديم بعض أصوات الكلمة على بعض لصعوبة تتابعها الأصلي على الذوق اللغوي (٣) .

٧ - وإلى جانب ذلك يعمل نظام المقاطع في الكلمة الواحدة ، أو الكلمتين المتجاورتين وكذلك تغيير موضع النبر عن مقطع الى مقطع غيره خلال النطق على إيجاد بعض مظاهر التطور الصوتي .

٨ - ويمكن كذلك أن يكون التطور الدلالي في بعض المفردات سببا في تطور بعض أصواتها .

التطور الدلالي ، عوامله ومظاهره :

للتطور الدلالي في ظواهره العامة ثلاثة أنواع :

١ - تطور يلحق القواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب الجمل وتكوين العبارة ، وما الى ذلك كقواعد الاشتقاق والصرف والتنظيم . وذلك كما حدث في اللغات العامية المتشعبة من اللغة العربية اذ تجردت من علامات الاعراب وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق ، واختلفت مناهج تركيب العبارات ، وتلك أمور تؤثر في بيان الدلالة والمعنى .

١ - المرجع السابق ، ص ٤٢ - ٤٣ .

٢ - انظر في شرح هذه النظرية والتمثيل عليها كتاب لحن العامة والتطور اللغوي ص ٤٤ وما بعدها .

٣ - انظر المرجع السابق ، ص ٤٨ .

- ٢ - تطور يلحق الأساليب . كما حدث في لغات المحادثة العامية المتطورة عن العربية ، وكما حدث للغة الكتابة في عصرنا الحاضر اذ تميزت أساليبها عن أساليب الكتابة القديمة تحت تأثير الترجمة والاحتكاك بالآداب الأجنبية ورقى التفكير ... الخ .
- ٣ - تطور يلحق معنى الكلمة نفسه . ويظهر هذا التطور في عدة أشكال سيأتي عرضها عند الحديث على أهم مظاهر التطور الدلالي (١) .

عوامل التطور الدلالي :

- هذا النوع من التطور عوامل كثيرة ، ندرج فيما يلي أهمها :
- ١ - عوامل تتعلق باستخدام الكلمات ، فمدلول الكلمة يتغير تبعاً للحالات التي يكثر فيها استخدامها .

فكثرة استخدام العام مثلاً في بعض ما يدل عليه يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله . ولدنيا في اللغة العربية وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع . فمن ذلك جميع المفردات التي كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها في الاسلام في معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية كالصلاة والحج والصوم والايان والكفر والركوع والسجود ... وغيرها . وفي مقابل ذلك يمكن أن تكون كثرة استخدام الخاص في معان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك مثلاً البأس والورد والرائد . فالبأس في الأصل الحرب ثم كثر استخدامه في كل شدة . وأصل الورد اتيان الماء وحده ثم صار اتيان كل شيء ورداً . والرائد في الأصل طالب الكلاء ثم صار طالب كل حاجة رائداً (٢) .

- ٢ - يؤدي الانتقال من المعنى الحقيقي الى المعنى المجازي الى تغير في معاني المفردات قد يؤدي في النهاية الى انقراض المعنى الحقيقي وحلول المعنى المجازي محله . وليس من الضروري أن يكون الاستعمال المجازي مقصوداً متعمداً كما نلاحظه في بعض الأساليب الشعرية والكتابية ، بل قد يقع من عدة أفراد في البيئة اللغوية في وقت

١ - اعتمدت في بحث التطور الدلالي - بشكل خاص - على فصل « الدلالة وتطورها » من كتاب علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ، ص ٣١٣ وما بعدها .

٢ - انظر علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ، ص ٣٢٠ .

واحد ، دون مواضعة أو اتفاق بينهم (١) .

ومثال ذلك كلمات الوغى والغفر والعقيقة . فقد انتقل معنى الوغى من اختلاط الأصوات في الحرب الى الحرب نفسها . وانتقل معنى الغفر من الستر الى الصفح عن الذنوب . ومعنى العقيقة من المشعر الذي يخرج على المولود من بطن أمه الى ما يذبح عند خلق ذلك الشعر (٢) .

٣ — وقد يعتمد تغير معنى كلمة ما على مبلغ وضوحها في الذهن ، فكلما كان مدلول الكلمة واضحاً في الأذهان قل تعرضه للتغير . وكلما كان مبهماً غامضاً مرناً كثر تقلبه وضعفت مقاومته للانحراف .

٤ — وقد يكون التطور الصوتي سبباً في التطور الدلالي أحياناً . فثبات أصواب الكلمة يساعد على ثبات معناها وتغيرها يذلل أحياناً السبيل الى تغيره .

٥ — وقد تعمل قواعد اللغة على تغيير مدلول الكلمة وتساعد على توجيهها وجهة خاصة . فتذكير كلمة ولد في العربية عند قولنا (ولد صغير) قد جعل معناها يرتبط في الذهن بالذكر .

٦ — وقد يتغير معنى بعض المفردات عند انتقال اللغة من السلف الى الخلف . وتتدخل هنا عوامل كثيرة تؤثر على بعض المفردات فتغير معناها وتنقلها من حال الى حال . وهنا يظهر بشكل خاص أثر العوامل الاجتماعية والنفسية التي تؤثر على مدلول الكلمات . مثال ذلك كلمات البهلول والغانية والحاجب . فالبهلول في الشعر القديم هو السيد الماجد الكريم ، يقول حسان بن ثابت :

بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أول

ولكن معناها الآن هو الرجل المعتوه الذي لا يدري ماذا يفعل ، وقد غير الناس حركة الباء في الكلمة من الضم الى الفتح ، والغانية قديماً هي المرأة التي استغنت بجمالها عن كل وصف ، وهي الآن المرأة الساقطة . والحاجب كانت تعني في الدولة الاندلسية ما يقابل رئيس الوزراء الآن . ولكنها في العصر الحديث لا تعني أكثر من الحارس أو الخادم (٣) .

١ - انظر في اللهجات العربية ، دكتور ابراهيم أنيس ، ص ١٩٣ .

٢ - انظر علم اللغة ، دكتور علي عبد الواحد وافي ، ص ٣٢١ .

٣ - انظر لحن العامة والتطور اللغوي ، دكتور رمضان عبد التواب ، ص ٥٨ .

٧ - وتعمل العادات والقيم المتغيرة من جيل الى جيل على تغيير بعض الدلالات ، وذلك كله نتيجة عوامل متشابكة في الحياة الانسانية . ومن الألفاظ الدائمة التطور والتغير في دلالتها تلك التي تشير الى التبول والتبرز والعملية الجنسية وأعضاء التناسل فلا يكاد اللفظ منها يشيع حتى يمجّه الذوق الاجتماعي ، وتأباه الآداب العاملة فيستعاض عنه بآخر من نفس اللغة أو من لغة أجنبية (١) .

٨ - وقد يتغير مدلول الكلمة عند انتقالها من لهجة الى أخرى . أو من لغة الى لغة أخرى . وهنا تتدخل العوامل النفسية والاجتماعية للتحكم في مدلول الكلمات . فقد ترتفع كلمات حتى تعد من نبيل القول ومصطفاه ، وقد تنحدر كلمات أخرى حتى تصبح من فحش القول . وقد ينقرض معنى أساسي ويتغلب عليه معنى جديد .

٩ - وقد يعمل سوء الفهم على تغيير مدلول الكلمة خاصة في الاجيال الناشئة . فقد يسيء طفل منهم معنى كلمة ، ولا يصلح له هذا الخطأ . فيشيع هذا الفهم الخاطيء مع مرور الأيام حتى يصبح أمرا مقررًا . ولا يقتصر هذا الأمر على الأطفال بل قد يقع فيه الكبار نتيجة القياس الخاطيء كما سبقت الإشارة اليه في عوامل التطور الصوتي .

١٠ - وقد يتغير معنى الكلمة نظرا لأن الشيء الذي تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشؤون الاجتماعية المتصلة به . مثال ذلك كلمات الريشة والقطار والبريد . فالريشة كانت تتعلق بآلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، وأصبحت الآن تطلق على قطعة من المعدن مشكلة في صورة خاصة . والقطار في الماضي هو مجموعة من الابل على نسق واحد تستخدم في السفر ، واليوم هوتلك الآلة المعروفة . وكلمة البريد كانت تطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل ، ثم أصبحت تطلق على النظم والوسائل التي تتخذ لتنظيم هذه العملية في الوقت الحاضر (٢)

١١ - وهناك عوامل تتعلق باختلاف الطبقات والجماعات . فكثيرا ما ينجم عن اختلاف الناس في طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى ، ويؤدي الى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة باللغة الواحدة من فروق في الخواص الشعبية والجسمية والنفسية وفي شئون السياسة أو الاجتماع والثقافة والتربية ومناحي التفكير والوجدان ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، وحاجة

١ - انظر المرجع السابق ، ص ٥٨ .

٢ - انظر علم اللغة ، علي عبد الواحد وافي ، ص ٣٢٤ .

أفراد كل طبقة الى دقة التعبير وسرعته وانشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي
يكثرونها في حياتهم (١) .

مظاهر التطور الدلالي :

لاحظت من العرض السابق لأسباب تغير المعنى أن هذه الأسباب تتشابه كثيرا في اللغة
العربية وغيرها من اللغات الأجنبية كالانجليزية مثلا . اللهم ما كان مختصا بالبيئة المحلية
والظروف اللغوية الخاصة . كما لاحظت أن مظاهر التطور الدلالي تبدو متشابهة .

وقد عدد « بالمر » نقلا عن العالم اللغوي الأمريكي « بلومفيلد » أنواعا من تطور دلالة
الألفاظ منها :

- ١ — تضيق الدلالة أو تخصيصها : Narrowing
- ٢ — توسيع دلالة اللفظة : Widening
- ٣ — نقل دلالة اللفظة الى شيء يقارب دلالتها الأصلية مكانا أو زمانا .
Metonymy « nearness space or time »
- ٤ — تغير مجال الاستعمال عن طريق المجاز : Metapher
- ٥ — نقل المعنى من الكل الى الجزء أو العكس :
Synecdoche (whole / part relation) .
- ٦ — نقل المعنى من الأقوى الى الأضعف : Hyperbole
- ٧ — نقل المعنى من الأضعف الى الأقوى : Litotes
- ٨ — انحدار الدلالة أي نقل المعنى من الأفضل الى الأدنى : Degeneration
- ٩ — تسامي الدلالة أي نقل المعنى من الأدنى الى الأفضل (٢) : Elevation

ولم تضيف المراجع العربية شيئا ذا بال الى تلك المظاهر في تطور الدلالة ، سوى ما كان
يتعلق بطبيعة اللغة نفسها ، والاستعمال الاجتماعي لبيئة معينة . وقد عدد الدكتور علي
عبد الواحد وافي خمسة من مظاهر تطور الدلالة ، تتفق في معظمها مع الأنواع التي ذكرها

١ - انظر علم اللغة ، علي عبد الواحد وافي ، ص ٣٢٥ .

Palmer, Semantics, Cambridge University Press,

Cambridge, 1976, PP. 11-12.

- ٢

بالمر. ولكنه أضاف إليها ما يلي :

١ — نشأة كلمات جديدة في اللغة تدعو إليها في الغالب مقتضيات الحاجة الى تسمية مستحدث جديد مادي أو معنوي . وأكثر ما يتم ذلك عن طريق إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات المهجورة في اللغة ، أو قرار من المجامع اللغوية أو العلمية لتسمية المستحدث الجديد باسم يناسب قواعد الاشتقاق في اللغة .

٢ — انقراض بعض الكلمات من مجال الاستعمال . وهذه الظاهرة أسباب كثيرة منها انقراض الأشياء التي كانت تحمل تلك الأسماء وأكثر ما يكون ذلك في مجال الألبسة والأثاث وآلات الحرب ووسائل النقل وأدوات الصناعة . وقد انقرض نتيجة لذلك كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية قضى عليها الاسلام كالرباع والضرورة والنوافج . ومن أسباب انقراض بعض الكلمات كذلك ثقلها على اللسان أو عدم تلاؤم أصواتها مع الحالة التي انتهى إليها تطوار أعضاء النطق . ومن الطريف أن بعض الكلمات التي تنقرض من مجال الاستعمال تكون قد اتخذت لها مكانا وطيدا — من قبل — في مجالات الأدب والفنون مما يحفظ لها هناك مكانة البقاء (١) .

نتائج التطور اللغوي :

أشرت من قبل الى أنه يصعب الفصل بين النتائج التي يؤدي إليها كل من هذين المظهرين للتطور ، الصوتي والدلالي . لأن القضايا اللغوية في معظمها متشابكة متداخلة . فقد يحدث أن تتغير أصوات كلمة ما نتيجة بعض العوامل فيؤدي ذلك الاختلاف الى تغير في معناها . وقد يحدث عكس ذلك أيضا ، حيث يؤدي تغير أو تطور في معنى كلمة ما الى توهم أنها كلمة أخرى غير الكلمة الأولى التي تحمل هذا المعنى . وقد يؤدي هذا الى أن يضع الناس للمعنى الجديد لفظا جديدا يشتقونه على قياس الصيغ التي يعرفونها في لغتهم .

وسوف أعرض فيما يلي أهم النتائج التي يشترك كل من التطور الصوتي والدلالي في صنعها .

١ — أنظر علم اللغة ، دكتور علي عبد الواحد وافي ، ص ٣٢٧ . والمرباع هوربع الغنيمة يأخذه لنفسه رئيس القوم في الجاهلية . والضرورة الذي يدع النكاح تبلا . والنوافج الابل تساق في الصداق .

١ - الترادف :

وهو أن يسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو السيف والمهند والحسام .
وهذا - غالبا - هو مفهوم الترادف عند العلماء السابقين (١) . وأما في العصر الحديث
« فالمترادفات ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل بينها في أي سياق (٢) . وظاهر أن بين
المفهومين القديم والحديث اختلافا أدى الى كثير من المناقشات والآراء ، لا أجد هنا داعيا
للخوض فيها وملاحظتها . وإنما الذي يعيننا الآن أن نلاحظ الترادف على أنه أحد صور
التطور اللغوي . وإذا درسنا أسباب وجود المترادفات في اللغة نجد أنها لا تخرج عن العوامل
العمامة التي سبقت الإشارة إليها في مجال التطور اللغوي . فاحتكاك لغة ما بغيرها من
اللغات نتيجة الظروف المختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ، يؤدي الى أن
تتأثر بتلك اللغات وتؤثر فيها . ولعل هذا السبب يفسر كثيرا من المترادفات التي أوردتها
المراجع العربية القديمة للشيء الواحد ، فان احتكاك لغة قريش باللهجات العربية الأخرى
قد نقل اليها طائفة كبيرة من مفردات هذه اللهجات (٣) . وكذلك فان احتكاك اللغة
العربية بغيرها من اللغات المجاورة كالفارسية والرومية والحبشية قد أدخل فيها كثيرا من
المفردات التي قد تكون مع بعض مفردات اللغة العربية شيئا من الترادف . ولا شك أن
الترادف - اذا وجد في فترة ما - فانه يعد مظهرا من مظاهر التطور الدلالي في اللغة ، لأن
الألفاظ المترادفة في اللغة الواحدة لا بد أن يحدث بينها نوع من صراع البقاء ، فتزدهر ألفاظ
وتموت أخرى حتى تصبح نسيا منسيا مع مرور الأيام . ونظرة واحدة على ما كان يورده
العلماء السابقون من أمثلة الترادف تعطينا صورة واضحة عن صراع البقاء هذا . فقد عاشت
كلمة السيف مثلا وكادت تموت كل المترادفات التي ذكرت لها ، لأنها ظلت محفوظة في
بطون الكتب فقط ولم تظهر على ألسنة الناس في الاستعمال الواقعي الا اذا دعت اليها
ضرورة وزن ، أو حتمية قافية - أحيانا - عند الشعراء .

وليست العبرة - بعد - فيما تورده المعاجم اللغوية ، بل هي في واقع الاستعمال . وفي
هذه الدراسة التي تقوم على أثر الاستعمال في بيان الدلالة تبين لي أن كثيرا مما كان يعد في
الشعر الجاهلي من المترادفات لم يعد له وجود في القرآن الكريم . وقد اجتهدت في ذكر كثير

١ - الصاحبي . ص ٦٥ .

٢ - دور الكلمة في اللغة ، ص ٩٨ .

٣ - فقه اللغة ، دكتور علي وافي ، ص ١٦٨ .

من الأمثلة من الآيات القرآنية التي تدل دلالة واضحة على أن كل كلمة في القرآن تحمل معنى غير الذي تحملها الكلمات الأخرى التي يظن أنها مرادفة لها . وقد اعتمدت في ذلك على إجماع الآيات القرآنية التي تورد المادة اللغوية للمعنى المعين ، ووجدت أن هذا المعنى لا يتطابق مع المعنى الآخر الذي تقدمه كلمة أخرى مما ظن بعض الباحثين معه أنهما من المترادفات . وأكثر ما تظهر أمثلة هذه الملاحظة في الفصل الأخير مثل كلمات القدرة والاستطاعة والطاقة ، وكلمات الريح والرياح . والغيث والمطر، وغيرها .

٢ - المشترك اللفظي :

وهو ما كان يعرفه القدماء السابقون بأنه تسمية الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد نحو عين الماء وعين المال وعين السحاب (١) . وهو حسب مفهومه هذا ظاهرة لغوية تقابل ظاهرة الترادف . وقد اختلف العلماء القدماء عند بحثهم هذه الظاهرة فأنكرها بعضهم وتأول ما ورد منها بأن جعل أحد المعنيين حقيقيا والآخر مجازيا . ولكن الكثرة من علماء اللغة قد ذهبوا الى ورود المشترك اللفظي وضرر بوا له أمثلة كثيرة (٢) .

والمشترك اللفظي صورة بارزة من صور التطور اللغوي ، فانه لا يعقل أن يكون لفظ واحد قد وضع لعدة من المعاني ابتداء ، ولكن الواقع أنه نتيجة لعدة عوامل تسهم في وقوعه من ناحية نظرية . منها اختلاف اللهجات القديمة وتأثير بعضها ببعض . ومنها ما يقع من تطور صوتي في بعض الألفاظ من تغير أو حذف أو زيادة وفقا لقوانين التطور الصوتي مما قد ينتج عنه اتحاد لفظ مع آخر في الصورة وان كان يختلف معه في المدلول . ومنها تطور المعاني وتغيرها مع احتفاظها بأصواتها ، وهو عكس الحالة السابقة . وتطور المعاني وتغيرها مع الاحتفاظ بالأصوات هو الذي ينتج لنا كلمات اشتركت في الصورة واختلفت في المعنى (٣) .

وربما نشأ المشترك اللفظي من استعارة اللغة كلمة تماثل صورتها كلمة أخرى فيها وان اختلف معناهما . وهنا قد نرى كلمتين متحدتين في الصورة مختلفتين في المعنى ولكن كلا منهما ينتمي في الأصل الى لغة مستقلة . ومثل هذا من الكلمات نادر وهو وليد المصادفة (٤)

١ - الصاحبي ، ص ٦٥ .

٢ - انظر في اللهجات العربية ، دكتور ابراهيم أنيس ، ص ١٩٢ .

٣ - المرجع لسابق ص ١٩٣ .

٤ - انظر اللهجات العربية / دكتور ابراهيم أنيس ، ص ١٩٦ .

ويمكن التمثيل له بكلمة «البرج» بمعنى الحصن وقد استعارته اللغة العربية من اللغة اليونانية، فليست بلاد العرب بلاد بيئة للحصون والابراج. ومادة «برج» في اللغة العربية مادة أصيلة ولكن معناها بعيد عن الحصون والابراج. فاذا اشتق في اللغة العربية كلمة (برج) لتدل على صفة خاصة في العين أو نور من أنواع الزينة فان ذلك يمكن أن يولد ما يعرف بالمشترك اللفظي.

٣ - التضاد :

وهو أن يطلق اللفظ الواحد على المعنى وضده. وهو فرع من المشترك اللفظي ولكنه ميز عنه لأن المعنيين اللذين يحملهما اللفظ الواحد متقابلان، فسمي التضاد. وقد اختلف العلماء في وقوعه في اللغة. فقال قوم بعدم وروده في اللغة العربية وعملوا على تأويل أمثلته تأويلا يخرجها من هذا الباب، ومن أشهر هؤلاء ابن درستويه الذي جحد الاضداد جميعها وكتبت في ذلك تأليفا خاصا سماه «إبطال الاضداد». وروى ابن سيدة في كتابه «المخصص» أن أحد شيوخه كان ينكر الاضداد التي حكاها أهل اللغة وأن تكون لفظة واحدة لشيء وضده: وذهب فريق آخر، الى كثرة وروده وضرب له عددا كبيرا من الأمثلة ومن هؤلاء الخليل وسيبويه وأبو عبيدة وأبو زيد الانصاري وابن فارس وابن سيدة وابن دريد والثعالبي والمبرد والسيوطي (١).

والذي يقال هنا أن كلا الفريقين قد تنكب جادة القصد فيما ذهب اليه. ولا تؤخذ الظواهر اللغوية بهذا التشدد في الرأي. بل أن الدراسة المنهجية تؤكد أن الحسم في مثل هذه الأمور غير دقيق.

وفيما يتعلق بالتضاد فان أمثلته في اللغة كثيرة تؤكد أنه واقع موجود في اللغة. ذلك أن العوامل التي تؤدي اليه عوامل فعالة في حياة الناس، وهي في مجموعها لا تخرج عن العوامل السابقة العاملة في التطور اللغوي العام. ففي بعض الأمثلة قد استعمل اللفظ ضد ما وضع له لمجرد التفاؤل كالمفازة في المكان الذي تغلب فيه الهلكة، فقد سميت بذلك تفاؤلا بالسلامة. وكالسليم للملدوغ، وكالريان والناهل للعطشان. وفي بعضها قد استعمل اللفظ في ضده للتهكم، أو لاتقاء التلفظ بما يكره التلفظ به أو بما يمجح الذوق أو بما يؤلم

١ - انظر فقه اللغة، دكتور علي عبد الواحد وافي، ص ١٨٧.

المخاطب ، وكذلك كاطلاق لفظ العاقل على المعتوه أو الأحمق ، والخفيف على الثقيل ، والأبيض على الأسود ، والملائن على الفارغ ، والمولى على العبد ، والبصير على الأعمى ، وهلم جرا (١) .

وقد يجيء التضاد من دلالة الكلمة في أصل وضعها على معنى عام يشترك فيه الضدان فتصلح لكل منهما ، وهذا ما يسميه علماء الأصول بالمشارك المعنوي . ومثال ذلك «القرء» في اطلاقه على الطهر والحيض . والزواج في اطلاقه على الرجل والمرأة .

وهناك أسباب أخرى لوقوع التضاد في اللغة منها اختلاف مؤدى المعنى الواحد باختلاف المواقع . وقريب من هذا أيضا شيوع التضاد في الفاظ بسبب اختلاف اللهجات العربية في استعمالها أصلا . وقد يأتي التضاد بسبب رجوع الكلمة الى أصلين فتكون في دلالتها على أحد الضدين منحدره من أصل ، وفي دلالتها على مقابله منحدره من أصل آخر . مثال ذلك كلمة هجد بمعنى نام وسهر . وأخيرا لا بد أن نذكر دور التطور اللغوي في إيجاد التضاد في اللغة لأنه قد ينال الأصوات الأصلية للفظ ما بعض التغيير أو الحذف أو الزيادة وفقا لقوانين التطور الصوتي فيصبح متحدا مع لفظ آخر يدل على ما يقابل معناه (٢) .

٤ - الاشتقاق وأنواعه :

ويمكن أن تندرج ظاهرة الاشتقاق تحت عنوان التطور اللغوي العام . وهي في الأصل محاولة لتفسير العلاقة بين أصوات الكلمات ومدلولاتها . وقد شغلت هذه القضية العلماء قديما وحديثا ، شرقا وغربا . ولسنا بصدد البحث في هذا المجال ، إنما هي اشارة موجزة لما يمكن أن يقوم به الاشتقاق في تفسير بعض التطورات الدلالية . وقد أعاد علماء اللغة العلاقة بين أصوات الكلمات ودلالاتها الى عاملين أساسيين :

١ - محاكاة الأصوات الطبيعية ، سواء أكانت أصوات انسان أو حيوان أو أشياء أخرى كالرياح والمطر والنباتات والظواهر الطبيعية بوجه عام . وهناك كلمات كثيرة حاكت في أصواتها أصوات الانسان كالحقهقهة والدندنة والنحنحة والمهمهمة

١ - انظر فقه اللغة ، دكتور علي عبد الواحد وافي ، ص ١٨٨ ، وانظر كذلك في اللهجات العربية ، دكتور ابراهيم أنيس ص ٢٠٨ .

٢ - انظر فقه اللغة ، دكتور علي عبد الواحد وافي ، ص ١٨٩ .

٣ - انظر المرجع السابق ص ١٩٠ وما بعدها .

والحشجة والشخير.. الخ . وكلمات حاكت أصوات الحيوان كزئير الأسد وعواء الذئب ونباح الكلب ومواء الهرة وزقزقة العصفور.. الخ . وكلمات كثيرة حاكت أصوات الظواهر الطبيعية العامة كخريف الماء وهزير الريح وهزيم الرعد وأزيز المرجل وجمعجة الرحي وصرير القلم ، وما الى ذلك (١) .

و يرى بعض الدارسين أن هذه العلاقة بين المعاني وبين الأصوات المختلفة هي الأصل في نشأة اللغات الانسانية . لأن اللغة الانسانية — في نظرهم — قد نشأت في الأصل من محاكاة الانسان للأصوات التي تصدر من الحيوانات والأشياء ، وللأصوات التي تحدثها الافعال عند وقوعها (٢) .

٢ - الاشتقاق العام . وهو محاولة وضع روابط عامة تفسر على أساسها العلاقة بين الأصوات ودلالاتها . ويقال في هذا الصدد أن كل أصل ثلاثي في اللغة العربية يرتبط بمعنى عام وضع له . ويتحقق هذا المعنى في كل كلمة توجد فيها الأصوات الثلاثية مرتبة حسب ترتيبها في الأصل الذي أخذت منه . فالمعنى العام للعلم مثلاً — وهو ادراك الشيء وظهوره ووضوحه — يرتبط بأصوات العين واللام والميم — فيتحقق في كل كلمة توجد فيها هذه الأصوات الثلاثة مرتبة على هذه الصورة مهما تخللها أو سبقها أو لحقها من أصوات أخرى لينة أو ساكنة . فتحقق في كلمات : علم . علمنا . أعلم . نعلم . الخ ... (٣) .

وانما جعلت الاشتقاق من نتائج التطور اللغوي لأنه يمكن أن يُسهم في تفسير كثير من المفردات التي يختلف العلماء حول أصل نشأتها وبالتالي حول معانيها . مثال ذلك اختلافهم في معنى الرجس والرجز والصرط والزقر والصقر . ومكة وبكة ، مما قد يرد له أمثلة خلال فصول هذا البحث عند الحديث عن الفرق بين معاني الالفاظ المتقاربة .

ولا يخفى كذلك أن الاشتقاق بكل صوره هو مظهر من مظاهر التطور اللغوي . فمحاكاة الأصوات يمكن أن تولد عبر القرون كلمات جديدة في كل لغة ، لم تكن معروفة من قبل . وكذلك محاولة تفسير الروابط بين الأصوات ومعانيها يمكن أن تغير من معنى كلمة أو توسع في مدولها أو تحدد من مجال استعمالها .

١ - انظر في تفصيل هذه العلاقة كتاب فقه اللغة . دكتور علي وافي ، ص ١٦٩ ، وما بعدها .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٧١ .

٣ - المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

٥ - الدخيل في اللغة العربية :

ظلت اللغة العربية لغة طبع وسليقة في أبنائها أول الأمر، عندما كان اختلاط العرب بغيرهم من الأمم محدودا ، وظلت اللغة الفصحى هي لغة التخاطب في كل شؤون الحياة وظلت كذلك هي لغة الأدب بكل فنونه . ونظرا لتمكن أصحاب اللغة من لغتهم فانهم كانوا قادرين في البداية على اخضاع بعض الكلمات الوافدة من جيرانهم الى الصيغ والقوانين اللغوية التي تحكم لغتهم العربية . وقد سميت هذه الألفاظ الدخيلة فيما بعد بالألفاظ المعربة نظرا لأن الذين استخدموها على ألسنتهم وأدخلوها الى لغتهم هم العرب الفصحاء . وقد استمرت هذه الفصاحة العربية ثابتة الى نهاية ما سُمِّيَ بعصور الاحتجاج باللغة . وعصر الاحتجاج باللغة ينتهي في أواسط القرن الرابع الهجري بالنسبة لعرب البادية وفي نهاية القرن الثاني الهجري بالنسبة للأمصار والحواضر الاسلامية . وهذا الفرق الزمني يدل دلالة واضحة على ما للبيئة من أثر كبير في اللغة . وعلى هذا قال العلماء أن كل كلام في بيئته صحيح . وهذه ظاهرة لغوية ينبغي دراستها واستخلاص النتائج منها . ولذلك هب العلماء في اللغة وخصوصا النحاة والرواة منهم ، الى استخلاص قواعد اللغة مما روي من أدب عربي ونصوص فصيحة في هذه الفترة ، وعدوا كل ما خالف هذه القواعد شاذا لا يقاس عليه .

وعندما اتسعت الفتوحات الاسلامية بعد عصر الراشدين وفي ابان الحكم الأموي والعباسي ، دخل في الاسلام أمم كثيرة من أهل البلاد المفتوحة ، وانتقلت الى البيئة العربية أنماط كثيرة من وجوه الحياة عند الفرس والروم الذين دخلوا في الاسلام . وقد تأثرت اللغة بالأمواج الهائلة من البشر الذين دخلوا في الاسلام ولما تيقنوا اللغة العربية . واضطر الأدباء فيما بعد الى الاستعانة ببعض الألفاظ الأعجمية للدلالة عما في نفوسهم ، نظرا لأن هذه الألفاظ قد شاعت في الاستعمال الواقعي . ولهذا كثرت في لغة الأدب ولغة التخاطب الاجتماعي ما سُمِّيَ فيما بعد بالألفاظ الأعجمية .

ووجود الألفاظ المعربة في البداية ، والألفاظ المولدة بعد ذلك ، دليل واضح على أثر العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية في حياة كل لغة . وعلى هذه الظاهرة يمكن تفسير كثير من الكلمات التي وردت في القرآن الكريم ، وفي الشعر الجاهلي قبله . ولا أرى داعيا هنا لتفصيل القول فيما أُلْفَ حول عروبة القرآن من مئات الكتب والمقالات

والرسائل ، قديما وحديثا . ولكنني أختصر فأقول إن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين في كل مفرداته ، سواء منها الكثير الكثير الذي هو من صميم اللغة العربية أو القليل القليل الذي هو من أصول غير عربية ، أهمها الفارسية والرومية والحبشية . وهذا هو رأي أحمد بن فارس الذي عقد في كتابه الكبير « الصحاحي » فصلا في « القول في اللغة التي نزل بها القرآن » قال فيه : « والصواب من ذلك عندي — والله أعلم — مذهب فيه تصديق القولين جميعا . ومن ذلك أن هذه الحروف وأصولها أعجمية — كما قال الفقهاء — إلا أنها سقطت الى العرب فأعربت بها بألستها وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال إنها عربية فهو صادق ومن قال أعجمية فهو صادق » (١) .

ولا يخفى أن دخول بعض الكلمات في أي لغة من اللغات هو من صميم بحث التطور اللغوي العام . فقد تحمل الكلمات الجديدة محل كلمات أخرى كانت سائدة من قبل مما يعجل باختفائها أو انقراضها . وقد يسبب ذلك في حدوث بعض أمثلة الترادف أو الاشتراك اللفظي أو التضاد كما سبقت الإشارة اليه .

٦ — النحت في اللغة :

وأخيرا يمكن اعتبار ظاهرة النحت في اللغة إحدى نتائج التطور اللغوي العام نظرا لما ينشأ في اللغة — نتيجة لهذه الظاهرة — من كلمات جديدة تحمل دلالات جديدة في الاستعمال .

وقد جاء النحت في اللغة على عدة وجوه منها الوجوه الثلاثة التالية : —

١ - نحت من جملة للدلالة على التحدث بهذه الجملة نحو بسمل وحمل وحوقل وحسبل وسمعل وحيعل ودمعز وطلبق وجعقد وبابأ . ولم يرد هذا النوع الا في هذه الكلمات القليلة وكلها مستحدث في الفترة التي تلت نزول القرآن . ولا يمنع ذلك من أن تنشأ مثل هذه الكلمات في مسيرة اللغة عبر السنين .

٢ - نحت من عَلم مؤلف من مضاف ومضاف اليه وهو ما سمي بالعلم المركب الاضافي ، للنسب الى هذا العلم أو للدلالة على الاتصال به بسبب ما . نحو عبشمي

١ - الصحاحي ، ص ٢٩ .

وعبدري وعبقسي وتيملي في النسب الى عبد شمس وعبد الدار وعبد القيس وتيم
اللات .

ونحو تعبشم الرجل وتعبقس اذا ارتبط بعبد شمس أو بعبد قيس بأي نوع من أنواع
الارتباط كحلف أو جوار . وفي العصر الحاضر يقول الناس عبدي نسبة الى عبد الله ، وأفرو
آسيوي نسبة الى أفريقيا وآسيا . ويمكن أن تقول — على هذا القياس — جبطارق نسبة الى
جبل طارق وكفر شيخي نسبة الى كفر الشيخ في مصر ، وغير ذلك .

وقد أردت بهذا الفصل — في التطور اللغوي معناه وصوره وظواهره العامة — أن يكون
قاعدة يقوم عليها هذا البحث في دراسة المصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم ،
وعلاقتها بالمفردات التي تشبهها في الشعر الجاهلي . ذلك أن قليلا من هذه المفردات قد
حافظت على معانيها الجاهلية ، وأن كثيرا منها اصابها نوع من أنواع التطور الدلالي ، سواء
في تخصيص معناها أو تعميمه أو تغييره . وسوف نرى أن بعض المصطلحات المتقاربة في
المعنى يمكن تفسيرها على أساس ظاهرة الترادف ، سواء اتفقت في معناها أو اختلفت ،
وأن مصطلحات أخرى سيكون المشترك اللفظي سببا في وجودها . ومصطلحات غيرها
ستفسر على أساس من ظاهرة التضاد ، وإلى جانب ذلك كله يمكن أن تعد بعض
المصطلحات من قبيل المعرب في اللغة .

ولكنني أجد نفسي مضطرا قبل البدء في دراسة المصطلحات الاسلامية أن أعقد فصلا
أبين فيه « أثر السياق في بيان الدلالة » ذلك أن كل هذه الدراسة تقوم على أساس واقعي
من الاستعمال ، لأنه لا وجه لتحديد معنى أو تمييز علاقة بين معنيين في عصرين متوالين ،
الا اذا كانت المفردات المعنية بالدراسة واقعة في سياق لغوي معين من الاستعمال الواقعي
في حياة الناس .

الفصل الثاني

دور السياق في بيان الدلالة

عندما يتحدث انسان ما ، أو يكتب شيئا ، فان مفهومنا خاصا يستفاد من حديثه أو كتابته ، لأن الانسان في أغلب الأحيان يستخدم لسانه أو قلمه في تقديم أفكاره . وهذا المفهوم الوارد من القول — على اعتبار أن الكتابة قول مقروء — تتضافر عوامل عديدة في ايصاله وتقديمه للسامع . وقد شغلت هذه القضية العلماء في القديم والحديث . وسوف استعرض بإيجاز ما ورد في كتب العلماء السابقين حول دور السياق في بيان الدلالة ، وحول العلاقة بين اللفظ والمعنى ، ثم اتبعه بتفصيل هذه القضية عند علماء اللغة المعاصرين ، ثم أعرض لهذه القضية متكاملة في الدراسات اللغوية الغربية .

تبدأ طريق الدلالة بالكلمات . فالكلمات هي المواد الأولية التي تتشكل حسب أنظمة مختلفة لتقدم مفهوما محددًا . والشرط في الكلمات أن تتشكل وأن تنظم ، لأنها بدون ذلك تبقى مواد أولية لا قيمة لها بذاتها . فالمعنى اذن يظل خاطرا في النفس أو مكنونا في الضمير حتى يصوغه المتكلم في كلمات يختارها وجمل وعبارات ينظمها أو يؤلف بينها ليحاول نقل فكرته من صدره الى عقول الآخرين ، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه « المعنى الأصلي » للكلمة و « المعنى السياقي » لها .

وهذه الصلة بين الالفاظ والمعاني شغلت العلماء القدماء كثيرا ، واجتهدوا في بيان أيهما أهم : اللفظ أم المعنى ؟ وأيها يحدد درجة الأديب ومدى تفوقه ؟ وقد انساق النقد الأدبي أيضا في القرون المتأخرة في هذا الاتجاه وتأثر به كثيرا . وصار النقاد يرفضون قصيدة لكلمة فيها لم تعجبهم ، أو يقدمون قصيدة لمعنى محدد في بيت واحد راق لهم ، وهم في أحكامهم الجزئية هذه لا ينظرون الى القصيدة كاملة ، ليتنبهوا الى عناصرها المختلفة ، وما يمكن أن يكون فيها من مزايا أو عيوب .

ولقد لفتت هذه القضية نظر الجاحظ الذي ربما كان من أول من أولى هذه القضية اهتماما كبيرا . وقد ابتلى الجاحظ بعدد من الباحثين الذين أساءوا اليه ظانين أنه كان من أنصار اللفظ على حساب المعنى . وهم في بحوثهم سرعان ما يوردون قوله المشهور « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير » (١) ، للتمثيل على فكرتهم الخاطئة

١ - الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مطبعة البابي الحلبي ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥ ، ص ١٣٠ .

تلك . ولو أنعموا النظر في هذا القول الدقيق لتبينوا خطأ ما وقعوا فيه . وهذا القول نفسه مَثَلٌ لما نحن فيه من دور السياق في بيان الدلالة . لقد استرعى انتباههم أول القول وفاتهم ما يدل عليه سياقه التام . والا فما الذي يعنيه الجاحظ بقوله « فأنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس في التصوير » . وقول الجاحظ هذا — وغيره في مؤلفاته العديدة — يؤكد أن الشأن في صناعة الكلام عنده إنما يقوم على السبك والصياغة التي تجمع بين الألفاظ . وهو بذلك يُعتبر الرائد الأول لما فصله وأكدّه عبد القاهر الجرجاني — من بعد — في نظريته المتكاملة عن النظم .

وقد تابع الجاحظ في مناقشة قضية اللفظ والمعنى كثيرون . منهم من أخذ برأيه ، ومنهم من اهتم بجانب اللفظ وحده . ومن هؤلاء ابن قتيبة الذي قسم الشعر في كتابه « الشعر والشعراء » الى أربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه « (١) . وعلى الرغم من أن ابن قتيبة يشير الى كل من اللفظ والمعنى الا أنه لم يبحث فيهما بحثا جادا عميقا يقدم بعده نظرة متكاملة تبين ما للسبك والصياغة والسياق من أثر في تقديم المضمون .

أما ابن رشيق القيرواني فقد أشار الى ضرورة التلاحم بين اللفظ والمعنى حينما قال « واللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فاذا سلم بعض المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه » (٢) . ولكن ابن سنان الخفاجي — الذي عاصر ابن رشيق — لم يأخذ برأيه هذا ، بل عني عناية كبيرة باللفظ المفرد ، ووضع له شروطا عديدة (٣) .

وقد رأى عبد القاهر أن اللفظ وحده لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو لفظ ، إنما من حيث دلالته يدور البحث فيه ، وأن المعنى لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو خاطر في الضمير إنما من حيث أنه حمل في لفظ يدور البحث فيه . وأن

١ - الشعر والشعراء ، ابن قتيبة الدينوري ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، جزآن ، ١٩٦٦ م ، ص ٦٤ - ٦٥ .

٢ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ ، ص ١٢٤ .

٣ - سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، شرح عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ، مكتبة محمد علي صبيح ، ١٩٦٩ م .

المعنى مقيد في تحديده بالنظم الذي يؤدي به فلا يمكن أن يختلف النظامان ثم يتحد المعنى تمام الاتحاد (١) .

والالفاظ عند عبد القاهر رموز للمعاني المفردة التي تدل عليها هذه الرموز أو مجرد علامات للإشارة الى شيء ما وليست للدلالة على حقيقته . والانسان يعرف مدلول اللفظ المفرد أولا ثم يعرف هذا اللفظ الذي يدل عليه ثانيا (٢) . ولذلك فان الدلالة على حقيقة الشيء لا تكون الا اذا نظمت تلك الالفاظ في سياق معين . وتتلاحم الالفاظ والمعاني عند عبد القاهر في أداء الدلالة المقصودة ، لأن الألفاظ خدَم المعاني والمصرفة في حكمها ، والمعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته . لأن الألفاظ ليست الا سمات للمعاني ، وأوضاعا قد وضعت لتدل عليها ، فليست لها كبير قيمة من غير تأليف ، ولو عمد الى بيت شعر أو فصل نشر فعدت كلماته عدا كيف جاء واتفق ، وأبطل قصده ونظامه الذي عليه بنى وفيه أفرغ المعنى وأجرى ، وغُيِّر ترتيبه الذي أفاد ، فقليل في « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » « منزل قفا ذكرى من نبك حبيب » خرج من كمال البيان الى مجال الهذيان ، وسقطت نسبته من صاحبه . وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة (٣) .

وقد بدأ المحدثون من النقطة التي وصل اليها عبد القاهر . ونظريته في النظم هي نفسها التي سماها المحدثون — بعد جهود طويلة — بعلم الصيغ أحد فروع علم اللسان . فهم يرون أن « اللغة البشرية لا تقف عند استعمال الالفاظ المفردة ، اذ تنتظم تلك الالفاظ مجموعات تختلف تبعا للمعنى الذي تريد العبارة عنه وهي ما نسميه بالجمال ، وجمع الكلمات في جمل تلك خاصية الانسان ، ومن الواجب أن تؤلف تلك الجمل تبعا لطرق تحددها طبيعة كل لغة ، وتلك الطرق هي ما سميناه سابقا بعوامل الصيغة . وعوامل الصيغة يمكن أن تكون اما صوتا خاصا واما نظاما محددًا للكلمات ، وهاتان الوسيلتان مختلفتان من ناحية الشكل . ونحن نسمي دراسة النوع الأول بعلم الصيغ . والنوع الثاني بعلم النظم والتراكيب .

١ - عبد القاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده ، الدكتور أحمد مطلوب ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ م ، ص ٥ - ٢٤ .

٢ - عبد القاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده ، ص ٩٨ .

٣ - المرجع السابق ص ٩٨ .

ولكنهما في النهاية يؤديان نفس الخدمات ، ومن ثم كان هناك مجال لجمعها في باب واحد من علم اللسان هو باب النحو ويعتبر أدق علم الصيغ « (١) » .

والإضافة الجديدة في هذا المجال هي أن الفصل بين الألفاظ ودلالاتها المختلفة وبين الجمل هو ضرب من المستحيل . وقد رأى الاستاذ أنطوان ماييه في بحثه عن — علم اللسان — أن التمييز بين الجمل المؤلفة في مجموعة من الكلمات حسب قواعد النحو المقررة ، وبين وظيفة تلك الصيغ المتكونة من جراء ذلك ، إنما هو تمييز أحق (٢) .

ثم اتسعت الدراسات بعد ذلك في هذا المجال ، واتجهت نحو التخصص والتحديد . وكتبت بحوث كثيرة حول مفهوم المعنى نفسه أو معنى المعنى (٣) . وتلك هي خاصية البحث المعاصر في تحديد المصطلحات أولاً قبل الخوض في مفهومها الواسع . ونتيجة لهذا التحديد والتخصص في الدراسة والبحث صار المعنى يشكل فرعاً خاصاً من فروع علم اللغة ، هو ما يعرف بعلم السيمانتيك أو علم الدلالة . وقد تحدث الدكتور كمال بشر عن هذا العلم الجديد نسبياً ، وعن مدى اتساع الرقعة التي يغطيها في الدراسات اللغوية ، فقال : « ان فريقاً من الدارسين يرى أنه يدرس المعنى على مستوى اللفظة المفردة — كما تفعل المعجمات — وهذه نظرة ضيقة قَنَعَتْ بالأمر السطحية . ولكن هناك فريقاً آخر يوسع في دائرة هذا الحقل اللغوي فيجعله مشتملاً على هذا الجانب التقليدي المذكور سابقاً وعلى دراسة المعنى ومشكلاته على مستوى التراكيب كذلك » (٤) . ويمضي الدكتور بشر قائلاً : « ومن ثم كان عند بعضهم فرعان لعلم الدلالة أو السيمانتيك ونعني بهما السيمانتيك المعجمي والسيمانتيك النحوي . ومن الجدير بالذكر أن هذا الفرع الثاني يلتقي في كثير من جوانبه مع نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني إذ كلاهما يجري في الأساس وراء تحليلية المعنى ودراسة مشكلاته عن طريق النظر في النحو وقواعده . وقد ظهرت الى الوجود فكرة ثالثة تخص السيمانتيك لدراسة المعنى على مستوى اللفظة والعبارة كليهما ولكن في إطار اجتماعي معين ، ومن زاوية معينة هي زاوية الاستعمال الحسي في البيئة الخاصة .

١ - للاستاذ أنطوان ماييه في مقال منهج البحث في الأدب واللغة ، مترجم وملحق في كتاب « النقد المنهجي عند العرب » للدكتور محمد مندور ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ ، ص ٤٤٥ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٤٤٦ .

٣ - دراسات في علم اللغة ، دكتور كمال محمد بشر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ، القسم الثاني ، ص ١٥٣ .

٤ - دراسات في علم اللغة ، دكتور كمال بشر ، القسم الثاني فصل المعنى اللغوي ، ص ١٥٣ وما بعدها .

فالحدث اللغوي — كلمة كان أو عبارة — له جوانب مختلفة عند أصحاب هذا الرأي الأخير» (١).

ولعل هذا هو الفرق الكبير بين الدراسات الحديثة وبين الدراسات القديمة في هذا المجال . فلم يعد كافيا لفهم معنى ما نظرة عجل في معجم لغوي . بل لابد من البحث عنه في البيئة اللغوية التي قيل فيها ، المتكلم نفسه ، ملامحه ، نبرات صوته ، طريقته في نظم الكلمات ، كلماته التي تفوه بها ، وقد أطلق البحث الحديث على هذه الأمور مجتمعة اسم « المسرح اللغوي » .

وتقف وراء هذه الأمور ، أو توضحها ، عدة فروع من علم اللغة ، يساهم كل منها بنصيبه في اظهار الدلالة . وعندما تتعاون وتتلاقى معطيات كل من علوم الأصوات والصرف والنحو والمعجم يتكون ما يمكن أن يسمى بالسياق اللغوي . ويمكن عندها أن نتوقع فهما لا بأس به لما يريد المتكلم أن يخبرنا به .

وقد لاحظ العلماء أن علم الأصوات يقوم بدور فعال ومهم في بيان المعنى ، لأنه العلم الذي يجلي أكثر عناصر المسرح اللغوي ، وخاصة ما يتعلق منها بالمتكلم .

وقد قسم العلماء علم الأصوات الى فرعين رئيسيين : « الفونيتكس » وهو علم الأصوات العام الذي يدرس الظواهر الصوتية العامة التي لا تختص بها لغة دون أخرى . أي أنه يدرس الأصوات كنشاط انساني ويستخرج منها القواعد العامة ثم « الفنولوجي » أو علم وظائف الأصوات في بيان الدلالة لأنه جزء لا يتجزأ من النحو بمعناه الواسع (٢) .

والمقصود بالمعنى الواسع لعلم النحو هذه الاضافات الجديدة العلمية التي صار العلماء يرون النحو قاصرا دون الاهتمام بها . ففي الفترة الأخيرة صار بعض الباحثين يكتب عن إحياء النحو وتجديده وتطوير النظرة اليه ، واعادة النظر في بعض أبوابه كالممنوع من الصرف والاضافة والاشتغال والتنازع . وهذا الجانب في الاضافات لا يهمنا — هنا — كثيرا . انما الذي يعيننا في هذا البحث ، تلك الاضافات التي تتعلق بالناحية الصوتية ، وما يرافق النطق من تنغيم وتلوين ونبر يساهم في تحديد المعنى وايضاحه للسامع . وهذا الجانب

١ - المرجع السابق ص ١٥٣ .

٢ - علم اللغة العام ، دكتور كمال محمد بشر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، القسم الثاني — الأصوات — ، ص ٢٤٥ .

هو الذي دعا بعض كبار العلماء — عرباً وأجانباً — أن يدعوا إلى ضرورة تسجيل أحكام اللغة وقواعدها بطريق الكتابة الصوتية ، لأنها هي القادرة على تطوير النطق الحي للغة ، وبالتالي المساهمة في الوصول إلى المعنى الصحيح المحدد (١) .

والحقيقة أن بيان دور النبر والتنغيم وموسيقى الكلام في بيان المعنى موضوع هام جداً . ولكن العلماء القدماء لم يتعرضوا له مع الأسف . وتقوم الآن جهود كبيرة بين علماء اللغة — في مختلف اللغات — لدراسة أثر النبر والتنغيم في توضيح المعنى . وتعد مثل هذه الدراسات في اللغة العربية دراسات حديثة لم تقدم — بعد — الشيء الكثير رغم أن اللغة العربية حافلة بمادة غزيرة جداً لمثل هذه البحوث . في حين أن مثل هذه الدراسات تعد في لغة كالانجليزية — مثلاً — متفوقة جداً ، حتى أن المعاجم يؤلفونها و يبينون فيها طريقة نطق الكلمة صوتياً ، ويجعلون علامات خاصة على المقطع المنبور في الكلمة دون غيره . ذلك أنه في اللغة الانجليزية قد يتغير معنى الكلمة الواحدة إذا تغير موضع النبر فيها . وفي اللغة العربية توجد هذه الظاهرة أيضاً ، وهي في العامية أظهر منها في الفصحى ، ولكن أحداً لم ينهض بعد لدراسة أثر النبر والموسيقى في دراسة متخصصة على نصوص اللغة العربية . ويضرب الدكتور كمال بشر مثلاً للقارئ في أهمية النبر والتنغيم في بيان المعنى وعلاقة ذلك بعلم النحو ، فيقول : « ان التحليل الاعرابي نفسه قد لا تفهم أسرارها ولا تحل ألغازه إلا بحيلة صوتية هي التنغيم والموسيقى . لقد قرر النحاة مثلاً أن كلمة « عمة » في قول الشاعر « كم عمة يا جرير وخالة » يجوز في اعرابها وجهان بل ثلاثة ، على أساس أن كم إما خبرية أو استفهامية ، وهذا الافتراض صحيح ولكن العامل الأساسي في الفصل بين كونها خبرية أو استفهامية إنما هو التنغيم وطريقة إلقاء الشطر أو البيت كله » (٢) .

نستخلص مما سبق أن المعنى ظاهرة بالغة الدقة ، شديدة التعقيد ، لا يمكن معالجتها من زاوية واحدة . فالدلالة المعجمية للمفردة الواحدة لا تمثل إلا جانباً واحداً محدوداً من دلالتها . فهي لا تحدد لنا تحديداً واضحاً كيف يجري استخدام الكلمة في التركيب اللغوي أو الجملة استخداماً صحيحاً معبراً . والدلالة المعجمية العامة تقتصر في العادة على ما تمثله المفردة في العالم الخارجي أو في حقل الخبرة العامة .

١ - انظر المرجع السابق ، ص ٢٤٤ .

٢ - دراسات في علم اللغة ، دكتور كمال محمد بشر ، القسم الأول ، ص ٢٢ .

و يلعب السياق اللغوي دورا هاما في تقرير معنى المفردة وتحديده . وحين نذكر السياق اللغوي يتبادر الى الذهن نوعان أو مستويان من السياق :

- ١ - السياق النحوي أو البنية النحوية التي ترد فيها الكلمة بوصفها وحدة نحوية .
- ٢ - السياق المعجمي الذي ترد فيه المفردة بوصفها وحدة دلالية معجمية .

وفيما يتعلق بالنوع الأول فمن المعروف أن الكلمات لا تتوالى في الجملة على نحو عشوائي ، بل يخضع ترتيبها لانساق تركيبية مضطردة وعلاقات شكلية داخلية معقدة تشكل في مجموعها قواعد التركيب النحوي في لغة ما . ومعنى الجملة ليس مجموع معاني الكلمات المفردة التي ترد فيها ، إذ أن التغير في البنية النحوية ، وعلاقات الكلمات ووظائفها ومواقعها من الترتيب من شأنه أن يبدل في المعنى حتى لو حوفظ على الكلمات ذاتها دون زيادة أو نقصان ، واسهام الكلمة المفردة في المعنى الكلي للجملة يتقرر - جزئيا على الأقل - من الموقع الوظيفي الذي تحتله في سياق التركيب الجملي ، وعلاقتها بالكلمات الأخرى . و يظهر الفرق في المعنى بين الجملتين التاليتين :

عارض خالد عليا .

عارض علي خالدا .

وأسوق فيما يلي وجهة نظر بعض علماء اللغة الغربيين في دور السياق النحوي في تقرير معنى الكلمة .

في النحو ما يسمى بالكلمات الوظيفية Functional Words ، والشكلية (Form) words وهي كلمات ليس لها معنى معجمي . أي أنها لا تشير الى شيء في العالم الخارجي ولكنها تقوم في الجملة بأدوار وظيفية هامة . مثل أدوات الشرط والجوازم ونحو ذلك . ومثل هذه الكلمات لا تؤدي أي دور دلالي خارج وظائفها في التركيب النحوي .

— ان تغير مواقع الكلمات لا يغير بالضرورة دائما من المعنى الأساسي للجملة ، ولكنه قد يحدث تأثيراً معنوياً أسلوبياً ينقل مواقع التركيز المعنوي من كلمة الى أخرى ، ضمن عوامل الموقف اللغوي واستراتيجية الكلام ومشاعر المتحدث وعلاقته بالسامع أو المتلقي .

مثل التقديم والتأخير المباح في تركيب الجملة ، أو تحويل الكلمة من بناء المعلوم الى المجهول . وهذه التأثيرات الاسلوبية تمثل جزءاً من أغراض الكلام أي الاستخدام اللغوي ووظائفه الدلالية ، وتكشف جانباً هاماً من موقف المتحدث .

— وأخيراً فان تدمير العلاقات النحوية الصحيحة بين الألفاظ في سلسلة كلامية يؤدي الى عبارة لا معنى لها اطلاقاً ، مثلاً : جادة خرج الصواب عن .

وقد حملت مثل هذه الاعتبارات بعض اللغويين المحدثين على القول بأن الجملة يجب أن تكون الوحدة المعنوية الرئيسة لمعالجة موضوع الدلالة ، وأنها أصغر وحدة معنوية كاملة في الاستخدام اللغوي الفعلي . وحتى الكلمة المفردة التي تؤدي معنى كاملاً في موقف لغوي ما ، ما هي الا جملة ناقصة ، أو متحولة في مجرى الأداء اللغوي عن جملة كاملة . وبذلك فان فهم معناها يستدعي استرجاع موقف لغوي ، أو تصور موقف لغوي يمكننا من ادراك العناصر اللغوية المفقودة ، والتي عوّضت عنها عوامل لغوية أخرى أو غير لغوية اقترنت بموقف الكلام (١) . فلو تصورنا شخصاً ما في موقف لغوي معين يقول « الدراسة » ربما جاز لنا أن نتصور أن الكلمة كانت جواباً عن سؤال كالتالي : ما الذي يشغلك هذه الأيام ؟ ! . وبذلك يمكننا أن نتصور أن كلمة « الدراسة » في هذا الموقف هي جملة ناقصة ، أو متحولة عن جملة كاملة هي : تشغلني الدراسة . وفهمنا للدلالة التي تحتلها كلمة الدراسة هنا يقتزن بمعرفتنا بموقف السؤال . وبالتالي بالجملة الكاملة التي تحولت عنها الكلمة في الأداء اللغوي الفعلي .

أما النوع الثاني الذي أشرت اليه آنفاً وهو السياق المعجمي فيمثل مستوى آخر من مستويات البنية اللغوية ، ونعني به تلك العلاقة البنيوية الأفقية التي تقوم في العبارة بين المفردات بوصف هذه الأخيرة وحدات معجمية دلالية لا بوصفها وحدات نحوية أو أقساماً كلامية عامة . فالجملة قد تكون صحيحة من حيث انسجامها مع قواعد التركيب النحوي ، ولكنها تعد في الوقت نفسه شاذة من الناحية الدلالية ، وهذا ما يوضحه الفرق بين الجملتين التاليتين :

أ - اسعف الطبيب الحجر .

ب - لم عاد بكاء يسعف .

١ - يراجع في هذا الموضوع Ibid., PP. 102-103.

فابن اللغة يستطيع أن يميز فوراً الفرق بين الجملتين . ورغم أن كليهما تنسم بالشذوذ والغرابة ، فإن شذوذ الأولى لا يعود الى اختلال العلاقات النحوية التركيبية بين الكلمات كما هي الحال في الثانية . فالجملة الأولى جملة نحوية صحيحة ، يؤكد ذلك أنها تنطق بنمط تنغميمي كامل ، على حين لا يمكن ذلك في حالة الجملة الثانية . أما شذوذ الجملة الأولى فيعود الى شذوذ العلاقة الدلالية المعجمية بين كلمة الحجر وما يسبقها . اذ نتوقع في العادة أن يكون الاسعاف للانسان أو كائن حي على الأقل . ومن هنا يستنتج بعض علماء اللغة المحدثين تمايز مستوى البنية النحوية عن مستوى المعجم وبنيته (١) . ومع ذلك فليس من المستحيل أن نتصور موقفاً خاصاً يمكن في ضوئه اضافة معنى ما على الجملة الأولى . كأن تعرض في مجرى قصة أسطورية تشخص موجودات الطبيعة . أو في قصيدة شعرية . اذ أن تعتمد الخروج عن العلاقات العرفية اللغوية البنيوية بين المفردات المعجمية في العبارة يمثل مصدراً أساسياً من مصادر الصورة الشعرية والمجاز والاستعارة (٢) .

وقد عالج العالم اللغوي البريطاني « فيرث S. R. Firth » موضوع العلاقة البنيوية السياقية بين المفردات المعجمية ضمن ما أطلق عليه « بالاقتران اللفظي » أو التصاحب اللفظي Collocation (٣) ، اذ وجد أن المفردات تتجه الى الاقتران مع مفردات معينة في العبارات أكثر من غيرها . بحيث يمكننا أن نتوقع صفات دلالية عامة للمفردات التي يمكن

١ - في موضوع العلاقة بين مستوى المعجم والنحوي تقرير الدلالة ، أو التمييز بينهما ، ينظر في :

Ibid., PP. 114-118.

و ينظر كذلك في :

John Lyons, Semantics, Cambridge University Press,

Cambridge, 1977, Vol. 2. PP. 373-378.

وهذا المرجع يناقش المسألة ضمن موضوع « مستويات التحليل اللغوي » .

٢ - انظر :

George. L. Dillon, Introduction to Contemporary

Semantics, Printice, INC, New Jersey,,

PP. 37-41.

G. N. Leech, Alinguistic Guide to English Poetry, وأيضاً

London, 1969, P. 45 and P. 134.

٣ - في موضوع « التصاحب اللفظي » « Collocation » يرجع الى :

Palmer, Op, Cit., PP. 94-97.

John Lyons, Op. Cit, Vol. 1, PP. 261-266. وأيضاً

وهذا الأخير يناقش ظاهرة التصاحب اللفظي ضمن موضوع أعم هو « العلاقات البنيوية المعجمية » Syntagmatic lexical Prelations

أن تقع في موقع ترك فارغا في عبارة ما ، بالنظر الى ما يرد قبلها وبعدها . فاذا بدأنا عبارة بكلمة : تام : مثلا توقعنا اكماها باسم فاعل يشير الى حي . وبذلك نرى أن الدلالة العامة للكلمة تسهم الى حد ما في تقرير موقع ورودها في البنية السياقية المعجمية للعبارة . ومع ذلك فان هذا السياق يجب أن يدخل في أي بحث يحاول تجلية ابعاد الظاهرة الدلالية . ومع ذلك فان الحدود بين ما يمكن أن يتوقع وروده بعد مفردة أو مفردات معينة في سياق بنيوي معجمي وبين ما لا يمكن أن يتوقع وروده بعد مفردة أو مفردات معينة في سياق بنيوي معجمي وبين ما لا يمكن وقوعه ليست حدودا فاصلة ومطلقة . فهناك مفردات أعلى من غيرها في سلم التوقع النسبي ، وتتدرج في السلم حتى نصل الى منطقة قلقه لا نستطيع أن نقرر معها بصورة حاسمة درجة شذوذ الاستعمال أو صحته . وهنا لابد من استرجاع الموقف اللغوي لتغليب الرأي .

وقد عالجت « المدرسة التحويلية Transformational Grammar » هذه القضية ضمن ما أطلق عليه بالقواعد الانتقائية « Selectional Pules » أي القواعد التي تحكم انتقاء المفردات في موقع ما من السياق اللغوي على أساس الخواص الدلالية لما يرد قبلها وما بعدها من المفردات (١) .

وهي لا تختلف في جوهرها عن « التصاحب اللفظي » عند فيرث وان كانت ترمي الى ضبط الموضوع في أطر شكلية أكثر صرامة وتحديدًا وضمن سلسلة من القوانين الدقيقة .

وقد كان المنطلق الأول كما ألمحنا سابقا لهذه المعالجة السياقية مبنيا على الفصل بين مستويي السياق البنيوي النحوي والسياق البنيوي المعجمي . ولكن المحاولات المتأخرة اتجهت الى الدمج بينهما . فتشومسكي مؤسس المدرسة التحويلية وزعيمها عاد في وقت تال

١ - Palmer, Op. Cit, PP. 100-101. يراجع

George Dillon, Op. PP. 30-37. وأيضا

G. W. Turner, Stylistics, Penguin, 1973, P. 128. كذلك و يراجع كذلك

١ - في موضوع القواعد أو القيود الانتقائية Selectional Restrictions

الى ادغام القوانين الانتقائية للمفردات ضمن القواعد النحوية العامة (١)، منسجما في ذلك مع رغبته في تطوير نظرية نحوية تفسر الظواهر اللغوية المختلفة بجملتها، وفي تصميم جهاز نحوي يتسع للتركيب النحوي والمعجمي والصوتي .

ومهما يكن من أمر، فإن الذي أريده من كل ما سبق هو تأكيد دور السياق اللغوي في تحديد المعنى سواء أكان معنى المفردة، أو المعنى الاجمالي للجملة .

هذا ما يتعلق بأثر الأصوات في تحديد المعنى في النص المسموع . ولكن ما السبيل الى ذلك في النص المكتوب ؟ أو ما سميته من قبل بالنص المقروء، أو بالقول المقروء . ان القول المقروء يتأثر معناه كثيرا بطريقة إلقاءه، بل ربما يتحدد معناه بذلك . وقد ابتدع علماء النحو واللغة طريقة جيدة لمحاولات تقريب النصوص المكتوبة من النصوص المسموعة اذا لم يمكن إلقاؤها أو نطقها . وكان لا مندوحة من قراءتها سطورا جامدة في أوراق . تلك الطريقة تتلخص في استعمال علامات الترقيم . فعلامات الترقيم أريد بها محاولة نقل الصورة الدقيقة التي كان عليها المتكلم أو الكاتب عندما قال أو كتب النص . أنها تنقل المشاعر والأحاسيس والتأثيرات والمؤثرات وملامح الوجه وكل ما ظهر من المتكلم أو أحس به الكاتب . أقول المتكلم لأن ما قاله اليوم سيكون في الغد نصا مكتوبا . وسيبتعد النص من قائله وعندها لا يكون الا علامات الترقيم تحاول إعادة ملامح الوجه، ونبرات الصوت، وحركات الجسم، وأحاسيس النفس عندما كان الأديب يلقي هذه الكلمات . ومن علامات الترقيم مثلا علامة الاستفهام والتعجب وعلامة القول وإشارة تقسيم الكلام الى أجزاء وهي الفاصلة، وإشارة الجملة المعترضة، وعلامة السببية وهي التي تدل على أن ما قبلها كان سببا فيما بعدها ويشار اليه بفاصلة تحتها نقطة . ويمكن أن نسوق مثلاً لبعض هذه العلامات بالجملة التالية :

١ - يراجع في هذا الموضوع :

Noam Chomsky. Aspects of the theory of syntax, the
M. I. T. Press. 1965, PP. 113-120 and
PP. 148-153.

وانظر أيضا :

Palmer. Op. Cit., PP. 116-117.

وأبضا :

John Lyons, Op. Cit., Vol. 2, P. 409-411.

ما أحسن عثمان .

ما أحسن عثمان ؟

ما أحسن عثمان !

فالنقطة في نهاية الجملة الأولى ، وعلامة الاستفهام في نهاية الجملة الثانية ، وعلامة التعجب في نهاية الثالثة بينت المقصود من كل جملة . وربما يقول قائل ان علامات الاعراب يمكن أن تحدد ذلك . ولكن علامات الترقيم هذه تزيد المعنى وضوحا وجلاء . وقد سبق القول أن علم النحويبعناه الواسع يتضمن مثل هذه الاضافات الجديدة . على أن علامات الاعراب قد لا تسعف أحيانا في ايصال المعنى المقصود . ونضرب مثلا لذلك قول الشاعر:

وهل ريبة في أن تحن نجيبة الى إلفها أو أن يحنَّ نجيبُ !

ان علامة التعجب هذه توضح المعنى المقصود . وقد وضعت هنا رغم أن البيت يبدأ بأداة الاستفهام هل ، غير أن الاستفهام هنا ليس حقيقيا ، بل أنه خرج عن معناه الحقيقي الى معنى التعجب والدهشة من هذا الأمر . ويعد من علامات الترقيم أيضا ما يضعه بعض الكتاب ، أمام جمل الحوار ، أو في أثناء السطور ، من كلمات تشعر بحالة المتكلم ، مثل قولهم : قال « ساخرا » أو « وأجاب بتراخ » أو « قام يرد على الهاتف بعصية » وهكذا . رغم أننا لا نزعم أن علامات الترقيم تقوم بالدور الطبيعي للمتكلم الا أنها تسهم الى حد ما في بيان المعنى .

وفي اعتقادي أن القرآن الكريم قد حقق ، بطريقته الخاصة ، هذه الشروط كلها . فأما الكلمات أو المفردات ونظمها في آيات ، فقد قيل عنه ما قيل ، وكتب ما كتب . ولكني أريد التذكير بفكرة لا أمل من ترديدها ، وهي أن القرآن الكريم كان يختار الكلمة قاصدا لفظها ومعناها معا في موقعها المحدد . أي أن القرآن الكريم يأخذ المعنى المعجمي ويهتم بالصورة الصوتية للكلمة . وهذا الارتباط بين اللفظ — أي الصوت — وبين المعنى في الكلمة القرآنية بشكل وحده لا سبيل الى الفكاك منها . وأن الانسان ليقراً القرآن فيعجب لهذه المواقف والمشاعر المتباينة التي يمر بها أو تمر عليه . ينشرح صدره تارة ويرتعد قلبه تارة أخرى . تفيض عينه بالدمع ، وترتعد فرائضه من الرعب . تتوالى أمامه الصور لكأنما يكاد يلمس المعنى بيديه ويراها بعينه ، ومن الطبيعي أن هذا التأثير لا يتأتى من مجرد المعنى

الأصلي للكلمات بل هو مما يفعله السياق اللغوي في نفس القارئ ، بما يتضمنه السياق من كل الأجزاء التي تحدثنا عنها وسميناها المسرح اللغوي .

ومن أمثلة النبر والتنغيم في بيان الدلالة القرآنية قوله تعالى :

إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۖ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۖ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ^{٤٩}
 كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۖ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ
 رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۖ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(١)

ولا يخفى أن نطق كلمة « ذق » هنا لابد إلا أن يكون منبورا شديدا ، وكذلك التوكيد في « إنك » ، ثم نغمة التهكم والسخرية في « العزيز الكريم » لأن سياق الآيات العجيب يحتم ذلك . ويلاحظ كذلك اختيار كلمة « اعتلوه » دون غيرها لكي توحى بأن هذا الذي كان يدعى العزة والكرامة في الدنيا سوف يقتلع من مكانته هذه ويلقى في سواء الجحيم . وهنا يظهر أثر علم الصرف : في اختيار هذه الصورة الاشتقاقية للكلمة دون غيرها . ويروى في هذا المجال أيضا أن اعرابيا قال عندما سمع قوله تعالى :

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا
 مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُمُوكَ تَسْلِيمًا^(٢)

قال : من أغضب الرحمن حتى يقسم . ذلك لأن هذا الاعرابي أحس بنبرة الغضب والشدة التي تصاحب مثل هذا السياق .

ويظهر دور العلاقات النحوية في بيان الدلالة واضحا في هذه الآية المشهورة :

وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ^(٣)

١ - الدخان ٤٣ - ٤٩ .

٢ - النساء ٦٥ .

٣ - التوبة ٣ .

فكلمة رسوله الأولى مجرورة على حين أن الثانية مرفوعة ، ولا بد أن تكون كذلك ، وربما أمكن أن تكون الكلمة الثانية منصوبة على العطف أما أن تكون مجرورة فلا . لأن معنى الآية يمنع ذلك ويحرمه .

وفي الآيات التي طالما ملكت عليّ نفسي عند تلاوتها قوله تعالى في سورة يوسف
 قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَأَنْتَ لَا أَنْتَ
 يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ
 فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١)

ان الاستفهام والتوكيد المتجاورين في مطلع الآية الثانية منهما يكشفان عن حقيقة نفسية عميقة في طبيعة الانسان ، و يرسمان صورة بارعة لموقف انساني واقعي في مثل هذه الحالة « قالوا أنك لأنت يوسف » ، لقد استرجعوا الصورة التي مر عليها عشرون عاما في لحظة واحدة ، ولكنهم مازالوا مبهورين مترددين بين الشك واليقين . ويستطيع كل قارئ أن يتمثل في حياته الواقعية مثل هذا الموقف عندما يلتقي بانسان فجأة بعد غياب استمر السنوات الطوال .

ان هذه الآية السابقة توضح أثر النبر والتنغيم في الدهشة التي تنطق بها الآية . وتوضح أثر العلاقات النحوية في ترتيب الكلمات لتؤدي المعنى المقصود ، وأثر الصرف كذلك في اختيار الأفعال والحروف والضمائر التي تتكون منها تلك الآية ، أو ذلك الجزء الأول منها ، ويدل كل ذلك على دور السياق في بيان الدلالة .

وهناك آلاف الأمثلة على أثر اختيار كلمة دون أخرى في بيان الدلالة القرآنية . بل إن كل كلمة في القرآن الكريم شاهد على ذلك ، لأن كل كلمة في القرآن الكريم قد وضعت في مكانها المحدد الذي لا يجوز أن تكون فيه كلمة غيرها . لأن ذلك يخل بالنظام المتكامل الذي بنى عليه القرآن ، خاصة وأنا قد علمنا أن الكلمة القرآنية — في مكانها — تحدد بل تجمع كل معطيات عوامل السياق المختلفة في اظهار الدلالة في وقت واحد . ولنضرب مثلاً

على ذلك قوله تعالى :

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً^ط قَالُوا لَا تَحْزَنْ^ط وَبَشِّرْهُ^ط بِغُلَامٍ عَالِمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ
أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ^(١)

انني أكاد أسمع صوت تلك الكلمة ، وأشاهد تلك الحركة المفاجئة من زوجة ابراهيم عليه السلام عندما بشروها بأنها ستلد بعد أن تقدم بها السن ويئست منذ فترة طويلة من المحيض ، والى جانب هذا فاننا على يقين من أن أي كلمة أخرى في اللغة لا تقوم مقام كلمة «صكت» في هذا السياق المعبر .

وأستطيع أن أقرر هنا أن علامات الترقيم التي يستعين بها الكتاب في توضيح الملامح الانسانية والمشاعر النفسية لدى المتكلمين في الحوار الذي يجرونه على ألسنتهم ، موجودة ومتحققة في القرآن الكريم بصورة ظاهرة . ولئن كان المصحف الشريف خاليا من رموز هذه العلامات ، فقد قامت المفردات بهذا الدور الكبير . ويكفي أن نفتح القرآن الكريم في أي سورة من سوره لكي نتحقق من هذا الأمر . قال تعالى :

وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْطُنَّ^ط فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ
أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٦﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِيتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا^(٢)

ان هاهنا الفواصل التي توقف الانسان على المقاطع التي تتكون منها العبارة الواحدة . وان ها هنا النقطتين بعد القول ، وكذلك علامة السببية التي تربط بين ما قبلها وبين ما بعدها . وهنا أيضا علامة الجملة المعترضة . كل تلك العلامات تكاد تلمح بين الكلمات ، ومن البديهي القول إن السياق والنظم القرآني هو الذي يوحى بها . وأرجو ألا يفوتني هنا الإشارة الى دور السياق في بيان دلالة هذه الآية وخاصة في قوله تعالى « وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْطُنَّ » ان اللسان يكاد ينقصد ويتلوى ويتعثر وهو ينطق هذا المقطع ، وهو

١ - الذاريات ٢٨ - ٢٩ .

٢ - النساء ٧٢ - ٧٣ .

شديد الدلالة على هؤلاء المعوقين الذين يضعون العثرات والعراقيل أمام المجاهدين . وقد ظهر هذا التعقيد المقصود من توالي حروف النون واللام في هذا الترتيب العجيب .

ان تلك الأمثلة المحدودة ما هي الا اشارة الى عدة بحوث غنية لا تزال تنتظر الدارسين ليبينوا أثر كل تلك العلوم في السياق القرآني . وأرجو أن يكون هذا البحث — في فصوله التالية — شاهداً على ذلك . وقد حرصت فيه أن أحدد معاني المصطلحات القرآنية من خلال موقعها في السياق . بل في السياقات المختلفة التي يمر فيها المصطلح الواحد . وكنت ألاحظ أن الكلمة — مفردة — لا تعني شيئاً ، ولكنها عندما تنسق في سياق خاص فإن معنى واضحاً يشع منها . مثال ذلك كلمة جاء الموت ، وحضر الموت ، لا فرق بينهما هنا . ولكن عندما نقرأهما في السياق القرآني سنجد أن بينهما فرقاً كبيراً ومثاله أيضاً : الحياة والموت . فإن السياق يعطيها معنى أكثر من المعنى الذي يتبادر الى الذهن سريعاً . وكذلك مصطلحات النصر والفتح والفلاح والفوز والعذاب والعقاب . والأفضل القول إن كل مصطلحات هذا البحث تؤيد ذلك . وبخاصة تلك المصطلحات المتقابلة التي تعطي كل منها دلالة تخالف الأخرى ، مثل الهدى والضلال . والرشد والغى ، والتقوى والفجور .

ان ما قلته عن المصطلحات القرآنية أمر طبيعي في شأن القرآن الكريم . فهو كتاب الله المعجز ، وهو من عند الله العليم بخلقه وطبائعهم ونفسياتهم ، فلا غرو أن ينزل الكتاب يخاطب هذه النفوس ، وهذه القلوب بما يؤثر فيها ويشيرها ، حسب المواقف المختلفة .

وهذا البحث ان هو الا محاولة متواضعة للحديث عن بعض المعاني القرآنية التي تتضمنها المصطلحات الاسلامية . ومقارنتها بالمعاني التي كانت تحملها المصطلحات نفسها في اللغة العربية في الشعر الجاهلي . أي هو دراسة اللغة الاسلامية التي تكونت من تأثير القرآن في اللغة العربية . وأعتقد من خلال جولتي مع هذه المصطلحات أن هذا الباب — باب الدلالة القرآنية — لا يزال بحاجة الى بحوث كثيرة وجهود كبيرة ، خاصة اذا ذكرنا حاجة المكتبة القرآنية الى الدراسات المتخصصة في دور العلوم اللغوية المختلفة المتطورة في بيان الدلالة .

الفصل الثالث

مصطلحات في العقيدة

يمكن أن نعتبر العقيدة ذاتها مصطلحا اسلاميا ، ولكنها ليست مصطلحا قرآنيا لأنها لم ترد بصيغتها هذه في القرآن الكريم . وانما وردت في سبع آيات فقط كلمات « عقدت » و « عقدتم » و « العقود » و « عقدة » ثلاث مرات ، « والعقد » . ومن معاني هذه الكلمات اشتق الناس صيغة « عقيدة » التي شاعت كثيرا في كتب الفقه والتفسير والدراسات الاسلامية .

وأصل العَقْد هو نقيض الحَلّ من عَقَدَه يَعْقِدُه عَقْدًا وَتَعْقَدًا . والعَقْدَةُ هي حجم العقد ، وجمعها عَقْد . يقال عقدت الحبل فهو معقود . وعن هذا المعنى أخذت كل المعاني المجازية المعروفة . مثل عقدت العهد وعقدت اليمين والميثاق (١) . وعليه قول الخطيب في المدح (٢) :

أولئك قوم ان بنوا أحسنوا البنا وان عاهدوا أوفوا وان عاقدوا شدوا
ومنه العقيد بمعنى الحليف كما يفهم من قول أبي خراش الهذلي (٣) :

كم من عقيد وجار حل عندهم ومن مجار بعهد الله قد قتلوا
وقال طرفه بن العبد (٤) :

أبر وأوفى ذمة يعقدونها وخيرا اذا ساوى الذرا بالحواركا

وقد وردت كلمة العقيدة بهذه الصيغة في المصباح المنير (٥) . قال « عقدت الحبل عقدا من باب ضرب فانعقد ، والعقدة ما يمسكه ويوثقه ، ومنه قيل عقدت البيع ونحوه ، والعقيدة ما يدين الانسان به ، وله عقيدة حسنة سالمة من الشك » . وبنو عقيدة قبيلة من قريش ، وقيل قبيلة من العرب (٦) .

١ - لسان العرب مادة عقد .

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - ديوان طرفه ، ص ١٠٧ .

٥ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، المرقى الفيومي ، المطبعة العلمية ، الطبعة الأولى ١٣١٥ هـ ، ج ٢ ، مادة عقد .

٦ - لسان العرب مادة عقد .

ومصطلح العقيدة يجمع تلك المصطلحات التي تتحدث عن الصفات والأعمال التي توثق صلة العبد بربه . وفي الاسلام نعني بها الصفات والأعمال التي تُعدُّ دليل الايمان الوثيق بالله عز وجل ، وبما أنزل على رسله من كتب سماوية تحمل تعاليم الدين الحنيف . والعقيدة بهذا المفهوم اصطلاح اسلامي لأنه لم يستعمل في الجاهلية بهذا المعنى . وقد انتشرت بعد نزول القرآن ، وبخاصة في العصور المتأخرة ، كتبٌ كثيرة تحمل هذه الكلمة ضمن عناوينها مثل « عقيدة المسلم » والعقيدة الاسلامية : طبيعتها وأسسها » وغيرها .

وبناء على المفهوم السابق للعقيدة نجد أن كل المصطلحات التي نحن بصدد دراستها يمكن أن تدخل ضمن هذا المفهوم . فاذا استعرضنا المصطلحات الاسلامية التي ثبتناها في فهرس هذه الدراسة نجد أنها يمكن أن تدخل ضمن فصل العقيدة بنوع من العلاقة أو الارتباط .

فمقومات الايمان والاحسان ، مثل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، تعد من صميم الصفات التي تحدد عقيدة الانسان . ويمكن أن يندرج ضمن هذا الفصل أيضا المصطلحات التي تتحدث عن معنى الاسلام وأركانها ، وكذلك الصفات التي يتصف بها المرء حسب درجات ايمانه ، أو الصفات التي يتصف بها حسب درجات كفره . وكذلك الحديث عن عالم الغيب بكل ما فيه من مسميات ورد ذكرها في القرآن الكريم . ثم الحديث عن اليوم الآخر ، وعن الجنة وصفاتها والنار وصفاتها .

وتخلصا من هذه العقبة رأيت أن أخصص فصلا للصفات والأعمال التي تعد أساسا وقاعدة لكل ما يليها من أعمال وصفات ، وأن اسمي هذا الفصل « مصطلحات العقيدة » . لأن الانسان لا يقوم بما كلف به من أركان الاسلام ، أولا يتصف بصفات الاسلام والايمان والاحسان ، أولا يعرض عن عبادة الله ، ولا يقوم بما أمر به من تكاليف ، الا بمقدار ما يؤمن بالله عز وجل أو يكفر به . ولذا سيقصر هذا الفصل على تلك الصفات الرئيسية — ان جاز هذا الوصف — على أن تشمل الفصول الأخرى المصطلحات التي يحسن أن تندرج تحت عنوان واحد ، كأركان الاسلام ، وصفات الجنة والنار ، وعالم الغيب ، وما الى ذلك . وفيما يلي عرض للمصطلحات التي سيتحدث عنها هذا الفصل :

- ١ - الله . إله . ثم الاسماء الحسنى التي تدخل ضمن نطاق الاصطلاح مثل الأحد الصمد . الجبار . الرحمن . الرحيم ، سبحان و يلحق به مصطلح التسبيح .
- ٢ - الدين والشريعة .
- ٣ - الرب .
- ٤ - الرسول والنبي .
- ٥ - القضاء والقدر .
- ٦ - الاسراء والمعراج .
- ٧ - العبادة . ويرتبط بهذا المصطلح مصطلحات أخرى مثل :
الحنيفية .
الجاهلية .
الأصنام والأوثان .
الحلال والحرام . ويتبع هذا المصطلح الحديث عن مصطلحي الفرض والسنة .

الله ... إله :

ذكرت أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوي الشريف . وفي هذين المصدرين الأساسيين عد العلماء تسعة وتسعين اسما لله عز وجل ، أخذوا بعضا من القرآن الكريم ، وبخاصة من قوله عز وجل :

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ
الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)

وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم ترد أسماء أخرى لله عز وجل في مثل قوله تعالى :

١ - سورة الحشر ٢٣ - ٢٤ .

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ ^(١)

وقد نص الحديث الشريف على أن لله تسعة وتسعين اسما ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

« ان لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة ، وان الله وتر يحب
الوتر ، رواه الشيخان والترمذي ^(٢) . وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان لله تسعة
وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة : هو الله الذي لا اله الا هو الرحمن الرحيم ، الملك ،
القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ،
المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ،
الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ،
الخبير ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ،
الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ،
الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ،
المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتر ، المقدم ،
المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، الثواب ، المنتقم ،
العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والاكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ،
المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » .
رواه الترمذي وابن حبان والحاكم ^(٣) .

ويلاحظ القارئ ان الله عز وجل يكرر لفظ الجلالة « الله » أمام كل اسم آخر من
أسمائه الحسنی ، مما يدل على أنه الاسم الأساسي ، والباقي صفات لله عز وجل . وقد
وردت هذه الحقيقة صريحة في القرآن الكريم في قوله تعالى :

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٤)

١ - سورة الاخلاص كلها .

٢ - لتاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول ، الشيخ منصور علي ناصف ، المكتبة الاسلامية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٢ ، ج ٥ ،

ص ٩١ .

٣ - سورة الأعراف ١٨٠ .

٤ - التاج الجامع للأصول ج ٥ ص ٩٦ .

وقد ارتضى هذا الفهم جلة العلماء الذين تعرضوا لتفسير القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف . وعقد أبو حاتم الرازي في كتابه « الزينة » فصلا بعنوان « انفراده تعالى باسم الله » قال فيه : « قال بعض العلماء اسمه الله ، لأنه تفرد بهذا الاسم ، فلم يسم بهذا الاسم شيء من الخلق ، ولم يوجد هذا الاسم لشيء من الأشياء . ووجدنا غيره من أسمائه الحسنی نعوتا وصفات لهذا الاسم الواحد . وإنما جاز أن يقال لها أسماء وهي صفات ونعوت لأن النعت يقوم مقام الاسم ويكون خلفا له . فهذا الاسم مسئول عن الأسماء كلها . أعني الله عز وجل ، واليه تُنسب الأسماء كلها . قال الله عز وجل « ولله الأسماء الحسنی » فنسب الى هذا الاسم الأسماء كلها . والبر والفاجر انقادا له بهذا الاسم كرها أو طوعا ، وتسمى الناس بسائر الأسماء ولم يتسموا بهذا الاسم الواحد وهو الله » (١) .

وورد في محاولة تفسير هذا الاسم عدة آراء :

١ - أولها يقول إنه اسم عربي مشتق من قولهم « فلان يتأله أي يتعبد وهو عابد متأله » (٢) . وكلمة يتأله مضارع تأله . ثم قالوا أله يأله اذا تحير كأن القلوب تأله أي تتحير عند التفكير في عظمته ، فلا يعلم أحد كيف هو . واستدلوا على هذا المعنى بقول زهير (٣) :

وبيداء قفرتأله العين وسطها مخفقة غبراء صرماء سملق (٤)

وأصحاب هذا الرأي يرون أن كلمة الله هي « إله » معارف بالألف واللام « الإله » ، فالألف هو من سنخ الكلمة لأنه في الأصل إله ، والألف ادخلت فيه مع اللام للتعريف ، فلما أدخلت فيه ألف التعريف سقطت الألف الأصلية ، وتركت الهمزة لكثرة ما يجري على ألسنتهم ، وأدغمت لام المعرفة في اللام التي لقيتها وفخمت وأشبعحت حتى أطبق اللسان بالحنك لضخامة ذكره تبارك وتعالى . ثم صارت الألف واللام فيه كأنهما من سنخ الكلمة فقليل : الله وكان الاسم مخصوصا له جل ذكره » (٥) .

٢ - ورأى آخر يقول ان الله اسم لا اشتقاق له . وليس له أصل في لغة العرب ، وفي غيرها

١ - الزينة ج ٢ ص ١٢ .

٢ - أساس البلاغة ، محمود بن عمر الزمخشري ، المطبعة الوهية ، الطبعة الأولى ، ١٨٨٣ ، مادة أله .

٣ - الزينة ج ٢ ص ١٩ ، ديوان زهير ٢٤٧ ، طبعة الدار القومية .

٤ - مخفقة تلمع لمخفق السراب . صرماء : لا ماء فيها . سملق : لا نبت فيها .

٥ - الزينة ج ٢ ص ١٣ .

من اللغات . وهو اسم مرتجل . وقد نقل هذا الرأي عن الخليل بن أحمد فيما حكاه عنه البيهقي الذي تابعه فيه . « وأحب هذه الأقاويل إليّ قول من ذهب الى أنه اسم علم وليس بمشتق . والدليل على أن الألف واللام من بنية هذا الاسم دخول حرف النداء عليه كقولك يا الله . وحرف النداء لا تجمع مع الألف واللام » (١) .

وقد تتبع الاستاذ حسين الهمذاني هذا الاسم مع مقارنته مع نظيره في اللغات السامية الأخرى . فوجد أن الاسم استعمل بلفظ « الوه » في العبرية . « والاه » في الآرامية و « ألوها » في السريانية ، و « إلاه » في العربية الجنوبية . مما يدل على أنه اسم علم (٢) . وقد ذكر الاستاذ الهمذاني في معرض شرحه وتحقيقه لكتاب الزينة أن الكلمة الأصلية لهذا الاسم في جميع اللغات السامية هي « إيل » ثم أخذت صوراً يختلف بعضها عن بعض . ولذا فهو يرى أنه « اسم علم ، اسم جامد اسم عربي قديم ، ولا يحتاج الى اشتقاقه من أله ياله وله ياله » (٣) .

ولعل هذا التفسير الأخير لأصل كلمة « الله » بأنها اسم عربي علم قديم ، جامد غير مشتق ، هو التفسير الأقرب الى الصواب . ويدفعني لتبني هذا الرأي عدة أسباب :

١ - ان القرآن الكريم يفرق في استعماله بين كلمة « الله » وبين كلمة « إله » وأن هذه الكلمة الأخيرة تأتي غالباً وصفاً لكلمة الله . وذلك في مثل قوله تعالى :

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٤)

وهناك آيات كثيرة غيرها . وهذه الآيات الكريمة تدل دلالة واضحة على أن كلمة اله ليست هي كلمة الله نفسها . بل تعني أن المعبود المحبوب بحق هو الله . وذلك ما يفهم من قوله تعالى :

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)

١ - الزينة ج ٢ ص ٢٠ هامش رقم ١ . وانظر تفصيل هذه الآراء في بصائر ذوي التمييز ج ٢ ص ١٢ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٠ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٠ .

٤ - سورة البقرة ٢٥٥ .

٥ - سورة آل عمران ٦٢ .

ومن قوله تعالى :

إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ^(١)

وقد وردت كلمة اله مثناة ومجموعة في آيات القرآن الكريم عند مناقشة الكفار الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى يشركونها في الحكم ، قال تعالى :

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ ^(٢)

وقال تعالى :

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ^(٣)

وهذا يدل على أن كلمة إله ليست هي المقصودة بكلمة الله . وليست هي أصلا لها كما حاول الاشتقاقيون أن يفسروها . وإنما الذي يقال في هذا المجال أن كلمة إله هي كلمة عربية . وهي كما فسرها اللغويون تتألف من ثلاثة حروف : الهمزة واللام والهاء . وقد فسرتها معاجم اللغة بما يلي :

ألهت الى فلان : سكنت اليه .

أله الرجل يأله : اذا فزع من أمر نزل به فألهه غيره أي أجاره .

أله الرجل الى الرجل : اتجه اليه لشدة شوقه اليه .

أله الفصيل : اذا ولع بأمه .

أله الإلهة والوهة : عبد ^(٤) :

وبذلك يظهر أن كلمة إله كانت تعني عند العرب :

— الجهة التي يسكن اليها الانسان اذا حزبه أمر أو فزع من حديث مفاجيء .

١ - سورة النساء ١٧١ .

٢ - سورة المائدة ١١٦ .

٣ - سورة الانبياء ٦٨ .

٤ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، أبو الأعلى المودودي ، دار القلم ، الكويت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧١ ، ص ١٣ .

— الجهة التي يستأنس بها الانسان ويرغب في اللجوء اليها .

ثم تحول هذا السكن والاستئناس مع مرور الأيام الى تخصيص تلك الجهة بمعبود يتجهون اليه بالعبادة والتقرب . ويؤيد هذا أنهم كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم الى الله زلفى . وكانت تصوراتهم حول هذا المعبود مستمدة كلها من معاني هذه الكلمة المتداولة في لغتهم . « فالتصورات التي قد أطلقت من أجلها كلمة « الاله » على المعبود هي تحقيق الحاجة والاجارة والتهدة والتعالي والهيمنة وقمك القوى التي يرجى بها أن يكون المعبود قاضيا للحاجات ، مجيرا من النوازل ، وأن يكون متواريا عن الأنظار ، يكاد يكون سرا من الأسرار ، لا يدركه الناس وأن يفزع اليه الانسان ويولع به » (١) . وبهذا يكون الأمر أيسر من أن نحاول التكلف والتعسف في تفسير كلمة الاله . وانها تحولت الى كلمة الله . خاصة وأن كلمة اله وكلمة الله كليهما وردتا في أشعار العرب قبل نزول القرآن الكريم .

قال النابغة الذبياني (٢) :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه وما أحاشي من الاقوام من أحد
الا سليمان اذ قال الإله له قم في البرية واحدها عن الفند
وقال عامر بن الطفيل (٣) :

صبرت حفاظا يعلم الله أنني أحاذر يوما مثل يوم المشقر

وهذا يؤكد أن كلمة الله تختلف عن كلمة الاله في الاستعمال الجاهلي . لأن ورود الكلمتين في فترة واحدة في الشعر يدل على أن كلا منهما كلمة مستقلة عن الأخرى .

٢ - أن كلمة الله تشبه في لفظها وبنائها اللغوي مثيلاتها في اللغات السامية الأخرى .

خاصة اذا عملنا أن الكلمة الأصلية لها هي « أيل » التي منها تطورت كل الصور الأخرى في اللغات السامية . وقد وردت في القرآن الكريم بعض أسماء الملائكة مثل ميكائيل ، واسرافيل ، وهي أسماء غير عربية في الأصل ، قيل في تحليلها أنها أسماء مركبة من كلمتين احدهما — الثانية — هي « أيل » بمعنى الله . كما سيأتي عند بحث مصطلح الملائكة .

١ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، ص ١٥ .

٢ - شرح المعلقات السبع ، أبو عبد الله الزوزني . مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٠٠ .
وديوان النابغة ص ٢٠ .

٣ - ديوان عامر بن الطفيل ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٦٢ .

٣ - أن أبا حاتم الرازي وابن قتيبة وابن دريد هم من أصحاب «مدرسة الاشتقاقين» الذين ربطوا بين الالفاظ ومدلولاتها ربطا وثيقا ، وحاولوا ارجاع كثير من الالفاظ المشتركة في حروفها الى معنى أصلي عام منه اشتقت تلك الكلمات . وقد تكلف صاحب الجمهرة في الاشتقاق كثيرا حتى انه جعل اسم قضاة مشتقا من انقضع الرجل أي ابتعد عن أهله . وذلك لأن قبيلة قضاة رحلت من جنوب الجزيرة الى شمالها (١) . ولا يبعد أن يكون أبو حاتم قد تعسف هو أيضا في محاولة ارجاع الله الى أصل اشتقاقي منطلقا من هذه النزعة التي سيطرت عليه .

٤ - أن كلمة الله قد وردت كثيرا في أشعار العرب قبل نزول القرآن . مما يدل على أنها كلمة مألوفة تجرى على ألسنتهم جريانا طبيعيا ، وأنها قديمة في استعمالهم اللغوي . ولو كانت الكلمة من أله يأله أو وله يأله لرأينا في بعض أقوالهم ما يدل على أصلها الأول قبل أن تتحول الى صيغتها المشهورة . ومما ورد في أشعارهم قول قيس بن الخطيم (٢) :

قضى الله حين صورها الخالق الا يكنها سدف
والله ذى المسجد الحرام وما جلل من يمنة لها خُئف
أنى لأهواك غير كاذبة قد شف منى الأحشاء والشغف
وفي ذلك شعر امرئ القيس (٣) :

فاليوم أسقى غير مستحقب إنما من الله ولا واغل

ووردت في غير ذلك من أقوال الشعراء . كما وردت في النثر الجاهلي كثيرا . وكل ذلك يدل على شهرة الكلمة وذوب استعمالها .

كما يدل ذلك على أن كلمة «الله» وهي أشهر مصطلح اسلامي قد استعملت في القرآن الكريم في كل المواضع التي بلغت تسعمائة وثمانين موضعا (٤) ، بالمعنى الذي حملته في الشعر الجاهلي نفسه .

١ - انظر الزينة ج ١ ص ١٠ .

٢ - ديوان قيس بن الخطيم . حققه وعلق عليه الدكتور ناصر الدين الأسد ، مكتبة دار العروبة ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ، ص ٥٦ .

٣ - ديوان امرئ القيس : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ ، ص ١٢٢ .

٤ - اعتمدت في احصاء الآيات القرآنية التي وردت فيها المصطلحات الاسلامية على كتاب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» وضع محمد فؤاد عبد الباقي ، مطابع الشعب ، كتاب الشعب ، ١٣٧٨ هـ .

الأحد - الواحد - التوحيد :

استعمل الشعر الجاهلي كلمة «أحد» بالمعنى العادي المألوف بين الناس حتى الآن ، وهو «فرد من الخلق» . وهذا المعنى واضح في قول النابغة الذبياني في معلقته (١) :

يا دارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها طويلا كي أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد

وفي قول النابغة أيضا في القصيدة نفسها (٢) :

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلا على الناس في الأدنى وفي البعد
ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه وما أحاشي من الأقوام من أحد

وإذا تأملنا الصيغة المزیدة لهذه الكلمة على وزن «أفعل» أي «أوجد» وجدنا أنها تحمل في شعرهم معنيين جديدين : أولهما : انفراد المرء بصفة أو عدة صفات يتميز بها عن غيره ، يقال هو أوجد قومه . وثانيهما : بمعنى «الأول» ويفهم هذا المعنى في قول طرفة بن العبد (٣) :

تمنى رجال أن أموت ، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوجد
ويؤيد هذا أنهم سمو يوم الأحد - أحد أيام الأسبوع - بأنه الأول ، أو وصفوه بأنه أول ، لأن اسمه الأحد . قال الأعشى (٤) :

أأمل أن أعيش وأن يومي بأول أو بأهون أو جبار
أو التالي دبار أو فيومي بمؤنس أو عروبة أو شيار

وقد عد الشاعر في هذين البيتين أيام الأسبوع كما كان يعرفها الناس في العصر الجاهلي . وكذلك يفيد استعمالهم لكلمة «وحد» أنها تعني الوحيد . قال النابغة (٥) :

مَجْرَسٌ وَحْدٌ جَابِ أطاع له نباتٌ غيثٌ من الوسميِّ مكار

١ - ديوان النابغة الذبياني . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧ ، ص ١٤ .

٢ - ديوان النابغة ، ص ٢٠ .

٣ - ديوان طرفة بن العبد البكري ، مع شرح الأديب يوسف الأعلام الشتيمري . طبع في مدينة شالون على نهرسون ، مطبع بن طراند سنة

٤ - الأ وائل ، ص ٣٤ .

٥ - ديوان النابغة ، ص ٢٠٣ .

ولم أجد في الشعر الجاهلي ما يدل على أن «أحد» قد ذكرت اسما لله عز وجل أو أنها استعملت وصفا له .

وفي القرآن الكريم وردت «أحد» وأخواتها أربعا وثمانين مرة . ثلاثة وثلاثون منها على صورة أحد مرفوعة . وعشرون على صيغة «أحدا» منصوبة ، بالإضافة الى صيغ «أحدكم» و «أحدكما» و «أحدنا» و «أحدهم» و «أحدهما» و «أحدى» و «أحدهما» و «أحدهن» .

ومن يتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن كلمة «أحد» لم تأت وصفا لاسم الله عز وجل الا في آية واحدة هي قوله تعالى في سورة الاخلاص «قل هو الله أحد» (١) أما في الآيات الأخرى كلها فقد وردت بالمعنى اللغوي وهو «واحد من الخلق» و يتضح ذلك في قوله تعالى :

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ
ثُمَّ ابْلِغْهُ أَمَانَهُ (٢)

وفي قوله تعالى :

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِكَيْهِ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ (٣)

وفي قوله تعالى :

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ
وَلَا تَنْهَرَهُمَا (٤)

على أن اضافة أحد الى الضمائر في الصيغ السابقة يدل دلالة أكيدة على أن المقصود بها هو واحد من الناس ، أو واحد من اثنين ، أو واحدة من اثنتين ، أو إحدى جماعة النساء . وهذا التوضيح ينفي ما رآه صاحب «الأشباه والنظائر في القرآن الكريم» من أن تفسير أحد على ثلاثة وجوه : «فوجه منها أحد هو الله فذلك قوله في «لا أقسم بهذا البلد»

١- سورة الاخلاص ١ .

٢- سورة التوبة ٦ .

٣- سورة الكهف ١٩ .

٤- سورة الاسراء ٢٣ .

«أيحسب أن لن يقدر عليه أحد» يعني أيحسب أن لن يقدر عليه الله . والوجه الثاني يعني النبي صلى الله عليه وآله ، فذلك قوله في الحشر «ولا نطيع فيكم أحدا أبداً» أي قال المنافقون لا نطيع محمدا فيكم . والوجه الثالث أحد يعني بلالا حين كان مولى ، فذلك قوله في الليل «وما لأحد عنده» يعني لبلال عند أبي بكر حين اعتقه أبو بكر «من نعمة تجزى» (١) . وإذا أنعمنا النظر في هذا الرأي نرى أنه لا يعطي تفسيراً مقبولا لمعنى هذه الكلمة المتكررة في القرآن الكريم ، خاصة وأنه يعالج ثلاثة مواضع فقط على حين وردت هذه الكلمة في أكثر من ثمانين موضعا . والا فكيف نقول في قوله عز وجل مثلاً

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ (٢) ؟

فهل أحد هنا تعنى الله أو محمداً أو بلالا ؟ ووجود «من» قبل كلمة «أحد» في هذه الآية وأمثالها ينفي أن يراد بها أحد المعاني التي رآها صاحب الأشباه والنظائر . ثم إن تلك الكريمات التي أوردها يمكن فهمها بيسر وسهولة على أن «الإنسان المخلوق في كبد ، الذي لا يخلص من عناء الكدح والكد لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع فيتصرف تصرف الذي لا يحسب أنه مأخوذ بعمله ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه (٣) .

ولهذا فاني لا أرى أن كلمة أحد قد خصصت في القرآن الكريم الى الدرجة التي تصبح معها مصطلحا قرآنيا . بل هي تخصصت في الدراسات الاسلامية التي كتبت حول القرآن الكريم ، وكل ما كتب عنها هو استمرار في تفسير قوله تعالى «قل هو الله أحد» ، فقد وصف الله عز وجل ذاته بالأحادية ، وسوف يأتي الحديث عنها بعد قليل ، ولكنني أشير قبل ذلك أن كلمة أحد اذا أطلقت الآن فانها لا توجه الذهن الى معنى قرآني خاص بالله عز وجل كما لو أطلقت كلمة الرحمن مثلاً . ومما يشفع لهذا الرأي أن كلمة أحد أو الأحد لم ترد ضمن أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين التي ذكرت في الحديث السابق في مصطلح هذا الفصل .

أما وصف الله عز وجل ذاته بأنه «واحد» فقد ورد في اثنين وعشرين موضعا في القرآن الكريم . وقبل أن نمثل ببعض هذه الآيات الكريمة ونعلق على معنى الواحد فيها نشير الى أن

١ - الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

٢ - سورة التوبة ١٢٧ .

٣ - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٩٧١ مجلد ٨ ص ٢٦٠ .

الشعر الجاهلي استعمل كلمة « واحد » بمعناها المألوف وهو أول الأرقام ، الذي يسبق الاثنين أو الثلاثة ، وقد عرفت المعاجم بأنه أول عدد الحساب (١) . وهو يحمل معنى الاعلان عن عدد الشيء ، وأن هذا العدد واحد لا أقل منه ولا أكثر . وقد ورد هذا المعنى في شعر الأعشى حيث يقول (٢) :

يرى كل ما دون الثلاثين رخصة ويعدو اذا كان الثمانون واحدا
ويقول في قصيدة أخرى (٣) :

فظل يخدعها عن نفس واحد في أرض فيء بفعل مثله خدعا
وفي قصيدة ثالثة (٤) :

ولم يسع في الأقوام سَعْيِكَ واحد وليس إناء للندى كإنائك

ويلاحظ أن كلمة « واحد » هنا تعني « أحدا » أي لم يسع في الأقوام أحد من الناس سعيك .

وقال حاتم الطائي (٥) :

أماويّ إنّي ربّ واحدٍ أمّ أخذتُ فلا قتل عليه ولا أشر
وقال أبو خراش (٦) :

أقبلت لا يشتد شدي واحد علج أقب مُسَيَّرُ الأقرب
وأشد ابن الأعرابي (٧) :

فلما التقينا واحدٍ علوته بذى الكف ، إنّي للكماة ضروب

ولم يخرج معنى كلمة « واحد » في الاستعمال القرآني عن هذا المفهوم الذي رأيناه في الشعر الجاهلي . فقد وردت الكلمة لتدل على ذلك المعنى في شئون الحياة اليومية ، والأمور العادية في مثل قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسِي لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ (٨)

٥ - ديوان حاتم ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٥١ .

٦ - لسان العرب ، مادة وحد .

٧ - المرجع السابق مادة وحد .

٨ - سورة البقرة ٦١ .

١ - انظر لسان العرب مادة وحد .

٢ - ديوان الأعشى : ص ١٠٣ .

٣ - المرجع السابق ص ١٤١ .

٤ - المرجع السابق ص ١٢٧ .

وقوله تعالى :

وَقَالَ يَبْنِي لَاتَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ^١

ووردت الكلمة على صيغة « واحد » منكراً عندما كانت وصفاً لكلمة « إله » في القرآن الكريم ، وذلك في آيات عديدة منها :

قوله تعالى :

وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ^(٢)

وقوله تعالى :

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ^(٣)

أما كلمة واحد معرفة على صيغة « الواحد » فلم ترد في القرآن الكريم الا وصفاً لله عز وجل في مثل :

قوله تعالى :

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٤)

وقوله تعالى :

سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٥)

وقوله تعالى :

لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ^(٦)

وقد فسر العلماء هذا النعت الذي قامت به كلمة « الواحد » في الآيات الأخيرة فقالوا « انه نعت يلزمه على الحقيقة لأنه كان قبل ولا ثاني له . والثاني خلاف الواحد ، فهو واحد

١ - سورة يوسف ٦٧ .

٢ - سورة البقرة ١٦٣ .

٣ - الأنعام ١٩ .

٤ - سورة ص ٦٥ .

٥ - سورة الزمر ٤ .

٦ - سورة غافر ١٦ .

لا تتحاده بالقدم ، والخلق اثنان لا قترانه بالحدوث ، لأن الحدوث ثان للقدم ، وبه ظهرت التثنية . فالواحد هو الأحد في ذاته اذا لم يلزمه نعت أو صفة فيكون ثانيا له . والخلق اثنان لأنه صفة وموصوف . فهو لا شيء قبله . ولا من شيء ولا في شيء ولا على شيء ولا لشيء ولا مع شيء ، فيكون ذلك الشيء ثانيا معه ، بل هو الواحد منشئ الأشياء ، والأشياء كلها له « (١) » .

وعلى هذا فان وصف الواحد والأحد لله عز وجل هو تخصيص له جل شأنه بالواحدية والأحدية ، وعن هذين الوصفين أخذت عقيدة التوحيد ، أو عرف « مصطلح التوحيد » وهو مصطلح جار مشهور على ألسنة الناس وأقلامهم ، وان لم يرد في القرآن الكريم ، بل ورد أصله الذي انبثق منه . والتوحيد خاص بالله عز وجل ، توحيد الله عن كل شريك ، إنها أحدية الوجود ، فليس هناك حقيقة الا حقيقته ، وليس هناك وجود حقيقي الا وجوده ، وكل موجود آخر انما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي ، و يستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية (٢) .

وهذا التفرد في الوجود والتوحد في الحقيقة يفهم من صفة الأحد أكثر مما يفهم من صفة الواحد . وقد ذكر أن في الأحد خصوصية ليست في الواحد كما يقول أبو حاتم الرازي . والحقيقة أن أكثر علماء التفسير تبينوا هذا الرأي ، لأن الأحد يحمل معنيين معا هما الأول والواحد في الوقت نفسه ، وقد سبق أن العرب سموا يوم الأحد بأنه اليوم الأول . وهذا الذي عناه القرآن الكريم بقوله تعالى « قل هو الله أحد » أي أنه الله الأول الذي لا شيء قبله ، وهو أحد لا ثاني له ، ولا شريك معه .

والشيء الجديد في الاستعمال القرآني هو وصف الله عز وجل ذاته بأنه « أحد » وهو وصف لم يعهد في الشعر الجاهلي ، فلم يرد — فيما قرأت — أن أحدهم قد وصف نفسه أو غيره بهذا الوصف وانما استعملوه بمعنى واحد من الناس كما سبق القول ، وكانوا اذا أرادوا وصف انسان بأنه منفرد في صفة ، قالوا هو واحد قومه ، أو أوجد قومه . وهنا يمكن أن نشير الى دور السياق في فهم الأحدية المنبثقة من آية سورة الاخلاص « قل هو الله أحد » ، فكلمة أحد هنا منقطعة عن الاضافة ، تدل دلالة قاطعة على أن « أحد » هنا تعني التفرد في كل وصف وعن كل شريك . ولكن الآيات الأخرى كلها تأتي مع كلمة أحد بقرائن لفظية لتدل على الاختلاف في المعنى بين آية سورة الاخلاص والآيات الأخرى . وتلك القرائن

٢ - انظر في ظلال القرآن م ٢ ص ٧٠٢ .

١ - الزينة ج ٢ ص ٣٤ .

متمثلة بكلمات مثل « منهم » أو « منكم » أو « من » وحدها . كما يلاحظ في قوله تعالى :

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا^(١)

وقوله تعالى :

فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ^(٢)

وقوله تعالى :

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ^(٣)

وأحيانا تكون القرينة فعلا في الآية ، مثل قوله تعالى

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوَنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ^(٤)

أما كلمة الواحد فيمكن اعتبارها مصطلحا قرآنيا جديدا خصصه السياق القرآني ، ولم يسبق استعماله في الشعر الجاهلي بمثل هذه الصيغة وهذا السياق الذي خصصها لوصف الله عز وجل .

الصمد :

ورد هذا الاسم مرة واحدة في القرآن الكريم . وقد ذكر وصفا لاسم الله عز وجل في قوله تعالى :

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ^(٥)

وقد ذكر في تفسيرها أن الصمد معناه المقصود في الحوائج على الدوام . وهو المتصف بالكمالات المنزهة عن النقائص فلا يقصد غيره ولا يعول الا عليه ^(٦) . وقالوا أيضا انه السيد

١ - سورة التوبة ٨٤ .

٢ - سورة الحاقة ٤٧ .

٣ - سورة الأحزاب ٤٠ .

٤ - سورة آل عمران ١٥٣ .

٥ - سورة الاخلاص كلها .

٦ - حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين . ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي بمصر ج ٤ ، ص ٣٦٧ .

المقصود الذي لا يقضى أمر الا باذنه . والله — سبحانه — هو السيد الذي لا سيد غيره . فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد ، وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده ، الذي يقضي في كل أمر ، ولا يقضي أحد معه . وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الصمد ^(١) . وقالوا انه « السيد المتناهي في السؤدد حتى لا سيد فوقه ، وهو الذي يصمد اليه الخلائق في حوائجهم وينتهون اليه في أمورهم . وانما قيل لله عز وجل لأنه المقصود بالحاجات وهو غاية الغايات وسيد السادات ، لا سيد فوقه ولا غاية وراءه . بل هو الغاية في أنفس المخلوقين ، يصمد اليه ويقصد نحوه لمعرفة الانفس في ضمائرهما وغامض عقولها . انه الغاية التي يضطر اليه الخلائق عند الكرب والشدائد فيلجأ اليه ويصمد نحوه » ^(٢) .

والصمد بهذا المعنى مشهور في كلام العرب . وهذه الملاحظة توجز كثيرا مما يمكن أن يقال عن الصلة بين المصطلح القرآني في كلمة « الصمد » وبين معنى الكلمة في الشعر الجاهلي . ويلاحظ أن كل المفسرين أجمعوا على تفسير الصمد بأنه السيد الذي لا سيد فوقه والملجأ الأخير لكل مضطر . وقد أخذ المفسرون هذه المعاني من واقع فهم الجاهليين لكلمة الصمد واستعمالهم لها في أشعارهم . هذا الاستعمال الذي يدل على التوافق بين المعنى اللغوي وبين المعنى الاصطلاحي للكلمة . قال أحد الشعراء الجاهليين يصف مجلس أحد الملوك ^(٣) :

يزعون الجهل في مجلسهم وَهُمْ أنصارُ ذي الحلم الصمد
وفي معناه قال عبيد بن الأبرص ^(٤) :
لقد بكر الناعي بخيري بني أسد بعمر وبن مسعود وبالسيد الصمد
وقال طرفة بن العبد مفتخرا بنفسه ^(٥) :
وان يلتقي الحي الجميع تلاقني الى ذروة البيت الرفيع المصمد
وقال عمرو بن الاسلم في قتله حذيفة بن بدر ^(٦) :
علوته بحسام ثم قلت له خذها حذيف فأنت السيد الصمد

١ - في ظلال القرآن ، مجلد ٨ ص ٧٠٦ .

٢ - الزينة ج ٢ ص ٤٣ - ٤٤ .

٣ - الزينة ج ٢ ص ٤٣ .

٤ - المرجع السابق ج ٢ ص ٤٣ .

٥ - ديوان طرفة بن العبد البكري ، مع شرح الأديب يوسف الاعلم الشتيري ، طبع في مدينة شالون على نهرسون بطبعة برطراند . سنة

١٩٠٠ م ، ص ٢٢ .

٦ - الزينة ج ٢ ص ٤٤ .

أما اشتقاق الكلمة فمأخوذ من مادة صَمَدٌ نحوهُ يصمد صمداً والاسم الصمد . وفي أساس البلاغة صمده قصده ، وصمد هذا الأمر اعتمده (١) . وسيد صمد ومصمود . وهذا المعنى هو الذي أخذ منه اسم الله عز وجل . أما ما ورد في كتب اللغة من أن الصمد والمصمد هو الذي لا جوف له (٢) ، فهو معنى بعيد غير مقصود ، وبذلك يكون المصطلح الاسلامي موافقا في معناه لاستعمال الكلمة في الشعر الجاهلي .

الجبار:

في موضع واحد فقط في القرآن الكريم وصف الله عز وجل ذاته بصفة الجبار، في قوله تعالى :

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣)

على حين ورد لفظ جبار تسع مرات أخرى في معرض الحديث عن العتاة المتكبرين في الأرض كقوله تعالى :

وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٤)

وقوله تعالى :

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٥)

فكيف نوفق بين وصف الله ذاته بوصف الجبار، وبين هذا الوصف ذاته الذي أطلقه عز شأنه على الطغاة والمتكبرين في الأرض ؟ .

وللاجابة عن هذا السؤال نوضح معنى كلمة جبار ونرى كيف استعملها العرب في كلامهم ثم نرى ما اذا كان هذا المصطلح جديدا في القرآن الكريم أم هو مصطلح مستعمل من قبل .

١ - أساس البلاغة ، مادة صمد .

٢ - الزينة ج ٢ ص ٤٤ .

٣ - سورة الحشر ٢٣ .

٤ - سورة هود ٥٩ .

٥ - سورة غافر ٣٥ .

ونقول في هذا الشأن أن العلماء ذهبوا فريقين في اشتقاق صفة الجبار من مادتها اللغوية «جبر» .

فمنهم من رأى أن الجبار مأخوذ من قولنا جبر المجبر يده فجبرت (١) . ثم استعملت في المجاز كقولنا جبر الله يتمه ، وجبرت الفقير فأغنيته . وعلى هذا الأصل فسر بعضهم الجبار بأنه الذي جبر خلقه على ما أراد لهم . ويرى هذا الرأي ابن قتيبة الذي يقول : « جبر الخلق أي نعشهم وكفاهم . واستدل على ذلك بقولهم : اللهم أجبر فلانا بمعنى اللهم انعشه ، يدعى له إذا كان مضرورا . والجبار هو الفعّال . وسمعت — يقول ابن قتيبة — من يقول يا جابر كل كسير ويا مسهل كل عسير ، كأنه شبه المضروب بالكسير (٢) .

ومنهم من رأى أن الجبار مأخوذ من صفة الجبر بمعنى القهر والالزام . وقد تابع أبو حاتم الرازي من قال بهذا الرأي و يفسره بقوله : « الاسم على معنى القوة والغلبة والقهر ، يقال للملك إذا تكبر على الناس واحتجب ، فلم يوصل اليه في ظلامه ، ولم يكلم هيبه له ، فلا يقدر على الانتصاف منه ، ولا يوجد في سلطانه نصفه ، فيقع في سلطانه الخبط والظلم » (٣) .

وبديهي أن أصحاب هذا الرأي الأخير ينزهون الله عز وجل عن الظلم والقهر . فهم يسندون لله القوة في الوقت الذي يتصف به الله بصفات أخرى كالعدل والعلم والارادة والحكمة . وصفات الله عز وجل تتحقق في ذاته كالصفة الواحدة ، لا تطغى صفة على أخرى ، ولا يتغلب جانب على آخر ، كما يحدث عند الانسان المتصف بالجهل والضعف والتسرع . والله بهذا الوصف هو القوي الذي تعالى على خلقه فلا يصل اليه أحد ، ولا يراه أحد ، وهو جل شأنه فطرهم على ما أراد ، وجبرهم على الدين الذي ارتضاه لهم ، وتعبدهم به .

وقد فسر صاحب الاشباه والنظائر كلمة الجبار على أربعة وجوه : « فوجه منها الجبار يعني القهار الخالق وهو الله تبارك وتعالى . والوجه الثاني الجبار من المخلوقين يعني القتال في غير حق . والوجه الثالث الجبار يعني المتكبر عن عبادة الله ، والوجه الرابع الجبار يعني في الطول والعظم والقوة » (٤) . وأعتقد أن هذه الوجوه الأربعة يمكن أن نعيدها الى وجهين

١ - أساس البلاغة مادة جبر .

٢ - الزينة ج ٢ ص ٨٣ .

٣ - الزينة ج ٢ ص ٨٢ .

٤ - الأشباه والنظائر ص ١٧٠ .

ونردها الى المعنيين السابقين وهما الجبار بمعنى جابر الخلق على ما أراد ، والجبار بمعنى القادر والقاهر فوق عباده .

ونستطيع أن نفهم كيف وصف الله عز وجل ذاته بأنه جبار . وهو الوصف الذي أطلقه على أعداء الله من الطغاة والمستبدين . ذلك أن الله عز وجل فاطر الخلق وجابرهم . وقد أمرهم باتباع أمره لكي يهتدوا ويسعدوا . فالله خالق الناس والناس مخلوقون ، ولا تدركه الأبصار ، ولا يتدخل في حكمه أحد ، فهو جبار بهذه الصفة ، أما الناس فهم أمام الله سواء . فلا يجوز أن يتناول واحد فيهم على غيره ، أو أن يعتدي مخلوق منهم على أخيه ، فإن فعل ذلك فهو قد تجبر ، أي اتصف بما يتصف به الخالق ، وهذا خروج عن دين الله وطاعة الله .

واسم الجبار مصطلح جديد المفهوم في الاستعمال القرآني : فلم يعهد في شعر العرب أن وصفوا أحدا بهذه الصفة . ولكن الاسم نفسه قد اشتق من كلمة عربية معروفة ومتداولة في الشعر الجاهلي . بل إن الشاعر قد نسب الجبر الى الله بقوله :

قد جبر الدين الاله فجبر (١) .

وقد انتشر في شعر الجاهليين معنى جبار بأنه الشيء الذي لا يطال ولا يتوصل اليه . من ذلك قولهم : نخلة جبارة أي طالت فلم يقدر المتناول أن يبلغ أعلاها . قال امرؤ القيس (٢) :

سوامق جبار أتيت فروعه
وعالين قنوانا من البسر أحرا
وقال الجعدي (٣) :

بتثليث أو نخل منفوخة مواقير جببارة المرطب

وبهذا يسهل الاستدلال على اشتقاق كلمة الجبار في استعمال العرب ، وإن كان استخدام القرآن الكريم لها استخداما جديدا . ويمكن أن نلاحظ أن هذه الصفة وردت معرفة عندما وقعت صفة لله عز وجل على حين ذكرت نكرة في المواضع الأخرى . ويبدو أن هذا التعريف قد أضاف الى كلمة الجبار نوعا من التخصيص والتحديد في كونها صفة لله عز وجل .

١ - أساس البلاغة مادة جبر .

٢ - ديوان امرئ القيس ص ٥٧ .

٣ - الزينة ج ٢ ص ٨١ . وتثليث اسم مكان .

الرحمن الرحيم

« أولوا الأرحام » و « الرحمة » و « صلة الرحم » .

الأصل اللغوي لهذه المصطلحات جميعها هو الرحم التي هي منبت الولد كما عرفها علماء اللغة (١) . وقد ذكرها عبيد بن الأبرص بقوله (٢) :

أعاقِر كذات رحم أم غانم كمن يخيب
وقد سمي الأقارب الذين يجتمعون في النسب بأنهم ذوو أرحام أي تجمع بينهم أرحام
مقاربة . وقد أطلق هذا التعبير في الفرائض على الأقارب من جهة النساء فصار يقال : ذوو
رحم ، محرم ومحرم ، وهو من لا يحل نكاحه كالأم والبنت والأخت والعمة والخالة . وعن
هذا المعنى استعير تعبير صلة الرحم ، أي رعاية الأقارب الذين تجمع بينهم الأرحام .
قال الأعشى (٣) :

أما لطالب نعمة يمتها ووصال رحم قد نضجت بلالها
والرحمة اشتقت من الرحم ، لأنه ليس ارحم على أولادها من الأم . وهي مصدر رحمه رحما
ورحمة ومرحمة . قال الشاعر (٤) :

أحنى وأرحم من أم بوالدها رحما وأشجع من ذي لبدة ضاري
وقال زهير يمدح هرم بن سنان (٥) :

ومن ضريبته التقوى ويعصمه من سيئ العشرات الله والرحم
والرحمة مصطلح قرآني ، يطلق الآن فلا تتوجه القلوب الا الى رحمة الله عز وجل ، ولم يرد
ذكر الرحمة في القرآن الكريم الا مقترنا بالله عز وجل . فالله ذو الرحمة ، ومنه الرحمة ،
ويدخل من يشاء في رحمة . وقد وردت في آيات قليلة على أنها صفة من صفات القرآن
الكريم نفسه ، في مثل قوله تعالى :

وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦)

١ - لسان العرب مادة رحم .

٢ - شرح المعلقات السبع ، ص ٢٠٩ ، وديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٦ .

٣ - ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيش ، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين ، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٦٧ .

٤ - لسان العرب مادة رحم .

٥ - ديوان زهير بن أبي سلمى . دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٩٥ .

٦ - سورة الاعراف ٥٢ .

وليس هذا غريبا فرحة الله عز وجل انما عرفت بآياته المنزلة على رسله عليهم السلام . فالقرآن الكريم بعض رحمته تعالى التي شمل بها خلقه ، والتي وسعت كل شيء .

والرحمن الرحيم من أسماء الله الحسنى أيضا . وكلاهما مشتق من الرحمة . وليس يخفى على الدارس المعنى العام لهذين الاسمين الكريمين . ولكن يبقى معرفة الفرق بينهما وهو أمر طالما شغل العلماء والمفسرين .

فقال بعضهم ان الرحمن اسم الرحيم صفة . قال أبو بكر خبرني الحسين بن دريد . عن أبيه عن ابن الكلبي عن أبيه قال : الرحمن اسم لله تبارك وتعالى لا يدعي به غيره ، والرحيم صفة . لأن العرب تقول كن بي رحيمًا ولم تقل كن بي رحمانا . وفي القرآن الكريم دليل على هذا قوله عز وجل « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوه الأسماء الحسنى » فالله اسم ليس لأحد فيه شركة وكذلك الرحمن (١) .

وقال آخرون ان في الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم . ولذلك قالوا رحمان الدنيا والآخرة (٢) . ويعضد صاحب الكشف بعد رأيه هذا في التعليل لم تقدم الرحمن على الرحيم ، والقياس — كما يراه — الترتيبي من الأدنى الى الأعلى ، فقال : « لما قال الرحمان فتناول جلال النعم وعظائمها وأصوها أردفه الرحيم كاللتمة والرديف ليتناول ما دق فيها ولطف » (٣) . وواضح أن هذا الرأي ليس بشيء لأنه لم يقدم شيئا مفيدا جديدا ، وخاصة وأن الجملة الأخيرة تفيد أن في الرحيم صفات دقيقة ولطيفة ليست في الرحمن .

ويرى ابن عباس أنهما أسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر فالرحمن الرقيق والرحيم العاطف على خلقه بالرزق (٤) .

ونقل الأزهري عن أبي العباس في قوله الرحمن الرحيم : جمع بينهما لأن الرحمن عبراني والرحيم عربي (٥) . وهذا الرأي يجعل الاسمين مترادفين أحدهما معرب وهذا رأي غير معقول ، لأن الرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة والرحم ، والأول هو فعلاان والثاني فعيلا منهما .

-
- ١ - جهرة اللغة ، ابن دريد الأزدي . مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة . مادة رحم .
 - ٢ - الكشف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله الزمخشري ، دار الفكر ، لبنان ، أربعة مجلدات ، ج ١ ص ٤٦ .
 - ٣ - المرجع السابق .
 - ٤ - لسان العرب مادة رحم .
 - ٥ - تهذيب اللغة مادة رحم .

وقال الزجاج : الرحمن اسم من أسماء الله عز وجل مذكور في الكتب الأولى ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله » (١) . ولست أدري من الذين يعنيهم الزجاج بقوله « ولم يكونوا يعرفونه » ، أهم الأوائل أصحاب الكتب السابقة ؟ فكيف اذن ذكر في كتبهم ولم يعرفوه ؟ أم هم أهل العصر الجاهلي ؟ وقد وردت أشعار كثيرة عنهم فيها ذكر الرحم والمرحة والرحمن ، ومنها قول سلامة بن جندل (٢) :

عجلتم علينا حجتين عليكم ومن يشأ الرحمن يعقد ويطلق
ومهما يكن في أمر فان هذا التعليل ليس بمقبول عند البحث الجاد .

وفي العصر الحديث انشغل المفسرون والباحثون في محاولة فهم الفرق بين الرحمن وبين الرحيم . وألفت أحيانا كتب مستقلة في ذلك منها كتاب « الرحمن الرحيم » للاستاذ عبد الرزاق نوفل . وفيه حاول المؤلف تجلية الفرق بين الاسمين فتعرض أولا للفروق التي ذكرها السابقون (٣) . ثم استقر على رأي أعجبه أكثر من غيره . وهو أن الله عز وجل هو الرحمن في الدنيا وأنه سبحانه هو رحيم الدنيا والآخرة . وأخذ المؤلف يورد الآيات التي تشهد على أن الرحمن لم يرد الا في الآيات التي تتحدث عن الحياة الدنيا (٤) . ولكن الحقيقة أن في القرآن آيات كثيرة ورد فيها ذكر الرحمن مع ذكر الآخرة ، منها قوله تعالى :

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٥)

واليوم المقصود هو يوم القيامة . وقوله تعالى :

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٦)

وذلك يوم القيامة . وقوله تعالى :

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَاقِ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٧)

١ - لسان العرب مادة رحم .

٢ - الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ص ١٣٦ .

٣ - الرحمن الرحيم ، عبد الرزاق نوفل ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ م ، ص ١٧ .

٤ - المرجع السابق ، ص ١٨ - ١٩ .

٥ - سورة مريم ٨٥ .

٦ - سورة مريم ٩٣ .

٧ - سورة الفرقان ٢٦ .

ولعل من أحسن الآراء في هذا الموضوع وأدقها رأي الأستاذ أحمد الشرباصي ، قاله في إحدى حلقات برنامج نور على نور ، ذكر فيه « لكن هناك من يفهم هاتين الصفتين على فهم يمكن أن تتقبله نفس الانسان ، فالرحمن معناها الذي يوصل آثار نعمته ورحمته وفضله بالفعل الى عباده . أما الرحيم فهي كلمة تدل على أن ايصال هذه الألوان من الرحمة والنعم ليس شيئاً عارضاً يصدق في زمان دون زمان ، لأنه شيء ناشيء عن صفة دائمة مستمرة لله . فالرحمن تدل على أنه يفعل الرحمة والرحيم تدل على أنه يتصف بهذه الصفة » .

و يبقى - بعد ذلك - باب البحث مفتوحاً أمام كل رأى جاد . والذي نقرره هنا أن الشعر الجاهلي استعمل الرحمن على أنه علم لله كما فعل القرآن الكريم ، كما مر في شعر سلامة بن جندل . ولكن القرآن الكريم خصص هذين الاسمين وجعلهما من أسماء الله الحسنى .

سبحان :

التسييح

أصل السبح في اللغة هو العوم ^(١) . وفي هذا المعنى قال أحد الشعراء ^(٢) .

وماء يغرق السباحاء فيه سفينته الموشكة الجنوب
ويبدو أن هذا المعنى الأساسي قد تطور الى معنى مجازي هو البعد والتباعد ، فصار يقال للبعيد سابع ، وخاصة في مجال الفروسية . وسَبَّحُ الفرس : جَرَّيْهُ وتباعده . والخيول تسمى السابحات ، وفي هذا المعنى قال امرؤ القيس في وصف حصانه : ^(٣)

وبشج إذا ما السابحات على الونى أثرن الغبار بالكديد المُرْكَلِ
يزل الغلام الخِفُّ عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثلث
وليس من العسير ادراك العلاقة التي أجازت انتقال معنى الكلمة من العوم وهو المعنى اللغوي الى البعد والتباعد وهو المعنى المجازي ، لأن العوم يغيب السابح عن ناظره .

ويبدو أن معنى التباعد قد اتسع حتى صار يشمل البعيد الذي لا تدركه العين ، وأوضح مثل على ذلك في التصور الانساني هو الله ، فصار التسييح يعني ذكر الله . وشاع هذا

١ - لسان العرب مادة سبح .

٢ - المرجع السابق .

٣ - شرح المعلقات السبع ، ص ٣٢ ، وديوان امرؤ القيس ص ٢٠ .

المعنى في الشعر الجاهلي ، وفيه يقول الأعشى (١) :

وَسَبَّحْ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا
وقد علل العلماء ذلك بأن الله عز وجل بعيد عن ادراك الانسان له ، أو أنه — سبحانه —
بعيد عن كل مالا ينبغي له (٢) . ومن هنا عرف الشعر الجاهلي أيضا معنى التسبيح على أنه
التنزيه والتبرئة . وفيه يقول أمية بن أبي الصلت (٣) :

سبحانه ثم سبحانا يعود له وقبلنا سبح الجودي والحمد

وأعتقد أن هذا المعنى الأخير قد تفرع عنه في الاستعمال الاجتماعي معنى آخر هو معنى
التعجب . كأنما يريد المتكلم اذا قال — سبحان الله — أن ينزه سمعه أو لسانه عما سمع ،
أو يبرئه مما تكلم به . مثال ذلك اذا سمعنا رجلا مشهورا بالتدليس والمكر والخداع ينصح
رجلا آخر بالصدق والاستقامة والأمانة ، تقول « سبحان الله » . وقد استعملت الكلمة
بمعنى التعجب في الشعر الجاهلي . ولا شك أن السياق اللغوي هو الذي يوحى للقارئ بهذا
المعنى ، ويتضح ذلك في قول الأعشى (٤) :

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاجر

اذن فقد حملت الكلمة في تطورها عن المعنى الأساسي ثلاث معان :
الأول : معنى ذكر الله . والثاني : التنزيه والتبرئة لله عن كل عيب أو نقص .
والثالث : معنى التعجب من الأمر المشاهد أو المسموع .

واذا انتقلنا الى معاني الكلمة التي وردت هي وما اشتق منها في القرآن الكريم في
ثلاث وتسعين آية ، نجد أنها استعملت في آيتين اثنتين فقط بمعناها اللغوي وهو العموم . أما
في الآيات الباقية كلها فقد ترددت الكلمة على المعاني الثلاث السابقة . وهي المعاني
المتطورة عن المعنى الأصلي .

١ - ديوان الأعشى الكبير ، ص ١٣٢ .

٢ - الزينة ج ٢ ص ٨٨ .

٣ - ديوان أمية بن أبي الصلت ، جمعه ووقف على طبعه بشير عوت ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٤ ، ص ٣٠ .

٤ - ديوان الأعشى الكبير ، ص ١٤٣ .

وفي المعنى الأساسي قال تعالى :

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (١)

وقال تعالى :

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهْرِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٢)

وحتى في هاتين الآيتين فأننا نلاحظ أن السبح هنا ليس في معناه الحقيقي تماماً بل هو سبح مجازي حيث شبه سبحانه وتعالى الفضاء الكوني بالسحر، وجعل الكواكب والنجوم والشمس والقمر كأنما هي تسبح فيه .

وفي معنى الذكر قال تعالى

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)

و يدخل ضمن التسبيح هنا كل الأعمال التي يتوفر فيها ذكر الله كالصلاة والصيام والدعاء وما الى ذلك . ويفهم مثل هذا قوله تعالى

وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤)

وفي قوله تعالى :

فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (٥)

و يؤكد هذا المعنى ما ورد من أحاديث نبوية شريفة تؤكد أن الذكر والدعاء مفضل على غيره من الأعمال قبل الشروق ، وقبل الغروب . وبعض العلماء رأى أن الصلاة مكروهة

١ - سورة الأنبياء ٣٣ .

٢ - سورة يس ٤٠ .

٣ - سورة الحشر ١ .

٤ - آل عمران ٤١ .

٥ - سورة الروم ١٧ .

في هذين الوقتين ، وفضلوا عليهما الذكر والدعاء . وبعض المفسرين رأى أن الآية الأخيرة تعني بالتسبيح الصلاة نفسها . كأنما المعنى فيها صلوا حين المساء وحين الصباح . وقد رويت نصوص لبعض الصحابة ، ورد فيها التسبيح بمعنى الصلاة منها : كنا اذا نزلنا لا نسبح حتى نَجِلُّ الرحال « أراد صلاة الضحى . وكل هذا يدل على أن التسبيح قد يعنى الذكر والدعاء والصلاة ، وأعمال العبادة كلها .

وفي معنى التنزيه والتبرئة والتسامي بقدر الله عن كل نقص أو عيب قال تعالى :

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾
سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١)

وقال تعالى : أَمْ لَهُمْ إِلَّا غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢)

وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن تفسير « سبحان الله » فقال: « هو تنزيه الله تعالى عن كل سوء » (٣) . فمعنى قولنا سبحان الله اذن هو تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به . وقال سيبويه : زعم أبو الخطاب أن سبحان الله كقولك براءة الله أي أبرئ الله من السوء براءة (٤) . وقال ابن جني : اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه بمنزله عثمان وعمران (٥) .

وفي معنى التعجب قال تعالى :

أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٦)

١ - سورة الصافات ١٥٨ - ١٥٩ .

٢ - سورة الطور ٤٣ .

٣ - نزهة المجالس ومنتخب النفائس ، الشيخ عبد الرحمن الصفوري الشافعي ، المكتبة الشعبية ، بيروت ، لبنان ، ص ٣٦٦ .

٤ - لسان العرب مادة سبح .

٥ - المرجع السابق .

٦ - سورة الاسراء ٩٣ .

وهكذا نرى أن استعمال القرآن الكريم للتسبيح وباقي مشتقات مادة « سبح » لم يختلف في معناه ومفهومه عما كان مستعملا في الشعر الجاهلي . وأحب أن أشير هنا الى أن المعنى الاصطلاحي - رغم شيوعه وانتشاره على ألسنة المسلمين في أطراف الدنيا - لم يستطع أن يلغي المعنى الأصلي للكلمة أو يطفى عليه . والذي يمكن قوله هنا أن صيغة التسبيح قد تخصصت في القرآن لمعنى الذكر والتنزيه ، وصيغة سبحان قد تخصصت لهذه المعاني كذلك ، على حين ظلت مشتقات الكلمة الأساسية مثل سبح وسبحة تحمل المعنى اللغوي .

الدين والشرعة :

ذكر القرآن الكريم كلمة الدين بهذه الصيغة نفسها في اثنتين وستين آية من آياته . وذكر كلمة « دينا » في آية واحدة ، على حين ذكرت كلمة دين مضافة الى ضمائر الغائب والمتكلم والمخاطبين والغائبين في خمس وعشرين آية أخرى . أما كلمة « الديان » فلم ترد في القرآن .

وقد رأيت من خلال المناقشات التي ذكرت حول كلمة الدين ، وفي معاني هذه الكلمة في العصر الجاهلي ، أنها تصلح لكي تكون مثالا للمشترك اللفظي في الدراسات اللغوية الحديثة . وهو أن تحمل كلمة واحدة عدة معان مختلفة في الاستعمال الواقعي . قلت في الاستعمال الواقعي لأن العبرة في بيان الدلالة هي في الكلام المنطوق فعلا في البيئة اللغوية .

وقد تتبع الشيخ أبو الأعلى المودودي في كتابه « المصطلحات الأربعة في القرآن » كلمة الدين في تحقيقها اللغوي ومعانيها القرآنية ، فقال : « تستعمل كلمة الدين في كلام العرب بمعان شتى ، وهي :

١ - القهر والسلطة والحكم والأمر والاكراه على الطاعة واستخدام القوة القاهرة فوقه وجعله عبدا . فيقولون دأب الناس أي قهرهم على الطاعة ودأب القوم أي أذللتهم واستعبدتهم ودأب أي سسته وملكته ، ودأبته القوم وليته سياستهم .

٢ - الاطاعة والعبدية والخدمة والتسخير لأحد والائتمار بأمر أحد ، وقبول الذلة والخضوع تحت غلبته وقهره . فيقولون دنتهم فدانوا أي قهرتهم فأطاعوا . ودنت الرجل أي خدمته .

٣ - الشرع والقانون والطريقة والمذهب والملة والعادة والتقليد . فيقولون : « ما زال ذلك ديني وديدي » أي دأبي وعادتي . ويقال دان اذا اعتاد خيرا أو شرا .

٤ - الجزاء والمكافأة والقضاء والحساب . فمن أمثال العرب « كما تدين تدان » ومن هنا تأتي كلمة « الديان » بمعنى القاضي وحاكم المحكمة . وسئل أحد الشيوخ عن على كرم الله وجهه فقال : « انه كان ديان هذه الأمة بعد نبينا » ، أي كان أكبر قضاتها بعده » (١) .

وهذا التحقيق اللغوي لكلمة الدين يوافق ما ورد عن العرب قبل نزول القرآن في استعمال هذه الكلمة في أشعارهم .

ففي المعنى الأول - السلطان والملك والقهر - قال الممزق العبدى يمدح أحد الملوك (٢) :

وأنت عمود الدين مهما تقل يُقَلِّ ومهما تضع من باطل لا يلحق
وقال عمرو بن كلثوم (٣) :

ورثنا مجد علقمة بن سيف أباح لنا حصون المجد ديننا
وفي المعنى الثاني - الطاعة والخدمة - قال عمير بن شبيب القطامي من بني تغلب (٤) :

رمت المقاتل من فؤادك بعدما كانت نوار تدينك الأديانا
يعني كانت تطيعك . وقال زهير بن أبي سلمى (٥) :

١ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

٢ - الأصمعيات ، ص ١٦٦ .

٣ - شرح المعلقات السبع ، ص ١٣٨ .

٤ - الزينة ، ج ٢ ص ١٢٤ .

٥ - ديوان زهير ، ص ٥١ .

لئن حللت بجو في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فذك •
ويقال هم دائنون لفلان ، ودين له أي مطيعون له . وأنشد المفضل (١) :
ويوم الحزن اذ حشدت معد وكان الناس الا نحن ديننا
وعلى هذا المعنى ورد قوله عليه السلام : « أريد من قریش كلمة تدين بها العرب » (٢) .
وعلى المعنى الثالث - الدأب والعادة - قال امرؤ القيس (٣) :
كدينك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل
وقال المثقب العبدى (٤) :
تقول اذا درأت لها وضيئي أهذا دينه أبدا وديني
وعلى المعنى الرابع - المحاسبة والجزاء والقضاء - قال ذو الاصبع العدواني (٥) :
لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب عني ولا أنت ديانى فتخزوني
والديان هو الذي يلي المجازاة وهو قادر عليها ويجازي كلا على مقداره . وفي هذا المعنى قال
الأعشى مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم (٦) :

يا سيد الناس وديان العرب

وقد عرف العلماء هذه المعاني لكلمة الدين وأوردوها في معاجهم ، واستدلوا على هذه
المعاني بما ورد من أشعار العرب . يقول ابن دريد « الدين هو المله وهو الطاعة وهو الدأب
والعادة وهو الجزاء » (٧) .

وهذه المعاني نفسها أوردتها صاحب كتاب « الاشباه والنظائر » حيث قال : « تفسير
الدين على خمسة وجوه : فوجه منها الدين يعني التوحيد ، والوجه الثاني الدين يعني الحساب
والوجه الثالث الدين يعني الحكم والوجه الرابع الدين يعني الذي يدين الله به العباد ،
والوجه الخامس دين يعني ملة » (٨) . وواضح من هذا النص أن الوجه الأول والوجه
الرابع هما وجه واحد لأن الدين الذي يدين الله به العباد هو التوحيد نفسه .

١ - أساس البلاغة ، مادة دان .

٢ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، ص ١١٨ .

٣ - ديوان امرئ القيس .

٤ - جهرة اللغة ، مادة دان .

٥ - الزينة ج ٢ ص ١٢٥ .

٦ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، ص ١١٧ .

٧ - جهرة اللغة مادة دان .

٨ - الأشباه والنظائر ص ١٣٣ - ١٣٤ .

والذي يستعرض الآيات القرآنية الكريمة التي تكررت فيها كلمة الدين يجد أنها لا تخرج عن هذه المعاني التي عرفت في اشعار العرب قبل نزول القرآن . وأكثر هذه الآيات استخدمت الدين بالمعنيين الأول والثاني وهما القهر والغلبة من ذي سلطة عليا ثم الاطاعة والتعبد والعبدية من قبل خاضع لذي السلطة . وصاحب الأمر والحكم والسلطة في هذين المعنيين هو الله عز وجل . وحتى لا يخطيء انسان في نسبة هذه الصفات الى الله عز وجل ، أي صفات القهر والغلبة ، أو صفات الطاعة والعبدية نقول انه لا تتم حرية الانسان الا اذا تمت عبوديته لله تعالى ، وهذه حقيقة ليس هنا مجال شرحها وتوضيحها . ومن الآيات التي تثبت ذلك قوله تعالى :

وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (١)

وقوله تعالى :

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٢)

وقوله تعالى :

وَمَا أَمْرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ (٣)

وأما المعنى الثالث وهو الشرع والقانون والطريقة والمذهب والعادة والتقليد فيدل عليه

قوله تعالى :

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوٓهُمَا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ (٤)

١ - سورة النحل ٥٢ .

٢ - سورة آل عمران ٨٢ .

٣ - سورة البينة ٥ .

٤ - سورة النور ٢ .

أي في شرع الله . وقوله تعالى :

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ
كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ^(١)

أي ما كان ليأخذ أخاه لو كان الحكم على عادة ومنهج ملك مصر في ذلك الوقت (٢) .
أما المعنى الرابع فقد وردت خمس عشرة آية في القرآن تبين أن المقصود بالدين هو الجزاء
والحساب . منها قوله تعالى :

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ^(٣)

وقوله تعالى :

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ^(٤)

أما الشريعة فهي كذلك مصطلح قرآني ، ورد في آية واحدة فقط هي قوله تعالى :

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ^(٥)

وهي مشتقة من الفعل شرع الذي ذكر في القرآن مرتين ، الأولى في قوله تعالى :

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ^(٦)

١ - سورة يوسف ٧٦ .

٢ - مؤتمر تفسير سورة يوسف . الشيخ عبد الله العلمي ، مكتبة ومطبعة دار الفكر بدمشق . جزآن ، طبعة أولى ١٩٦١ ج ١ ص ٩٥ .

٣ - سورة الفاتحة ٣ .

٤ - سورة الذاريات ٦ .

٥ - الجاثية ١٨ .

٦ - الشورى ١٣ .

والثانية في قوله تعالى :

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ (١)

والى جانب هذا ذكر القرآن الكريم صيغتين من هذه المادة اللغوية هما : شرعة وشرعا .
الأولى في قوله تعالى :

لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (٢)

والثانية في قوله تعالى :

وَسَعَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ
إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣)

هذا كل ما ورد في القرآن عن هذا الموضوع ، أما كلمة الشرع ، وهي المصطلح الشائع في الحياة الإسلامية فلم ترد في القرآن ، انما اشتقها العلماء من الفعل شرع ، والمصدر شريعة اللذين ذكرا قبل قليل .

وقد يظن بعض الناس أنه لا فرق بين الدين وبين الشريعة . ولكن المتبع للفعل شرع وما اشتق منه ، يلاحظ بوضوح أن معنى الدين معنى عام ، أو هو منهاج الله عز وجل لهذا الوجود كله . والله تعالى أعطى لكل أمة ، في كل عصر ، ما يلائمها من مواد هذا المنهج العام . وقد سمي هذا المورد الجزئي شريعة . فلكل أمة شريعة ، والشرائع كلها مستمدة من الدين ، فالدين أعم من الشريعة ، والشريعة لا تخرج عن الدين في قواعده الأساسية الكبرى ، وإن اختلفت في جزئياتها بين أمة وأمة ومن عصر الى عصر . وقد يجوز لي أن أشبه الدين بنهر كبير جار عبر القرون والأزمان والعصور ، وكلما جاءت أمة في عصر ما وأرادت أن تستقي فتحت لنفسها شريعة من ذلك النهر ، وهي ترتب هذه الشريعة وتنظمها حسب طبيعة أرضها وحاجات أهلها . وذلك المفهوم ، وهذه الصورة الأخيرة منسجمة مع معنى

١ - الشورى ٢١ .

٢ - المائدة ٤٨ .

٣ - الأعراف ١٦٣ .

الشرعية كما سجلتها معاجم اللغة . ففي لسان العرب شرع الوارد يشرع شرعا وشرعا تناول الماء بفيه . والشرعية والشرع والمشرعة المواضع التي ينحدر الى الماء منها . وفيه أيضا « الشرعية في كلام العرب مشرعة الماء وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون . وشرع أبله أوردھا شرعية الماء فشربت ولم يستق لها (١) . قال الشماخ (٢) :

فلما شرعت قصعت غليلا فأعجلها وقد شربت غمارا
وقال امرؤ القيس في المعنى نفسه (٣) :

لما رأته أن الشرعية همها وأن البياض من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارج يفيء عليها الظل عرفجها طامي

وعلى هذا الأساس أثبت العلماء الفرق بين الدين والشرعية . قال الليث : « وبها سمي ما شرع الله للعباد شرعية من الصوم والصلاة والحج والنكاح وغيره » (٤) .

وقال ثعلب : « كل نبي بعث بالاسلام غير أن الشرائع تختلف » (٥) . وقال صاحب اللسان : « الشرعية ما سنَّ الله من الدين وأمر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر أعمال البر مشتق من شاطئ البحر » (٦) .

وإذا أنعمنا النظر في آيات القرآن الكريم ندرك هذا الفرق بوضوح ، قال عز وجل :

« شرع لكم من الدين »

وقال تعالى :

« لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجا »

وفي تفسير هذه الآيات قال الامام السيوطي « ثم جعلناك يا محمد على طريقة من أمر الدين » (٧) . وقال صاحب الظلال : « وقد شاء الله — سبحانه — أن يحسم في هذا الأمر

١ - لسان العرب مادة شرع .

٢ - ديوان الشماخ ص ٤٤٥ .

٣ - ديوان امرؤ القيس ، ص ٤٧٦ .

٤ - لسان العرب مادة شرع .

٥ - المرجع السابق .

٦ - المرجع السابق .

٧ - حاشية العلاوة الصاوي ج ١ ص ٦٩ .

وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف ، وتأليفاً للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء ، فقال لنبيه : ان الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه جعل لكل منهم طريقاً ومنهاجاً . وجعلهم مبتليين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشرعية ، وأن كلا منهم يسلك طريقه ، ثم يرجعون كلهم الى الله فينبئهم بالحقيقة ويحاسبهم على ما اتخذوا من منهج وطريق (١) .

من هنا يتبين لنا الاختلاف في استعمال الشريعة ما بين الشعر الجاهلي وبين القرآن الكريم . فهي في الشعر الجاهلي بمعناها اللغوي الأساس . ولكنها أخذت في القرآن الكريم معنى اصطلاحياً جديداً . وهو القضايا والأحكام التي فرضها الله عز وجل على الأمم المتعاقبة ، وأرسل الرسل لتبليغها لأقوامهم . ويمكن القول هنا إن القرآن الكريم خصص معنى الشريعة ، وجعل لها استعمالاً محدداً في الحياة الإسلامية .

الرب :

ربما كانت كلمة «رب» وما اشتق من مادتها اللغوية أكثر الكلمات انتشاراً في القرآن الكريم بعد كلمة الله . فقد ذكرت في تسعمائة وتسعة وسبعين موضعاً . منها مائة وواحد وخمسون موضعاً ذكرت فيها كلمة «رب» مضافة الى كلمات تحمل أسماء مختلفة مثل رب العالمين ، رب السموات ، رب العرش ، رب الشعرى ، رب المشرقين ورب المغربين ، رب المشارق ورب المغرب ، رب آبائكم ، رب هذا البيت ، رب الفلق ، رب الناس . وغيرها . وفي المواضع الأخرى أضيفت فيها الكلمة الى الضمائر ، مثل ربك ، ربكم ، ربكما ، ربنا ، ربه ، ربهم ، ربهما ، ربي ، وفي سبع آيات فقط ذكرت مشتقات للكلمة مثل أرباب ، ربيون ، الربانيون ، وربائبكم . وجدير بالذكر والتنبيه هنا أن كلمة رب لم ترد معرفة في القرآن الكريم أبداً . وقد وضعها في مطلع هذا البحث عنها بصيغة التعريف وفي النفس منها شيء ، لأنها لم ترد في القرآن الكريم كذلك أولاً ، ثم لأنها كلمة لا يظهر ولا يكتمل معناها الا باضافاتها الى غيرها ثانياً ، ثم لأن استعمالها بصيغة التعريف أصبح مصطلحاً في لغة النصارى يعني أحد أفراد العائلة المقدسة الثلاثة في زعمهم .

ومصطلح الرب اسلامي مشهور ، وان كان غير جديد في معناه وفي استعماله ، فقد جرى

١ - في ظلال القرآن مجلد ٢ ص ٧٤٨ - ٧٤٩ .

كثيرا على ألسنة الشعراء في العصر الجاهلي . وقد وضعت معاجم اللغة لكلمة « رب » عدة معان يمكن ارجاعها في النهاية الى معنى أساسي واحد :

١ - رَبَّ الرجل النعمة يُرَبُّها رَبًّا وقالوا ربابة اذا تممها (١) . ويقال رب الولد أي رباه حتى أدرك . فالربيب هو الصبي الذي تربيته . وَرَبَّ يُرَبُّ رَبًّا من باب نصر معناه الاضافة والزيادة والاتمام . فيقولون رَبَّ النعمة أي زاد في الاحسان وأمعن فيه (٢) . وجاء في مقاييس اللغة : مادة (رب) الراء والباء يدلان على أصول ، فالأول : اصلاح الشيء والقيام عليه . فالرب هو المالك والخالق والصاحب ، والرب المصلح للشيء (٣) . ومنه قول النابغة (٤) :

وَرَبَّ عَلَيْهِ اللهُ أَحْسَنَ صُنْعِهِ وَكَانَ لَهُ عَلَى الْبَرِيَّةِ نَاصِرًا

وعلى هذا يكون من معاني « الرب » على صيغة المصدر هذه ، التربية والتنشئة ، والائماء ، ومن هنا عرف استعمال كلمة رب بمعنى المربي أي القائم على التربية والكفيل بقضاء الحاجات . وعلى هذا المفهوم يفسر قول علقمة بن عبدة يمدح الحارث بن أبي شمر الغساني (٥) :

وَأَنْتَ أَمْرٌ أَفْضَتْ إِلَيْكَ أَمَانَتِي وَقَبْلَكَ رَبَّنِي - فَضِغْتُ - رُبُوب

يريد ربنتي قبلك ربوب فضعت بسبب تربيتهم . وربوب هنا جمع رب . ويبدو أن هذا المعنى كان شائعاً في استعمال الناس ، وجارياً على ألسنتهم . ورد في سيرة ابن هشام ما نصه : « وصرخ جبلة بن الأيهم - قال ابن هشام كلدة بن الحنبل - وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدة التي جعل له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا بطل السحر اليوم . فقال له صفوان : أسكت فض الله فاك ، فوالله لئن يُرَبَّنِي

١ - جهرة اللغة مادة رب .

٢ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، ص ٣٥ .

٣ - معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق الدكتور عبد السلام محمد هارون ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطبعة الأولى ١٣٦٨ هـ ، (مادة رب) .

٤ - ديوان النابغة ، ص ٧١ .

٥ - المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ، ص ٣٩٥ .

رجل من قريش أحب إلي من أن يَرُبَّنِي رجل من هوازن» (١) . وعن هذا المعنى تتفرع معاني التربية والاستصلاح والرعاية والكفالة ، فيقولون : رب صنعة أي تعدها وراقب أمرها .

- ٢ - والترب هو الانضمام والتجمع ، يقولون فلان يرب الناس أي يجمعهم أو يجتمع عليه الناس . وفي مقاييس اللغة « والأصل الثالث ضم الشيء الى الشيء » (٢) .
- ٣ - والرب هو المالك السيد . ورب كل شيء ماله (٣) . يقال هذا رب الضيعة ورب الدار ورب الملوك (٤) . وقال الأعشى (٥) :

وقد أُنْخَاسَ رَبَّ البيتِ غَفْلَتُهُ وقد يُحَاذِرُ مِتِّي ثم ما يئُل
وفي الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل رجلا : « أرب غنم أم رب أبل » أي أملك غنم أنت أم مالك أبل ؟ (٦)

- ٤ - والرب بمعنى العلاء والسيادة والرئاسة وتنفيذ الأمر والتصرف ، فيقولون قد رب فلان قومه أي ساسهم وجعلهم ينقادون له . وَرَبَّتُ القوم أي حكمتهم وسدتهم ، يقول لبيد بن ربيعة (٧) :

وأهلكن يوما رب كندة وابنه ورب مَعْدٌ بين حَبْتٍ وَعَرْعَرٍ
وأغصَفْنُ بالرومي من رأسِ حِصْنِهِ وأنزلن بالأسباب رَبَّ المَشْقَرِ

وفي هذا المعنى يقول سبيع بن الخطيم التميمي (٨) :

-
- ١ - السيرة النبوية ، لابن هشام ، دار الجليل ، بيروت ، لبنان ١٩٧٥ ، أربعة أجزاء . ج ٤ ص ٦٥ .
- ٢ - مقاييس اللغة مادة رب .
- ٣ - جهرة اللغة مادة رب .
- ٤ - الزينة ، ج ٢ ص ٢٧ .
- ٥ - ديوان الأعشى ، ص ٩٥ .
- ٦ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، ص ٣٧ .
- ٧ - ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، قدم له وشرحه إبراهيم جزين ، منشورات دار القاموس الحديث بيروت ، ومكتبة النهضة بغداد ، ص ٦٦ .
- ٨ - المفضليات ، ص ٣٧٣ .

فاقنني حياءك إن ربك همُّهُ في بين حزرة والشوير طفيف
فاستعجمت وتتابعَت عَبَرَاتُهَا ان الكريم لما أَلَمَّ عروف

و يقول الحارث بن حلزة يمدح عمرو بن هند: (١)

ربنا وأنبنا وأفضل من يمشي ومن دون ما لديه السناء
وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء (٢)

واذا راجعنا معاني كلمة « رب » السابقة نجد أن كلا منها يمكن أن يفضى الى الآخر. وأنها يمكن أن تتوحد وتتجمع في النهاية لتكون معنى واحدا. ولعل المعنى الأول — وهو التربة والتنشئة والكفالة — هو معناها الأساس ثم تفرعت عنه المعاني الأخرى. لأن المربي والمنشئ سيكون هو المالك وهو السيد وهو المتصرف. وقد ورد مثل ذلك في الكتب اللغوية القديمة. قال ابن فارس في مقاييس اللغة: « الراء والباء يدل على أصول، فالأول: اصلاح الشيء والقيام به، فالرب المالك والخالق والصاحب، والرب المصلح للشيء. والأصل الآخر لزوم الشيء والاقامة عليه، وهو مناسب للأصل الأول، والأصل الثالث: ضم الشيء الى الشيء وهو أيضاً مناسب لما قبله، ومتى أنعم النظر كان الباب كله قياسا واحدا » (٣).

ومعنى كلمة رب هذا الذي تحدد في خيال الناس وذاكرتهم بصورة عامة، استعمل في الشعر الجاهلي على الجهة التي كانوا يتصورون أنها هي المالكة والمتصرفة في شؤون الناس وهي الخالقة والمنشئة لكل شيء، وهو الله عز وجل. فصارت كلمة رب اذن تطلق وصفا لله عز وجل، الى جانب ذلك الشعر الذي رأينا أن بعض الشعراء خاطبوا به أحيانا بعض الملوك ووصفوهم بها. وما ذلك الا لأن تصور الجاهليين عن الواحدية لم يكن تاما، ولم يكن سليما.

ومن أمثلة هذا الشعر الذي جعل كلمة رب وصفا لله عز وجل في العصر الجاهلي قول

١ - الأ وائل، ص ٣٥.

٢ - شرح المعلقات السبع، ص ١٨٢.

٣ - مقاييس اللغة، مادة رب.

شَير بن عمرو الحنفي (١) :

ولقد مررت عليّ اللثيم يسبني
عَضْبَانٌ مُّتَلِئَا عَلَيَّ إِهَابُهُ
وقول مهلهل بن ربيعة (٢) :
قتلوا كليباً ثم قالوا إربعوا
وقول قيس بن الخطيم (٣)

يارب لا تبعدن ديار بني
وقول عبد قيس بن خفاف : (٤)
واستغن ما أغناك ربك بالغنى
واذا تصبك خصاصة فتجمل

وقول أبي الصلت الثقفي (٥) ، وقيل أمية بن أبي الصلت (٦) في شأن الفيل :

إن آيات ربنا باقيات
حبس الفيل بالمغمس حتى
بل إن كلمة « رب » وردت في الشعر الجاهلي بمعنى « الله » تماماً من ذلك قول شحنة بن
خلف الجرهمي وكان يتمسك بدين الحنيفة ، مخاطباً عمرو بن لحي أمير مكة عندما أكثر
هذا من إقامة الأوثان عند الكعبة ، قال (٧) :

يا عمرو أنك قد أحدثت آلهة
وكان للبيت رب واحد أبدا
لتعرفن بأن الله في مهل
شئى بمكة حول البيت أنصابا
فقد جعلت له في الناس أربابا
سيصطفى دونكم للبيت حجابا

١ - الأصمعيات ، ١٢٦ .

٢ - الأصمعيات ، ص ١٥٦ .

٣ - ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق ناصر الدين الأسد . بيروت ، دار صادر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ ، ص ١١٣ .

٤ - المفضليات ، ص ٣٨٥ .

٥ - الأوائل ، ص ٢٧ .

٦ - ديوان أمية بن أبي الصلت ، ص ٣٧ - ٣٨ .

٧ - الكعبة على مر العصور ، ص ٣٠ .

وهذا المعنى العام لكلمة رب هو المعنى الذي انتشر في آيات القرآن الكريم وصار مصطلحا اسلاميا مشهورا ، قال تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ^(١)
وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ^(٢)

وقال تعالى :

وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ^(٣)
ومن الجدير بالذكر أن بعض آيات القرآن قد ذكرت المعنى الأساس لكلمة رب وهو التربية والتنشئة والكفالة ، الذي تفرعت عنه المعاني الأخرى . قال تعالى :

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ^(٤)
وقال تعالى :

يَصْحَبِي السَّجَنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَنَ كُلُّ الطَّيْرِ مِنْ رَأْسِهِ ^(٥) قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ^(٥)

٤ - سورة يوسف ٢٣ .

٥ - سورة يوسف ٤١ - ٤٢ .

١ - سورة البقرة ١٢٦ .

٢ - سورة المائدة ٦٧ .

٣ - سورة هود ١١٩ .

فكلمة الرب في الآيات السابقة تعني السيد والحاكم المالك ، وهو الذي ربي يوسف عليه السلام في بيته منذ اشتراه . جاء في تفسيرها « اذكر حالي ووضعني عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه فهو بهذا ربك » (١) . فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمشرع وفي هذا توضيح لمعنى الربوبية الذي كونه الكلمة في المصطلح الاسلامي .

والله عز وجل هو الرب الخالق ، الذي لا يزال قائما مشرفا على خلقه ، راعيا ومدبرا لأموالهم ، وقد ورد في القرآن الكريم آيات عديدة يفهم منها هذا المعنى ، مثل قوله تعالى :

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَهُ الْكِبَرُ يَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

وقد قالوا في تفسيرها : « ينطلق صوت التحميد يعلن وحدة الربوبية في هذا الوجود ، سمائه وأرضه ، وانسه وجنه ، وطيره ووحشه ، وسائر ما فيه ومن فيه ، فكلهم في رعاية رب واحد ، يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير » (٣) .

نتبين من العرض السابق لمعاني كلمة الرب في الجاهلية وفي القرآن الكريم أن أيا من مظاهر التطور لم يصب هذه الكلمة . فمعانيها في القرآن هي معانيها في الاستعمال الجاهلي . وأعتقد أن هذه المعاني نفسها هي التي لا تزال شائعة في الناس حتى يوم الناس هذا .

الرسول والنبي :

ذكرت كلمتا الرسول والنبي في القرآن الكريم ، وقد وردت كلمة « الرسول » في مائتين وستة وثلاثين موضعا . وكلمة « رسل » بهذه الصيغة ، ومضافة الى بعض الضمائر مثل : رسلك ، ورسلكم ، ورسلهم ، ورسلني في ستة وتسعين موضعا . وذكرت كلمة رسالة ، ورسالته ، ورسالات ، ورسالاته ، ورسالاتي في عشرة مواضع ، على حين ذكرت بعض المشتقات الأخرى للكلمة مثل أرسل ، ويرسل ، وأرسلت ، وأرسلوا ، وأرسلتم ، وأرسلنا ، ومرسل . ومرسلون ، ومرسلين ، ومرسلات ، في مائة وواحد وسبعين موضعا .

١ - في ظلال القرآن ، مجلد ٤ ص ٧٢٨ .

٢ - سورة الجاثية ٣٦ - ٣٧ .

٣ - في ظلال القرآن مجلد ٧ ص ٣٩٥ .

وذكرت كلمة النبي في ثلاث وأربعين آية . وكلمة « نبياً » و « نبيهم » في إحدى عشرة آية . وكلمة « النبيون » و « النبيين » و « الأنبياء » في إحدى وعشرين آية . وكلمة النبوة في خمس آيات ، على حين ذكر الفعل « نبأ » وكثير من مشتقاته مثل نبأني ، نبأها ، نبىء ، نبأ ، أنبأهم ، وأنباء ، وأنبأكم ، وغيرها في ثمانين موضعاً .

وذكر كلمتي « الرسول » و « النبي » في القرآن الكريم كان للتوكيد على أن كلا منهما تحمل معنى خاصاً . ولم يختلف العلماء والمفسرون حول هذه الحقيقة . فقد ذكروا بوضوح أن الرسول أخص من النبي لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً ، وهذا القول صحيح حسب القياس السابق . ولكن عندما نتعرف الى معنى كل كلمة منهما ، نجد أن الرسول — في المهمة التي أسندت اليه — أعم وأشمل من النبي . وهنا في الحقيقة يكمن الفرق بين معنى كل من الكلمتين . وقد وجدت أن ما ذكره العلماء من فروق يتعلق بمهمة كل من الرسول والنبي ، ومن الفروق التي ذكروها أن النبي هو من أوحى اليه بشرع سواء أمر بتبليغه أو لم يؤمر ، والرسول هو من أوحى اليه بشرع وأمر بتبليغه . وقد ناقش الاستاذ محمود الشرقاوي (١) هذا الرأي فقال إنه لا يستقيم مع قوله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ (٢)

لأن قوله تعالى أرسلنا يتعلق به « ولا نبي » وكأنه قال وما أرسلنا من قبلك من رسول وما أرسلنا من قبلك من نبي ، وحيث تعلق الارسال صار مأموراً بالتبليغ، على أن العقل لا يستسيغ أن يوحى الله العلي القدير الى نبي بشرع ثم لا يأمره بتبليغه (٣) .

ورأي آخر يقول إن الرسول هو من أوحى اليه بشرع وأنزل عليه كتاب كإبراهيم وداود وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، والنبي الذي ليس برسول هو من أوحى اليه بشرع ولم ينزل عليه كتاب كإسماعيل وشعيب ولوط وزكريا (٤) . ونستطيع أن ندفع هذا الرأي بمثل ما دفع به الرأي الأول ، ثم بقوله تعالى أيضاً :

١ - انظر ، الأنبياء في القرآن الكريم ، محمود الشرقاوي ، دار الشعب ، ١٩٧٠ ،

٢ - سورة الحج ٥٢ .

٣ - انظر الأنبياء في القرآن الكريم .

٤ - المرجع السابق .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (١)

وإذا راجعنا سورة الانعام من آية ٨٣ - الى آية ٨٩ ، تأكدنا أن كل الذين ذكرهم الله عز وجل في القرآن قد أوتوا الكتاب والحكم والنبوة ، أي أنه أنزل عليهم كتاب . ففي هذه الآيات يعدد الله عز وجل أسماء ثمانية عشر نبيا ، ثم يقول في نهاية هذه المجموعة من الآيات :

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرْنَ بِهَا (٢)

ورأى يقول إن الرسول من الأنبياء هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس ، أما النبي الذي ليس برسول فهو من بعث لتقرير شرع سابق كأنبياء بني اسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام .

وهناك رأي أخير أن النبي هو من أوحى اليه بشرع خاص به ، وأما الرسول فهو من أوحى اليه بشرع وأمر بتبليغه . ويمكن تحليل هذا الرأي بأن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم - من غير الرسل - لم تذكر لهم رسالة ، ولم يذكر أحد منهم بالاسم ، فلعل الله عز وجل - والله أعلم بمراده - كان يريد أن يقوم هؤلاء الأنبياء في أممهم بمقام القدوة الحسنة ، وأن يكونوا دعوة لأممهم بسلوكهم وسيرتهم ، إما تقريرا لشريعة سبقت ، أو تمهيدا لشريعة أوشكت على الظهور على يد بعض الرسل . ويدعم هذا الرأي أن هؤلاء الأنبياء كانوا غالبا في عداة مع أممهم . وطالما تعرضوا للعذاب والقتل ، كما ذكرت آيات القرآن الكريم ، خاصة التي تحدثت عن أنبياء بني اسرائيل .

ومن جميل ما سمعت (٣) في الفرق بين الرسول وبين النبي ، أن النبي هو الذي يبعث لمتابعة رسالة سبقتة ، أو التهييء لرسالة ستأتي بعد ، ولكن الرسالة غير مرتبطة به ، بل

١ - سورة مريم ٥٤ .

٢ - سورة الأنعام ٨٨ - ٨٩ .

٣ - من حديث لفضيلة الشيخ محمد متولي شعراوي ، وقد سألته شخصيا عن الفرق بين الرسول والنبي وعن القضاء والقدر أيهما أسبق ، والمعنى المحدد لكل منهما . وقد نشر هذا الرأي فيما بعد في كتاب « معجزة القرآن » عن كتاب اليوم ، العدد ١٨٧ يونيو ، ١٩٨١ .

ص ٣٧٠ .

مرتبطة بالرسول الذي بعث بها أو سيبعث . ولهذا فإن الله عز وجل قدر ألا تنتهي حياة الرسل إلا بعد اتمام الرسالة ، على حين أن النبي قد يقتل قبل أن تتم الرسالة أو تنتشر بين الناس . ويؤيد هذا أن كثيرا من أنبياء بني اسرائيل قد قتلوا في المراحل الأولى للدعوة التي كانوا يقومون بها . وهذا ما تؤكد الآيات القرآنية التي تصف بني اسرائيل بأنهم قتلوا الأنبياء بغير حق .

وفي الشعر الجاهلي لم تحمل هاتان الكلمتان أكثر من مدلولهما اللغوي البسيط . وأصل الرسل الانبعاث على التؤدة . ومنه الرسول المنبعث ، وتطور منه تارة معنى الرفق ، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول (١) . والرسول يقال تارة للقول المتحمل وتارة لحامل القول أو الخبر ، قال طرفة (٢) :

ألا أبلغا عَبْدَ الضَّلَالِ رسالةً وقد يُبلِّغُ الأنبياءَ عنكَ رسول
وقال عبد مناف بن ربيع (٣) :

ألا أبلغ بني ظَفَرٍ رسولا وريب الدهر يحدث كل حين
وقال الأعشى (٤) :

فأبلغ بني عجل رسولا وأنتم ذوو نسب دان ومجد مؤثِّل
والرسول في الأمثلة السابقة بمعنى الرسالة ، أي الشيء أو الكلام المرسل . أما الرسول بمعنى حامل الخبر فيدل عليه قول أبي ذؤيب الهذلي (٥) :

ألكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر

وقول الأعشى (٦) :

فَعَشْنَا زَمَانًا وَمَا بَيْنَنَا رسول يحدث أخبارها
وقول النابغة (٧) :

نصحت بني عوف فلم يتقبلوا رسولي ، ولم تنجح لديهم وسائل

١ - المفردات في غريب القرآن ، المطبعة الميمنية ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ ، ص ١٩٤ .

٢ - ديوان طرفة ، ص ١١٨ .

٣ - ديوان الهذليين ٤٨/٢ .

٤ - ديوان الأعشى ، ١٤٢ .

٥ - ديوان الهذليين ١٤٦/١ .

٦ - ديوان الأعشى ٣٥٣ .

٧ - ديوان النابغة ، ص ٦٧ .

ولم يعرف الشعر الجاهلي معنى كلمة الرسول كما هو في القرآن الكريم ، أي الانسان الذي يختاره الله عز وجل لينشر في الناس رسالته ويبلغ الناس دين ربه . لأن الناس كانوا قد انصرفوا الى عبادة الاصنام والأوثان ظانين أنها تقربهم الى الله . ولذلك يمكن القول بأن القرآن الكريم قد خصص معنى كلمة الرسول وجعله مرتبطا برسول الله الذي يبلغ عن ربه أحكامه ودينه وشرائعه .

أما النبي فقد اختلف علماء اللغة في أصل اشتقاقه ، فقال بعضهم أنه من النبوة أي الرفعة ، وسمى نبيا لرفعته عن سائر الناس (١) ، المدلول عليه بقوله تعالى :

وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٢)

وهؤلاء أخذوه من الأصل اللغوي نبا ينبوا إذا ارتفع ومنه النبوة والنباوة . والنبي ما ارتفع من الأرض . والنبي أيضا العلم من أعلام الأرض التي يهتدي بها (٣) . قال أوس بن حجر يرثي فضالة بن كعدة الأسدي (٤)

على الأروع السقّب لو أنه يقوم على ذروة الصاقب
لأصبح رتما دقاق الحصى مكان النبي من الكائب
يقول لو قام فضاله على الصاقب — وهو جبل — لذلّه وتسهّل به حتّى يصير كالرمل الذي في الكائب . وروى عن الكسائي أنه قال : النبي : الطريق . والأنبياء طرق الهدى ، وقال أبو معاذ النحوي : سمعت أعرابيا يقول : من يدلني على النبي (٥) .

وقال آخرون أنه من نبأ وأنبا بمعنى أخبر . والنبأ هو الخبر والجمع أنباء . والنبيء هو المخبر عن الله . وهو فاعيل من فاعل . وقد حذفت منه الهمزة لكثرة الاستعمال وقد وردت مادة «نبأ» بمعنى الاخبار في الشعر الجاهلي ، قال أبو ذؤيب (٦) :

كَمَا تَغِيْطُ الدَّنِيْقُ الْمُسْتَبِيْلُ بِالْبُرءِ تُنْبِئُوْهُ مُسْتَرِيْحَا

١ - المفردات في غريب القرآن ، ص ٥٠٠ .

٢ - سورة مريم ٥٧ .

٣ - لسان العرب مادة نبأ .

٤ - ديوان أوس بن حجر ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ ، ص ١٠ .

٥ - لسان العرب مادة نبأ .

٦ - ديوان الهذليين ١/١٢٩ .

ومن هذا الفريق سيبويه الذي يرى أن الهمز لغة رديئة يعنى لقلة استعمالها لا لأن القياس يمنع ذلك . وتمثل سيبويه بأن اعرابيا خاطب النبي قائلاً له : يا نبيء الله . فقال له : لا تنبر باسمي فانما أنا نبي الله . وفي رواية أخرى : لست بنبيء الله ولكن نبي الله (١) .

ولم أعثر على كلمة النبي فيما قرأت من الشعر الجاهلي ، بل وردت بعض الصور الاشتقاقية من مادتها اللغوية أحيانا . وفي هذه المرات القليلة لم يكن مفهومها قريبا من المعنى الاصطلاحي الذي صنعه القرآن الكريم . وأكثر ما ورد في هذه المادة — على قلته — يتناول معاني مستمدة من الحياة الجاهلية ، تتصل بمعنى الكلمة اللغوي .

وذلك يدل على أن النبي بمفهومه الاسلامي السابق مصطلح قرآني جديد ، خصصه القرآن لهذا المعنى ، كما خصص مفهوم كلمة الرسول ، فصار الرسول ، والنبي ، كلاهما من المعاني القرآنية الجديدة .

القضاء والقدر:

سأحاول أن أوضح المعنى العام للقضاء والقدر في الاسلام . أما ماثار حول القضاء والقدر كمسألة خلافية خاض فيها علماء الكلام فأعتقد أنه خارج عن نطاق هذا البحث . فهناك عشرات من الكتب تحدثت عن هذا الموضوع . أما هنا فأقول ان القضاء هو ما سبق في علم الله من الهيئة والكيفية التي سيكون عليها الخلق ، بكل ما تشمله كلمة الخلق من معنى . وهو ما أشار اليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « فرغ ربكم من الخلق والأجل والرزق » (٢) . وأما القدر فهو ما يحدث حالا فحالا مما قدر الله أن يكون . وهو الذي أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله : « كل يوم هو في شأن » (٣) . وقولنا إن القضاء هو ما سبق في علم الله ، إن هو إلا تعبير يتلاءم مع علمنا وحدودنا نحن بني البشر الخاضعين لحدود الزمان والمكان ، أما أيهما أسبق من الآخر ، القضاء ، أم القدر عند الله ، فذلك ما لا يجوز فيه السؤال والبحث ، لأنهما في ارادة الله ، والله عز وجل خارج عن قياس الزمن ، لأنه تعالى هو خالق الزمن وخالق الآلة التي بها يتكون الزمن (٤) .

١ - كتاب سيبويه ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ٥٥٥/٣ .

٢ - التفردات في غريب القرآن ص ٤٠٣ .

٣ - سورة الرحمن ٢٩ .

٤ - من حديث فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوي عندما سأله شخصياً عن هذا الموضوع .

وقد رأى بعض العلماء أن القضاء من الله تعالى أخص من القدر. ومن هؤلاء صاحب تاج العروس الذي قال: «وهما أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه» (١) ومنهم أيضا الراغب الاصفهاني، وسوف نرى في كلامه اضطرابا في تقديم أحدهما على الآخر، فهو تارة يذكر أن القدر هو الأساس، ولكنه عند شرح ما يمثل به لرأيه يفهم من كلامه أن القضاء هو الأساس وأنه أعم من القدر. يقول الراغب: ان القدر هو التقدير والقضاء هو الفصل والقطع وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل والقضاء بمنزلة الكيل (٢). ومثل الراغب بقول أبي عبيدة لعمر رضي الله عنهما لما أراد الرجوع من تبوك على حدود الشام الجنوبية الى المدينة المنورة لانتشار الطاعون في بلاد الشام، قال أبو عبيدة: أنفر من القضاء؟ قال عمر: نعم أنفر من قضاء الله الى قدر الله». ولكن تعليق الراغب على هذه القصة يخالف رأيه الذي مهد به لها، حيث قال: «تنبيهها الى أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجوع أن يدفعه الله فاذا قضي فلا مدفع له، ويشهد لذلك قوله تعالى «وكان أمرا مقضيا» (٣). وهذا التعليق — كما نرى — يعود بالراغب الى جعل القدر أخص من القضاء وهو عكس ما استهل به كلامه. وثمة قول آخر له يوافق هذا التعليق ويخالف رأيه السابق، وقد ذكره في معرض شرحه لقوله تعالى:

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٤)

قال: «فقدد اشارة الى ما سبق به القضاء والكتابة في اللوح المحفوظ والمشار اليه بقوله عليه الصلاة السلام «فرغ ربكم من الخلق والأجل والرزق»، والمقدور اشارة الى ما يحدث عنه حالا فحالا مما قدر، وهو المشار اليه «كل يوم هو في شأن» (٥). ويبدولي أنه ممن يرى أن القضاء أعم من القدر وأسبق، وأنه ربما كان يميل فيختلط عليه اللفظ بين القضاء والقدر، أو أن ما قاله أو ما أملاه قد وقع فيه التبديل، عن قصد أو عن غير قصد — فيما بعد على يد الناسخين أو الشارحين. وربما كان أقرب الى الصواب أن نعد القضاء هو القاعدة الأولى التي يقوم عليها هذا الأمر. وعندما نقرأ الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة

١ - تاج العروس في جواهر القاموس. محمد مرتضى الزبيدي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، مادة قضى.

٢ - المفردات في غريب القرآن، ص ٤١٦.

٣ - المرجع السابق.

٤ - سورة الأحزاب ٣٨.

٥ - المفردات في غريب القرآن، ص ٤٠٣.

في هذا الموضوع نرى أن الله عز وجل أراد بالقضاء الإرادة الإلهية في خلق هذا الكون حسب ما شاء الله وأراد ، وأن القدر هو ما يتحقق من هذا القضاء حالا بعد حال . وسنرى كذلك أن اللغة نفسها تحمل الكلمتين هذا المعنى وتفرض هذا الفهم .

قال تعالى :

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ^ط وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^(١)

وقال تعالى :

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ^ج ^(٢)

وقال تعالى :

فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ^ج وَحِفْظًا ^ج ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ^(٣)

وقال تعالى :

وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ^ج وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ^(٤)

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما قضى الله عز وجل الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي » رواه الشيخان والترمذي ^(٥) .

أما الآيات التي ورد فيها ذكر القدر فهي تدل على أنه تنفيذ ما أراده الله عز وجل في

قضائه :

١ - سورة البقرة ١١٧ .

٢ - سورة الاسراء ٢٣ .

٣ - سورة فصلت ١٢ .

٤ - سورة مريم ٢١ .

٥ - التاج الجامع للأصول ص ١٩٢ .

قال تعالى :

وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عُرْشًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١)

وقال تعالى :

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)

وقال تعالى :

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٤)

وهكذا فان القضاء في الاصطلاح القرآني هو اتمام الأمر وإحكامه وإيجابه . والقدر هو اظهار القضاء السابق حسب علم الله وإرادته .

وفي معاجم اللغة ورد القضاء في عدة معان منها أنه الحكم ، والصنع والتقدير والحتم بالأمر ، والبيان والأداء والنهاية (٥) . وقال ابن سيدة : الْقَدْرُ والقَدْرُ هو القضاء والحكم ، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور (٦) .

وعند مقارنة هذه المعاني الاسلامية للقضاء والقدر بما حملته الكلمتان من معان في الشعر الجاهلي ، وجدت أن معانيهما في الشعر الجاهلي هي نفسها المعاني المفهومة من آيات القرآن الكريم . اللهم فيما يتعلق بالقضاء فقد وردت أبيات قليلة توحى بأنه قضاء الله وحكمه ، أما أكثر الأبيات في هذه المادة فكانت تورد تلك المعاني المتداولة في حياة الناس اليومية العادية من حكم واطمأن وانفاذ أمر ، وانهاؤه ، ففي معنى الحكم قال الحارث بن حلزة اليشكري (٦) :

أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو وهل لذاك انتهاء
من له عندنا من الخير آيا ت ثلاث في كلهن القضاء

١ - سورة القمر ١٢ .

٢ - سورة الأعلى ٢ - ٣ .

٣ - سورة النمل ٥٧ .

٤ - تاج العروس مادة قضي .

٥ - لسان العرب مادة قدر .

٦ - شرح التعليقات السبع ص ١٧٧ .

أي هو الذي لنا عنده ثلاث آيات من دلائل غنائنا وحسن بلائنا في الحرب والخطوب يقضى
— ويحكم — لنا بالفضل على غيرها فيها .

وفي معنى إنهاء الشيء والفراغ منه قال أوس بن حجر (١) :

أم هل كبير بكى لم يَفْضِ عَبْرَتَهُ إثرَ الاحبة يومَ البَيْنِ معذور
وفي معنى إتمام الأمر قال زهير (٢) :

فَقَضُوا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا إلى كَأْ مُسْتَوْبِلٍ مَتَوَخَّمٍ
وقال الحارث بن حنظلة الشكري (٣) :

وثمانون من تميم بأيديهم رماح صدورهن القضاء
ومن نسبوا القضاء إلى الله السموأل بن عادياء في قوله (٤) .

بل لكل من رزقه ما قضى الله وإن حك أنفه المستميت
وكلمة القدر كانت أكثر شيوعاً في شعرهم من كلمة القضاء . ويفهم من شعرهم إيمانهم
بأن هناك أشياء تفرض عليهم ولكنهم لم يدركوا مصدرها الحقيقي . وهذا يتناسب مع
عقائدهم المضطربة التي لم تكن قائمة على إيمان وثيق . ومن ذلك قول هذبة بن خشرم
(٥) :

ألا يا لقومي للنوائب والقدر ولأمر يأتي المرء من حيث لا يدري
وقول عمرو بن كلثوم (٦) :

وأنا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا
وفي التقدير بمعنى التوقيت المحدد قال لبيد (٧) :

فقدرت للورد المغلس عدوه فوردت قبل تبيين الألوان
ومن الجدير بالذكر أن كلمة القضاء بهذه الصيغة لم ترد في القرآن الكريم على حين
ورد الفعل قضى وما يشتق منه في أربع وستين آية . وقد رأينا كيف أن استعمال الكلمة في

١ - ديوان أوس بن حجر ص ٣٩ .

٢ - شرح المعلقات السبع ص ٩٠ .

٣ - المرجع السابق ص ١٨١ .

٤ - الأصمعيات ص ٨٦ ، وديوان السموأل ، دار صادر ودار بيروت ١٩٦٤ ، ص ٨٢ .

٥ - لسان العرب مادة قدر .

٦ - شرح المعلقات السبع ص ١٢٧ .

٧ - ديوان لبيد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠٧ .

القرآن الكريم وافق استعمال الشعر الجاهلي لها . ولكن يمكن القول أن تلك المعاني المختلفة يمكن ردها جميعا الى معنى أساسي واحد هو الإحكام والالتزام . وفي هذا المعنى شاع مصطلح القضاء في الدراسات الإسلامية بعد نزول القرآن الكريم .

أما كلمة القدر فقد وردت بهذه الصيغة في القرآن الكريم ثلاث مرات . وفي آية رابعة وردت منكورة منصوبة هكذا : « إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا » (١) على حين ورد الفعل قدر وما يشتق منه مثل وقدرناه وقدره ويقدرون وقادرون وتقدير ومقدار ومقتدرون وقادر وقدير وغيرها في مائة وخمسة وعشرين آية . وكانت المعاني التي تردت فيها هذه الصيغ تدور حول :

١ - الحكم والارادة .

٢ - الاستطاعة والامكان .

٣ - التوقيت والاحكام والتدبير .

وهذه المعاني عرفت في الشعر الجاهلي . ولكن يمكن القول ان القرآن الكريم قد خصص معنى القدر حين نسبه الى الله عز وجل في آيات واضحة صريحة . ومن هنا شاع مصطلح القدر على أنه ارادة الله في تنفيذ قضائه حسب ما تقتضي كلمته .

الاسراء والمعراج :

الاسراء والمعراج مصطلحان اسلاميان جديدان . خصص القرآن الكريم مفهوم كل منهما ومعناه من معنى أسرى وعرج العام في الاستعمال العربي في العصر الجاهلي . وقد حدث الاسراء والمعراج في مطلع الدعوة المحمدية قبيل الهجرة . ويُعدُّ الاسراء والمعراج من دلائل نبوته عليه السلام . وهما من الحقائق التي ترتبط ارتباطا وثيقا بعقيدة المسلم . فالإيمان بهما واجب ، والشك فيهما أو في أحدهما يخرج الانسان عن إيمانه ويقدح في عقيدته . وقد ذكرهما القرآن الكريم والحديث الشريف . قال تعالى :

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢)

١ - سورة الطلاق ٣

٢ - سورة الاسراء ١ .

وقد تحدثت سورة النجم عن حادثة المعراج كذلك . أما الأحاديث النبوية الشريفة التي تعرضت لتفصيل حادثي الاسراء والمعراج فكثيرة ومشهورة ، روتها معظم كتب التفسير والسير^(١) .

والاسراء مصدر أسريت اذا سِرْتَ ليلاً^(٢) . وسريت سُرىً ومسرئى . والسرى سير الليل عامته . وقيل السرى سير الليل كله . والعرب تذكره وتؤنثه . قال لبيد^(٣) :

قلت هجداً فقد طال السرى وقد رنا ان خنا الليل غفل
وقد تردد ذكر السرى على ألسنة الشعراء كثيراً . من ذلك قول النابغة^(٤)

أُسِرْتُ اليه من الجوزاء ساريةً تُزجى الشمال عليه جامد البرد
وقول حسان بن ثابت^(٥) :

حَيَّ النَّضِيرَةَ ربة الخدر أسرت اليك ولم تكن تسري
وقول ضابئ بن الحارث^(٦) :

وتنجوا اذا زال النهار كما نجا هَجَفُ أَبُورَأْلَيْنِ ريع فأجفلا
وتصبح عن غب السرى وكأنها فنيق تناهى عن رجال فأرقلا

ومن هنا يتبين أن الاسراء كلمة عربية ، متداولة وقد استعملت في الشعر الجاهلي بالمعنى الذي ورد في القرآن الكريم . ولكن الذي خَصَّصَ دلالتها في الاسلام ارتباطها بحادثة الاسراء المعروفة .

أما المعراج فهو من عرج في الدرجة والسلم يعرج عروجا أي ارتقى . وعرج في الشيء وعليه يَعْرِجُ ويعْرِجُ أي رقى . وعرج الشيء فهو عريج : ارتفع وعلا^(٧) . قال أبو ذؤيب^(٨) :

١ - تفسير القرآن العظيم . الذي اشتهر بتفسير ابن كثير لأبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي . ٧ أجزاء . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . الطبعة الثانية . ١٩٧٠ ، ج ٣ ص ٣ - ٤ .

٢ - لسان العرب مادة سرى .

٣ - ديوان لبيد ص ١٤٧ .

٤ - ديوان النابغة ، ص ١٨ .

٥ - ديوان حسان ، ص ١٣٩ .

٦ - الأسمعيات ص ١١٠ .

٧ - لسان العرب مادة عرج .

٨ - ديوان اهذليين ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة . ١٩٦٥ . القسم الأول . ص ٥٣ .

كما نَوَّرَ المصباحُ للعجم أفرهُم بُعَيْدَ رُقَادِ النائمين عَرِيحُ
والمعرج المصعد . والمعارج المصاعد والدرج .

هذا هو أصل كلمة المعراج في اللغة . ولكن معناه في المصطلح الاسلامي ارتبط بحادثة
الاسراء كذلك . فقد أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى بيت المقدس ، ومن
القدس عرج به الى السماء . وبذلك عرف المعراج بأنه رحلة النبي صلى الله عليه وسلم بين
الأرض والسماء . وصار المعراج — بعد اشتهاره وانتشاره في المصطلح الاسلامي — الطريق
الذي تصعد فيه الملائكة .

وجدير بالذكر أن الفعل أسرى ورد في آية واحدة فقط في القرآن الكريم هي مطلع سورة
الاسراء التي سبق نصها . ومنها أخذ مصطلح الاسراء الذي لم يرد في القرآن الكريم بهذه
الصيغة ، على حين ورد الفعل « يسر » في آية واحدة . والفعل « أسر » — بصيغة الأمر — في
خمس آيات أخرى . وفيما عدا الآية الأولى من سورة الاسراء استعمل القرآن الكريم الفعل
يسري وأسر بالمعنى اللغوي وهو السير في الليل قال تعالى .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ
يَبْسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى (١)

وقال تعالى :

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَالْأَيْلِ إِذَا يَسِر (٤)
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (٥)

وورد الفعل تعرج في آية واحدة . والفعل يعرج في ثلاث آيات . والفعل يعرجون في
آية واحدة . وكلمة معارج في آيتين ، وكلها تعني الصعود والارتقاء . أما كلمة المعراج وهي
المصطلح الاسلامي فلم ترد في القرآن الكريم انما اشتقت من تلك الأفعال كما هو الشأن في
مصطلح الاسراء . قال تعالى :

١ - سورة طه ٧٧ .

٢ - سورة الفجر ١ - ٤ .

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (١)

وقال تعالى :

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٢)

العبادة :

ذكرت مصطلح العبادة في فصل مصطلحات العقيدة ، لأن العقيدة الصحيحة تجعل الانسان عبدا لله وعابدا له . فاذا لم يكن المرء كذلك فهو بعيد عن عقيدة المسلم . وقد جعلت ضمن هذا المصطلح مصطلحات أخرى تتصل به اتصالا شديدا وهي مصطلحات : الجاهلية ، وهي صورة الحياة الدينية عند العرب قبل نزول القرآن . الأنصاب والأصنام والأوثان ، وهي التماثيل التي كان العرب يعبدونها . والحنيفية ، وهي محاولة بعض الناس التعرف الى خالق الكون والتوجه اليه بالعبادة ، ونبذهم عبادة الأصنام والأوثان .

والحلال والحرام ، وهما ركنان أساسيان في مفهوم العبادة . والفرض والسنة ، وهما ركنان يتعلقان بالمصدرين الأساسيين في العبادة وفي التشريع الاسلامي وهما القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف . والفقه ، وهو عملية استخلاص واستنباط الأحكام من القرآن الكريم .

العبادة «العباد» و«العبيد» :

جاء في جوهرة اللغة أن العبد ضد الحر . وأصل العبد من قولهم طريق معبد أي مذل ، وجعل معبد ، والتعبيد له موضعان ، يقال عبدت الرجل اذا ذللته حتى يعمل عمل العبد ، وهو حر ، وعبدت القوم اتخذتهم عبيدا (٣) . وفي لسان العرب العبد المملوك خلاف الحر . وأصل العبودية الخضوع والتذلل . وقال سيويه : العبد في الأصل صفة ، قالوا رجل عبد

١ - سورة سبأ ٢ .

٢ - سورة الزخرف ٣٣ .

٣ - جوهرة اللغة مادة عبد .

ولكنه استعمل استعمال الأسماء ، والجمع أعبد وعبيد وعباد وعبد^(١) . وقال ابن فارس في مادة عبد . « العين والباء أصلان صحيحان كأنهما متضادان ، والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل والآخر على شدة وغلظ »^(٢) .

وقال ابن سيدة : أصل العبادة في اللغة التذليل . والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب في المعاني . وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة ، طاعة كان للمعبود أو غير طاعة . وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل فهي عبادة . والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه الا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة والفهم والسمع والبصر . والشكر والعبادة لا تستحق الا بالنعمة ، لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه الا ما كان له أعلى جنس من النعمة ، الا الله سبحانه ، فلذلك لا يستحق العبادة الا الله »^(٣) .

ومن ذلك يظهر أن العبودية والعبودية والعبدية معناها اللغوي الخضوع والتذلل أي استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقيادا لا مقاومة معه ولا عدول عنه ولا عصيان له ، حتى يستخدمه هو حسبما يرضى وكيفما يشاء^(٤) .

وفي هذا المعنى اللغوي وردت شواهد شعرية كثيرة تدل على أن العرب عرفوا هذا المعنى واستعملوه . كيف لا وقد كان نظام الرق والعبودية شائعا فيهم . قال أوس بن حجر^(٥) :

أبينني لبيني لست مُعْتَرَفًا ليكون الأُم مِنكُم أَحَدُ
ابيني لبيني إن أمكم أمةً وإن أباكم عبيدُ
وقال آخر^(٦) :

حتام يعبدني قومي وقد كثرت فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان
وهذا ما تعبد الرجل وعبدته وأُعْبِدَ واعتبده واستعبده : اتخذ عبدا وصيره كالعبد . وعُبد جمع

١ - بيان العرب مادة عبد .

٢ - مقاييس اللغة مادة عبد .

٣ - الشخصص . أبو الحسن علي بن اسماعيل . المعروف بابن سيدة ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، الطبعة الأولى .

١٣١٦ هـ . مادة عبد .

٤ - لمبطلحات الأربعة في القرآن ص ٩٥ .

٥ - ديوان أوس بن حجر ، ص ٢١ . وقد أراد عبدا ولكنه نقل وحرك للضرورة فقال عبدا لأن القصيدة من الكامل وهي حذاء .

٦ - بيان العرب مادة عبد .

عبد . ويجمع أيضا على أعبد . ويمكن جمع هذا الجمع على أعابد ، مثل ما ورد في شعر أبي داود الايادي يصف نارا (١) :

هـن كنار الرأس بالعلياء تذكىها الأعابد

وقال جذيمة الأبرش (٢) :

حدثيني رقاش لا تَكْذِبيني أَلْحُرَّ حَمَلْتِ أمْ لَهْجِينِ
أمْ لِعَبْدٍ فَأَنْتِ أَهْلُ لَعْبِد أمْ لِدُونٍ فَأَنْتِ أَهْلُ لِدُونِ

وفي شعر النابغة الذبياني (٣) :

أَتَأْخُذُ عَبْدًا لَمْ يَخْنُكْ أَمَانَةٌ وَتَتْرِكُ عَبْدًا ظَالِمًا وَهُوَ ظَالِعٌ
وفي شعره كذلك (٤) :

فَإِنْ أَكْ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ وَإِنْ تَكْ ذَاعَتَبَى فَمِثْلُكَ يَعْتَبُ
وفي شعر عنتره (٥) :

صَعَلَ يَعُودُ بِذِي الْعَشِيرَةِ بَيْضُهُ كَالْعَبْدِ ذِي الْفِرْوِ الطَّوِيلِ الْأَصْلَمِ
وغير ذلك شعر كثير .

هذه الشواهد جميعها تدل على أن العبد هو المملوك وهو الطائع الخاضع لسيده .

وقد عرف العرب أيضا «عبد» بمعنى تأله له . والتعبد بمعنى التمسك . وعلى هذا المعنى

يفسر قول النابغة (٦) :

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ عَبْدُ الْإِلَهِ ، صَرُورَةٌ ، مَتَعَبِدٍ
لَرْنَا لِبَهْجَتِهَا وَحَسَنِ حَدِيثِهَا وَلَخَالَهُ رَشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرُشِدْ

ومنه صار المعبد بمعنى المكرم والمعظم كأنه يعبد ، وعليه فسروا قول حاتم الطائي (٧) :

١ - لسان العرب مادة عبد .

٢ - الأوائل ، ص ٦٥ .

٣ - ديوان النابغة ص ٣٧ .

٤ - ديوان النابغة ص ٧٤ .

٥ - شرح المعاني السبع ، ص ١٥٤ .

٦ - ديوان النابغة ص ٩٥ - ٩٦ .

٧ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٤٠ .

تقول ألا يا امسك عليك فإنني أرى المال عند الباخلين معبدا

ومفهوم العبادة في القرآن لا يخرج عن هذا المعنى اللغوي ، المعروف المتداول . وقد فسرهما العلماء بذلك . قال ابن الأنباري : فلان عابد وهو الخاضع لربه ، المستسلم المنقاد لأمره . وعبد الله يعبد عبادة ومعبدا : تأله له . والتعبد التنسك . والعبادة الطاعة . وقال الزجاج : ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع . وقال اللحياني عبدت الله عبادة ومعبدا . وقال الأزهري : اجتمع العامة على تفرقة ما بين عباد الله والممالك فقالوا هذا عبد من عباد الله وهؤلاء عبيد ممالك (١) .

واذا تلونا آيات القرآن الكريم التي وردت فيها كلمة عبد وما اشتق منها — وعددها مائتان وخمس وسبعون آية — نجدها لا تخرج على هذا الأصل اللغوي المعروف . وهذا يدل على أن مصطلح العبادة استعمل في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم بمفهوم واحد . ولكن القرآن الكريم أضفى عليه صفة التخصيص بعبادة الله عز وجل وحده .

وقد قسم الشيخ أبو الأعلى المودودي في كتابه « المصطلحات الأربعة في القرآن » معنى العبادة الى أقسام ثلاثة . فقال : « ويتضح كل الوضوح من جميع ما تقدم من الأمثلة أن كلمة العبادة في القرآن قد استعملت في بعض المواضع بمعنيين العبودية والاطاعة وفي الأخرى بمعنى الاطاعة فحسب وفي الثالثة بمعنى التأله وحده » (٢) . ويرى هذا الباحث أن القرآن الكريم ذكر أن بعض الآيات التي تعني العبودية والاطاعة كانت تعني هؤلاء الناس الذين خرجوا عن طريق الحق ، واتخذوا الشيطان معبودا لهم ، واتخذوا الأناس المتمردين الذين جعلوا أنفسهم طواغيت معبودين لهم (٣) . ويرى كذلك أن الآيات التي وردت فيها العبادة بمعنى التأله كان المقصود بالمعبود فيها هؤلاء الأولياء والأنبياء والصلحاء الذين اتخذهم الناس آلهة لهم رغم أنف هدايتهم وتعليمهم (٤) ، وبعد أن يفند المؤلف هذه المعتقدات الزائفة يقرر أن دعوة القرآن — وهي تفند ذلك — تريد أن تكون العبودية والاطاعة

١ - لسان العرب مادة عبد .

٢ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، ص ١٠٧ .

٣ - المرجع السابق ص ١٠٧ .

٤ - المرجع السابق ص ١٠٨ .

والتأله ، كل أولئك خالصا لوجه الله تعالى (١) .

وقد تحدث صاحب الأشباه والنظائر عن معنى العبادة في القرآن فقال : « والعبادة على ثلاثة وجوه : فوجه منها اعبدوا بمعنى وحدوا ، والوجه الثاني يعبدون يعني يطيعون ، والوجه الثالث العباد يعني الممالك » (٢) .

ومن لطائف الاشارات في القرآن الكريم أنه فرق بين صيغتي « عباد » و « عبيد » على حين أن معاجم اللغة لم تفرق بينهما في المفهوم . وقد وردت كلمة « عباد » بهذه الصيغة ، ومعرفة بأل ، ومضافة الى الضمائر مثل عبادي وعبادنا وعبادكم وعبادك في سبعة وتسعين موضعا ، وهي في هذه المواضع كلها تعنى العباد الطائعين لله عز وجل ، المخلصين له . مثال ذلك قوله تعالى :

وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣)

وقوله تعالى :

يَعْبَادُ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤)

وقوله تعالى :

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٥) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٥)

وفي كثير من الآيات التي وردت فيها كلمة العباد ، بفهم القارىء منها أن الله عز وجل راض عنهم وأنه تعالى يهبهم الزرق الحسن ، ويشهرهم برحمته ، ويرحمهم وما ذلك الا لأنهم استحقوا هذه العناية الالهية بعملهم .

أما كلمة « عبيد » فقد وردت في خمس آيات . وكلها تدل على أنهم عصاة لله عز وجل يستحقون عذابه ونقمته . وجدير بالذكر أن ثلاث آيات منها قد سبقت بقوله تعالى : « ذوقوا عذاب الحريق » في آيتين ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق في الآية الثالثة : ومثال ذلك :

١ - المرجع السابق ص ١١٥ .

٢ - الأشباه والنظائر ص ٢٨٨ .

٣ - سورة آل عمران ٣٠ .

٤ - سورة الزخرف ٦٨ .

٥ - سورة ص ٨٢ - ٨٣ .

قوله تعالى :

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ
مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾
ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١)

وقوله تعالى :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٢﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢)

وقال تعالى :

ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهٗ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٣﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٣)

والآية الرابعة هي قوله تعالى :

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤)

١ - سورة آل عمران ١٨١ - ١٨٢ .

٢ - سورة الأنفال ٥٠ - ٥١ .

٣ - سورة الحج ٩ - ١٠ .

٤ - سورة فصلت ٤٥ - ٤٦ .

والآية الخامسة في قوله تعالى :

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ
الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ^(١)

وهذه الآيات الكريمات تدل على أن هؤلاء استحقوا عذاب الحريق ، لأنهم أعرضوا عن عبادة الله في الدنيا وعبدوا أهواءهم وشهواتهم ، فكأنهم كانوا عبيد المال وعبيد الجسد ، وعبيد الشهرة والجاه والمناصب ، وما أكثر هؤلاء في حياتنا هذه الدنيا .

ونتيجة لذلك يمكن القول إن « العباد » مصطلح قرآني جديد يعني عباد الله الصالحين وأن « العبيد » مصطلح قرآني جديد كذلك يعني الناس الذين يعرضون عن طاعة الله وعبادته .

الجاهلية :

الجهل في معاجم اللغة ضد الحلم ، جَهْلٌ يَجْهَلُ جَهْلًا وجهالة . وجاء أيضا أرض مجهل إذا كانت لا يهتدى بها . وكل شيء استخففته حتى تنزقه فقد استجهلته . والمجهلة الأمر الذي يملك على الجهل ^(٢) .

وفي أساس البلاغة : فلان جهول ، وقد جهل بالأمر ، وهو يجهل على قومه يتسافه عليهم ، وجهل صاحبه رماه بالجهل ، واستجهله عدّه جاهلا . وجاهله سافهه ، وفلاة مجهل لا علم بها خلاف معلم ، ومن المجاز استجهلت الريح الغضى أي حركته ^(٣) .

وما سبق نستطيع أن نحدد المعاني التالية لمادة جهل وما يشق منها :

- ١ - الجهل ضد العلم .
- ٢ - الجهل الضياع والتيه وهو معنى مجازي تفرع عن المعنى الأول ، كأن الذي لا يعلم الطريق أو المكان فهو يتيه فيه ويضيع ، ولذلك قالوا أرض مجهل ، وناقة مجهولة إذا كانت غفلة لاسمة عليها .
- ٣ - السفه والطيش والغضب والاعتداء .

١ - سورة ق ٢٨ - ٢٩ .

٢ - جهرة اللغة مادة جهل .

٣ - أساس البلاغة مادة جهل .

وقد ذكر الشعر الجاهلي هذه المعاني كلها .. ففي المعنى الأول يقول عنتره (١) :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
ويقول عوف بن عطية (٢) :

وقالت كُبَيْشَةُ من جهلها أشيئا قديما وجليما معارا
وفي المعنى الثاني قال سويد بن أبي كاهل (٣) .

فركبناها على مجهولها بصلاب الأرض فيهن شجع
وأشدد سيويه لهذا المعنى (٤) :

فلم يبق الا كل صفواء صفوة بصحراء تيه بين أرضين مجهل
وفي لسان العرب (٥) :

قلت لصحراء خلاء مجهل تَغَوِّي ما شئت أن تغوي
أما المعنى الثالث - السفه والطيش - فقد ورد كثيرا . وهذه الكثرة تتناسب مع الأحداث التي كانت تجري بينهم من غزو وثأر وسبي وقتل وعداء مستمر بين القبائل وحروب طاحنة دائمة . والشعر الجاهلي الذي يعد ديوان العرب حافل بهذه الأخبار . من ذلك قول عمر بن جني (٦) :

ولقد دعوت طريف دعوّة جاهل سفها وأنت بمنظر لو تعلم
وقول مهلهل بن ربيعة يخاطب الحارث بن عباد (٧) :

يا حار لا تجهل على أشياخنا انا ذوو السُّور والاحلام
وقول خراشة بن عمر العبيسي (٨) :

١ - شرح المعلقات السبع ص ١٥٩ .

٢ - المفضليات ص ٤١٢ .

٣ - لسان العرب مادة جهل ، والمفضليات ١٩٣ .

٤ - لسان العرب مادة جهل .

٥ - المرجع السابق .

٦ - الأصمعيات ، ص ١١٦ .

٧ - الأصمعيات ص ١٥٦ - والسوريات بضم السين جمع سورة وهي الشرف والمنزلة و يفتح السين جمع سورة وهي الحدة والسطوة والاعتداء .

٨ - المفضليات ص ٤٠٥ . يريد أنهم لا يجهلون اذا حمل البقل الناس على أن يجهلوا . وذلك اذا كان الربيع وأمكنت المياه والبقل تذكروا الذهول وطلبوا الاوتار .

فلا قوم الا نحن خير سياسة وخير بقيات بقين وأولا
وأطول في دار الحفاظ إقامة وأربط احلاما اذا البقل أجهلا
وقول عمرو بن كلثوم (١):

الا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
وقول النابغة الذبياني (٢):

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل
يريد أن رؤيته لمنازل الأحاب قد أثارت نفسه وحركت مشاعره وأفاضت حميته .

وقد وردت مادة « جهل » في أربع وعشرين آية في القرآن الكريم . ترددت فيها صيغ « تجهلون » و « يجهلون » و « الجاهل » و « جاهلون » و « الجاهلين » و « جهولا » و « جهالة » و « الجاهلية » . وتلاوة الآيات القرآنية التي ذكرت هذه المادة تفيد أن القرآن الكريم جعل للجهل معنيين هما :

١ - الجهل ضد العلم . وذلك واضح في قوله تعالى :

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ (٣)

٢ - الجهل بمعنى الاعراض عن دين الله ، وعدم تقدير آيات الله وفهمها . وهو المعنى المنتشر في جل الآيات السابقة ، مثال ذلك قوله تعالى :

قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِيْ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٤)

وقوله تعالى:

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٥)

١ - شرح المعلقات السبع ص ١٣٦ .

٢ - ديوان النابغة ص ١١٥ .

٣ - سورة البقرة ٢٧٣ .

٤ - سورة الزمر ٦٤ .

٥ - سورة الاحقاف ٢٣ .

وأكثر ما يتضح هذا المعنى في الآيات الأربع التي ورد فيها لفظ « الجاهلية » . ولم أجد في الشعر الجاهلي هذه الصيغة ، إنما هي صيغة أوجدها القرآن الكريم وانتشرت فيما بعد لتكون علما على الفترة التي سبقت نزول القرآن . قال السيوطي في المزهري : « قال ابن خالويه ان لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة ، والمنافق اسم اسلامي لم يُعرَف في الجاهلية » (١) . وقد وردت الكلمة في قوله تعالى :

١ - يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ^ط (٢)

٢ - وفي قوله تعالى :

أَفْكَرَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٣)

٣ - وفي قوله تعالى :

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى^ط (٤)

٤ - وفي قوله تعالى :

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ^ط (٥)

وتوضح الآية الأولى والرابعة من هذه الآيات الكريمة أن مصطلح الجاهلية الذي استحدثه الاسلام مستمد من حياة السفه والطيش والحمية الزائفة التي كان يحياها الناس في العصر الجاهلي . وتوضح الآية الثالثة طرفا من النظام الاجتماعي السائد في ذلك العصر . على حين تؤكد الآية الثانية أن « الجاهلية » هي الحكم الذي يقابل حكم الله عز وجل . أي هي الحكم الذي كان سائدا في العصر الجاهلي . وربما كانت كلمة حكم هنا غير دقيقة ، ويقصد بها النظام العرفي والعادات القبلية التي كانت متحكمة فيهم ، الى جانب ما عُرفوا به من عبادة الأصنام والأوثان ، وقد جاء في تفسير الآية : « ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر ، وَعَدَلَ الى ما سواه

١ - المزهري في علوم اللغة وآدابها ، السيوطي ، تحقيق محمد أحمد جاد المول وزملائه ، القاهرة ، البابي الحلبي ، ٣٠١/١ .

٢ - سورة آل عمران ١٥٤ .

٣ - سورة المائدة ٥٠ .

٤ - سورة الأحزاب ٣٣ .

٥ - سورة الفتح ٢٦ .

من الآراء والأهواء ، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند في شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع الى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير» (١) .

وهكذا يظهر أن مصطلح الجاهلية الذي صنعه القرآن الكريم مستمد من الجهل بمعنى السفه والطيش والاعراض وليس من الجهل الذي هو ضد العلم . والآيات الكريمة شاهدة على ذلك . قال الأستاذ أحمد أمين « في » « فجر الاسلام » « والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة ، جاء في حديث الأفك » ولكن اجتهدته الحمية « أي حملته الأنفة والغضب على الجهل . وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر وقد عير رجلا بأمه « انك امرؤ فيك جاهلية (٢) » أي فيك روح الجاهلية . فترى من هذا كله أن الجاهلية تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة وهي أمور أوضح ما كانت في حياة العرب قبل الاسلام فسمي العصر الجاهلية » (٣) .

وربما كان مصطلح الجاهلية من أشهر المصطلحات التي أطلقها القرآن الكريم ، ويكفي للدلالة على ذلك آلاف الكتب التي تحدثت عن العصر الجاهلي ، حياته العقلية والأدبية والاجتماعية والدينية ، وكل ما يتعلق بذلك ، وربما يجوز لنا أن نقول إن الجاهلية قد أصبحت علما ومصطلحا على كل عصر وعلى كل شعب لا يخضع لحكم الله عز وجل في نظامه ، ومن هنا بدأنا نرى مؤلفات تحمل اسم الجاهلية الجديدة ، أو جاهلية القرن العشرين ، وهكذا . مما يؤكد أن مصطلح الجاهلية ، بمعنى الاعراض عن حكم الله ، قد استقر في الأذهان ، وصار علما على مفهوم لا يجهله أي مسلم .

الأنصاب والأصنام والأوثان :

لا بد أن يكون المقصود بكلمة الاصنام مختلفا عما تفيده كلمة الأوثان ، ذلك أن كلامنا هذين اللفظين ورد في القرآن الكريم . وقد ورد ذكر الاصنام في خمس آيات في القرآن في

١ - في ظلال القرآن ، مجلد ٧ ص ٥٠٩ - ٥١٠ .

٢ - صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ١٤ ، ج ٨ ، ص ١٩ .

٣ - فجر الاسلام ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان ، الطبعة العاشرة ، ١٩٦٩ ، ص ٧٠ .

سور الأعراف و ابراهيم والشعراء والأنبياء . وأربع آيات منها تتعلق بقصة سيدنا ابراهيم عليه السلام مع قومه ، ونصوص الآيات هي :
قال تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسِئِدْ أَصْنَامًا ۖ إِلَٰهَةٌ (١)

وقال تعالى على لسان ابراهيم :

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامَ (٢)

وقال تعالى على لسان قوم ابراهيم :

قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً (٣)

وقال تعالى على لسان ابراهيم يرد عليهم :

وَتَاللَّهِ لَا أَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ (٤)

أما الآية الخامسة فهي تحكي جانباً من قصة موسى عليه السلام مع قومه . قال تعالى :

وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ
لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ
قَوْمٌ بَٰجِلُونَ (٥)

أما الأ وثان فقد ذكرت في ثلاث آيات من القرآن الكريم . آية في سورة الحج وآيتان في سورة العنكبوت . ومن العجيب أن آيتي سورة العنكبوت تذكران كذلك قصة ابراهيم عليه السلام مع قومه ، تلك القصة نفسها التي ذكرت مع لفظ الأصنام . قال تعالى :

١ - سورة الانعام ٧٤ .

٢ - سورة ابراهيم ٣٥ .

٣ - سورة الشعراء ٧١ .

٤ - سورة الأنبياء ٥٧ .

٥ - سورة الاعراف ١٣٨ .

وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا (١)

وقال تعالى على لسان ابراهيم يرد على قومه :

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٢)

فهل يكون الاصنام اذن بمعنى الأوثان ؟ وإلا فما الفرق بين الكلمتين في المعنى ؟ .
انهما ليستا مترادفتين ، ومن المعروف لدى المحققين أن هناك فروقا دقيقة في المعنى بين الكلمات التي يظن أنها مترادفة ، مثل حضر الموت وجاء الموت (٣) ، وغيث ومطر وريح ورياح وما الى ذلك مما فصلت القول فيه خلال الفصل الأخير . فلا بد اذن أن يكون هناك فرق بين الأصنام والأوثان . وقد اضطربت أقوال العلماء في هذا المجال وتناقضت . ولكن الأقوال كلها تصدر عن يقين لدى قائلها أن الكلمتين غير مترادفتين . قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب وتعبد . والصنم الصورة بلا جثة (٤) . وكأن ابن الأثير غير متأكد من رأيه فقال : ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين ، قال : وقد يطلق الوثن على غير الصورة (٥) .

وقال الأزهري : قال شمر فيما قرأت بخطه : أصل الأوثان عند العرب كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها ، فكانت العرب تنصبها وتعبدها . وكانت النصراني نصبت الصليب وهو كالتماثيل تعظمه وتعبد (٦) . ولذلك سماه الأعشى وثنا في شعره عندما قال (٧) :

تطوف العفافة بأبوابه كطوف النصراني ببית الوثن
وقال ابن سيده : الصنم هو ما ينحت من خشب أو يصبغ من فضة ونحاس وهو ما اتخذ لها

١ - سورة العنكبوت ١٦ - ١٧ .

٢ - سورة العنكبوت ٢٥ .

٣ - انظر الفصل السابع .

٤ - لسان العرب مادة وثن .

٥ - المرجع السابق .

٦ - المرجع السابق .

٧ - ديوان الأعشى الكبير ص ٢١ .

من دون الله (١) . وقال ابن عرفه ما اتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن فإذا كان له صورة فهو صنم (٢) . وفي جهرة اللغة : الصنم هو الصورة من حديد أو حجارة أو نحو ذلك تعبد ، ولا يسمى صنما حتى تكون له صورة أو جثة والجمع أصنام (٣) . وروى أبو العباس عن ابن الأعرابي : الصنم والنصمة الصورة التي تعبد . وروى عن الحسن أنه قال : لم يكن حي من أحياء العرب الا ولها صنم منها يسمونها أنثى بني فلان ، ومنه قوله تعالى : « ان يدعون من دونه الا انا » والانات كل شيء ليس فيه روح مثل الخشبة أو الحجارة (٤) .

ومن هذه الاقوال جميعها يتضح أن العلماء لم يتفقوا على قول واحد في الأصنام والأوثان . ولكن غلب على أقوالهم أن الاصنام هي التماثيل على شكل صور ، وأن الأوثان تماثيل بلا صور أحيانا وبلا جثث أحيانا أخرى .

وأرى أن الوثن في مفهومه أعم وأشمل من مفهوم كلمة الصنم . فكأن الأوثان هي كل ما يعبد من دون الله ، صغيرا كان أو كبيرا ، جثة كان أو بلا جثة ، مصورا كان أو غير مصور ، ولكنه على غير صورة الانسان . أما الاصنام فهي التماثيل التي تكون على شكل صورة كبيرة ، وغالبا ما تكون على هيئة آدمى . يتقرب الناس إليها ويعبدونها من دون الله . ويدعم هذا الرأي أسباب منها :

١ - أن القرآن الكريم قرن بين الأوثان وبين الرجس والرجز ، وهو كل عمل معيب وكل عمل سيئ يقتضيه الانسان . قال تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » (٥) فدل هذا على أن الأوثان أعم من الاصنام .

٢ - ما روى من أن النبي عليه الصلاة والسلام أخذ يحطم الاصنام ويقلبها في فناء الكعبة عندما فتح الله عليه مكة . وهذا يدل على أنها تماثيل ذات صور وجثث كبيرة . كذلك حدثنا القرآن الكريم عن سيدنا ابراهيم عليه السلام أنه حطم أصنام قومه فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم .

٣ - ورد في النصوص الصحيحة ما يدل على أن الوثن قد يكون شيئا صغيرا يعلقه الانسان حول رقبته أو يضعه حول معصمه . قال عدي بن حاتم : قدمت على النبي صلى الله

١ - لسان العرب مادة صنم .

٢ - المرجع السابق .

٣ - جهرة اللغة مادة صنم .

٤ - المرجع السابق .

٥ - سورة الحج ٣٠ .

عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب . فقال لي : ألق هذا الوثن عنك (١) .
٤ - ما رواه الكلبي في كتاب الأصنام عن ابن عباس قال : قال النبي عليه السلام :
« رفعت لي النار فرأيت رجلا قصيرا أحمر يجرقصة الى النار . قلت من هذا ؟ قيل :
هذا عمرو بن لحي ، أول من بحر البحيرة ، ووصل الوصيلة ، وسبب السائبة وهي
الحامي ، وغير دين ابراهيم ، ودعا العرب الى عبادة الأوثان » (٢) . والمعروف أن
العرب عبدت الأوثان والأصنام . وهذا يدل على أن الأوثان كلمة أعم في دلالتها
من الاصنام .

٥ - ما ذكر من أسماء وأوصاف بعض الأوثان والأصنام فقالوا : « أما اللات فهي
صخرة مربعة بالطائف وعليها أبناء ولها حي وحرم يقصده العرب و يقدمون لها
الذبائح ... أما العزى فهي شجرة بوادي نخلة الى الشرق من مكة وكانت من أعظم
الأصنام عند القرشيين . أما مناة فهو أحجر أسود أقيم له معبد في قدير على الطريق
بين مكة ويشرب ... وكانت العرب جميعا تعظمه ، وكانت الأوس والخزرج ومن
ينزل المدينة ومكة ، وما قارب من المواضع يعظمونه و يذبحون له و يهدون له ، يقول
عبد العزى بن وداعة المزني :

انني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج (٣)

أما أصنام قريش فكان هبل أعظمهما ، صنم على صورة انسان وكان مصنوعا من
العقيق فأبدله القرشيون بذراع من ذهب » (٤) . وهذا النص يدل على أن المؤلفين كانوا
يخلطون بين الأوثان والأصنام ، وأن ليس للكلمتين مفهوم محدد ، وأنه من الصعب وضع حد
مميز لكل منهما . ولذا فانه من الأقرب الى الصواب اعتبار الوثن هو اللفظ العام على كل ما
يعبد من دون الله ، وأن الصنم هو ما كان غالبا على صورة انسان .

وقد ارتأى الاستاذ العقاد هذا الرأي في شرحه لكلمة الوثن فقال : « الوثن أو التعويذة
هو الذي اصطلح علماء الأجناس على تسميته بالفتيش . شيء جامد مصنوع أو طبيعي
يحمل في أطوائه روحا لها حق الرعاية والتوفير . ومنها يستمد المرء حمايته ومنعته ما دام على
شرعتها في المباحات أو المحظورات . وقد يكون صورة أو حجرا أو حصاة أو قطعة من جذع

١ - لسان العرب مادة وثن ، سنن الترمذي ج ٤ ص ٣٤٢ .

٢ - الاصنام ، الكلبي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٥٨ .

٣ - كتاب الأصنام ، ص ١٣ - ١٤ .

٤ - الكلمة على مر العصور ، الدكتور علي حسني الخزبوطي ، سلسلة أقرأ رقم ٢٩١ ، دار المعارف بمصر ، مارس ١٩٦٧ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

شجرة أو ألفافا من الشعر وعروق الشجر وما إليها يصنعها السحرة أو يصنعها الكبار للصغار» (١) .

ورغم شيوع عبادة الأصنام والأوثان في العصر الجاهلي إلا أننا قلما نتعرض على لفظ كلمة «أصنام» أو «أوثان» في شعر هذا العصر . وقد يجد الباحث عشرات الأبيات في أسماء تلك الأصنام والأوثان وأماكنها وقبائلها وما جرى عندها من أحداث ، ومن قرب إليها وما إلى ذلك من معان تتصل بعبادة الأصنام . ومن بعض الشعر الذي ذكرت فيه كلمة الأوثان قول الأعشى : (٢)

وذا النصب المنسوب لا تنسكنه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
وحتى هذا البيت لم يتفق الرواة على نص ثابت له . فقد روى : « لعافية والله ربك فاعبدا » تارة ، وروى « ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا » تارة أخرى (٣) .

وقول الأعشى هذا يدل على أن الانصباب والنصب تشمل الاصنام والأوثان جميعا . ويؤيد هذا الرأي قول الكلبي « واشتهر العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت ، نصب حجرا أمام الحرم وأمام غيره مما استحسّن ، ثم طاف به تطوافه بالبيت ، وسموها الأنصباب فإذا كانت تماثيل دعوها الاصنام والأوثان ، وسموا طوافهم الدوار (٤) . وقد ذكر القرآن الكريم هذا المصطلح في ثلاث آيات فقط ، ذكر كلمة « الأنصباب » في آية واحدة ، وكلمة « النصب » في آيتين ، وأصل النصب هو الرفع . والنصبية والنصب كل ما نصب فجعل علما . ويجوز أن يكون النُصْب جمع نصيبة مثل سفن وسفينة ، وصحف وصحيفة ، ويجوز أن يكون النصب واحدا جمعه أنصباب ، وعلى هذا الرأي قرئ قوله تعالى : « كأنهم إلى نصب يوفضون » (٥) . وفي لسان العرب قال : « النَّصْبُ والنَّصْبُ كل ما عبد من دون الله تعالى والجمع أنصباب » . وقال الفراء في تعليقه على بيت الأعشى السابق : كأن النصب الآلهة التي كانت تعبد من أحجار . وقال الأزهري : وقد جعل الأعشى النصب واحدا - وذكر البيت السابق - (٦) .
ويبدو أن كلمة الأنصباب أكثر شيوعاً في الشعر الجاهلي من كلمتي الاصنام والأوثان . فقد ذكرها الأعشى مرة أخرى بقوله (٧) :

١ - ابليس ، تأليف عباس محمود العقاد . كتاب الهلال العدد ١٩٢ ، مارس ١٩٦٧ . ص ٣١ .

٢ - ديوان الأعشى ص ١٣٧ .

٣ - لسان العرب مادة نصب .

٤ - الأصنام ص ٣٣ .

٥ - سورة المعارج ص ٤٣ .

٦ - لسان العرب مادة نصب .

٧ - ديوان الأعشى ، ص ٢٩٣ .

وَرَدَتْ عَلَى سَعْدِ بْنِ قَيْسٍ نَاقَتِي وَلَمَّا بَهَا
فَإِذَا عَبِيدٌ عُكَّفٌ مُسْكٌ عَلَى أَنْصَابِهَا
وَقَالَ شَخْتَةُ بْنُ خَلْفِ الْجُرْهَمِيِّ وَكَانَ يَتَمَسَّكُ بِدَيْنِ الْحَنِيفَةِ مُخَاطِبًا عَمْرُو بْنَ لَحْيٍ أَمِيرَ مَكَّةَ
عِنْدَمَا أَكْثَرَ مِنْ أَقَامَةِ الْأُوثَانِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ (١) :

يَا عَمْرُو أَنْكَ قَدْ أَحْدَثْتَ آلِهَةً شَتَّى بِمَكَّةَ حَوْلَ الْبَيْتِ أَنْصَابًا
وَكَانَ لِلْبَيْتِ رَبٌّ وَاحِدٌ أَبَدًا فَقَدْ جَعَلْتَ لَهُ فِي النَّاسِ أَرْبَابًا (٢)
لَتَعْرِفَنَّ بِأَنَّ اللَّهَ فِي مَهْلٍ سَيَصْطَفِي دُونَكُمْ لِلْبَيْتِ حِجَابًا
وَقَالَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ (٣) :

وَالْعَادِيَّاتُ أَسَابِيُ الدِّمَاءِ بِهَا كَأَنَّ أَعْنَاقَهَا أَنْصَابٌ تَرْجِيْبُ
عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْبَاحِثِينَ رَأَى أَنَّ الْأَنْصَابَ هِيَ حِجَارَةٌ كَانَتْ تَتَخَذُ عَنْهُ هِيَائُ كُلِّ الْأَصْنَامِ
وَالْأُوثَانِ يَصُبُّونَ عَلَيْهَا دِمَاءَ الذَّبَائِحِ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى آلِهَتِهِمْ . وَكَانُوا يَقْدُسُونَ هَذِهِ الْأَنْصَابَ
وَيَعِدُونَهَا لِبَعْضِ الْأَرْوَاحِ (٤) . وَرَبَّمَا يَزْكِي هَذَا الرَّأْيُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَمَا أَكَلِ السَّبْعِ إِلَّا مَا
ذَكَيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فُسْخٌ » (٥) . وَلَكِنْ هَذَا الرَّأْيُ
— عَلَى صِحَّتِهِ — لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ تَكُونَ الْأَنْصَابُ أَعْمَ وَأَشْمَلُ مِنْ ذَلِكَ . وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ
أَنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ كَانَ يَنْصُبُ الْحِجَارَةَ لِيَعْبُدَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ صَنْمٌ مَعِينٌ مَشْهُورٌ كَبَاقِي
الْأَصْنَامِ ، قَالَ : « وَاشْتَهَرَ الْعَرَبُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَ بَيْتًا وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَ
صَنْمًا وَمَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى بِنَاءِ بَيْتٍ نَصَبَ حِجْرًا أَمَامَ الْحَرَمِ وَأَمَامَ غَيْرِهِ مِمَّا اسْتَحْسَنَ
ثُمَّ طَافَ بِهِ كَطَوَافِهِ الْبَيْتِ . فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا سَافَرَ فَنَزَلَ مَنْزِلًا أَخَذَ أَرْبَعَةَ أَحْجَارٍ ، فَنَظَرَ إِلَى
أَحْسَنِهَا فَاتَّخَذَهَا رَبًّا وَجَعَلَ ثَلَاثَةَ أَثَافِي لِقَدْرِهِ ، وَإِذَا ارْتَحَلَ تَرَكَهَ ، فَإِذَا نَزَلَ آخَرَ فَعَلَّ مِثْلَ
ذَلِكَ ، وَكَانُوا يَنْحَرُونَ وَيَذْبَحُونَ عِنْدَ كُلِّهَا وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا » (٦) .

١ - الكعبة على العصور . ص ٣٠ .

٢ - يبدو أن كلمة « له » أو غيرها سقطت من عجز البيت فحل وروى .

٣ - المتعضيات . الطبعة السادسة ص ١٢١ .

٤ - انظر « المعصر الجاهلي » . من سلسلة : تاريخ أدب العرب . الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف . مصر . الطبعة الثانية . ص ٩٢ .

٥ - المادة ٣ .

٦ - المعصر الجاهلي . ص ٩٢ .

ومهما يكن من أمر فإن مفهوم كلمة الأنصاب يظل أكثر عموماً وأوسع حدوداً من مفهوم الأصنام والأوثان سواء أريد بالانصاب الحجارة التي تراق عليها الدماء تقرباً إلى الآلهة ، أم أريد بها الحجارة أو التماثيل التي تنصب للعبادة .

ولابد أن نقرر أخيراً أن الأنصاب والأوثان والأصنام ثلاثة مصطلحات استعملت في القرآن الكريم بالمعنى الذي حملته في الشعر الجاهلي نفسه .

الحنيفية :

الأصل اللغوي لهذا المصطلح هو الفعل حنف . والحنف في الأصل هو الميل . وقد دل في أصل استعماله على ميل القدمين كل واحدة منهما نحو الأخرى . وقيل هو ميل كل واحدة من الإبهامين على صاحبتهما حتى يرى شخص أصلها خارجاً . وقيل هو انقلاب القدم حتى يصير بطنها ظهرها . وقيل هو ميل في صدر القدم . وقد حنف فلان حنفاً والرجل أحنف فلان حنفاً والرجل أحنف (١) . ويروى أن الاحنف بن قيس سمي بذلك لأنه كان أحنف الرجل ، وأن أمه كانت ترقصه وهو طفل وتقول (٢) :

والله لولا حنف برجله ما كان في فتيانكم من مثله
ويروى في الحديث أنه — عليه السلام — قال لرجل : ارفع إزارك ، قال : اني أحنف (٣) .

وعن هذا المعنى اللغوي تطور معنى آخر للكلمة حيث صار الحنف يعني الميل في السلوك والاعتقاد ، أو تحول الإنسان من مبدأ إلى غيره ، أو من دين إلى دين آخر . كأنما تحول المعنى من ميل حسي مادي إلى ميل معنوي . وظلت صورة الميل هي العلاقة التي أجازت هذا التطور في الدلالة . وقد تجاوزت معاجم اللغة المعنى الأصلي سريعاً لتفصل القول في هذا المعنى الجديد . قالوا : إن الحنيف هو المائل من خير إلى شر أو من شر إلى خير ، من حنف عن الشيء وتحنف بمعنى مال . وقال أبو عبيدة من كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب . وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين إبراهيم فلما جاء الإسلام سمو المسلم حنيفاً (٤) .

١ - انظر لسان العرب ، وجهرة اللغة ، مادة حنف .

٢ - انظر .. تهذيب اللغة ، أبو منصور محمد أحمد الأزهرى ، تحقيق عبد الكريم الغرباوي ، مراجعة محمد علي النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ،

٣ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي ، ودار صادر - بيروت ، المجلد الرابع ، ٣٩٠ .

٤ - المرجع السابق .

ولكي نتعرف الى معنى الكلمة في العصر الجاهلي وفي القرآن الكريم علينا أن نلم بالحالة الدينية التي كان الناس عليها في ذلك العصر. وفي كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » استعرض المسعودي أديان العرب في العصر الجاهلي فقال : « كانت العرب في جاهليتها فرقا . منهم الموحد المقر بخالقه ، المصدق بالبعث والنشور ، موقنا بأن الله يثيب المطيع ، ويعاقب العاصي ، وقد تقدم ذكرنا في هذا الكتاب ، وغيره من كتبنا ، مَنْ دعا الى الله عز وجل ونبيه أقوامه على آياته في الفترة ، كقس بن ساعدة الايادي ، ورثاب الشَّثي ، وبحيرا الراهب ، وكانا من عبد القيس :

« وكان من العرب من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والاعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الاصنام ... » .

« ومنهم من أقر بالخالق وكذب بالرسول والبعث ومال الى قول أهل الدهر ... » .
« ومنهم من مال الى اليهودية والنصرانية ، ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجمته ، وقد كان صنف في العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله ، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم الى الله » (١) .

تدل هذه النبذة الموجزة على اضطراب الحياة الدينية في العصر الجاهلي . وعلى كثرة الاعتقادات وتنوع المعتقدات . ويهنا هنا من عناهم المؤرخ في الفقرة الأولى من كلامه . وهم الذين عرفوا « بالحنفاء » في العصر الجاهلي . هؤلاء الذين هجروا ما عليه قومهم من عبادة الأوثان والأصنام ، وتركوا انحرافات اليهود والنصارى ، وعكفوا على عبادة خالق هذا الكون ، رب ابراهيم ، يحاولون احياء ملة ابراهيم أبي الأنبياء .

وقد تحدث ابن هشام في سيرته عن الاجتماع الذي كان النواة الأولى للدعوة الحنيفية في العصر الجاهلي ، فقال : « اجتمعت قريش يوما في عيد لها عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له . ويعكفون عنده ، ويدفرون به ، وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما . فخلص منهم أربعة نفر نجيا . ثم قال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين ابراهيم ، ما حجز نظيف به ، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا فانكم والله ما أنتم على شيء . ففترقوا في البلدان

١ - مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي ، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٨ م ، ج ٢ ص ١٢٦ .

يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم» (١) .

وأفرد ابن قتيبة فصلاً في كتابه «المعارف» جعل عنوانه «قصة من كان على دين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم» فذكر عدة أسماء ومن هذه الأسماء زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، وكان زيد قد رغب عن عبادة الأوثان وطلب الدين فقتله النصارى بالشام . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم انه يبعث أمة وحده . ومنهم أيضاً أمية بن أبي الصلت وكان قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان ، وكان يخبر بأن نبيا يبعث قد أظلم زمانه . ومنهم أيضاً أسعد أبو كرب الحميري . ومن هؤلاء قس بن ساعدة الايادي وهو حكيم العرب ، وذكر الرسول أنه رآه يخطب في سوق عكاظ وهو على جبل أحر.... وآخر من عددهم ابن قتيبة هو خالد بن سنان بن غيث وهو من بني عبس بن بغيض ، وروى أن رسول الله قال : ذلك نبيُّ أضاعه قومه ، و يروى ابن قتيبة أن ابنته قدمت على الرسول فسمعتة يقرأ : قل هو الله أحد . فقالت : كان أبي يقول ذا (٢) .

من تلك الأخبار السابقة نعلم أن الحنيفية هي مدرسة جديدة ذات عقيدة ظهرت قبل نزول القرآن ، تهدف الى العودة الى دين ابراهيم الحنيف ، وتخليص الكعبة من الأوثان واصلاح أحوال العرب . وعندما انتشرت هذه الحركة انتشر استعمال كلمة حنيف وما يشق منها مثل نتحنف ، لتعني عبادة الله وحده ، والتزام ما بقي من أحكام دين ابراهيم عليه السلام . وصار كل من يقوم بعمل من أعمال دين ابراهيم عليه السلام كحج البيت والاختتان يقال له حنيف . ثم توسع الناس في استعمال الكلمة حتى صارت تعني العبادة . يقال تحنف الرجل أي عمل عمل الحنيفية أو اعتزل الاصنام وتعبد ، قال جرير العود (٣) :

ولما رأين الصبح بادرن ضوؤه رسيم قطا البطحاء أو هن أقطف
وأدركن اعجازا من الليل بعدما أقام الصلاة العابد المتحنف
وقال أبو ذؤيب (٤) :

أقامت به كمقام الحنيف شهري جمادى وشهري صفر

١ - سيرة ابن هشام ، القسم الأول ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

٢ - الكعبة على مر العصور ص ٦٣ .

٣ - لسان العرب مادة حنف .

٤ - لسان العرب مادة حنف .

أي أقامت بهذا المترجع إقامة المنحرف مسرورا بعمله وتدينه .
وفي بعض الأقوال استخدمت الكلمة بمعنى المستقيم ، كأن هذا المعنى استمد من سيرة
العابد وسلوكه ، أو استقامته على اتباع دين إبراهيم . قال أبو زيد : الحنيف المستقيم .
وأنشد (١) :

تعلم أن سيهديكم إلينا طريق لا يجوز بكم حنيف
بل أن كلمة « حنيفا » استعملت بالمعنى الذي عرفت به في الاسلام ، مثلما وردت في قول
صخر الغي (٢) :

كأن تواليه بالمالا نصارى يساقون لاقوا حنيفا
وفي القرآن الكريم وردت كلمة « حنيفا » في عشر آيات بينات ، منها سبع آيات في
وصف ملة إبراهيم عليه السلام ، أنه كان حنيفا مسلما . وثلاث آيات في وصف الانسان
عندما يخلص في عبادة الله . وذكرت « حنفاء » في آيتين وصفا للمؤمنين الذين أخلصوا
دينهم لله .

قال تعالى :

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا (٣)

وقال تعالى :

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (٤)

وقال تعالى :

وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٥)

١ - لسان العرب مادة حنف .

٢ - ديوان الهذليين ٧١/٢ .

٣ - سورة آل عمران ٦٧ .

٤ - سورة النساء ١٢٥ .

٥ - سورة يونس ١٠٥ .

وقال تعالى :

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (١)

هذه الآيات الكريمة تدل على أن القرآن الكريم استعمل الكلمة في المعنى الذي صارت تحمله قبيل نزول القرآن الكريم ، أي دلالتها على تلك الفئة التي أخلصت لله توجهها وحاولت اعتزال عبادة الأوثان والاصنام . ويرى بعض الباحثين أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، قبل ظهور الاسلام ، كان من الحنفاء . حتى اذا بلغ الأربعين من عمره نزل عليه الوحي وأصبح رسول الله ، وكان محمد عليه السلام في غار حراء يعبد الله وحده فنزل عليه جبريل عليه السلام يبلغه اختيار المولى عز وجل له ليكون رسوله الصادق الأمين (٢) . وربما يؤكد هذه الإشارة الأخيرة قوله عليه السلام أنه بعث بالحنيفية السمحة . وقوله فيما يرويه عن ربه خلقت عبادي حنفاء . أي طاهري الأعضاء من المعاصي .

ويمكن القول أن استعمال القرآن الكريم لكلمة « حنيفا » جعلها تخصص في أذهان الناس وصفا للدين الاسلامي الحنيف .

الحلال والحرام :

عرّفت كتب اللغة الحلال والحرام بأن كلا منهما نقيض الآخر . ففي لسان العرب : الحلال ضد الحرام والحرام نقيض الحلال (٣) . وكذلك قال صاحب الجمهرة (٤) وغيره من أصحاب المعاجم . وفي التعريف يقولون : حَلَّ يَحِلُّ حَلًّا وأَحْلَهُ وحلله . والحل والحلال والحلال كل ذلك نقيض الحرام . ويقولون حرم عليه الشيء حرما وحراما وحرمه .

والحلال والحرام كلاهما معنى معروف مشهور عند العرب في الجاهلية . وقد عرف الحلال بأنه ما يباح للإنسان فعله ، وإن الحرام ما لا يحل للإنسان فعله ، وكان الحلال والحرام عند الجاهليين خاضعا لأعرافهم وتقاليدهم من جهة ، ومستمدا من بقية الدين الذي توارثوه عن الأنبياء السابقين من جهة أخرى . وقد ورد في أشعارهم ما يدل على انتشار معنى الحل والحرمة في حياتهم . قال السموأل بن عاديء في معنى الحل (٥) .

١ - سورة البينة ٥ .

٢ - الكعبة على مر العصور ٦٧ .

٣ - لسان العرب مادة حل .

٤ - جوهرة اللغة مادة حل .

٥ - الأصمعيات ص ٨٥ .

فاجعلن رزقي الحلال من الكسب وبراسريرتي ما حييت
وروى عن عبد المطلب جد الرسول عليه السلام أنه قال في ماء زمزم « لا أحلها لمغتسل وهي
لشارب حل وبل » (١) . وأنشد ثعلب في وصف الكلام الذي لا ريبة فيه بأنه حلو حلال
فقال (٢) :

تصيد بالحللو الحلال ولا ترى على مكره يبدو بها فيعيب
وقد انتشر معنى الحرام والحلال عندهم في موضوعين رئيسيين :
أولهما : الأشهر الحرم وودع القتال فيها .

وثانيهما : الحج وما يتعلق به من احرام وحل حسب الترتيب المتبع عندهم قبل نزول
القرآن . وفي الموضوع الأول قالوا : أحل اذا دخل في شهور الحل ، وأحرم الناس اذا دخلوا في
الأشهر الحرم . قال زهير في هذا المعنى (٣) :

جعلن القنن عن يمين وحزنه وكم بالقنن من مُجِلٍّ ومُحَرِّمٍ
وقال عمرو ذو الكلب الهذلي (٤) :
أحرم الله ذلك من لقاء أحاد أحاد في الشهر الحلال
وقد شرحوا قول الشاعر (٥) :

واذ فتك النعمان بالناس محرما فَمَلَّئْءَ مَنْ عوف بن كعب سلاسله
بأنه كان محرما ، من الشهور الحرم وليس من احرام الحج لأن النعمان بن المنذر ملك الحيرة
لم يكن يؤمن بالحج فيسعى اليه .
وقال زهير (٦) :

ان الركاب لتبتغي ذا مرة بجنوب نخل اذا الشهور أحلت
وقال النابغة (٧) :

حياك ودُّ فإننا لا يحل لنا هو النساء وان الدين قد عزمنا

١ - البداية والنهاية : أبو الفداء بن كثير ، مكتبة المعارف بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٦ ، ٢٤٧/٢ .

٢ - لسان العرب مادة حل .

٣ - ديوان زهير ص ٧٦ .

٤ - ديوان الهذليين ص ١١٧/٣ .

٥ - لسان العرب مادة حل ومادة حرم .

٦ - ديوان زهير ص ٣٣٤ .

٧ - ديوان النابغة ص ١٠٦ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٦٨ .

ونتيجة إيمانهم بالأشهر الحرم وجد ما عرف في مجتمعهم الجاهلي بالنسيء . وسوف يأتي تفصيل القول في هذا المصطلح في فصل الأخلاق والطبائع .

أما الموضوع الثاني - الاحرام في الحج - فهو المعنى المتداول المشهور في كلامهم . فالحرم هو الاحرام بالحج . والاحرام مصدر أحرم الرجل يحرم إحراما إذا أهل بالحج ، أو العمرة . وفي مصطلح الحج والعمرة تفصيل لمعناها وكيفية قيامهم بهما ، وذلك في الفصل التالي .

والاحرام بالحج هو أن يلبس الانسان لباسا خاصا ليس بالمخيط ولا بالمحيط . وأن يمتنع عن القيام ببعض الأمور التي تسمى محظورات الاحرام ريثما يتم مناسكه ، فإذا أتمها حل أي خرج عن احرامه وأحل له ما حُظر عليه .

و ينبغي أن نشير هنا الى أن احرام الجاهليين كان يختلف عما سنه النبي صلى الله عليه وسلم من آداب الاحرام في الحج . فقد ذكرت الكتب أن « العرب في الجاهلية كانت اذا حجت البيت تخلع ثيابها التي عليها اذا دخلوا الحرم ولم يلبسوها ما داموا في الحرم » (١) . والحريم عندهم ثوب المحرم ، والحريم أيضا ما كان المحرمون يلقونه من الثياب فلا يلبسونه . قال الشاعر (٢) :

كفى حزنا كَرِي عليه كأنه لَقَى بين أيدي الطائفين حريم
والنسب الى المسجد الحرام حرمي . والأنتى حرمة . وهذا من المعدول الذي يأتي على غير قياس . وفي شعر النابغة (٣) :

من قول حرمة قالت وقد ظعنوا هل في مخيفكم من يشتري أدما
وقد كان لمسجد مكة حرمة كبيرة . وقد كانوا يعرفونه باسم المسجد الحرام قبل أن ينزل القرآن الكريم بهذا الاسم . قال قيس بن الخطيم (٤) :

والله ذي المسجد الحرام وما جلل من ينة لها خنف
أنسي لأهواك غير كاذبة قد شف مني الأحشاء والشغف
وقد تردد مصطلح الحل والاحرام على ألسنة الناس في الجاهلية قبل نزول القرآن حتى صار

١ - لسان العرب مادة حل .

٢ - المرجع السابق .

٣ - ديوان النابغة ص ٦٤ . مخيفكم أي زائرو مسجد الخيف ، وتروى مخيفكم من المخف الذي لم يتقل بعيره وهو أخرى أن يشتري .

٤ - ديوان قيس بن الخطيم ص ٦٠ - ٦١ .

أساسا لمعان أخرى تشتق منه على سبيل المجاز وفي قول دريد بن الصمة لمالك ابن عوف يوم حنين ما يدل على ذلك . فعندما أراد أن يخرج بكل قومه : نسائهم ورجالهم وأطفالهم ومتاعهم ، قال له دريد وكان قد أسن وهم : « أنت محل بقومك » (١) ، يريد أنهم كانوا ممنوعين بالمقام في بيوتهم فحلوا بالخروج منها . وفي شعر مهلهل بن ربيعة (٢) :

قتلوا كليبا ثم قالوا : ارتعوا كذبوا ورب الحل والاحرام
وقد انتشر معنى الحلال والحرام عند العرب . فقالوا محروم لمن حرم حقه أولن سألك
فمنعته . والرجل المحروم عندهم هو المحدود الذي لا يصيب خيرا . قال علقمة بن عبدة (٣)
ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم
وقالوا يمين حرام ويمين محلل . وحلل اليمين تحليلا وتحله وتحلا . والتحلة ما كفر به اليمين .
وتحليل اليمين هو أن يحلف الرجل ثم يستثنى استثناء متصلا باليمين غير منفصل عنها .
ومنه قول امرئ القيس (٤) :

ويوما على ظهر الكتيب تعذرت على وآلت حلفة لم تحلل
وقول عبدة بن الطبيب (٥) :

تحفى التراب باظلاف ثمانية في أربع مَسْهُنَّ الأرض تحليل
وعلاوة على ذلك كله فقد عرف العرب معنى الحلال والحرام في معناه العام من غير تحديد
بشيء ، تماما كما صار يعرف بعد نزول القرآن الكريم عندما تطلق كلمة الحرام والحلال .
قال لبيد بن أبي ربيعة (٦) :

دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها
وفي القرآن الكريم ذكر الحلال والحرام بالمعاني التي وردت في الشعر الجاهلي نفسها .
ففي المعنى الأساسي وهو أن الحلال نقيض الحرام قال تعالى :

وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا (٧)

١ - لسان العرب مادة حل .

٢ - الأصمعيات ص ١٥٦ .

٣ - لسان العرب مادة حل .

٤ - ديوان امرئ القيس ص ١٢ .

٥ - لسان العرب مادة حل .

٦ - شرح المعلقات السبع ص ٩٧ ، ديوان لبيد ص ١٦٤ .

٧ - البقرة ٣٧٥ .

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ^(١)

وفي الأشهر الحرم قال تعالى :

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ^(٢)

وقال تعالى :

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ ^(٣)

وفي المحروم قال تعالى :

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ^{لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} ^(٤)

وفي الاحرام بالحج قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ^(٥)

وقد جمع الحلال والحرام بمعناها العام في قوله تعالى :

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ ^(٦)

وهذه الآية الأخيرة دليل على أن كلا منهما نقيض الآخر في معناه . وعليها اعتمد المفسرون

في هذا التعريف الموجز . وفي معنى تحلة اليمين قال تعالى :

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ^(٧)

١ - المائة ٨٧ .

٢ - البقرة ١٩٤ .

٣ - التوبة ٣٦ .

٤ - المعارج ٢٥ .

٥ - المائة ٩٥ .

٦ - النحل ١١٦ .

٧ - التحريم ٢ .

وتدل الآيات السابقة وغيرها مما ورد في القرآن الكريم أن استعمال الحلال والحرام في القرآن لم يخرج عن المعاني التي عرفها العرب في اشعارهم في العصر الجاهلي . وبذلك يكون الحلال والحرام كلاهما مصطلحين اسلاميين وعربيين في الوقت نفسه من حيث الاستعمال والاشتقاق . ولكن القرآن الكريم خصص استعمالهما وفقا للمبادئ الاسلامية المقررة في القرآن الكريم .

الفرض والسنة :

أصل الفرض في اللغة هو القطع (١) . وقد استعمل هذا المعنى في شعر الجاهليين وتفرعت عنه كذلك بعض المعاني التي يمكن تعيين العلاقة بينها وبين المعنى الأصلي بسهولة . وفيما يلي حصر لتلك المعاني كما أوردتها معجم اللغة .

١ - الفرض : الحزفي الشيء والقطع . مثل الحزفي القدح والزند والسير وغيره .
والفرض اسم الحز وجمعه فروض وفراض . قال الشماخ (٢) :

إذا طرحا شأوا بأرض هوى له مفرض أطراف الذراعين أفلح
قال الساهلي : أراد الشماخ بالمفرض المحزيعني الجعل . وفرض فوق السهم فهو مفروض وفريض حزه . والفريض السهم المفروض فوقه . والتفريض : التحزير . وفي الحديث في أخبار عمر رضي الله عنه أنه اتخذ عام الجذب قدحا فيه فرض . وفي صفة مريم عليها السلام : لم يفترضها ولد أي لم يؤثر ولم يحزها يعني قبل المسيح .
٢ - الفرض : الفرضة . وفرضة القوس الحزيقع عليه الوتر . وفرضه النهر مشرب الماء منه .
والجمع فرض وفراض . قال لبيد (٣) :

تجرى خزائنه على من نابيه جري الفرات على فراض الجدول
وفرضة البحر محط السفن . وفرضة الدواة موضع النقش منها . وفرضة الباب نجرانه .
٣ - الفرض : القدح . قال عبيد بن الأبرص يصف برقاً (٤) :

فهو كنبراس النبط أو الفرض بكف اللاعب المسمر

١ - لسان العرب مادة فرض .

٢ - ديوان الشماخ ، تحقيق صلاح الدين الهادي / دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ .

٣ - ديوان لبيد ، ص ١٢٨ .

٤ - ديوان عبيد بن الأبرص ، دار صادر ، ١٩٦٤ ، ص ٧٣ .

و يبدو أن القدح أخذ اسم الفرض توسعا من معنى الحز الذي يكون فيه ، من باب تسمية الشيء بأحد أوصافه .

٤ - والفرض : الترس . قال صخر الغي الهذلي (١) :

أرقت له مثل لَمْعِ البشير قَلْبَ بالكف فرضا خفيفا
٥ - الفرض : ضرب من التمر . وقيل ضرب من التمر لأهل عُمان . جاء في اللسان (٢) :

إذا أَكَلْتُ سَمَكًا وفرضا ذهبْتُ طولًا وذهبت عرضا
قال أبو حنيفة : أخبرني أعرابها قال : إذا أرطبت نخلته فتؤخر عن اختراقها ، تساقط عن نواة فبقيت الكباسة ليس فيها إلا نوى معلق بالتفاريق .

٦ - الفارض : الضخم من كل شيء . الذكر والأنثى فيه سواء ولا يقال فارضة . يقال لحية فارض وشقشقة فارض . وبقرة فارض . قال علقمة بن عوف وقد عنى بقرة هرمه (٣)

لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضا تجر اليه ما تقوم على رجل
وقوم فرض : ضخام وقيل قسان . قال رجل من فقيم (٤) :

شيب أصدغي فرأسي أبيض محامل فيها رجال فُرَضُ

وفي القرآن الكريم ورد الفعل فرض ومشتقاته : فرضتم وفرضنا وفرضناها وتفرضوا وفريضة ومفروضاً وفارض في ثمانى عشرة آية . وفيما عدا كلمة فارض التي استعملها القرآن بمفهومها الجاهلي ، حملت تلك المشتقات معنى جديداً استخرجه القرآن الكريم من تطوير المعنى الأصلي ونقله من معناه اللغوي الى معنى مجازي . وهذا المعنى المجازي هو إيجاب الشيء والزام الإنسان به . وصار الفعل « فرض » في القرآن يحمل معنى إيجاب الشيء ذي الحدود والمعالم المعينة المعروفة . بل ان العلماء فسروه فقالوا : الفرض هو الذي قطع وفصل فبان مقداره أوله وآخره . ويمكن أن نستدل بسهولة على العلاقة التي سوغت انتقال مفهوم الفعل من المعنى الأصلي وهو القطع الى المعنى المجازي وهو الإيجاب . وفيما يلي المعاني التي وردت في القرآن الكريم لهذا المصطلح :

١ - ديوان الهذليين ٦٩/٢ .

٢ - لسان العرب مادة فرض .

٣ - لسان العرب مادة فرض .

٤ - المرجع السابق .

١ - الفرض : إيجاب الشيء على جهة الالتزام . قال تعالى :

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(١)

٢ - الفرض : بيان الحكم : قال تعالى :

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ

٣ - الفرض : العطية المرسومة . قال تعالى :

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ
فَرِيضَةً^(٢)

٤ - الفرض : قراءة جزء من القرآن . يقال فرضت جزئي أي قرأته .

وقد عرفت في الاسلام عدة معان لكلمة الفريضة كلها مستمدة من معاني الايجاب مثل
الفريضة البعير المأخوذ في الزكاة سمي فريضة لأنه فرض واجب على رب المال . ثم توسع
فيه حتى صار البعير فريضة في غير الزكاة . ومنها الفريضة : أموال الزكاة التي توزع في
المصارف التي ذكرها الله عز وجل . والرجل الفارض والفريض العالم بالفرائض . ومن
هنا صار كل حكم أوجب به الله على المسلم يسمى فرضا . والفرض والواجب ركنان من
أركان الأحكام في الاسلام . وهما سيان عند الشافعي على حين أن الفرض أكد من
الواجب عند أبي حنيفة . وقد قسم الفقهاء الأحكام الى خمسة أقسام : هي الفرض والواجب
والمندوب والمباح والمكروه . وهذه الأقسام مفصلة في كتب الفقه .

من كل ذلك يتبين لنا أن الفرض مصطلح قرآني جديد . خصصه الله عز وجل
للأحكام التي فرضها على المسلم في القرآن الكريم . أو فرضها النبي صلى الله عليه وسلم في
أقواله وأفعاله وتقريره .

١ - سورة النور . ١

٢ - سورة التحريم . ٢

٣ - سورة البقرة ٢٣٦ .

أما كلمة « سنة » فقد وردت في ثلاثة عشر موضعا في القرآن . منها أربعة مواضع كانت الكلمة فيها مضافا وكلمة الأولين مضافا اليه ، وهكذا « سنة الأولين » . وفي المواضع الأخرى ذكرت مع لفظ الجلالة مضافا إليها هكذا « سنة الله » . وفي موضع واحد ذكرت كلمة « سنتنا » والضمير يعود الى الله عز وجل . وفي موضعين اثنين ذكرت بصيغة الجمع « سنن » في واحد منهما وقعت موقع الفاعل في قوله تعالى

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١)

وفي الموضع الثاني أضيفت إلى « الذين من قبلكم » . وفي هذه المواضع جميعها حملت الكلمة معنى « الطريقة والسيرة » . فإذا أضيفت الى الله عز وجل فمعناها طريقة الله أي منهجه وشرعه ودينه ، وارا دته وحكمه . وإذا أضيفت الى الأولين أو ما في معناها فهي تفيد سيرتهم وطريقتهم . وهذا هو الأصل في معناها اللغوي ، وهكذا استعملت في الشعر الجاهلي . فالسنة هي الطريقة والسيرة (٢) . قال لبيد (٣) .

من معشرٍ سَنَّتْ لهم آبائهم ولكل قوم سُنَّةٌ وإمامها .
وفي اللسان يقال سن الطريق سنا وسننا . فالسن المصدر والسنن الاسم بمعنى المستنون . ويقال تنح عن سنن الطريق وسُنَّتْه وسِنَّته . وقال أبو عبيد : سنن الطريق وسنن حجتة وعن الجوهري : السُنن الطريقة . يقال استقام فلان على سنن واحد . وتسُنن الرجل في عدوه واستن مضى على وجهه . واستنت الدابة وجه الأرض . واستن دم الطعنة اذا جاءت دفعة منها (٤) . قا أبو ذؤيب الهذلي (٥) :

طخاء يبارى الريح لا ماء تحته له سنن يغشى البلاد طحور
وقال الأعشى (٦) :

١ - سورة آل عمران ١٣٧ .

٢ - لسان العرب مادة سن .

٣ - شرح المعلقات السبع ١٢٣ ، وديوان لبيد ، طبعة دار صادر ، ص ١٧٩ .

٤ - لسان العرب مادة سنن .

٥ - ديوان الهذليين ١٣٩/١ ، يريد وجهه الذي يذهب فيه ، وطخاء غيم لا ماء فيه . والطحور الدفوع الشديد الحر .

٦ - ديوان الأعشى ، ص ٦١ .

وقد نطعن الفرج يوم اللقا ء بالرمح نحبس أولى السنن
يريد أولى القوم الذين يسرعون الى القتال .

وقد عرفت كلمة السنة بمعنى الطريقة في الشعر الجاهلي . قال خالد بن محرث ابن أخت
أبي ذؤيب ، وكان رسوله الى صديقه فأفسدها ، ومن قبل كان أبو ذؤيب رسول عبد عمرو
بن مالك الى صديقه فأفسدها : قال (١) :

لعلك اما أم عمرو تبدلت سواك خليلا شامي تستحيرها
فلا تجزعن من سنة أنت سرتها وأول راض سنة من يسيرها
وقال زهير في المعنى نفسه (٢) :

يسن لقومي في عطائي سنة فإن قومي اعتلوا علي كفاني
وقال الأعشى (٣) :

جئته يوما فأدنى مجلسي وحباني بلجوج في السنن

وقد أصبحت كلمة السنة مصطلحا اسلاميا عندما خصصها الفقهاء فيما أمر به النبي
صلى الله عليه وسلم ونهى عنه وندب اليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به القرآن الكريم . ولا
شك أن السنة بهذا المعنى تحمل المعنى نفسه الذي استعملت به في كلام العرب . ولكن
يمكن أن الكلمة تخصصت بعد نزول القرآن الكريم بهذا المعنى الاسلامي . فأصبحت اذا
أطلقت الآن لا تعنى الا ما ورد عن النبي عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير مما لم يرد في
الكتاب العزيز . فهي الآن - اذن - مصطلح اسلامي ، وليست مصطلحا قرآنيا . لأن
القرآن الكريم لم يذكرها مسندة الى النبي عليه السلام ، بل اصطلح عليها الفقهاء عند
كتابتهم لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام واستنباطهم الاحكام الاسلامية من القرآن
الكريم والسيرة النبوية الشريفة .

الفقه :

أصل الفقه الشق والفتح في معناه اللغوي (٤) . ثم تطور الى معنى الفهم والعلم . ويمكن
تعليل هذا التطور بأن الذي يشق عن شيء ما ويفتح عليه أبوابه ينكشف أمامه ذلك الشيء

١ - ديوان الهذليين ١/ ١٥٧ .

٢ - ديوان زهير ، ص ٣٦٤ .

٣ - ديوان الأعشى ، تحقيق محمد محمد حسين ، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٧٨ .

٤ - لسان العرب مادة فقه .

فيعرفه و يفهمه فهما تاما . وقد استعمل الفقه بهذا المعنى في الشعر الجاهلي . قال سلامة بن جندل (١) .

وقفت بها ما أن تبين لسائل وهل تفقه الصم الخوالد منطقي وفي معاجم اللغة الفقه بالشيء هو العلم والفهم له . وقد غلب على الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم كما غلب النجم على الثريا والعود على المندل (٢) . وقد اقتصر معاجم اللغة على هذه المعالجة الموجزة لكلمة الفقه .

أما بعد نزول القرآن الكريم فقد أخذت الكلمة معنى اصطلاحيا جديدا ، ورغم التعريفات والشروح الكثيرة التي وردت للكلمة في كتب الدراسات الاسلامية ، القديمة منها على وجه الخصوص ، فاني أرى أن المعنى المقصود بها في القرآن ، لم يفتن اليه أحد من هؤلاء الباحثين .

ففي كتب التفسير القديمة لم يتجاوز معنى الكلمة في نظرهم معرفة أحكام الدين على شكلها الظاهر . ففي تفسير قوله تعالى

فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ (٣)

قال الخازن (٤) : لیسمعوا ما أنزل الله . وقال البغوي : « يعني فرقة القاعدين يتعلمون القرآن والسنن والفرائض والاحكام فاذا رجعت السرايا أخبروهم بما أنزل بعدهم ، فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم وتُبعت سرايا آخر » (٥) .

ورغم حسن النية في هذا التفسير الا أنه يخالف المقصود بكلمة الفقه تماما . ومن عجب أن ابن خلدون ، المعروف بدقة أحكامه وعمق بحوثه لم يخرج بالفقه الى معناه الدقيق . قال في مقدمته : « الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والخطر والندب والكرهه والاباحة . وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبها الشارع لمعرفتها من الأدلة ،

١ - تصاميعات ص ١٣٣ .

٢ - لسان العرب مادة فقه .

٣ - سورة التوبة ١٢٢ .

٤ - تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ، علاء الدين ابراهيم البغدادي المعروف بالخازن ، المكتبة التجارية الكبرى .

ج ٣ ص ١٣٦ .

٥ - تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ، أبو محمد الحسين الفراء البغوي . مطبوع على هامش تفسير الخازن .

فاذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه» (١) وهذا شرح ينقصه بيان الأسلوب الذي يتم به استخراج الاحكام من الأدلة .

والكتب الحديثة تسرعت أيضا في توضيح كلمة فقه . فلم تخرج به — في معظمها — عما قيل من قبل . ومثال ذلك قول أحدهم : « الفقه لغة الفهم مطلقا . ومعنى الفهم ارتسام صورة الشيء في الذهن . ومعنى الفقه اصطلاحا العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية » (٢) . فالفقه في نظر هؤلاء هو العلم بالأحكام . وهو معنى ليس بعيدا عن معنى الكلمة في الشعر الجاهلي . وهو أيضا ليس معناها المقصود بها في القرآن الكريم .

على أن بعض الباحثين المحدثين تنبه لمعنى الكلمة الحقيقي في القرآن الكريم . وهؤلاء الباحثون هم الذين حاولوا أن يستخرجوا من القرآن الكريم المنهج العملي الحركي الذي ينهض بالمسلمين اليوم و يعود بهم الى المفهوم الصحيح الاسلام . قال أحدهم : « الفقه ليس هو العلم بأوضاع الالفاظ وعمومها اللغوي وخصوصها ، ولا معرفة دلالتها الجلية الواضحة ، فان ذلك شيء لا يقصر عنه عالم بلغة العرب . وإنما هدفه المعاني وأسرار التشريع . وتعرف الأسباب والعلل ونسبة بعضها الى بعض ليعتبر ما يكون أشبه بمقصد الشارح من تشريعه : فمعرفة قصد الشارع هي المطلوب الأول من الاستنباط والاجتهاد والذي يجب أن يوصل اليه الحكم » (٣) .

ومن أجمع ما قيل في معنى الفقه هو ما أورده صاحب الظلال عند تفسيره آية سورة التوبة السابقة (٤) ، وخلصته أن الفقه هو معرفة الأحكام واستنباطها حلا لما يقابل المسلم من تساؤلات . وربما يؤكد هذا المعنى الاستعمال القرآني لمادة فقه . فقد ذكرت المادة اللغوية هذه في عشرين آية من القرآن الكريم كلها بصيغة المضارع : تفقهون ، تفقه ، يفقهوا ، يفقهوه ، يتفقهوا ، لأن التفقه يكون في الحاضر والمستقبل ، بعد أن تلم الاحداث بالناس ، فيحاولوا التعرف على أحكامها ، لا العودة الى أحكام قيلت في حوادث ومناسبات قد سبق أوانها وهذا لا يعني أن الأحكام الفقهية السابقة قد سقطت وانتهى العمل بها . انما يعني أننا يمكن أن نأخذ تلك الاحكام فيما بقي قائما من مسائل وأحكام دائمة ثابتة كالصلاة والحج والزكاة والصدقات وكثير من أمور العبادة . ولكن هناك مسائل

١ - مقدمة ابن خلدون ، دار البيان ، ص ٤٤٥ .

٢ - الفقه المبسط ، محمد أديب كلكل ، دار الدعوة ، حماة ، سورية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٢ ، ص ١٦ .

٣ - من ضيع القرآن ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٥ ، ٢٢٧ .

٤ - يمكن متابعة هذا الشرح في ظلال القرآن مجلد ٤ ص ٣٤٤ .

جديدة، تحدث كل يوم، لابد لها من اجتهاد يقدم للمسلم الحكم الاسلامي السليم فيها .
مثال ذلك المعاملات المالية في البنوك والشركات ، وكذلك مسائل الحياة الاجتماعية
المتطورة المتغيرة دوما . والأحوال المدنية ، والشئون السياسية التي تتأثر بما يجد في العالم من
أنظمة ومناهج وغير ذلك مما ينتظر جهود الفقهاء المجتهدين من المسلمين الذين يفهمون
دينهم حق الفهم .

وعلى هذا فان مصطلح الفقه مصطلح قرآني جديد . استعمل في القرآن بغير المعنى الذي
ورد في الشعر الجاهلي .

الفصل الرابع
مصطلحات في أركان الإسلام

الشهادة . والشهيد :

أول أركان الاسلام الشهادة ، أو الشهادتان كما يقول المسلمون . وقد عدد النبي صلى الله عليه وسلم أركان الاسلام في أحاديثه الشريفة . منها قوله عليه السلام : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا » (١) .

فالشهادة اذن ركن أساسي في الاسلام . وهي القاعدة الأساسية التي يقوم عليها بناء الدين . فلا يصح عمل المرء ما لم يستند الى عقيدة التوحيد ، فما معنى قولنا أشهد أن لا اله الا الله ؟ . ولبيان ذلك نقول أن الإله في اللغة هو الحائز على قوة جبارة يتحير العقل الانساني في ادراك مداها (٢) . وهو أيضا « من كان غير محتاج الى أحد ، وكان الجميع محتاجين اليه مضطرين الى الاستعانة به في جميع شئون حياتهم » (٣) . فالاله اذن هو الحاكم القوي العزيز الجبار الذي يرجع اليه الناس في كل أمورهم ويتوجهون اليه في كل أعمالهم .

والشهادة لغة مأخوذة من شهد يشهد بمعنى عاين الأمر ورآه . والشاهد هو المعاين للشيء الناظر اليه . فأصل الشهادة اذن هي الاخبار بما شاهده الانسان . والشاهد والشهيد هو الحاضر . والجمع شهداء وشُهِدَ وأشهاد وشهود (٤) . وقد أنشد ثعلب في ذلك (٥) :

كأنى وإن كانت شهودا عشيرتي إذا غبت عنى يا عثيم غريب
والشهادة وما يشق منها — بهذا المعنى — كلما مألوفة في الشعر الجاهلي . وقد وردت على السنة كثير من الشعراء . قال الحارث بن حلزة في مدح عمرو بن هند (٦) :

وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء
وقال لبید (٧) :

وشهدت أنجية الأفاقة عالیا كعبي ، وأرداف الملوك شهود

١ - التاج الجامع للأصول ج ١ ص ٢٠ .

٢ - مبادئ الاسلام . أبو الأعلى المودودي . نشر وزارة التربية والتعليم الأردنية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ ، ص ٦٣ .

٣ - المرجع السابق ص ٦٣ .

٤ - لسان العرب مادة شهد .

٥ - المرجع السابق .

٦ - شرح المعلقات السبع ص ١٨٢ .

٧ - ديوان لبید ، ص ٤٧ .

وقال الحارث بن كلدة الثقفي (١) :

فمن يك لا يدوم له وصال وفيه حين يغترب انقلاب
فعهدي دائم لهم وودي على حال اذا شهدوا وغابوا
وفي القرآن الكريم ورد هذا الفعل وبعض مشتقاته في مئة وتسع وأربعين آية . كانت بعضها تحمل المعنى اللغوي للكلمة وهو الحضور والمعاينة والاخبار عما رؤى بالعين المجردة .
قال تعالى :

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْطُوْنِي فِيْ أَمْرِىْ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْا (٢)

وقال تعالى :

الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوْا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِيْ دِيْنِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِيْنَ (٣)

وقال تعالى :

وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ (٤)

ولكن القرآن الكريم طور معنى هذا الفعل ، وحمله معنى الاقرار والاعتراف والايمان . والعلاقة بين المعنيين واضحة . فكأن الذي يشهد بعينه ويتأكد من حضور الشيء ، يتحول ذلك التأكيد الى ايمان قلبي واقرار واعتراف بما شهد . وهذا المعنى هو المعنى الاصطلاحي لكلمة الشهادة . قال تعالى :

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ (٥)

١ - تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات ج ٤ ص ٣٢٧ .

٢ - سورة النمل ٣٢ .

٣ - سورة النور ٢ .

٤ - سورة البقرة ٢٨٢ .

٥ - سورة الزخرف ٨٦ .

وقال تعالى :

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (١)

فاذا ما علمنا ذلك ظهر جليا أن معنى شهادة أن لا اله الا الله هو الاقرار بوحداية الله والايان بذلك ، ولا يتحقق هذا الا عندما يستحضر المرء ربه في قلبه ووجدانه ، في كل أوقاته وأزماته ، وأقواله وأعماله ، أي أن يكون شاهدا دائما لله في كل تصرفاته . وظهر أن معنى شهادة أن محمدا رسول الله هو أن محمدا عليه السلام هو الذي شهد تلك الشهادة بنحقها . وهو الذي قام بها على وجهها الصحيح . لأنه — عليه السلام — أصدق من أقر وعزف وآمن بوحداية الله . لم يصدر في أي عمل أو قول أو تقرير عن مراقبة الله تعالى ، وحضوره جل شأنه في قلبه .

وذلك هو معنى الشهادة الاصطلاحي على اعتبار أنها ركن من أركان الاسلام . ولكن الشهادة والشهيد لم يقتصر معناهما في القرآن على الاقرار والاعتراف والايان بالله . بل تطور تطورا آخر حتى كاد يتخصص في الاستعمال العام على معنى الذي يقتل في سبيل الله في أثناء الجهاد .

فالشهيد في الاسلام هو الذي يقضي في سبيل الله ، وجمعه شهداء . وانه لا عجز ساحر وبيان مشرق أن يسمى هذا الانسان شهيدا . الانسان الذي يموت لتظل كلمة الله هي العليا . ان القرآن عندما يسميه شهيدا كأنما يقول لنا أنظروا الى رجل لم تغب عن قلبه شهادة أن لا اله الا الله ، عاش عمره في ظلالها ، يدافع عنها ويعلن عن وجودها ، ويعمل على انتشارها ، حتى اذا وقف في طريقه أعداء الله ، وتكالبوا عليه ، وقضى في سبيل مبادئه هذه ، سقط والشهادة في قلبه عاليه ، وبذلك يقضي وهو في أشد حالات الاقرار والتصديق لمعنى شهادة أن لا اله الا الله . ويلاحظ هنا العلاقة الرابطة بين المعنى اللغوي وبين المعنى الاصطلاحي . فالشهيد صيغة لغوية تدل على المبالغة والحضور ، والشهيد لا يقضي حتى يبذل كل ما في وسعه في سبيل إعلاء كلمة الحق .

ويعيننا هنا أن نقرر أن الاستعمال الشائع لكلمة الشهيد قد تخصص الآن في من يقتل في سبيل الله ، وقد وردت آيات تكرس هذا المعنى ، منها قوله تعالى :

١ - سورة آل عمران ٥٣ .

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا^(١)

وقوله تعالى :

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ^(٢)

وقال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لوددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم
أحيا فأقتل ثم أحيا فأقتل » فكان أبو هريرة يقول ثلاثا : أشهد بالله^(٣) .

الصلاة ، والمصطلحات التي تلحق بها :

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الاسلام . ويحيط بها مصطلحات :

- الطهارة .
- الوضوء والتيمم .
- الأذان والمؤذن .
- الركوع .
- السجود والمسجد .
- المحراب .
- الخشوع .
- الذكر .
- المغفرة والاستغفار .
- التبتل .
- القنوت .

١ - سورة النساء ٦٩ .

٢ - سورة الزمر ٦٩ .

٣ - تنوير الحوالك شرح موطأ الامام مالك . جلال الدين السيوطي ، المكتبة التجارية الكبرى ، توزيع دار الفكر . ج ١ ص ٣٠٦ .

الصلاة :

حاول علماء اللغة والتفسير أن يجدوا الصلة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي في كلمة الصلاة . جاء في جهرة اللغة : « الصلاة العظم الذي فيه مغرر عجب الذنب . وهما صلوان . والصلاة من الواو وتجمع صلوات . قال بعض أهل اللغة : اشتقاقها من رفع الصلاة في السجود . والصلاة العظم عليه الإلتيان . وهو آخر ما يبلى من الانسان في القبر . وقال الشاعر :

تركت الرمح يبرق في صلاه كأن سناناه خرطوم نسر» (١)

وقال صاحب الكشف : « الصلاة فَعْلَةٌ من صلى كالزكاة من زكى . وحقيقة صلى حرك الصوئين ، لأن المصلى يفعل ذلك في ركوعه وسجوده » (٢) . وكأنما شرح هذا القول في موضع آخر فقال : « والصلوان العظمان الناتان في أعلى الفخذين ، يقال ضرب الفرس صلويه بذنبه أي ما عن يمينه وشماله ثم استعمل بمعنى الهيئات المخصوصة مجازا لغويا . لأن المصلى يحرك صلوية في ركوعه وسجوده ، ثم استعيرت منه للدعاء تشبيها للداعي بالمصل في خضوعه وخشوعه (٣) .

وهذا الرأي يخالف ما هو شائع ومعروف من أن الدعاء هو المعنى الأصلي لكلمة « صلى » . فقد وردت شواهد شعرية تدل على أن الكلمة حملت معنى الدعاء والطلب في لغتهم . قال الأعشى يصف خرا (٤) :

وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليه ختم
وقابلها الريح في دنها وصلّى على دَنّها وارتم
قال : دعاها الا تخمض ولا تفسد . وفي معنى الدعاء كذلك نقرأ شعر الأعشى في قوله (٥) :

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي نوما فان لجنب المرء مضطجعا
ولما كانت الصلاة - في حقيقتها - دعاء وطلب ، فقد انتقل معناها من الدعاء بين انسان وانسان الى الدعاء والطلب من الله عز وجل .

١ - جهرة اللغة مادة صلا .

٢ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . أبو القاسم جلال الله الزنجشيري ، دار الفكر ، لبنان ، ٤ مجلدات .

ج ١ ص ١٣١ .

٣ - حاشية السيد الحسيني الجرجاني على الكشف ، ج ١ ص ١٣١ .

٤ - ديوان الأعشى ص ٣٥ .

٥ - ديوان الأعشى ص ١٠١ .

و يرى بعضهم أن لفظ الصلاة أخذ في الصلة لأنها تصل الانسان بخالقه . قال :
 « الصلاة عبادة مشتركة بين الديانات ، وهي لون من ألوان الابتهالات الى الله ، وكلمة
 الصلاة لم يستحدثها الاسلام بل استعملها العرب قبل الاسلام بمعنى الدعاء والاستغفار .
 وهي مشتقة من الصلة لأنها تصل الانسان بخالقه ، وتقربه من رحته . أما الاسلام فأطلق
 لفظ الصلاة على الصورة المعهودة من العبادة التي علمها الرسول للمسلمين وهي أقوال
 وأفعال يقصد بها تعظيم الله مفتتحة بالتكبير (الله أكبر) ومختتمة بالتسليم (السلام
 عليكم) بشروط خاصة وضعها لذلك (١) .

وهناك من يرى أن الأصل في الصلاة هو اللزوم . وقد قاله الزجاج . وتابعه في ذلك
 الأزهري . فبعد أن أورد الآراء التي قيلت في الصلاة قال : والقول عندي هو الأول ، انما
 الصلاة لزوم ما فرض الله تعالى (٢) .

ولا يستطيع الباحث أن يجزم بحقيقة المعنى الأصلي الذي منه انتقلت الصلاة الى
 معناها الاسلامي . أهو الصلوان أم هو الصلة أم اللزوم أم الدعاء ؟ . وقد سبق أن الشعر
 الجاهلي ذكر الصلوئين — بل وردت فيه أبيات شعرية ذكرت كلمة « المصلين » وهم في
 العرب الجاهلي التالون للأوائل في السباق . فقد كانوا يسمون الفرس الأول « السابق »
 والثاني « المصلي » لأنه يتبع صلوى الفرس الذي يسبقه قال بشامة بن حزن النهشلي من
 بني قيس بن ثعبنة (٣) :

ان تبتر غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا
 ورغم ذلك فاني أرى أن الصلاة لم تؤخذ في هذا المعنى . لأن الجاهليين لم يعرفوا الصلاة
 بمفهومها الاسلامي وهياتها الاسلامية ، ويبقى المصلي والمصلون عندهم لفظا مستمدا في
 البيئة ولا علاقة له بالصلاة .

وأرى أيضا أن الصلاة لم تؤخذ من الصلة أو اللزوم كما ذكرت بعض الآراء . على
 الرغم من الصلة القريبة بين الصلاة — بمفهومها الديني — وبين الصلة واللزوم ، وربما تأثر
 أصحاب هذا الرأي بهيئة الصلاة ومعناها في الاسلام ، وقرنوا بينها وبين كلمة « صلة »
 رغم اللغوي بين صلى ووصل .

١ - روح الصلاة في الاسلام . عفيف عبد الفتاح طيارة . دار العلم للملايين بيروت . الطبعة الأولى ١٩٦٨ ص ٢١ .

٢ - لسان العرب مادة صلا .

٣ - ديوان الحماسة ، ج ١ ، ص ٤٨ .

وأرجح أن الصلاة في معناها الاسلامي مأخوذة من معنى الدعاء والطلب . وذلك للصلة القريبة في المعنى بين الصلاة والطلب . وبخاصة أن الشعراء استعملوا كلمة « صلى » بمعنى الطلب . وهذا يدل على أن القرآن الكريم استعمل ما استعمله العرب في شعرهم . إلا أن القرآن خصص الصلاة بالهيئة المعروفة فأصبحت هي الركن الشهير من أركان الاسلام . وأشد ما يدعم هذا الرأي أن القرآن الكريم استعمل لفظ « صلى » بمعنى الدعاء ، وهو معنى الكلمة قبل أن يخصها القرآن بالصلاة الاسلامية المعروفة . قال تعالى في ذلك :

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ^(١)

وكذلك قوله تعالى :

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ^(٢)

الطهارة :

الطهر في معاجم اللغة نقيض الحيض والظهر نقيض النجاسة . وجمعه أطهار وهو من طهر وطهر يطهر طهرا وطهارة ^(٣) . يقال رجل طاهر وطهر ، وأنشد ابن الاعرابي ^(٤) :

أَضَعْتُ الْمَالَ لِلْأَحْسَابِ حَتَّى خَرَجْتَ مَبْرَأً طَهَرَ الشَّيَابِ
وَجَمَعَ الطَّاهِرَ أَطْهَارَ وَطَهَارَى . والجمع الأخير نادر ، وفيه قال امرؤ القيس ^(٥) :

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ وَأَوَجَّهُهُمْ عِنْدَ الْمَشَاهِدِ عُرَانِ
وَقَالَ النَّابِغَةُ يَمْدَحُ ^(٦) غَسَّانُ :

أَحْلَامُ عَادَ وَأَجْسَادُ مَطْهَرَةٌ مِنَ الْمَعْقَةِ وَالْآفَاتِ وَالْإِثْمِ
ولم يعرف للطهر وما اشتق منه غير هذا المعنى في الشعر الجاهلي .

١ - سورة الاحزاب ٥٦ .

٢ - سورة التوبة ١٠٣ .

٣ - لسان العرب مادة طهر .

٤ - المرجع السابق .

٥ - ديوان امرؤ القيس ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ ، ص ٨٣ .

٦ - ديوان النابغة ، ص ١٠١ .

وقد وردت مادة طهر وبعض مشتقاتها في احدى وثلاثين آية في القرآن الكريم . وقد حمل الطهر في هذه الآيات معنى ماديا ومعنى معنويا . فالمعنى المادي هو الطهارة من الجنباء بالاغتسال والوضوء . وذلك واضح في قوله تعالى :

وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا (١)

وقوله تعالى :

وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ (٢)

والمعنى المعنوي هو نقاء القلب وصفاء السريرة وحسن الايمان . وذلك واضح في قوله تعالى في شأن مريم عليها السلام :

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٣)

وفي قوله تعالى :

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا (٤)

ومن هذا الطهر في القرآن بمعنى الحلال قوله تعالى :

قَالَ يَقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ (٥)

ولكن فرض الوضوء قبل الصلاة، وفرض الاغتسال من الجنباء في الاسلام جعل معنى الطهارة يتخصص في المفهوم الاسلامي بمعنى الطهر المادي . أي الاغتسال والوضوء . فاذا أطلقت الكلمة الآن فان الذهن ينصرف الى هذا المعنى دون غيره، وهذا التخصص يجعل من مصطلح الطهارة من المصطلحات التي تطورت في معناها من الاستعمال الجاهلي الى المعنى الاسلامي في القرآن الكريم .

١ - سورة المائدة ٦ .

٢ - سورة الانفال ١١ .

٣ - سورة آل عمران ٤٢ .

٤ - سورة التوبة ١٠٣ .

٥ - سورة هود ٧٨ .

الوضوء والتيمم :

رغم أن الوضوء في المصطلحات الاسلامية الذائعة ، الا أنه لا يعد مصطلحا قرآنيا بالمعنى الذي حددته في هذا البحث . لأنه لم يرد في القرآن الكريم لفظ الوضوء . على حين وردت عناصر الوضوء في النص القرآني الشريف . قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١)

في هذه الآية الكريمة ، وآيات أخرى في معناها نفسه ، فرض الوضوء والتيمم . وكل منهما مصطلح اسلامي جديد ، لأن كليهما لم يكن معروفا في العصر الجاهلي . والكلمة مأخوذة من الفعل وَضُوَّ يَوْضُوْا وضاء بمعنى صار أي حسنا . فهو وضوء من قوم أو ضياء ووضاء ووضاء . وذكر النابغة هذا المعنى في قوله (٢) :

عُلِينَ بِكَدْيُونٍ وَأَبْطَنَ كُرَّةً فَهُنَّ إِضَاءٌ صَافِيَاتُ الْغُلَّائِلِ
قالوا أراد الشاعر وضاء أي حسان نقاء ، ثم أبدل الهمزة من الواو قالوا إساد في وساد وإشاح في وشاح وإعاء في وعاء . والوضاءة هي الحسن والبهجة ، يقال وضوءت فهي وضئية .

ولكن الوضوء في الاسلام ، كما هو معروف — يعني غسل الأطراف والوجه بكيفية معينة وترتيب معين قبل الصلاة ، ولا شك أن هذا المعنى يجعل من «الوضوء» مصطلحا اسلاميا جديدا ، خصص القرآن الكريم معناه بعد أن كان عاما بمعنى الحسن والبهجة .

وأما التيمم فهو مصدر الفعل تيمموا الذي ورد في ثلاث آيات في القرآن الكريم :

١ - سورة المائدة ٦ .

٢ - ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ص ١٤٧ ، والكديون دردي الزيت .

الأولى : قوله تعالى :

وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ (١)

الثانية : قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ
وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ
سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَايِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَفُوًّا غَفُورًا (٢)

الثالثة : هي آية سورة المائدة التي سبق نصها في بحث الوضوء . ويلاحظ أن الآيتين
الثانية والثالثة بنص واحد تقريبا وفي موضوع واحد هو التجهز والاعداد للصلاة .

والأصل في الأَمِّ هو القصد . أَمَّهُ يَوْمُهُ أَمَّا إِذَا قَصَدَهُ . وَأَمَّهُ وَأَتَمَّهُ وَأَمَّهُ وَتَمَّهُ
كذلك ، قال أبو ذؤيب الهذلي (٣) :

فَيَمَّمْ وَقَبَّةً أَعْيَا جَنَاهَا عَلَى ذِي التِّيْقَةِ اللَّبِقِ الرَّفِيقِ .
أَي تَوَخَّيْتُ وَقَصَدْتُ . وبهذا المعنى - التوخي والقصد - استعمل التيمم في شعر العرب ،
قال الأعشى (٤) :

تَيَمَّمْتُ قَيْسًا وَكَمْ دُونَهُ مِنْ الْأَرْضِ مِنْ مَهْمَةٍ ذِي شَزْنٍ
وقال الأعشى كذلك (٥) :
فَلَمَّا عَلَتْهُ الشَّمْسُ وَاسْتَوَقَدَ الْحَصَى تَذَكَّرَ أَدْنَى الشَّرْبِ لِلْمَتَيَمِّمِ
وقال أبو ذؤيب الهذلي (٦) :

١ - سورة البقرة ٢٦٧ .

٢ - سورة النساء ٤٣ .

٣ - ديوان الهذليين ٨٩/١ .

٤ - ديوان الأعشى ص ٥٥ .

٥ - ديوان الأعشى ص ١٥٧ .

٦ - ديوان الهذليين ١٢٤/١ .

يقضى لبانته بالليل ثم اذا أضحى تيمم حزما حوله جرّد
وقال صخر الغي (١) :

فلما جَزَفْتُ به قَرْبَتِي تيممتُ أَطْرِقَةً أو خَلِيفاً
وقال قتادة بن مسلمة الحنفى (٢) :

لما التقى الصفان واختلف القنا والخيل في نقع العجاج أزوم
يممتُ كبشهم بطعنة فيصل فهو لحر الوجه وهو دميم

فالتيمم اذن في الاستعمال الجاهلي هو التوخي والقصد الى أي مكان ، ولم يستعمل في
الشعر الجاهلي في غير هذا المعنى .

أما في القرآن الكريم فالتيمم هو التوخي والقصد كذلك . ولكن وروده في الآيات
التي تأمر بالصلاة ، وتوجب الاغتسال والتطهر قبلها ربط بين هذا التوخي والقصد وبين
فعل خاص أمر به القرآن وَبَيَّنَّ كَيْفِيَّتَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو مسح الوجه
واليدين بالتراب الطاهر في حالة عدم وجود الماء أو تعذر استعماله — بسبب خاص — في
حالة وجوده . فالله عز وجل يأمرنا أن نتوخى صعيدا طيبا اذا لم نجد الماء . والصعيد هو
وجه الأرض ترابا كان أو غيره كما ذهب أكثر علماء اللغة . وللفقهاء في مبحث الوضوء
والتيمم تفصيلات كثيرة ليس هنا مجال شرحها . انما يجدر التأكيد هنا على أن التيمم في
القرآن معناه القصد . وقد أصبح علما على الوضوء بالتراب على البدل . قال ابن السكيت :
قوله تيمموا صعيدا طيبا أي اقصدوا الصعيد طيبا ثم كثر استعماله لهذه الكلمة حتى صار
التيمم اسما علما لمسح الوجه واليدين بالتراب (٣) . وقال ابن سيدة : التيمم الوضوء
بالتراب على البدل وأصله من الأ ول لأنه يقصد التراب فيتمسح به (٤) .

وانما صار التيمم مصطلحا اسلاميا جديدا رغم أن معناه واحد في شعر العرب وفي القرآن
الكريم ، لأن القرآن والسنة الشريفة قد خصصته لحالة واحدة وهو الوضوء على البدل .
وبذلك صار التيمم يحمل معنى جديدا . هذا المعنى يعد تطورا في الدلالة بين استعمال
الشعر الجاهلي للكلمة وبين استعمال القرآن الكريم لها .

١ - ديوان الهذليين ٧٦/٢ .

٢ - الحماسة ٤٥١/١ .

٣ - ربح الصلاة في الاسلام ص ٨٥ .

٤ - لسان العرب مادة أيم .

الأذان والمؤذن :

معنى الأذان في الاصطلاح الاسلامي هو الدعوة الى الصلاة . والمؤذن هو الداعي الى الصلاة بصوت عال يسمع الأحياء المجاورة للمسجد . وقد فرض الأذان بصيغته المعروفة لكل مسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . والأذان والمؤذن مصطلحان جديدان في الاسلام اختصا بهذه الدعوة الى الصلاة . وكان كلاهما مستعملا في الشعر الجاهلي ولكن بغير المعنى الذي خصصه القرآن .

فالأذان في اللغة معناه الإعلام . يقال أذن فلان بالشيء إذا وأذناه وأذانه بمعنى علم . وآذنه الأمر وآذنه به : أعلمه . قال الحارث بن حلزة (١) :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاوي يَمَلُّ منه الشواء
والأذان اسم يقوم مقام الايذان وهو المصدر الحقيقي (٢) . والأذين في اللغة المكان يأتيه الأذان من كل ناحية ، وأنشدوا في ذلك (٣) :

طهور الحصى كانت أذينا ولم تكن بها ريبة مما يخاف تريب
والأذين أيضا بمعنى المؤذن . وعلى ذلك فسر ابن سيدة قول امرئ القيس (٤) :

واني أذين إن رجعت مملكا بسير ترى فيه الغرانق أزورا
والأذين هو الكفيل كذلك . وبه فسر أبو عبيدة قول امرئ القيس السابق . وأذن له بالشيء إذا أباحه له . واستأذنه طلب منه الاذن . وأذن له عليه أخذ منه الاذن .

ومما سبق يتبين لنا أن الأذان في اللغة هو الاعلام أو الاسماع أو اباحة عمل الشيء . وكلها يمكن أن ترد الى معنى واحد هو الذي اجتمع في معنى الأذان في الاسلام . فالمؤذن — في الاسلام — حين يدعو الى الصلاة بقوله « حي على الصلاة » « حي على الفلاح » فهو يعلم الناس أن وقت الصلاة قد حل ، وهو يسمعهم ذلك ، ويبيح لهم القيام الى الصلاة التي دخل وقتها .

١ - شرح المعلقات السبع ص ١٦٧ .

٢ - لسان العرب مادة أذن .

٣ - المرجع السابق .

٤ - ديوان امرئ القيس ص ٦٦ ، وورد في بعض النسخ « واني زعيم » .

وقد ذكرت مادة «أذن» وما يشتق منها في مئة واثنين من آيات القرآن الكريم . وقد وردت في هذه الآيات مشتقات كثيرة مثل أذن وأذنت وأذان وياذن وإذن وإذنيه وإذني ومؤذن وأذان ، واستأذنوك ويستأذن وأذن وأذنيه وأذاننا وما الى ذلك . وفي هذه الآيات وردت كل المعاني التي ذكرت في استعمال الشعر الجاهلي ، مثل الاعلام وطلب الاذن ، والاسماع . ففي معنى الاعلام قال تعالى :

وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (١)

وعلى معنى الاسماع والنداء قال تعالى :

ثُمَّ أَذِّنْ مُؤَذِّنٌ آيَتَهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ (٢)

وقال تعالى :

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٣)

وعلى معنى الاباحة واعطاء الأذن قال تعالى :

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ (٤)

يبدو من العرض السابق لمعنى الكلمة في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم أن معنى الكلمة لم يتطور في هذين العصرين . ولكن ارتباط الأذان بالصلاة في التشريع الاسلامي هو الذي خصص معنى هذه الكلمة ، وصارت اليوم لا تعنى الا هذا المعنى المحدد . وهذا يدل على أثر الناحية الدينية في تطور الدلالات في ألفاظ اللغة .

الركوع :

أصبح الركوع مصطلحا اسلاميا عندما فرضت الصلاة وعرف الناس هيأتها من سنة النبي صلى الله عليه وسلم . والركوع بمعناه اللغوي شديد الالحاء بالمعنى الاسلامي . ولكن

١ - سورة التوبة ٣ .

٢ - سورة يوسف ٧٠ .

٣ - سورة الحج ٢٧ .

٤ - سورة النور ٢٨ .

المعنى الأول قد نسي الآن ولم يعد يستعمل إلا على أقلام الباحثين عندما يلزم الأمر، كما هو الحال هنا في هذه الدراسة .

والركوع معناه الخضوع وهو معنى مجازى متطور عن المعنى اللغوي الاساسي وهو الانحناء والانخفاض من الفعل ركع يركع ركعاً وركوعاً معناه طأطأ رأسه . وكل قومة يتلوها انحناء فهي ركعة . قال الشاعر (١) :

وأفْلَتَ حَاجِبُ فُوتِ الْعَوَالِي عَلَى شَقَاءٍ تَرْكَعُ فِي الظَّرَابِ
وَقَالُوا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَنْكَبُ لَوَجْهِهِ فَتَمَسَّ رُكْبَتَهُ الْأَرْضُ أَوْ لَا تَسْمُهَا بَعْدَ أَنْ يَخْفُضَ رَأْسَهُ فَهُوَ رَاكِعٌ .

فالركوع اذن هو الانحناء . ولذلك يقال ركع الشيخ اذا انحنى من الكبر . وقد ورد هذا المعنى في شعر لبيد بن ربيعة العامري (٢) :

أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ تَرَاحْتَ مَنِيتِي لَزُومَ الْعَصَا تَحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ
أَخْبِرْ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَدَبُ كَأَنِّي كَلِمَا قَمْتُ رَاكِعٌ
والركعة الهويّ الى الأرض . ويقال ركع اذا كبا وعثر .

وعن هذا المعنى تفرعت معان مجازية أخرى . فقالوا ركع الرجل اذا افتقر بعد غنى ، كأنما حنى الفقر ظهره بعد أن كان مستويا في غناه . وقال الشاعر (٣) :

وَلَا تُثْهِنِ الْفَقِيرَ عَمَلُكَ أَنْ تَرْكَعَ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ
وَيَبْدُو مِنْ بَعْضِ الْأَقْوَالِ أَنَّ الْعَرَبَ - قَبْلَ نَزُولِ الْقُرْآنِ - سَارُوا فِي مَعْنَى الرُّكُوعِ نَحْوَ مَعْنَاهِ الْأَصْطِلَاحِيِّ خُطْوَةً ضَيِّقَةً . فكَانُوا يَسْمُونِ الرَّكْعَةَ إِذَا لَمْ يَعْبُدِ الْأَوْثَانَ قَالَ النَّابِغَةُ (٤) :

سَيَبْلُغُ عَذْرَا أَوْ نَجَاحَا مِنْ أَمْرِي إِلَى رَبِّهِ ، رَبِّ الْبَرِيَّةِ ، رَاكِعٌ
ولكن الركوع لم ينتشر الا بعد نزول القرآن الكريم فصار اذا أطلق لا يعنى الا الركوع في الصلاة . وقد سميت أجزاء الصلاة بالركعات . فقيل صلاة الصبح ركعتان ، وصلاة الظهر أربع ركعات وهكذا ... لأن الركوع هو الحد الفاصل بين كل قيامين أو وقفتين يقفهما الانسان في صلاته .

٣ - لسان العرب مادة ركع .

١ - لسان العرب مادة ركع .

٤ - ديوان النابغة ، ص ٢٣٧ .

٢ - ديوان لبيد ، دار صادر ، ١٩٦٦ ، ص ٨٩ .

وقد ذكر الركوع في ثلاث عشرة آية في القرآن . ولدى إتمام النظر في هذه الآيات الكريمة يتضح أن استعمال الركوع في القرآن قد جاء بمعنى الخضوع والتواضع والخشوع بين يدي الله . قال تعالى :

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (١)

فالمقصود بالركوع هنا أطيعوا كما أطاع الناس وأعبدوا شأن العابدين الآخرين ، خاصة وأن هذه الآية نزلت في اليهود (٢) الذين كانوا يدعون أنهم أهل كتاب يختلفون عن مشركي العرب في الجزيرة العربية ، ثم لما جاءهم الحق على يدي محمد عليه الصلاة والسلام لم يؤمنوا كما آمن الناس . فقال الله عز وجل لهم :

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٣)

وعلى هذا المعنى أيضا يفسر قوله تعالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤)

أما الركوع في الصلاة — وهو المعنى الاصطلاحي الخاص — فقد ذكره الله عز وجل بقوله :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ (٥)

وفي قوله تعالى :

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٦)

١ - سورة البقرة ٤٣ .

٢ - في ظلال القرآن مجلد ١ ص ٨٤ .

٣ - البقرة ٤٢ - ٤٣ .

٤ - سورة المرسلات ٤٨ .

٥ - سورة الحج ٧٧ .

٦ - سورة البقرة ١٢٥ .

وعلى هذا يكون معنى الركوع قد تطور منذ العصر الجاهلي من الانحناء المادي الى الخضوع والانكسار، ثم تطور مرة أخرى الى معنى القيام بهيأة الصلاة كما هو معروف . ويمكن القول إن هذا المعنى الأخير هو الذي شاع اليوم ، وهو رغم شيوعه ، يعد من المصطلحات التي خصص القرآن الكريم دلالتها بعد أن كانت عامة في معنى الخشوع والانكسار أمام ظروف الحياة المختلفة .

السجود . المسجد :

المسجد الحرام . المسجد الأقصى :

السجود هو الانحناء والتطامن الى الأرض ، وأسجد الرجل طأ طأ رأسه وانحنى . والسجود أيضا إدامة النظر الى الأرض (١) . يقال نخلة ساجدة اذا أمالها حملها . ونخل سواجد . قال لبيد (٢) :

بين الصفا وخليج العين ساكنة غُلِبَ سواجد لم يدخل بها الحصر
وقد يبدو من ذلك أن السجود والركوع مترادفان . ولكن يبدو لي أن السجود يزيد عن الركوع في درجة الانحناء والتطامن حتى يصل الى الأرض . ولذلك قالوا سجد البعير اذا برك .

ويروى أن ليلي بنت عروة بن زيد الخيل قالت لابيها : كم كانت الخيل حين قال :
بني عامر هل تعرفون اذا غدا أبو مكنف قد شد عقد الدوائر
بجيش تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيها سجدا للحوافر
فقال : لست أعرف الا ثلاثة أفراس ، أحدها فرسي (٣) :

وهذا يدل على أن السجود يكون بانحناء شديد أو تطامن نحو الأرض . وقد شاع هذا التصور للسجود في الجاهلية . وكأن عندهم من يسجد للأخبار من أهل الكتاب حتى يصل سجوده الى الأرض . قال حميد بن ثور يصف نساء (٤) :

فلما لويسن على معصم وكف خضيب وأسوارها
فضول أزمتها أسجدت سجود النصارى لأخبارها

١ - جهرة اللغة مادة سجد .

٢ - ديوان لبيد ، ص ٥٦ .

٣ - الأوتل ص ١٠٠ .

٤ - ديوان حميد بن ثور الهلالي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥/ص ٩٦ .

وقد عرف السجود عند الجاهليين بمعنى التحية التي تتضمن مشاعر الطاعة والولاء .
قال الأعشى (١) :

فلما أتانا بعيد الكرى سجدنا له ورفعنا عمارا
وقال الأعشى أيضا (٢) :

فاني ورب الساجدين عشية وما صك ناقوس النصرى أبيلها
أصالحكم حتى تبوؤوا بمثلها كصرخة حبل يسرتها قبولها
وعرف الجاهليون السجود للملك ، أو لتعظيم انسان ، أو لظهار الطاعة ، أو الخوف من
فارس شجاع ، وكل ذلك واضح في شعرهم . قال النابغة (٣) :

قامت تراءى سجفي كِلَّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد
وقال الأعشى في مدح هوزة بن علي الحنفي (٤) :

مَنْ يَلْقَ هَوْدَةَ يسجدُ غير متئِب اذا تعصب فوق التاج أو وضعها
وقال عمرو بن كلثوم مفتخرا (٥) :

اذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجديننا
هكذا كان معنى السجود - اذن - في العصر الجاهلي وفي البيئة الجاهلية .

وفي القرآن الكريم ورد فعل «سجد» وما يشتق منه في أربع وستين آية يضاف إليها
عشرون آية أخرى ذكرت كلمة المسجد ، وآيتان وردت فيهما كلمة «مسجدا» وست
آيات ذكرت فيها كلمة «مساجد» . ومن الجدير بالذكر أن «المسجد الحرام» ذكر في
أربع عشرة آية على حين ذكر «المسجد الأقصى» في آية واحدة .

وقد أسند فعل السجود في القرآن الى عناصر متعددة من خلق الله . كالملائكة والشمس
والقمر والنجم والشجر والانسان ، وكل من في السموات والأرض ، وما في السموات
والأرض . كذلك تحدثت آيات كثيرة عن أمر ابليس بالسجود فأبى أن يكون من
الساجدين ، فاستحق بذلك لعنة الله .

١ - ديوان الاعشى ص ٨٧ .

٢ - ديوان الأعشى ص ٢١٣ . وأبيلها بمعنى كاهنها أو راهبها .

٣ - ديوان النابغة ، دار المعارف ، ص ١٤٣ .

٤ - ديوان الأعشى . تحقيق فوزي عطوي ص ١٢٣ .

٥ - شرح المعلقات السبع ص ١٤٥ .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق والتحديد هيئة سجود الملائكة أو سجود المخلوقات الأخرى ممن ومما في السموات والأرض . وكلنا نعرف — يقينا — أن السجود في هذه الآيات معناه الطاعة والخضوع لله عز وجل . وهذا المعنى هو معنى مجازي متطور عن المعنى الأساسي وهو الانحناء والتطامن حتى يصل الوجه الى الأرض . وقد رأينا أن الشعر الجاهلي عرف كثيرا من الشواهد على هذا المعنى المجازي ، والمعنى الأساسي .

وقد استعمل القرآن الكريم السجود بمعناه الحقيقي ثم بمعناه المجازي . ففي المعنى الأول وهو وضع الجبهة على الأرض قال تعالى

إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ^(١)

وقال تعالى :

وَالَّذِينَ السَّحَرَةُ سَلَّجَدِينَ ^(٢)

وقال تعالى :

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ^(٣)

أما المعنى الثاني فقد خصصه القرآن الكريم في السجود لله عز وجل ، بعد أن كان في الشعر الجاهلي عاما كما رأينا في الشواهد الشعرية السابقة . وإذا ذكر السجود اليوم فهو سجود الصلاة خضوعا وعبادة لله عز وجل ، قال تعالى :

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ^(٤)

قال تعالى :

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ^(٥)

١ - سورة الاسراء ١٠٧ .

٢ - سورة الاعراف ١٢٠ .

٣ - سورة مريم ٥٨ .

٤ - سورة الفرقان ٦٤ .

٥ - سورة الانسان ٢٦ .

وينبغي أن نشير هنا الى كمال التشريع الاسلامي في كون الركوع سابقا للسجود في الصلاة . فقد رأينا كيف أن الركوع والسجود كليهما يعني التظامن والانحناء والانخفاض نحو الأرض . ولكن السجود يزيد على الركوع في ذلك ، ولذلك جعل الركوع في الصلاة انحناء نصفى ، على حين كان السجود انحناء تاما حتى تصل الجبهة الى الأرض . وقد عرف أن هذا السجود هو أوج الاقتراب الى الله . فكأنما هو إشارة على أن الانسان لا يتحرر من علائق الدنيا حتى تتم عبوديته لله تعالى . ولعل هذا هو المعنى العميق في قوله تعالى

وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١)

وأما المسجد والمسجد فهو مكان السجود . وفي الصحاح هو واحد المساجد . وقال الزجاج : كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد ، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا . وقال ابن الأعرابي : مسجد — بفتح الجيم — محراب البيوت ، ومسجد — بكسر الجيم — مصلى الجماعات . وقال الفراء : كل ما كان على فعل يفعل مثل دخل يدخل فالمفعل منه بالفتح أسما كان أو مصدرا ولا يقع فيه الفرق مثل دخل مدخلا وهذا مدخله الا أحرفا من الأسماء ألزموها كسر العين من ذلك المسجد والمشرق والمغرب والفرق والمجزر والمنسك (٢) .

وليس المجال هنا لملاحقة ما كان على وزن مفعِل أو مفعَل . ويكفى أن المسجد هو مكان السجود ، حيثما كان سجود لله عز وجل . وليس هو مقتصرا على تلك الأبنية التي يقيمها الناس ويسمونها مساجد ، بل ان هذه سميت مساجد لأنه يسجد فيها . وكذلك سميت جوامع لاجتماع الناس اليها .

وقد خصص الله عز وجل مسجدين اثنين أصبح اسمهما مصطلحا عليهما عند كل مسلم ، هما المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد الأقصى في القدس . ويلاحظ أن كلمتي « الحرام » و « الأقصى » هما في الأصل صفتان لكلمة المسجد . ولكنهما أصبحتا علمين على هذين المسجدين الشريفين . قال تعالى :

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ (٣)

١ - سورة العلق ١٩ .

٢ - لسان العرب مادة سجد .

٣ - سورة الاسراء ١ .

وهكذا يدخل السجود والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ضمن قائمة المصطلحات القرآنية الجديدة التي صنعها القرآن الكريم . وخصص معناها بعد أن كان عاما .

المحراب :

في ثلاث آيات فقط ورد ذكر المحراب في القرآن الكريم ، وكلها تتعلق بسيدنا زكريا عليه السلام . وهي :
قوله تعالى :

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُا لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١)

وعندما يرى زكريا عليه السلام ذلك ، ويتمثل قدرة الله بعينيه ، ويخفق قلبه وتستشرف نفسه بأن يرزقه الله ولدا بعد هذا العمر الطويل ، يأتيه قول الله تعالى :

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٢)

والآية الثالثة من سورة مريم وفيها يقول تعالى مخبرا عن زكريا عليه السلام :

خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٣)

وواضح أن المحراب الذي خرج منه زكريا عليه السلام هو المحراب نفسه الذي نادته الملائكة وهو قائم يصلي فيه ، وهو أيضا المحراب نفسه الذي كانت تجلس فيه الفتاة الصغيرة الطاهرة مريم ، والذي كلما دخل زكريا عليها فيه وجد عندها رزقا . اذن هو محراب واحد ، المحراب الذي ذكر في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هو محراب واحد ، ويتعلق ذكره بشخص واحد ، هو سيدنا زكريا عليه السلام .

١ - سورة آل عمران ٣٧ .

٢ - سورة آل عمران ٣٩ .

٣ - سورة مريم ١١ .

فَلِمَ ذُكِرَ المحراب مع زكريا عليه السلام ولم يذكر مع غيره ، وَلِمَ ذُكِرَ المسجد في آيات كثيرة أخرى ولم يذكر المحراب سوى ثلاث مرات ؟ وما الفرق بين المحراب والمسجد ؟

و يبدو أن المحراب هو الوصف الذي أراده الله عز وجل لذلك المكان الذي كان يتعبد فيه المتدينون في زمن زكريا عليه السلام ، ومن بعده يحيى وعيسى عليهما السلام . ورد في الاصحاح الأول من انجيل لوقا ما نصه : « كان في أيام هيرودوس ملك اليهودية ، كاهن اسمه زكريا من فرقة آبيا ، وامراته من بنات هارون ، واسمها الوصايات . وكان كلاهما بارين أمام الله ... فبينما هويكهن في نوبة فرقة أمام الله ، حسب عادة الكهنوت ، أصابته القرعة أن يدخل الى هيكل الرب وينحر ، فكان كل جمهور الشعب يصلون خارجا وقت البخور فظهر له كلام الرب ... » (١) .

ويظهر من هذا النص أن الناس كانوا يصلون خارجا .. أما زكريا فقد دخل الى هيكل الرب . وهيكل الرب هو المكان المخصص لذوي المنزلة العليا فيهم .

والنصوص العربية التي تحدثت عن المحراب تجمع كلها أنه المكان المخصص لعلية القوم أو للملوك . وهو دائماً صدر المجلس وأرفع مكان فيه . اذن فربما يكون من الصواب القول بأن وصف المحراب في القرآن كان دلالة على صفة المكان الذي كان يدخل فيه المتدينون أو صفوة الناس في زمن زكريا عليه السلام . وهذا هو الفرق — في التعبير — بين اعجاز القرآن الكريم وبين حديث الكتب السماوية الأخرى على فرض أنها نصوص سلمت من التحريف ، وهو أيضاً دليل على أن القرآن الكريم نزل باللسان الذي كان العرب قد اتفقوا عليه وتكلموا به ، اللسان العربي المبين .

وقد ورد في كتب اللغة : المحراب صدر البيت ، وأكرم موضع فيه ، والجمع محاريب .

قال امرؤ القيس (٢) :

وماذا عليه أن ذكرت أو أنسأ كغولان رمل في محاريب أقيال
وقال الأعشى (٣) :

أو لم تَرَيَ حَجْراً — وأنت حكيمة — ولا بها

١ - الصابون في حاضرم وماضيهم ، السيد عبد الرزاق الحسيني . مطبعة العرفان ، صيدا ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ ، ص ٥٧ .

٢ - ديوان امرؤ القيس ص ٣٤ .

٣ - ديوان الأعشى ، ص ٢٨٧ .

ان الثعالب بالضحي يلعبن في محرابها
والجن تعزف حولها كالخبش في محرابها
فخلا لذلك ما خلا من وقتها وحسابها
وقال هو أيضا (١) :

وقد أراها وسط أترابها في الحي ذي البهجة والسامر
كدمية صور محرابها بمذهب في مرمر مائر
وقال الزجاج : المحراب أرفع بيت في الدار ، وأرفع مكان في المسجد ، والمحارب صدور
المجالس ، ومنه سمي محراب المسجد (٢) . والمحراب أيضا القبلة ، والمحراب صدر المجلس
وأشرف موضع فيه ، ومحارب بني اسرائيل مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها . وفي
التهذيب التي يجتمعون فيها للصلاة (٣) .

وحقيقة قد يكون المحراب هو بيت الصلاة عند بني اسرائيل ، وأن الكلمة عبرية
الأصل ، ولكنها دخلت العربية وانتشرت حتى أصبحت من العرب الذي كاد ينسى
أصله ، وجرت على ألسنة العرب وأسماعهم ، فتحدث بها الشعراء . وقد نسب امرؤ القيس
المحراب الى اقيال اليمن في بيته السابق . وها هو ذا الأعشى يتحدث عن المحراب في دولة
الفرس و يقول (٤) :

وترى مجلسا يغصّ به المحراب كالأسد والثياب رقاق
وهذا شاعر آخر جعل عرين الأسد محرابا بقوله (٥) :

وما مغب بثنو الحنوجتعل في الغيل ، في جانب العريس محرابا
وهذا شاعر ثالث جعل القصر محرابا لشرفه وعلوه ، يقول (٦) :

أو دمية صور محرابها أو درة سيققت الى تاجر
ومن كل ذلك يظهر أن المحراب هو المكان الشريف المخصص لذوي الشرف والمكانة .

وفي الاسلام ليس هناك أشرف من امام الصلاة الذي يكون عادة خليفة الله في الأرض .
وليس في الاسلام عمل أجل من الصلاة . ولذا فليس عجيبا أن يصف الله مكان العبادة
عند أنبيائه ممن بعثوا الى بني اسرائيل بأنهم كانوا يقومون في المحراب ، ولا غريبا أي يصبح

١ - ديوان الأعشى ص ١٧٥ .

٢ - لسان العرب مادة حرب .

٣ - المرجع السابق .

٤ - ديوان الأعشى ، ص ٢٥١ .

٥ - لسان العرب مادة حرب .

٦ - المرجع السابق .

« المحراب » اليوم علما على المكان الذي يخصص لوقوف الامام للصلاة في كل مسجد ، لأن ذلك المكان هو صدر المسجد وأظهر مكان فيه .

وعلى هذا فإن المحراب استعمل في القرآن الكريم في المعنى الذي ورد في الشعر الجاهلي نفسه ، لم يلحق به أي شكل من أشكال التطور اللغوي التي عرفناها سابقا .

الخشوع :

أصل الخشوع هو السكون بلا حراك . وخشع يخشع خشوعا رمى ببصره نحو الأرض . وغضه وخفض صوته (١) . واختشع اذا طأ طأ رأسه وتواضع . وخشعت الأصوات سكنت . والعرب تقول للجثمة اللاطئة بالأرض هي الخُشعة وجمعها خُشَع . قال أبو زيد (٢) :
جازعات اليهم خُشَع الأوداة قوتا تسقى ضياع المديد
والخاشع من الأرض الذي تثيره الرياح لسهولته فتمحوا آثاره ، والعرب تقول رأينا أرض بني فلان خاشعة هامدة ما فيها خضراء . وبلدة خاشعة أي معبرة لا منزل فيها . واذا يبست الأرض ولم تمطر قيل قد خشعت (٣) ، وجدار خاشع اذا تدعى واستوى على الأرض وقال النابغة (٤) :

رماد كُكُخِل العين لأيا أبينه ونؤي كَجِذْم الحوض أثلم خاشع
وفي معنى الخشوع أي السكون الى الأرض قال الأعشى (٥) :

أهوى لها ضابىء في الأرض مفتحص للحم قدما خفى الشخص قد خشعا
ويبدو أن هذا المعنى قد اتسع حتى صار يعنى الرجل الساكن الضعيف ، وقد وردت هذه الصورة في شعر العرب . قال عبد قيس بن خفاف (٦) :

إذا افتقرت فلا تكن مُتَخَشَّعا ترجو الفواضل عند غير المفضل

١ - لسان العرب مادة خشع .

٢ - شعر أبي زبيد الطائي ، مطبعة المعارف بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ٥٠ ، والضياع اللين الرقيق الكثير الماء .

٣ - لسان العرب مادة خشع .

٤ - ديوان النابغة ، ص ٣٠ .

٥ - ديوان الأعشى ص ١٤١ .

٦ - المفضليات ص ٣٨٥ .

وقال لقيط بن معمر الايادي (١) :

وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشعا
وقال طرفة (٢) :

لأكرم نفسي أن أرى متخشعا لذى منه يعطى القليل على الرّحض
ثم استعمل الخشوع استعمالا مجازيا للدلالة على كل شيء يضعف بعد قوة . أو يختفى بعد
ظهور فوصفوا به المجد الضائع أو الكواكب الغائبة وما الى ذلك .

وقد ورد ذلك في شعر سعدى بنت الشمردل الهذلية ترثي أخاها (٣) :

ذهبت به بُهز فأصبح جدّها يعلو وأصبح جدُّ قومي يخشع
وقد تردد ذكر الخشوع سبع عشرة مرة في القرآن الكريم . وقد ذكر بهذه المعاني كلها .
ففي ذكر الأرض الخاشعة قال تعالى :

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

وفي معنى الصمت والسكون قال تعالى :

وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (٥)

وعلى معنى التداعي والالتصاق بالأرض قال تعالى :

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (٦)
كذلك استعمل القرآن الخشوع بمعناه الأساسي وهو خفض الرأس والبصر الى الأرض مع

١ - الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٠ .

٢ - ديوان طرفة ، ص ٢٠٠ .

٣ - لسان العرب مادة خشع .

٤ - سورة فصلت ٣٩ .

٥ - سورة طه ١٠٨ .

٦ - سورة الحشر ٢١ .

الذل والاستكانة ، قال تعالى :

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (١)

أما الخشوع بمعناه الاسلامي فهو مستمد في هذه المعاني جميعها . فالخشوع هو الخضوع لله والشعور بخشيته وتقواه ، والوثوق ببقائه والرجعة اليه عن يقين . وقد صار الخشوع مصطلحا اسلاميا لأنه صفة لازمة للمؤمنين الصادقين ، وبه وصف الله عز وجل عباده المتقين . قال تعالى :

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (٢)

وقال تعالى :

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٣)

والخشوع بهذا المعنى التعبدي لم يعرف الا بعد نزول القرآن الكريم . وبذلك يمكن القول أن القرآن خصص هذا المعنى بعد أن كان عاما . رغم أنه استعمل في القرآن بالمعاني كلها الا أن الخشوع اذا ذكر لا يتوجه الذهن الا الى معناه الاسلامي .

هذا وقد حاول علماء اللغة أن يفرقوا بين الخشوع والخضوع . فقالوا ان الخشوع قريب من الخضوع الا أن الخضوع في البدن وهو الاقرار بالاستخذاء ، والخشوع في البدن والصوت والبصر (٤) .

الذكر:

الذكر في اللغة هو الحفظ للشيء . وهو أيضا الشيء يجري على اللسان . والذكر لغة في الذكر . وفعله ذكر يذكر ذكرا وذَكَرَا . ويقال في اللغة تذكره وأذكره وأذكره وأذكره . قال الشاعر (٥) :

تنحى على الشوك جرازا مقضبا والهَمُّ تذريه اذكارا عجبا
والذكر والذكرى والذكرة كلها نقيض النسيان . وفي هذا قال كعب بن زهير (٦) :

- ١ - سورة الغاشية ١- ٢ .
- ٢ - سورة الاسراء ١٠٩ .
- ٣ - سورة المؤمنون ١- ٢ .
- ٤ - لسان العرب مادة خشع .
- ٥ - لسان العرب مادة ذكر .
- ٦ - ديوان كعب بن زهير ، صنعة أبي سعيد السكري ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ١١٣ .

أَتَى أَلَمَ بِكَ الْخِيَالُ يَطِيفُ وَمُطَافُهُ لَكَ ذُكْرَةٌ وَشُعُوفٌ
وقال عنتره (١) :

لا تذكرني فرسي وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجر
يريد لا تولعي بذكره وذكر ايثاري اياه دون العيال . وهذا المعنى للذكر هو ما ورد في الشعر
الجاهلي ، لم يعرف له معنى آخر .

أما في القرآن الكريم فقد ورد الذكر وما يشق منه في ميتين وخمس وثمانين آية .
ويمكننا فهم معنى الذكر في القرآن اذا أنعمنا النظر في قوله تعالى :

أَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنْسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ
أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢)

ويتحدد موقف المرء من الدين بانحيازته الى أحد الجانبين إما الذكر وإما النسيان . والآيات
القرآنية تقابل دائما بين هذين الطرفين . فالذاكر هو المتبع لدين الله . والناسي هو المعرض
عنه . ويتوقف مدى الاعراض على مدى النسيان ومدته ، فهو اما نسيان مؤقت واما نسيان
دائم ، والنسيان الدائم هو الكفر بعينه . وتوضح الآيات الكريمة هذين الموقفين :

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا
نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِعَآيَتِنَا
الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٣)

ويمكن تحديد عدة معان لكلمة الذكر في القرآن الكريم :

١ - فالذكر هو القرآن نفسه ، قال تعالى :

١ - ديوان عنتره بن شداد . حققه وقدم له فوزي عطوى . الشركة اللبنانية للكتاب للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان . ١٩٦٨ .
ص ٢٤ .

٢ - سورة المجادلة ١٩ .

٣ - سورة السجدة ١٣-١٥ .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١)

وقال تعالى :

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢)

٢ - والذكر أيضا صفة القرآن الكريم . قال تعالى :

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (٣)

وكل كتاب سماوي نزل على أنبياء الله عز وجل هو ذكر . قال تعالى :

أَمْ آتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ

مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٤)

٣ - والذكر بمعنى الشرف . قال تعالى :

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٥)

٤ - والذكر هو الصلاة لله والدعاء اليه والثناء عليه . وكل حديث في الدين يقصد به العبادة ، وكل اتصال بين الانسان وخالقه هو ذكر لله . وعلى هذا المعنى وردت معظم الآيات القرآنية التي ورد فيها كلمة ذكر أو احدى مشتقاتها مثل « ذكرى » و « يذكر » و « يذكرون » وقال تعالى :

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٦)

١ - سورة الحجر ٩ .

٢ - سورة النحل ٤٤ .

٣ - سورة ص ١ .

٤ - سورة الأنبياء ٢٤ .

٥ - سورة الزخرف ٤٤ .

٦ - سورة البقرة ٢٦٩ .

وقال تعالى :

فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ أَفْئِدَتُهُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا^(١)

من العرض السابق يمكن القول أن كلمة الذكر في القرآن الكريم أصبحت من قبيل المشترك اللفظي ، الذي تؤدي فيه الكلمة الواحدة عدة معان . ولكن هذه المعاني يمكن ارجاعها الى معنى واحد هو المعنى الاصطلاحي الذي استمر لهذه الكلمة ، فالقرآن الكريم هو أصل ذكر الله . فلا عجب أن يكون هو الذمكر وصفته الذكر . ومنه يستمد الشرف . وهكذا يكون المعنى الاصطلاحي للذكر من المعاني التي خصصها القرآن الكريم بعد أن كان معنى عاما يقصد به الذكر لأي شيء وفي أي حال .

المغفرة والاستغفار:

الأصل في المغفرة الستر والتغطية . يقال غفره غفرا : ستره . وغفر المتاع في الوعاء يغفره غفرا وأغفره أدخله وستره . وكذلك غفر الشيب الخضاب غطاه . قال الشاعر^(٢) :

حتى اكتسيت من المشيب عمامة غفراء أغفر لونها بخضاب
وقد تحول المعنى من المشيب الأشياء المادية الى ستر الأشياء المعنوية كالذنوب والاساءات والأعمال والأقوال الشائنة . وقد استخدم الشعر الجاهلي هذا المعنى المجازي . قال قريظ أليف^(٤) :

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن اساءة أهل السوء احسانا
وقال زهير بن أبي سلمى يصف ظبية أكل السبع ولدها^(٥) :

أضاعت فلم تغفر لها غفلاتها فلاقت بدانا عند آخر معهد
دما عند شلو تحجل الطير حوله وبضع لحام في إرهاب مقعد
ومن أمثال العرب في هذا المعنى قولهم : « ما عندهم غفيرة ولا غديرة » أي لا يغفرون ولا يغدرون بأحد . وفي معنى هذا المثل قال صخر الغي وكان خرج هو وجماعة من أصحابه الى

٢ - سورة البقرة ٢٠٠ .

٣ - لسان العرب مادة غفر .

٤ - تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات . على هامش الكشف ، ج ٤ ص ٣٤٥٦ .

٥ - ديوان زهير ٢١ .

بعض متوجهاتهم فصادفوا في طريقهم بني المصطلق فهرب أصحابه ، فصاح بهم قائلا (١) :
يا قوم ليست فيهم غفيرة فامشوا كما تمشي جبال الحيرة
يدعوهم أن يتناقلوا في مشيهم ويدافعوا عن أنفسهم لأنهم لن يغفروا ذنب أحدهم أن ظفروا
به .

وفي هذا المعنى قال النابغة يمدح الحارث الأصغر وقيل الأعرج (٢) :

والغافرُ الذنبُ لأهل الحجى والقاطعُ الأقرانَ والواصلُ
وفي القرآن الكريم ورد فعل غفر وما يشتق منه في مئتين وثلاث وثلاثين آية منها احدى
وسبعون آية ورد فيها كلمة « غفور » وعشرون آية أخرى وردت فيها كلمة « غفورا » وخمس
آيات فيها كلمة « الغفار » وأما كلمة « مغفرة » فقد ذكرت في ثمان وعشرين آية . ومعنى
المغفرة — في القرآن — هو التغطية على الذنوب وسترها ، بمعنى العفو عنها . وقد غفر الله ذنبه
يغفره غفرا وغفرانا ومغفرة وغفورا وغفيرة . ومنه أخذ اسم الله عز وجل الغفور والغفار . أي
الساخر للذنوب المتجاوز عن خطايا عباده .

قال تعالى :

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ (٣)

وقال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (٤)

وقال تعالى :

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

١ - ديوان المهذلين ص ٢٣٨ .

٢ - ديوان النابغة ص ١٦٧ .

٣ - سورة القصص ١٦ .

٤ - سورة النساء ، ورد النص في آيتين ٤٨ ، ١١٦ .

٥ - سورة آل عمران ٣١ .

وقال تعالى :

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (١)

وقال تعالى :

وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٢)

والاستغفار هو طلب المغفرة من الله . ويلاحظ أنه على صيغة المصدر من استغفر أي طلب المغفرة . ولذلك فهو يجري عليه ما جرى على كلمة المغفرة من تطور من معنى لغوي الى معنى مجازي ثم الى معنى اصطلاحي . قال الله عز وجل :

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَكُونُ فِي الْأَلْبَابِ (٣)

وقال تعالى :

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤)

وقال تعالى :

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (٥)

يظهر مما سبق أن كلمة المغفرة لم تستعمل في الشعر الجاهلي الا بمعناها اللغوي وهو الستر والتغطية . وقد تطورت في العصر الجاهلي إلى معنى مجازي وهو ستر الأشياء المعنوية غير المحسوسة كالذنوب والاساءات والأعمال القبيحة .

١ - سورة ص ٦٦ .

٢ - سورة آل عمران ١٥٧ .

٣ - سورة آل عمران ١٣٥ .

٤ - سورة المائدة ٧٤ .

٥ - سورة التوبة ١١٤ .

أما في القرآن الكريم فقد تخصصت المغفرة بالطلب من الله عز وجل التجاوز عن الذنوب والآثام والاعمال المنكرة بعد التوبة والندم من الانسان . وصار هذا المعنى اصطلاحيا بحيث اذا أطلقت الكلمة الآن لا يراد منها الا مغفرة الله عز وجل ، ولا يخطر ببال أحد ما كان يراد بها من معنى لغوي . وهذا واضح في الآيات القرآنية السابقة . وكذلك صار الاستغفار سمة للمسلم الذي يتوجه الى ربه بطلب المغفرة ، ولا تستعمل هذه الكلمة الآن الا في هذا المعنى الاصطلاحي المحدد .

التبتل :

أصل التبتل في اللغة هو القطع . يقال بتله يبتله بتلا . وبتله فأنبتل وتبتل أبانه من غيره . والمبتل : المنقطع . والبتول مشتقة من التبتل ، وهي الفسيلة الصغيرة من النخل تكون قد انفردت واستغنت عن أمها . والنخلة الكبيرة المستغنى عنها تسمى المبتلة . وفي هذا قال المنتخل الهذلي (١) :

ذلك ما دينك اذ جُتِبَتْ أمالها كالْبُكْرِ الْمُبْتَلِ
ثم اتسع هذا المعنى حتى صار يشمل كل منقطع عن الناس في صفة من الصفات ، وصار يطلق عليه وصف « مبتل » أو « منبتل » أو « متبتل » . قال الأعشى يصف فتاة (٢) :

مُبْتَلُهُ الخلق مثل المهاة ثم تر شمسا ولا زمهريرا
ومنه قولهم صدقة بتلة أي منقطعة عن صاحبها . وأعطيته عطاء بتلا أي منقطعا لا يشبهه عطاء .

وعن هذا المعنى تطور المعنى المجازي المعروف في اللغة الاسلامية ، وهو أن البتل يعني الانقطاع عن الدنيا والتوجه الى الله تعالى . وكذلك التبتيل . حيث يقال : تبتل الى الله : انقطع وأخلص . ويقال للعابد اذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل ، أي قطع كل شيء الا أمر الله . وقد عرفه أحد العلماء بقوله : « والتبتل هو الانقطاع الكلي عما عدا الله ، والاتجاه الكلي اليه بالعبادة والذكر ، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله ، بكامل الحس والمشاعر » (٣) وقد سئل أحد العلماء عن فاطمة رضوان الله عليها بنت

١ - ديوان الهذليين ٢/ص ٣ . يريد جمع مبتلة . والبكر جمع بكور . وهي التي تدرك أول النخل ، وقوله ذاك ما دينك أي ذلك البكاء دينك وعادتلك .

٢ - ديوان الأعشى ٩٥ .

٣ - في ظلال القرآن م ٨ ص ٣٤٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم قيل لها البتول ؟ فقال : لانقطاعها عن نساء أهل زمانها ونساء الأمة عفافا وفضلا ودينا وحسبا » (١) .

ولكن معنى التبتل — في الاسلام — ليس جديدا ، وإنما هو معنى معروف منذ العصر الجاهلي . ذلك أن وجود فئة الحنفاء نشرت في تلك البيئة بعض المعاني الدينية التي تحدث بها القرآن فيما بعد ونشرها وجعل منها مصطلحات ثابتة . وهذه الفئة كانت دائمة التفكير في خالق السموات والأرض ، معتزلة ما يعبدونه أقوامهم من أصنام وأوثان . منقطعة الى نوع من العبادة الموروثة عن الشرائع السابقة . ولذلك سمو بالحنفاء . ووصفوا بالتبتل . قال ربيعة بن مقروم الضبي (٢) :

لو أنها عرضت لأشمط راهب في رأس مشرفة الذرى يتبتل
لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من ناموسه يتنزل
ولكن المعنى لم ينتشر على مستوى الاستعمال الاصطلاحي الا بعد نزول القرآن الكريم واتخاذ بعض الناس عادة التبتل خلقا وسلوكا مستمرا لهم في حياتهم . ذلك أن كلمة « تبتل » تطلق الآن فيصرف الذهن سريعا الى صورة الرجل العابد المخلص في صلته مع ربه . ومن العجيب أن هذا المصطلح الاسلامي الشائع لم يذكر في القرآن الكريم الا في آية واحدة في قوله تعالى :

وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا (٣)

وليس يضير المعنى الاسلامي أن يرد مرة واحدة أو مئات المرات في القرآن الكريم ذلك أن السلوك الاسلامي والحياة الاسلامية كفيلة بنشر أي معنى . وإن تجعله مشهورا متداولاً في سلوك الناس . سواء ورد في آية واحدة كالتبتل أم في عشرات الآيات كالجهاد . فكلها معان اسلامية تقرأ في كتاب الله العظيم .

ولكن ثمة ملاحظة أخيرة هي أن نص الآية يوجه الأمر الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكأنما التبتل خاص به عليه السلام . ولكن اذا علمنا أن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم — كما يقول الفقهاء — ندرك أن التبتل درجة سامية لا يرقى اليها إلا كلُّ

١ - لسان العرب مادة بتل .

٢ - الشعر والشعراء ج ١ ص ٩٧ .

٣ - سورة الزمل ٨ .

من طهر قلبه من شوائب الدنيا كلها . وسلك في حياته سلوكا ساميا متوجها فيه الى الفوز برضا ربه والحياة في نعيمه المقيم .

القنوت :

ورد ذكر القنوت وما اشتق منه أو اتصل به في ثلاثة عشر موضعا في القرآن الكريم . كان في معظمها وصفا لبعض الأنبياء أو جماعة المؤمنين ، وكان في بعضها أمرا من الله لعباده بالتزامه . ويظهر ذلك من تلاوة الآيات الكرّمة التالية . قال تعالى :

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١)

وقال تعالى :

سُبْحَنَهُ بِلِّ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢)

وقال تعالى :

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٣)

وقال تعالى :

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤)

وفي تفسير معنى القنوت ورد أنه التزام الطاعة مع الخضوع لله (٥) . وورد كذلك أنه الخشوع لله والتفرغ لذكره في الصلاة . وقد كانوا يتكلمون في أثناء الصلاة فيما يعرض لهم من حاجات عاجله حتى نزلت هذه الآية « وقوموا لله قانتين » فعملوا أن لا شغل في الصلاة بغير ذكر الله والخشوع له والتجرد لذكره (٦) . وقالوا في تفسير قوله تعالى :

سُبْحَنَهُ بِلِّ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ

١ - النحل ١٢٠ .

٢ - البقرة ١١٦ .

٣ - البقرة ٢٣٨ .

٤ - آل عمران ٤٣ .

٥ - تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار ، تأليف محمد رشيد رضا ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ،

ج ٣ ، ص ٣٠٠ .

٦ - في ظلال القرآن مجلد ١ ص ٣٧٧ .

أي مطيعون كل بما يراد منه وفيه تغليب للعاقل^(١) . والأقوال التي أدلى بها العلماء في معنى القنوت مستمدة كلها من شرح الآيات التي سبق ذكر بعضها . فقالوا إن القنوت هو الامساك عن الكلام ، وقالوا هو الدعاء في الصلاة ، وهو الخشوع والاقرار بالعبودية ، وهو القيام بالطاعة التي ليس لها معصية ، و « كل حرف يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » والقنوت النيام أو اطالة القيام^(٢) .

وأعتقد أن هذه الأقوال صحيحة كلها . وهي مستمدة من المعنى اللغوي لهذه الكلمة وهو الخضوع مع الاحساس بالضعف أمام من هو أعلى وأكبر . ففقت له بمعنى ذل^(٣) . وفتنت المرأة لبعولها أقرت^(٤) ، والافتئات الانقياد . والقنوت أيضا في اللغة الامساك عن الكلام ، من الفعل قنت يقنت . ولم ترد في معاجم اللغة أي معان أخرى للكلمة ، كما أنني لم أعر خلال قراءاتي الطويلة في دواوين الشعر الجاهلي ، والمجموعات الكثيرة التي ألفت فيه ، لم أعر على شاهد أورد كلمة قنت أو إحدى مشتقاتها . ورغم أن هذا لا يعني أن الكلمة لم ترد مطلقا في الأدب الجاهلي ، بل يعني أن الكلمة — ان استعملت — لم تعرف إلا هذا المعنى اللغوي الأساسي ، كما ذكرت معاجم اللغة .

وعلى هذا يمكن القول إن القنوت من المصطلحات التي صنعها القرآن الكريم وخصصها في معنى محدد هو انقياد العبد لأمر ربه وخضوعه له والاحساس بتمام عبوديته أمام عظمة خالقه . ومن معاني القرآن الكريم لهذه الكلمة استمدت كل تفسيرات هذه الكلمة وما يشتق منها . فقالوا إن القنوت هو السكوت في حضرة الله في أثناء الصلاة ، وفي مجال العبادة والعلم والذكر والقراءة ، وكذا الدعاء والتوجه إلى الله .

والقنوت بهذا المعنى العام ليس مقصوراً على الإنسان فقط ، بل هو صفة كل مخلوق لله . ولها فان تعليق العلامة الصاوي^(٥) على شرح الآية السابقة ، عندما يقول « وفيه تغليب للعاقل » يعد ملاحظة قيمة ودقيقة في هذا المجال . وهذا الشمول في معنى القنوت واضح في قوله تعالى :

سُبْحَنَهُ بِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ

١ - حاشية العلامة الصاوي ج ١ ص ٥٥ .

٢ - تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٠ .

٣ - لسان العرب مادة قنت .

٤ - أساس البلاغة مادة قنت .

٥ - حاشية العلامة الصاوي ، ج ١ ص ٥٥ .

وقد تنبه لهذه الملاحظة نفسها ابن سيدة في تعليقه على معنى القنوت، فقال : « كل له قانتون أي مطيعون ، ومعنى الطاعة هنا أن من في السموات والأرض مخلوقون كإرادة الله تعالى . لا يقدر أحد على تغيير الخلقة ، ولا ملك مقرب ، فأثار الصنعة والخلقة تدل على الطاعة وليس يعنى بها طاعة العبادة ، لأن فيها مطيعا وغير مطيع ، وإنما هي طاعة الإرادة والمشئة » (١) .

الزكاة ويلحق بها مصطلحات :

الصدق

الصديق

الصديق

الصدقة

الزكاة في اللغة النماء والريع من زكاء يزكوزكاء وزكوا . وأرض زكية أي طيبة سميحة . والزرع يزكوزكاء . وكل شيء يزداد وينمو فهو يزكوزكاء (٢) . والزكاة على وزن فَعلة مثل صدقة لما تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفا فصارت زكاة . والتزكية مصدر الفعل المزيد زكى يُزكى .

وفي العصر الجاهلي لم يعرف للكلمة غير معنى الزيادة في الشيء . ومن ذلك أن العرب كانوا يطلقون على الفرد الواحد خسا وعلى الاثنين زكا . وقيل لهما ذلك لأن الاثنين أزكى من الواحد . وفي المثل العربي : خسا أم زكا (٣) .

وقالوا هذا الأمر لا يزكوبفلان أي لا يليق به ، وأنشد صاحب اللسان (٤)

والمال يزكوبك مستكبرا يختال قد أشرق للناظر

وفي القرآن الكريم وردت كلمة الزكاة في اثنتين وثلاثين آية . وقد اقترنت الصلاة بالزكاة في سبع وعشرين آية منها ، على حين وردت الزكاة وحدها في خمس آيات فقط . أما الفعل زكا وما يتفرع عنه من صيغ فقد تردد في ثمانية وعشرين موضعا . وعند قراءة الآيات

١ - لسان العرب مادة قنت .

٢ - لسان العرب مادة زكا ، وجهرة اللغة مادة زكا .

٣ - لسان العرب مادة زكا .

٤ - المرجع السابق .

القرآنية نجد أن هذا الفعل «زكا» ومشتقاته قد استعمل في القرآن الكريم في معنيين اثنين :

١ - الأول : هو المعنى الأصلي وهو النماء والزيادة في الشيء ، وما تفرع عنه من معانٍ مجازية مثل الاصلاح والتطهير والبركة ، وهي معانٍ متقاربة شديدة الصلة والارتباط بالمعنى الأول . ويمثل ذلك قوله تعالى :

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ^(١)

وقوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ^ج بَلَى اللَّهُ يَزَكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ
فَتِيلًا ^(٢)

٢ - الثاني : هو المعنى الاصطلاحي الاسلامي . وهو دفع قسط من المال — اذا بلغ النصاب — فريضة من الله كل عام ، على سبيل العبادة . وأكثر الآيات التي أوردت الزكاة قد حملت هذا المعنى . بل ان الآيات التي أوردت الزكاة قد تخصصت بهذا المعنى وخصصته ، على حين أن المعنى الأول ورد في الآيات التي أورد بعض اشتقاقات الكلمة مثل زكى ، ويزكون . وهذا دليل أكيد على أن « الزكاة » في القرآن مصطلح قرآني جديد جاء بمعنى متطور في دلالته عن المعنى الأصلي للكلمة . ولنقرأ معا آيات الله عز وجل :

قال تعالى :

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِكِينَ ^(٣)

وقال تعالى :

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَالِيَتِنَا يُؤْمِنُونَ ^(٤)

٣ - سورة البقرة ٤٣ .

٤ - سورة الأعراف ١٥٦ .

١ - سورة النور ٢١ .

٢ - سورة النساء ٤٩ .

وقال تعالى :

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١)

ومن الواضح أنه كلمة « الزكاة » اذا أطلقت الآن فانها لا تدل الا على المعنى الاصطلاحي الاسلامي ، وليس من شك أنها لم تكن معروفة في الجاهلية بهذا المعنى . لأن العرب في الجاهلية لم يعرفوا نظاما اقتصاديا محددًا . بل لم تكن لديهم طرق منظمة لجمع المال أو انفاقه . كانوا دائمي التنقل والترحال كلما ضاقت بهم ضائقة ، أو نبا بهم مكان ، أو جف لهم مرعى ، أو نضب لهم مورد . وكثيرا ما كانت تنشب بينهم الحروب ، وتشن عليهم الغارات ، سواء من بعضهم على بعض أو من أعدائهم المحيطين بهم عليهم . ولذا فإن المال الذي يكون اليوم ملكا لأحدهم قد يصبح غداة غد ملكا لرجل آخر استطاع أن يباغته بغزوة أو غارة . ولذا فإن المال كان عزيزا عليهم ، أثيرا عندهم . ولم يكن عندهم احساس بوجود الفقير أو المحروم ، بل أن يكون عندهم قانون يحميه أو يرهه

أما القرآن الكريم فقد حدد للناس نظاما اسلاميا شاملا كاملا في كيفية التعامل بالمال يقوم على قاعدة رئيسية أن المال كله لله ، وأن الانسان مستخلف فيه . وهذا الخليفة يجب أن يتصرف فيه بحسب أوامر من استخلفه في ماله . وبذلك يتصرف المسلم في مال الله وفق شرع الله . ومن أحكام الله عز وجل أنه جعل في مال الأغنياء حقا معلوما محددًا للفقراء والمساكين . وقد سمي هذا الحق « زكاة » لأن الذي ينفق من ماله في سبيل الله يكون قد زكى ماله ونماه . وساربه في طريق البركة ، وقد كرر القرآن هذه الحقيقة كلما ذكر الزكاة ، كذلك أكدتها الأحاديث النبوية الشريفة .

وقد اقترنت الزكاة بالصلاة — كما رأينا — في جل الآيات التي ورد فيها ذكرها . واعتقد أن هذه ملاحظة يجب أن تحظى ببحوث وافية من قبل المتخصصين تبين أن الصلاة — من وجهة اجتماعية سلوكية — ، وأن الزكاة — من وجهة اقتصادية — هما الدعامتان الأساسيتان في بناء المجتمع الإسلامي . ولأمر ما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما أرتد بعض الناس عن الاسلام ، بُعِثَ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وامتنعوا عن دفع الزكاة — قال : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

الصدق : الصديق : الصديق : الصدقة :

وقد جعلت الحديث عن هذه المصطلحات بعد حديث الزكاة نظرا للارتباط الشديد بين الزكاة وبين الصدقة . خاصة وأن الله عز وجل ذكر الزكاة بلفظ الصدقات جمع صدقة في قوله تعالى :

إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١)

وليس يعني هذا أن الزكاة والصدقة مترادفتان . بل يعني أن الزكاة بعض الصدقة . فكل زكاة صدقة وليس كل صدقة زكاة . لأن للزكاة شروطا وأحكاما يجدها من يريدتها مفصلة في كتب الفقه .

والصيغ السابقة كلها مأخوذة في الأصل من فعل واحد هو صَدَقَ .
وفي كتب اللغة صدق يصدق صَدَقًا وِصْدَقًا وتصادقا . والصدق نقيض الكذب .
وصدقه الحديث أنبأه بالصدق (٢) .

ومن أمثال العرب « الصدق ينبيء عنك لا الوعيد » ومنها أيضا « صدقني سنَّ بَكْرِهِ »
وهو مثل يضرب للصادق في خبره .

وقد اتسعت دائرة هذه الصفة حتى أطلقها الناس على الانسان وغير الانسان فقالوا :
رجل صدق . وسيف صدق . وثوب صدق . وخمار صدق . والرجل الصدق هو الثَّبَت عند
اللقاء . والجمع صُدُق . وقد صدق اللقاء صدقا . قال حسان بن ثابت (٣) :

صلى الاله على ابن عمرو انه صدق اللقاء وصدق ذلك أوفق
وقال خفاف بن ندبة في وصف فرس (٤) :
إذا ما استحمت أرضه من سمائه جرى وهو مودوعٌ وواعدٌ مَصْدُق

١ - سورة التوبة ٦٠ .

٢ - لسان العرب مادة صدق .

٣ - ديوان حسان بن ثابت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ٣٩٢ .

٤ - شعر خفاف بن ندبة السلمي ، تحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي ، مطبعة المعارف بغداد ، ١٩٦٨ ، ص ٣٣ .

وقال أبو قيس بن الأسلت السلمي في وصف حسام (١) :
صدق حسام وادق حده ومُخْنِلُ أسمر قرّاع

وقال كعب بن زهير في الحديث عن صلابته في القتال (٢) :
وفي الحلم ادهان وفي العفو دُرْسَةٌ وفي الصدق منجاة من الشر فاصدق
وهكذا صار الصدق بمعنى الأشياء المحمودة علاوة على معناه اللغوي وهو نقيض الكذب .
قال الخليل بن أحمد : الصَّدْقُ : الكامل من كل شيء .

واستعمال القرآن الكريم لكلمة الصدق يشبه استعمال العرب لها ، قال تعالى :

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣)

والصديق هو المصادق أي الذي يعامل غيره بالصدق ، وجمعه صدقاء وصدقان وأصدقاء
وأصادق ، قال عمار بن طارق (٤) :

فاعجل بغرب مثل غرب طارق يبذل للجيران والأصادق
ويمكن أن تأتي صديق بمعنى الجمع .
والصِّدِّيق هو الدائم التصديق . وهو أيضا الذي يصدق قوله بالفعل . ومؤنثه صديقة .

وقد استعمل القرآن الكريم مادة « صدق » وما يشتق منه في مئة وخمس وخمسين آية
منها مئة وثمانية وعشرون آية في المعاني السابقة . وهي المعاني المتصلة بالأصل اللغوي مثل
صدق وصدقت وصدقوا وصدَّق وصدَّق وصادقون وصادقين وصديق وصديقون وصديقة
وتصديق وما الى ذلك .

ورغم أن كلمة « الصِّدِّيق » تكاد تكون علما على سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في
التاريخ الاسلامي ، الا أن القرآن الكريم عندما استعملها بصيغة الجمع في قوله تعالى :

٥ - لسان العرب مادة صدق .

٢ - المرجع السابق ولم يرد البيت في ديوان كعب بن زهير .

٢ - سورة النمل ٢٧ .

٤ - لسان العرب مادة صدق .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١)

قد جعل منها درجة يمكن أن يصل إليها أي انسان يؤمن بربه ويصدق في إيمانه وعمله . وهذا لا ينفي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد تبوأ في الاسلام منزلة عالية تسمو الى رتبة الصحبة التي قررها الله عز وجل في قرآنه الكريم ، وأعظم بها درجة وأكرم بها صحبة . بقي بعد ذلك صيغة واحدة هي التي أصبحت بعد نزول القرآن مصطلحا اسلاميا شائعا وهي « الصدقة » . وهي فعلة من صدق . وجمعها الصدقات . والصدقة ما يعطيه الانسان في ذات الله للفقراء . والمتصدق هو الذي يعطي الصدقة . وذكر ابن الأنباري أنه جاء تصديق بمعنى سأل . وأنشد (٢) :

ولو أنهم رزقوا على أقدارهم للقيت أكثر من ترى يتصدق
ولكن حذاق النحويين — يقول الأزهري — ينكرون أن يقال للسان متصدق ولا يجوزونه ، ولكن صاحب اللسان يرى أنهما في المعنى سواء ، فالمعطى — كالسائل — كلاهما متصدق . وقد ذكرت الصدقة والصدقات والمتصدقين والمتصدقات في عدد من الآيات القرآنية ، منها قوله تعالى :

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ (٣)

وقوله تعالى :

يَمَحِّقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ (٤)

١ - سورة الحديد ١٩ .

٢ - لسان العرب مادة صدق .

٣ - سورة النساء ١١٤ .

٤ - سورة البقرة ٢٧٦ .

وقوله تعالى :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ
وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (١)

و يلاحظ أن الله عز وجل جمع في هذه الآية بين الصادقين والصادقات والمتصدقين والمتصدقات ، فجعل كلا منهما صفة مميزة عن الأخرى ، مما يدل على أن الصدقة — رغم أنها أخذت في أصل الاشتقاق من فعل الصدق — إلا أنها أصبحت صفة مميزة للمسلم ومتميزة في أخلاقه وسلوكه .

الصيام :

و يلحق به مصطلحات .

* رمضان :

* السحور والامساك والفتور :

* العاكفون :

ذكر الصيام في القرآن الكريم في أربع عشرة آية معظمها في سورة البقرة ، حيث شرع الصيام ، وحددت أحكامه . وفي سور أخرى ذكر على اعتبار أنه كفارة لبعض الذنوب ، أو على سبيل وصف المؤمنين والمؤمنات . والآية التي شرعت الصيام هي قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢)

١ - سورة الاحزاب ٣٥ .

٢ - سورة البقرة ١٨٣ .

وفي مجال الكفارة قال الله عز وجل :

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٠﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(١)

وفي وصف المؤمنين قال الله عز وجل :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِينَ وَالْقَنَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِينَ وَالصَّامَاتِ
وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ^(٢)

والصيام هو الركن الرابع من أركان الاسلام حسب ما ورد في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . وقد فرض في السنة الثانية للهجرة ، وصام النبي عليه السلام تسع رمضانات ^(٣) .

وقد فرض الصيام على الأمم السابقة كما يفهم من نص الآية الشريفة . وقد فصلت الدراسات الاسلامية كيفية الصيام عند الأمم الأخرى ، كالصوم في الديانة الهندية البرهمية ، والصوم عند المصريين القدماء ، وعند اليهود ، والنصارى ^(٤) .

١ - سورة المجادلة ٣- ٤ .

٢ - سورة الأحزاب ٣٥ .

٣ - الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة ، أبو الحسن علي الحسيني الندوي ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ،

١٩٦٧ ، ١٩٩٠ .

٤ - المرجع السابق ص ١٧١ وما بعدها .

والصوم في الشرع الاسلامي هو الامساك عن الأكل والشرب والجماع في وقت مخصوص ، وهو من طلوع الفجر الى غروب الشمس مع البينة (١) .

والصيام — من حيث الاشتقاق اللغوي — كلمة عربية معروفة متداولة . وكثيرا ما وردت على ألسنة الشعراء قبل نزول القرآن الكريم . والأصل اللغوي فيه الامساك عن الحركة . فكل شيء سكنت حركته فقد صام . والخيل الساكنة خيل صائمة . قال النابغة (٢) :

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وخيل تعلقك اللجما
وفي هذا المعنى يقول أبو دؤاد الايادي (٣) :

فأرئى طارداً وملتقط بيضا وخيلٌ تعدو وأخرى صيام
وفي الحكم : صام الفرس عن آريه صوما وصياما اذا لم يعتلف . وقيل الصائم من الخيل الساكن الذي لا يطعم شيئا .

وقد تطور هذا المعنى الى عدة معان مجازية منها معنى الامتناع . وقد وصف لبيد بن ربيعة عيرا وأثانا صاما بعضهما عن بعض طيلة مدة الشتاء بقوله (٤) :

حتى اذا سلخا جهادي ستة جزأ فطال صيامه وصيامها
ويقال صام النهار وصامت الشمس صارت في كبد السماء . كأنها وقفت في منتصف السماء . ويقال جثته والشمس في مصامها . قال الشماخ (٥) :

جنوب وان صامت عليها وديعة من الحر إن يطبخ بها النوى ينضج
وقال أرتاة بن سهية المري (٦) :

فلو أن ما نعطي من المال نبتغي به الحمد يعطى مثله زاهر البحر
لظلت قراقرص صياما بظاهر من الضحل كانت قبل في لجج خضر

١ - تفسير الخازن ج ١ ص ١٢٨ .

٢ - ديوان النابغة ، ص ٢٤٠ .

٣ - الأصمعيات ص ١٨٩ .

٤ - شرح المعلقات السبع ص ١٠٧ .

٥ - أساس البلاغة مادة صام . ولم يذكر البيت في ديوان الشماخ تحقيق د . صلاح الدين الهادي .

٦ - الحماسة ٢/ ٤٢٨ .

وقال زيد الفوارس بن حصين بن ضرار (١):

وراكدة عندي طويلٌ صيامها قَسَمْتُ عَلَى ضَوْءٍ مِنَ النَّارِ مُبْصِرٍ
طُروقا فلم أفحش وَقَسَمْتُ لِحَمَاهَا إِذَا اجْتَنَبَ الْعَافُونَ نَارَ الْعَذْوَرِ
هذا الشواهد كلها تدل على أن الصيام تطور أولا من معناه اللغوي وهو السكون والثبات الى المعنى المجازي وهو الانقطاع عن النكاح أو الأكل والشرب .

ولم يكن الصيام — بمعناه الاسلامي — معروفا في العصر الجاهلي ، وهو لم ينتشر الا بعد نزول القرآن الكريم ، وفرض الصيام على المسلمين . وبعدها صار الصيام مصطلحا اسلاميا خاصا بمعنى محدد في شهر معين هو شهر رمضان .

رمضان :

رمضان من الأسماء السيتارة في الاسلام . وهو شهر الصيام المعروف . وشهرة رمضان من شهرة الصيام . وقد ورد ذكر رمضان في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى :

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنْ هُدًى
وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢)

وقد أجمعت كتب الدراسات الاسلامية على أن الحكمة في تخصيص هذا الشهر بهذه العبادة أنه الشهر الذي نزل فيه القرآن الكريم (٣) . يقول الشيخ أبو الحسن الندوي تحت عنوان : لماذا خص رمضان بالصوم : « وجعل الله الصوم في رمضان ، فجعل أحدهما مقرونا بالآخر ، مرتبطا به ، فذلك قران السعدين ، والتقاء السعادتين في حكمة التشريع . وذلك لأن رمضان قد أنزل فيه القرآن ، فكان مطلع الصبح الصادق في ليل الانسانية الغاسق . فحسن أن يقرن هذا الشهر بالصوم كما يقتزن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم (٤) .

١ - الحماسة ٤٣٨/٢ .

٢ - سورة البقرة ١٨٥ .

٣ - تفسير المنارج ٣ ص ١٥٨ .

٤ - الأركان الأربعة ١٩٦ .

وقد حاول العلماء أن يجدوا الصلة بين رمضان وبين الصيام . وأن يفسروا معنى كلمة «رمضان» والعلاقة بين هذا المعنى وبين الصوم . وسوف أعرض بعض آرائهم بعد بيان معنى كلمة رمضان من حيث الأصل اللغوي .

والرمض والرمضاء هو شدة الحر . والرمض أيضا حر الحجارة من شدة حر الشمس . وهو أيضا شدة وقع الشمس على الرمل وغيره (١) . وهو من رمض يرمض رَمْضاً . ورمض الانسان رمضا مضى على الرمضاء . والرمض مصدر قولنا رمض يرمض اذا احترقت الاقدام من شدة الحر . قال الشاعر في ذلك (٢) :

فهن معترضات والحصى رمض والريح ساكنة والظل معتدل
وقال طرفة (٣) :

ألا أبلغا بكر العراق بن وائل بكأس سقى النصري شاربها رَمْضٍ
وفي هذا المعنى أخذ مفهوم « الترمض » عند العرب ، وهو صيد الظبي وقت الهاجرة يتبعونه حتى اذا تفسخت أقدامه من شدة الحر أخذوه (٤) .

وعن هذا المعنى اللغوي انتشر المعنى المجازي الذي يقال فيه أرمض فلان فلانا اذا آذاه أو ظلمه . قال أبو عمرو : الارماض كل ما أوجع . ويقال أرمض فلان أخاه اذا أوجعه . من ذلك ما أنشده ابن بري (٥) :

إن أُحْيَا مات من غير مَرَضٍ
وَوُجِدَ في مَرْمِضِهِ حيث ارتمض
عساقِلُ وَجِبَاءٍ فيها قَضَضُ

ذلك هو المعنى اللغوي لكلمة رمض . وقد اجتهد المفسرون في محاولة إيجاد الصلة بين —رمضان— بهذا المعنى وبين الصوم . لم كان الصيام في رمضان ؟ ورمضان معناه الشدة والقسوة ، والصيام عبادة فيها العفو والمغفرة ؟ قال الفراء : شهر رمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض اذا حَرَّ جوفه من شدة العطش (٦) . وفي حاشية العلامة الصاوي : رمضان

١ - لسان العرب مادة رمض .

٢ - المرجع السابق .

٣ - ديوان طرفة ، ص ٢٠٦ .

٤ - أساس البلاغة مادة رمض .

٥ - لسان العرب مادة رمض .

٦ - المرجع السابق .

من الاحراق وجعل الصوم فيه لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها (١) . وقد تعددت الأقوال بين هذين الرأيين .

وأعتقد أن الربط بين رمضان وبين تكفير الذنوب وحرق السيئات هو أقرب الى حقيقة الدعوة الاسلامية وروحها . وأنسب في مواجهة النفس البشرية . فالإنسان يميل بفطرته الى نيل المكافأة عما يعمل ، وينزع الى السمو عن الدرجة التي هو عليها بعمل صالح يقوم به . فمن الطبيعي أن ينتظر الصائم المكافأة على صيامه . وأن ينتظر زيادة على ذلك التخلص مما يكون قد وقع فيه من مآزق . وقد تضافرت الأحاديث النبوية الشريفة تبشر الصائم بثواب صيامه أولاً ثم تتسامى به الى أن تعتقه من ذنوبه ثانياً . وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها الى سبعمئة ضعف ، قال تعالى : الا الصوم فانه لي وأنا أجزي به » (٢) . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » (٣) .

فاذا كان هذا أمر الصائم فانه لابد من الربط بين رمضان وبين حرق السيئات . ذلك أن رمضان يطهر الانسان من كل أفعاله السيئة . ويخرجه مبرأ من ذنوبه ، وربما جعله عتيقا من النار . أما المعاني الأخرى التي ارتآها بعض المفسرين من كون رمضان يحرق جوف الصائم من العطش أو من شدة الحر فهو أمر بعيد عن روح العقيدة ، علاوة على أنه غير ثابت ، لأن رمضان ينتقل خلال فصول السنة فيكون مرة في الشتاء ومرة في الصيف ، تطول أيامه تارة ، وتقصّر تارة أخرى حسب حكمة الله وبديع نظامه في اختلاف الليل والنهار . وحركة الشمس والأرض والقمر ، ذلك تقدير العزيز العليم . وينبغي أن نشهد هنا بكمال هذا الخلق ، وهذا النظام الالهي العجيب . ولكن شدة ألفة الناس لكرور الأيام ، وتوالي الليل والنهار ، أنساهم أعظم آية وأدلها على وجود الله ، وعلى بديع صنعه وعظيم حكمته وقدرته . وصدق الله العظيم «

وَكَايِّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (٤)

١ - حاشية العلامة الصاوي ج ١ ص ٨٣ .

٢ - صحيح البخاري ، طبعة الشعب ، ١٣٧٨ ، ج ١ ص ١٦ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - سورة يوسف ١٠٥ .

ومهما يكن من أمر، فقد صار رمضان، عندما شرفه الله بالصيام، أعز الشهور عند المسلمين. وصار بعد ذلك مصطلحا اسلاميا جديدا من المصطلحات الكثيرة التي صنعها القرآن الكريم.

السحور. الامساك. الفطور:

هذه ثلاثة مصطلحات اسلامية لم ترد في القرآن الكريم بلفظها الصريح. انما وردت بمعناها. وقد بينتها السنة النبوية الشريفة في معرض تشريع الصيام وأحكامه.

والسحور هو الطعام الذي يتناوله المسلم وقت السحر، قبيل أذان الفجر. وقد أخذ اسمه من الوقت الذي يتناول فيه. وهو وقت السحر. وقد حث عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « تسحروا فان في السحور بركة » (١) وقال عليه السلام « استعينوا بطعام السحر على صيام النهار وبالقيولة على قيام الليل » (٢).

ومن الواضح أن السحور بمعناه الاسلامي هذا لم يرد في الشعر الجاهلي. لأن أحكام الصيام، كما هي في القرآن والسنة، لم تكن قد عرفت في العصر الجاهلي. ولأن الجاهليين حرفوا ما كان وصل اليهم من بعض الأحكام الدينية الموروثة من شريعة ابراهيم عليه السلام. ولم يرو في كتب التاريخ والأدب أن الجاهليين عرفوا الصيام. وانما ورد ذكر السحر على أنه آخر الليل قبيل الصبح. وجمعه أسحار. يقال لقيته بسحرة ولقيته سحرة. ولقيته سحرا وسحروا. وأسحروا صاروا في السحر. وأسحروا واستحروا خرجوا في السحر. قال زهير (٣):

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادي الرس كاليد للقم
واستحر الطائر غرد بالسحر. قال امرؤ القيس (٤):

كأن المدام وصبو الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعمل به برد أنيابها اذا طرب الطائر المستحمر
وقال أبو ذؤيب (٥):

١ - التاج الجامع للأصول ج ٢ ص ٥٤.

٢ - المرجع السابق ص ٥٥.

٣ - شرح المعلقة السبع ص ٨١.

٤ - ديوان امرؤ القيس، ص ١٥٧ - ١٥٨.

٥ - ديوان الهذليين ١/١٥١.

وبابنِي قُبَيْسٍ وَلَمْ يُكَلِّمَا الى أن يضيءَ عَمُودُ السَّحَرِ
ومن هنا كانت العلاقة بين مفهوم السحر في الشعر الجاهلي وبين مفهومه في الشريعة
الاسلامية علاقة شديدة بوقت حدوثه فقط .

والامساك — في مفهومه الاسلامي — هو الانقطاع عن الطعام والشراب والنكاح من
أذان الفجر حتى بداية الليل عند أذان المغرب . وقد حدد القرآن الكريم وقته في قوله تعالى :

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ
مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ (١)

والامساك لغة من الفعل مسك بالشيء وأمسك به وتمسك وتماسك واستمسك ومسك كله
بمعنى احتبس . والتمسك هو الاستمسك بالشيء . ويقال أيضا امتسكت به .

وأمسكت عن الكلام أي سكت . وأمسك بالشيء أي حبسه . ومن ذلك قال رجل
مسيك ومسكة أي بخيل . والمسيك مبالغة في البخل . وفي حديث هند بنت عتبة أن أبا
سفيان رجل مسيك . ومساك ومساك ومساكة وأمساك كل ذلك من البخل . قال ابن بري
المساك الاسم من الامساك . وفي أقوال العرب « بيننا ماسكة رحم » أي ماسة رحم
وواشجة رحم (٢) .

وواضح أن الامساك — في مفهومه الاسلامي — متطور عن المعنى اللغوي للكلمة . وأن
دلالتة الجديدة قد خصصها القرآن الكريم بعد أن فرض علينا الصيام في شهر رمضان
المبارك .

والفطور هو انهاء الصيام بتناول الطعام أو الشراب عند بداية الليل . والفطور هو الطعام
الذي يفطر عليه الصائم . وهو مأخوذ من فطر الشيء يفطره فطرا إذا شقه . وتفطر الشيء
تشقق . والفطر الشق . وجمعه فطور . وأنشد ثعلب (٣) :

شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ دَرَرَتْ فِيهِ هَوَاكَ ، فليَم ، فالتام الفطور
ومنه — قالوا — أخذ فطر الصائم لأنه يفتح فاه (٤) .

١ - سورة البقرة ١٨٧ .

٢ - لسان العرب مادة مسك .

٣ - لسان العرب مادة فطر .

٤ - المرجع السابق .

ولم يرد الفطور بمعناه الاسلامي في الشعر الجاهلي .

العاكفون :

العاكفون جمع عاكف . وهو اسم الفاعل من عكف على الشيء يعكف ويعكف عكفاً وعكوفاً . بمعنى أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه . وعكفه عن حاجته يعكفه ويعكفه عكفاً صرفه وحبسه . ويقال أنه ليعكفني عن حاجتي يصرفني عنها (١) . قال الأعشى في هذا المعنى (٢) :

وكان السموط عكفها السلك يعظفني جيداً أم غزال

والاعتكاف والعكوف أخذ معنى الإقامة على الشيء في المكان المحدد أي بمعنى الاحتباس . والعكوف هم القوم المقيمون . قال أبو ذؤيب يصف الأثافي (٣) :

فهنَّ عكوف كنوح الكر يم قد شَفَّ أكبادهنَّ الهوي
وقال الأعشى (٤) :

وردت على سعد بن قيس ناقتي ولما بها
فاذا عبيد عكف مُسْكٌ على أنصابها
ولكن الاعتكاف اتخذ معنى اصطلاحياً بعد نزول القرآن الكريم . قال تعالى :

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ آبَائِهِمْ وَاسْتَمْعِلْ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٥)

وقال تعالى :

ثُمَّ آمَنُوا الصَّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا (٦)

١ - لسان العرب مادة عكف .

٢ - ديوان الأعشى ص ٤١ .

٣ - ديوان المذليين ، القسم الأول ص ٦٧ .

٤ - ديوان الأعشى ص ٢٩٣ .

٥ - سورة البقرة ١٢٥ .

٦ - سورة البقرة ١٨٧ .

والاعتكاف في الاسلام هو لبث المسلم العاقل في المسجد بالنية (١) . وقد روى في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم اعتكف العشر الأواسط من رمضان ثم اعتكف العشر الأواخر حتى توفاه الله تعالى (٢) . وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اعتكف يدني اليّ رأسه فأرجله ، وكان لا يدخل البيت الا لحاجة الانسان » (٣) .

والاعتكاف في الاسلام ملازم للصيام كما تدل الآية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة . وبهذا قال مالك رضي الله عنه : « وعلم ذلك الأمر عندنا أنه لا اعتكاف الا بصيام » (٤) .

وواضح مما سبق أن الاعتكاف في اللغة هو الاحتباس أو الإقامة في أي مكان لأية غاية . ولكن القرآن الكريم خصص المكان والغاية ، فصار الاعتكاف في المساجد يقصد العبادة وبخاصة في رمضان شهر الصيام . وهذا هو التطور الدلالي الذي أصاب الكلمة ، فصارت دلالة خاصة بعد أن كانت عامة في استعمال الشعر الجاهلي .

الحج ، ويلحق به مصطلحات :

- العمرة ،
- الكعبة ،
- الاستطاعة ،
- الميقات ،
- الاحرام ،
- التسك ، والمناسك ،
- الطواف والسعي ،
- الافاضة ،
- عرفات ،
- المشعر الحرام ،

١ - صحيح البخاري بشرح الكرمانجي ج ٩ ص ١٦٣ .

٢ - المرجع السابق ج ٩ ص ١٦٤ .

٣ - تنوير الحوالك ج ١ ص ٢٣٠ .

٤ - تنوير الحوالك ج ١ ص ٢٣٠ .

الحج :

أصل الحج هو القصد . حجة يحجه حجا قصده . وحجبت فلانا واعتمدته أي قصده .
ويقال رجل محجوج أي مقصود . وحج بنو فلان فلانا اذا أطالوا الاختلاف اليه (١) . قال
المخبل السعدي (٢) :

وأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سبَّ الزبرقان المزعفر
وقد تطور معنى القصد حتى صار يشمل قصد أي شيء . وصارت كلمة المحجة تطلق على
المكان المقصود . وصار الهدف الذي يبتغيه المرء من عمله يعتبر محجا له . ومن ذلك ما ورد
في جمهرة اللغة من حج العظم يحجه حجا اذا قصد الطبيب الوصول اليه لمعالجته أو
استخراجه . قال أبو ذؤيب الهذلي (٣) :

وَصُبَّ عليها الطَّيْبُ حتى كأنها أَسِيٌّ على أم الدماغ حجيج
وقال عذار بن درة الطائي يصف طبيبا يداوي ضربة أو شجرة بعيدة العقر، فهو يجزع من
هولها فالذي يتساقط من استه كالمغاريذ وهي الكمأة الصغار السود (٤) :

يحج مأمومة في قعرها لجف فاست الطبيب قذاها كالمغاريذ
والمحجاج هو المسبار الذي يستعمله الطبيب . وحجاجا الجبل جانباه . قال الشاعر (٥) :

عجنا اليك فرارا من محجلة عصم القوائم أمثال الزناير
كأن أصواتها والريح ساكنة بين الحجاجين أصوات الطنابير

ويبدو أن معنى الكلمة بدأ يتخصص بالقصد الى عظيم . أو القيام بأمر كبير . ولم
يكن في العصر الجاهلي أمر أهم وأعظم من زيارة الكعبة والطواف حولها . واحترام الكعبة
وتقديس العرب لها أمر قد تقرر عبر العصور منذ عهد ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما
السلام . وليس من شك أن تقديسهم للكعبة كان مختلطا بعقائد مشوشة ومشوهة كانوا

١ - أساس البلاغة ولسان العرب مادة حج .

٢ - المرجع السابق .

٣ - ديوان الهذليين القسم الأول ص ٥٨ .

٤ - جمهرة اللغة مادة حج .

٥ - أساس البلاغة مادة حج .

يدينون بها . فبعضهم بل أكثرهم كان يأتي الى الكعبة ليطوف حول ما فيها من أنصاب وأوثان وأصنام . وقد سبق أن بينت نشأة عبادة الأوثان في العصر الجاهلي وسبب نصب الأوثان والاصنام في فناء الكعبة (١) .

ولما وليت قريش أمر الكعبة ، عملت على الاستفادة من هذه الاصنام فنقلتها الى الكعبة ، وجعلتها في فنائها حتى قيل ان عدد الاصنام في فناء الكعبة زاد على ثلاثماية صنم . ولما كانت القبائل تأتي الى مكة لزيارة الكعبة والطواف حولها وعبادة ما فيها من أصنام ، فقد استغل زعماء قريش هذه العقيدة أحسن استغلال فأنشأوا ما سمي بالسقاية والرفادة والسدانة ، وهي كلها أمور أقيمت لخدمة الحجيج والسهر على راحتهم (٢) .

والشواهد التالية تبين أنهم كانوا يحجون كل عام حتى سمو العام حجة ، من ذلك قول النابغة (٣) :

فلا لَعْمُرُ الذي قد زرتَه حججاً وما هريق على الأنصاب من جسد
وقال هو أيضاً (٤) :

فلا عَمُرُ الذي الذي أثني عليه وما رَفَعَ الحجيجُ الى إلال
وقال اختار العرب في البداية أربعة أشهر جعلوها حرماً هي شهور ذي الحجة - الذي كانوا يحجون فيه - والذي قبله والذي بعده . وشهر رجب الأصم أي الذي لا تسمع فيه قعقة السلاح . ولكنهم عندما رأوا أن هذه الأشهر تختلف خلال مرور السنوات من فصل الى فصل ، ومن مناخ الى مناخ ، رأوا أن يثبتوا موسم الحج حسب ما يوافق مصالحهم التي أملت عليها عليهم ظروف البيئة فابتدعوا ما سمي بالنسيء (٥) . وتعليله القريب أن المكين أرادوا أن تقع مواسم الحج والأعياد والأسواق في فصل الشتاء وطرف من الربيع وطرف من الخريف ليحتفظوا بحلول المواسم في الوقت الذي يرغبونه . ولم يختار المكين هذا الوقت من العام عبثاً ، ولم يفضلوه على غيره لطيب هوائه أو خفة حرارة القيظ على الوافدين ، انما اختاروه لأنه الوقت الذي يكون فيه الأدم والثمرات وغيرها من الانتاج الزراعي والبضائع

١ - يراجع فصل العبادة مبحث الاوثان والاصنام ، ومبحث الحنيفة .

٢ - السيرة النبوية لابن هشام ، البابي الحلبي ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٥ ، القسم الأول ، ص ١٣٥ .

٣ - ديوان النابغة ، ص ٢٥ .

٤ - ديوان النابغة ، ص ١٥١ .

٥ - سوف يرد مبحث النسيء في فصل « الجهاد والسلوك والطبائع » بالتفصيل .

معدة في الأسواق مما يحقق الفائدة لبدو الجزيرة العربية الذين يعتمدون على التجارة في حياتهم الاقتصادية وفي موارد حياتهم (١) . وقد أصبح من عادة العرب أن يأتوا كل عام مرة الى مكة المكرمة لعدة غايات أهمها زيارة الكعبة وعبادة الأصنام المنصوبة فيها ثم لشهود الأسواق الأدبية والتجارية التي تعقد في تلك المناسبة الحافلة .

ومن هنا حملت كلمة الحج معنى زيارة البيت الحرام . وكان العرب يحجون البيت مرة كل عام . ولذلك سمو السنة حجة . قال سلامة بن جندل (٢) :

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا حِجَّتَيْنِ عَلَيْكُمْ وما يشأ الرحمن يَعْقِدُ وَيُطْلِقُ
وقال بشامة الغدير (٣) :
دَرَسْتُ وَقَدْ بَقِيَْتُ عَلَى حَجِّج بعد الأنيس ، عَفَوْتُهَا ، سَبْع
وقال زهير (٤) :

وقفتُ بها من بعد عشرين حجةً فلأياً عرفتُ الدار بعد توهم
وليد بن أبي ربيعة (٥) :
دِمْنُ تَجَرُّمٍ بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها
والحج هم جماعة الحجاج . قال الشاعر في أصواتهم وهم يغذون السير نحو البيت الحرام (٦) :

كأنا أصواتها بالوادي أصوات حج من عُمان غادي
 واحتج البيت بمعنى حجه (٧) : قال الشاعر:
تركنت احتجاج البيت حتى تظاهرت عليّ ذنوبٌ بعدهنّ ذنوبٌ .
ويفهم من هذا البيت الأخير أن العرب كانوا يدركون أن في الحج معنى تكفير الذنوب ، وهو المعنى الذي عرف للكلمة في دلالتها الإسلامية فيما بعد . ولكن الجاهليين

١ - انظر الكعبة على مر العصور ص ٥٢ .

٢ - الأصمعيات ص ١٣٦ .

٣ - المفضليات ٤٠٧ .

٤ - ديوان زهير ص ٧٥ .

٥ - شرح المعلقات السبع ص ٩٧ .

٦ - لسان العرب مادة حج .

٧ - المرجع السابق .

لم يتوجهوا الى الله عز وجل بحجّهم ، انما كانوا يحجون أصناما أقاموها ، تقرّبهم — في ظنهم الخاطيء — الى الله زلفى .

وقد ورد الفعل حج وما اتصل به في ثلاث عشرة آية في القرآن الكريم ، منها تسع آيات وردت فيها صيغة « الحج » وآية واحدة لكل من الصيغ « حَجَّ » و « حَجَّجَ » بكسر الحاء ، والحاج جمع حاج أي الحجيج وحجج جمع حجة . والحج في الاسلام هو التوجه الى مكة المكرمة في أيام محددة ما بين الثامن والثاني عشر أو الثالث عشر من شهر ذي الحجة من كل عام ، على المسلم المستطيع ماديا وبدنيا فريضة مرة في العمر ، وهو في بعض الحكمة المستمدة منه تعظيم وتخليد لشريعة سيدنا ابراهيم عليه السلام ، قال تعالى :

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٥﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ
ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ^(١)

وهذا الأمر الالهي الواضح في الآية السابقة ، ان هو الا استجابة الله عز وجل لدعاء ابراهيم عليه السلام

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ
الْثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ^(٢)

وعلى هذا فان هناك اختلافا بين مفهوم الحج في الاسلام وبين مفهومه الجاهلي وان كانت وجهة الحج واحدة في الحالتين . فالحج في الاسلام هو عبادة الله وحده ، وهو من أركان الدين ، وهو محدد في مكانه وزمانه . وله آداب معينه ومناسك معروفة لا بد من التزام المسلم بها ليكون حجّه صحيحا غير فاسد . على حين أن هذه الشروط كلها غير معروفة في

١ - سورة الحج ٢٦ - ٢٧ .

٢ - سورة ابراهيم ٣٧ .

الحج بمعناه الجاهلي . ومن هنا يمكن القول إن القرآن الكريم قد خصص دلالة الكلمة وأعطاهما مفهوما جديدا لم تكن الكلمة تحمله أو تعنيه في الشعر الجاهلي .

العمرة :

ذكرت العمرة بهذه الصيغة ذاتها مرتين في القرآن الكريم ، كلتاها في آية واحدة هي قوله تعالى :

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١)

وذكر الفعل اعتمر مرة واحدة في قوله تعالى :

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (٢)

على حين ورد الفعل عمر . ويعمر وعمروها ومشتقات أخرى من هذه المادة اللغوية في أربع وعشرين آية أخرى .

ويؤكد نص الآيتين السابقتين أن الحج غير العمرة . وقد تعرضنا قبل قليل لمعنى الحج في العصر الجاهلي وفي القرآن . وسوف نعرض الآن لمعنى العمرة في الجاهلية أولا ثم نتعرف معناها في القرآن الكريم .

ذكرت معاجم اللغة أن العُمَر والعُمُر والعُمَر هو الحياة . والجمع أعمار وهو من الفعل عمر بمعنى أبقى . وعمره الله أبقاه . ومنه المُعَمَّر .

١ - سورة البقرة ١٩٦ .

٢ - سورة البقرة ١٥٨ .

والعمرة — في معاجم اللغة — هي الزيارة . مأخوذة من الاعتمار بمعنى الزيارة . وجمع العمرة عُمر . واعتمر الرجل فلانا بمعنى زاره . ويقال أتانا فلان معتمرا أي زائرا (١) . ومنه قول أعشى باهلة (٢) :

وجاشت النفس لما جاء جَمْعُهُمْ وراكبٌ جاء من تشليث معتمر
ويقال للاعتمار أيضا القصد . واعتمر الأمر أمه وقصد له . قال العجاج (٣) :

لقد غزا ابن معمر حين اعتمر
مغزى بعيدا من بعيد وضبر

وقد وجدتُ فيما قرأته من دواوين الشعر الجاهلي ، شاهدا واحداً عن العمرة بهذه الصيغة ذاتها يدل على أنهم كانوا يدركون أن المقصود بها زيارة البيت الحرام . ذلكم هو قول أحد رجال بني زبيد : (٤)

يا آلَ فُهرٍ لمظلمٍ بضاعتُهُ ببطن مكة نائي الدار والتَّفر
ومُحَرِّمٍ شَعِثٍ لم يقضِ عُمرَتَهُ يا للرجالِ وبين الحَجَرِ والحَجَرِ
وفيما عدا ذلك وجدتُ أبياتا تذكر «المعتمر» و«عمارا» بمعنى زيارة البيت دون تحديد ، ودون ذكر البيت الحرام صراحة ، ولكن يمكن أن يستدل على ذلك من السياق .
ومن ذلك أيضا قول متمم بن نويرة (٥) :

يهلون عمارا اذا ما تغوروا ولاقوا قريشا خبروها فأنجدوا
والدليل هنا كلمة «يهلون» وكلمة «قريشا» لأن قريشا هي القبيلة المشرفة على مكة ومقدساتها ، وكذلك كلمة عمارا لأن العمار جمع عَمَار وهي صفة للرجل كثير الصلاة كثير الصيام .

ومن هنا نستدل على أن الاعتمار في الشعر الجاهلي لم يتجاوز زيارة البيت الحرام ، ولكن لم تذكر له شروط محددة ، أو صفات مميزة . كما عرفت من بعد في المعنى الاسلامي .

١ - لسان العرب مادة عمر ،

٢ - الأصمعيات ص ٨٨ .

٣ - لسان العرب مادة عمر . أي حين قصد مغزى بعيدا جمع قوائمه ليثب . وديوان العجاج رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي ، دار الشرق ، بيروت ص ٥٠ .

٤ - انظر قصة هذا الرجل في كتاب الأوائل ص ٤٦ . وسوف ترد بعد قليل في ص ٢٣٩ .

٥ - الأصمعيات ص ٩٢ .

والعمرة في المفهوم الاسلامي تشبه الحج في كونها زيارة الكعبة والطواف حولها . ولكن السنة النبوية الشريفة فرقت بين العمرة والحج في المناسك أولا وفي الزمن الذي يؤدي فيه كل منهما ثانيا . فمناسك العمرة أقل عددا من مناسك الحج . فليس في العمرة وقوف بعرفة ولا مبيت بمزدلفة ولا رمي جاربمئي ولا طواف افاضة بمكة (١) . انما العمرة طواف حول البيت عند القدوم سبعة أشواط ، ثم سعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، ثم حلق أو تقصير وبعدها يحل المحرم إحرامه وتنتهى مناسك العمرة . والعمرة تكون في كل أيام السنة ، أما الحج فله وقت محدد معلوم :

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ (٢)

وقد سبق بيان وقت الحج . قال الزجاج : معنى العمرة في العمل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة فقط . والفرق بين الحج والعمرة أن العمرة تكون للانسان في السنة كلها ، والحج وقت واحد في السنة (٣) .

ويمكن الربط بين العمرة بهذا المعنى وبين أصل المادة اللغوية . فقد ذكرت المعاجم اللغوية أن عَمَرَ تحمل معنى العبادة أيضا بجانب الزيارة . قال الزمخشري أن معنى عَمَرَ الله عبده وعَمَرَ فلان ركعتين اذا صلاهما (٤) . وكذلك حكى ابن الاعرابي : عَمَرَ ربه عبده ، وانه لعامر لربه أي عابد . وحكى اللحياني عن الكسائي : تركته يعمر ربه أي يعبده (٥) . ومنه رجل عَمَّار أي كثير الصلاة والصيام .

وهذا يدل على أن القرآن الكريم ربط بين العمرة بمعنى الزيارة وبين مفهوم العبادة في هذه الكلمة . فصارت العمرة عبادة في الاسلام . وهي فرض على المسلم المستطيع مرة واحدة في العمر . وفي الحديث الشريف « عمرة في رمضان تعدل حجة » (٦) وهذا في سبيل الترغيب اليها .

١ - تفسير المنارج ٢ ص ٤٥ .

٢ - سورة البقرة ١٩٧ .

٣ - لسان العرب مادة عمر .

٤ - أساس البلاغة مادة عمر .

٥ - لسان العرب مادة عمر .

٦ - سنن الترمذي رقم ٩٣٩ ، وسنن ابن ماجه رقم ٢٩٩١ .

و يبدو من كل ما سبق أن مفهوم العمرة في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم يكاد يكون متشابها ، لولا أن القرآن الكريم قد خصصها لعبادة الله عز وجل ، وأن السنة النبوية الشريفة قد هذبته وحددت هيأتها ، بعد أن كانت بغير حدود وشروط في العصر الجاهلي .

الكعبة :

هي مقصد الحجاج والمعتمرين . وقد أخذت اسمها من شكلها الهندسي ، فكل بناء مربع في لغة العرب فهو كعبة (١) . وكعبت الشيء ربعته . والكعبة البيت المربع وجمعه كعاب . والكعبة هي البيت الحرام لتكعيبها أي تربيعها وسمي كعبة لارتفاعه وتربعه (٢) .

والكعبة اسم عربي صميم ، وإن كان بعض الباحثين يرى أنها ربما أخذت من اللغة الرومية أو اللغة الحبشية . وقد ناقش الاستاذ عباس العقاد هذه القضية في كتابه « مطلع النور » في فصل بعنوان « اسم الكعبة » قال فيه : « وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تفسير اسم الكعبة . فقال بعضهم أنها كانت كلمة رومية أطلقت على كعبة مكة لتكعيبها . وأن بناءً من الروم عمل في بنائها وهندستها فاستعير اسمها من اللغة الرومية . وقيل بل كان بنّاؤها من الحبشة . ومنها — أي من الحبشة — عرف العرب بناء هذه المعابد وأمثالها لأنهم أمة خيام لم تتأصل فيهم صناعة البناء . وهؤلاء المؤرخون وأشباههم يتشبثون بالفرع و يعلقون الأصل بجذوعه وجذوره عليه » .

« فمهما يكن من لغة البناء الرومي أو الحبشي . فالقبائل العربية لم تبني تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش ، ولم ترد أن تنشئ لها بيتا يسمى الكعبة أو المكعبة في اللغة الرومية وإنما وجدت الحاجة الى البيت الحرام ثم وجدت الوسيلة الى تلك الغاية . ولن نعرف أن معبداً سمى بشكله أو كان له شكل غير أشكال الأبنية التي يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة . وليست مادة كعب بالغربية عن اللغة العربية ، لأنهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة ، ويسمون الفتاة كاعبا اذا كعب ثدياها . ويلعبون بالكعوب ، ويتسلحون بالرماح وهي من القصب أو من الأتنية ، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت في لغتهم الى القانون وهو العصا التي تتخذ للقياس » (٣) .

١ - فقه اللغة وأسرار العربية ، أبو منصور الثعالبي . المكتبة التجارية الكبرى ، ص ٣٠ .

٢ - لسان العرب مادة كعب .

٣ - مطلع النور ، عباس محمود العقاد ، كتاب الهلال ، العدد ٢٢٩ ، مارس ١٩٧٠ ، ص ١٣٣ .

لقد حرص الاستاذ العقاد في هذا النص أن يؤكد عروبة أصل كلمة الكعبة ، ولم يهتم كثيرا بكون الكعبة أخذت اسمها من شكلها أو من غيره . وأرى — معه — أن الكعبة اسم عربي ، وقد اشتق اسمها من مادة لغوية معروفة متداولة . وأوضح ما يربط بين الكعبة واللغة ما هو معروف من عادة العرب في قولهم لكل عظيم أنه عالي الكعب . وفي دعائهم أعلى الله كعبه أي أعلى جده وشرفه ، وفي ذلك قال شاعرهم (١) :

لما علا كعبك بي عليت

وفي ذلك يقول الأعشى (٢) :

فأرى من عصاك أصبح مخذولا وكعب الذي يطيعك عال
وقد عرف العرب كذلك الكعاب جمع كعبة وكانوا يطلقونها على فصوص النرد وهي حجارة صغيرة مربعة يلعب بها واحدتها كعبة أو كعب . وفي الحديث الشريف أنه عليه السلام كان يكره الضرب بالكعاب . وقد حرم عليه السلام لعبها ، وكرهها الصحابة لعلمهم بالحديث الشريف « لا يقلب كعباتها أحد ينتظر ما تجيء به إلا لم يرح رائحة الجنة » (٣) وحقيقة قد يكون أصل هذه اللعبة فارسيا ، ولكن لا يعني أن الكعاب اسم فارسي بل هو اسم عربي أطلق على تلك الحجارة المربعة التي كان الناس يلعبون بها .

وذكر هذه الكلمات في الشعر الجاهلي يدل على أن الكلمة لفظة عربية . وأن الكعبة اسم عربي أطلقوه على هذا البناء لمكانته السامية في نفوسهم وتعظيمهم له .

وقد عرف العرب عدة كعبات كانوا يعتقدون أنها بيوت الله ، أو البيت الحرام ، وكان منها في الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة . وهي بيت الأقيصر وبيت ذي الخلصة وبيت صنعاء وبيت رضاء ، وبيت نجران ، وبيت مكة أشهرها ، وأبقاها ، عدا بعض البيوت الصغار التي يعرفها الرحالون ولا تقصد من مكان بعيد (٤) .

وبيت الأقيصر هو الذي عناه زهير بن أبي سلمى بقوله (٥) :

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدا وما سحقت فيه المقام والقمل
وكانوا يسمون « ذي الخلصة » الكعبة اليمانية . أما بيت رضاء فقد هدم بعد الاسلام ، وفيه يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدم (٦) :

١ - لسان العرب مادة كعب .

٢ - ديوان الأعشى ص ٤٧ .

٣ - مسند أحمد ص ٤٠٧ .

٤ - مطلع النور ص ١٣١ .

٥ - ديوان زهير ، ص ٥٨ .

٦ - مطلع النور ص ١٣١ ، انظر سيرة ابن هشام ، القسم الأول ، ص ٨٧ .

ولقد شددت على رضاء شدة فتركها قفرا بقاع أسحما
أما كعبة نجران فقد تعفت آثارها ، وكشفها الرحالة عبد الله فلبى في رحلته (٢٥ يونيه
١٨٣٦) ، وهي التي قال فيها الأعشى يخاطب ناقته (١) :

فكعبة نجران حتم عليك حتى تُناخي بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيسا هم خير أربابها
وكان لربيعه بيت يطوفون به يسمونه الكعبات ، وقيل ذا الكعبات . وقد ذكره الأسود بن
يعفر في شعره فقال (٢) :

والبيت ذي الكعبات من سنداد

ويقول بعض المؤرخين — ومنهم أبو المنذر صاحب كتاب الأصنام — أن هذه البيوت مثل
بيت سنداد وكعبة نجران وذي الخلصة لم تكن بيوت عبادة وإنما كانت من المزارات
الشريفة التي يذكرها السياح (٣) . أما كعبة مكة فقد أجمعت الكتب على ذكر أهميتها
ومكانتها لدى القبائل العربية . ويكفى أن نعلم أن العرب كانوا يحرمون القتال فيها وفيما
جاورها من بلاد لذلك سمي البلد الحرام . ولقد شاع ذكرها حتى طغى على كل الأماكن
الدينية الأخرى غيرها . وقد ورد في الشعر الجاهلي ما يؤكد قداستها وقيمتها لديهم . قال
النابغة في إحدى اعتذارياته للنعمان (٤) :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما أريق على الأنصاب من جسد
ما ان بدأت بشيء أنت تكرهه اذن فلا رَفَعْتُ سوطي الى يدي
وقد ذكرت الكعبة مرتين في القرآن الكريم . في قوله تعالى :

يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ (٥)

وفي قوله تعالى :

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ (٦)

١ - ديوان الأعشى ص ٢٠٩ .

٢ - لسان العرب مادة كعب ، انظر سيرة ابن هشام ، القسم الأول ، ص ٨٨ .

٣ - مطلع النور ص ١٣٢ .

٤ - ديوان النابغة ص ٢٥ .

٥ - سورة المائدة ص ٩٥ .

٦ - سورة المائدة ٩٧ .

وشهرة الكعبة عند المسلمين اليوم لا تحتاج الى بيان . ولكن من الجدير بالذكر هنا أن المعنى الذي حملته الكعبة في الشعر الجاهلي ، هو المعنى نفسه الذي ورد في القرآن الكريم . أي أن هذا المصطلح الاسلامي لم يطرأ عليه أي تطور دلالي في هاتين الفترتين .

الاستطاعة :

وهي لغة ما يمكن للانسان أن يقوم به حسب جهده دون تكلف عناء أو ادخار جهد . وسوف يرد في الفصل الأخير — المصطلحات الجديدة في الاستعمال القرآني — التمييز بين القدرة والاستطاعة والطاقة . وهي في الشعر الجاهلي كلمة عادية لا تزيد على هذا المعنى . ولكنها صارت مصطلحا خاصا من مصطلحات الحج عندما نزل قوله تعالى :

وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَاِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِيْنَ (١)

وقد بينت كتب الفقه معناها الاسلامي ، فقالوا : هي استطاعة مباشرة بالنفس واستطاعة غير مباشرة بالغير (٢) . وهي امكانية المسلم أن يحج الى بيت الله الحرام ، امكانية مادية صحية . فالاستطاعة المادية أن يكون معه أجرة السفر ونفقته من بلده الى مكة مع نفقات العودة علاوة على نفقات أهله في فترة غيابه . والاستطاعة الصحية أن يكون قادرا على الحج غير مرهق في سفره وفي أداء مناسكه .

والذي يعنينا هنا أن الاستطاعة في سياق الحج مصطلح جديد . وأعتقد أن التيسير الالهي في هذا المصطلح لم يكن واردا في أذهان الناس ولا في نظم حياتهم قبل نزول القرآن . ولم يرد في النصوص الأدبية ما يدل على أن شرط الاستطاعة كان مطروحا عند الحج في العصر الجاهلي .

وواضح بعد هذا أن القرآن هو الذي صنع هذا المصطلح الاسلامي . ويمكن هنا القول إن القرآن قد جدد معنى هذه الكلمة وأعطاهم مفهوما جديدا لم تكن تعرفه من قبل .

المقات :

أصل الفعل وقت يقت ، ووقت الشيء يقاته اذا بين حده . ونقول وَقَّتْهُ فهو موقوت اذا

١ - آل عمران ٩٧ .

٢ - الفقه المبسط ص ٣٢٦ .

بين للفعل وقتا يفعل فيه . والوقت مقدار من الزمان . وكل شيء قدرت له حيناً فهو مؤقت . وكذلك ما قدرت غايته فهو مؤقت ، واستعمل سيبويه لفظ الوقت في المكان تشبيهاً بالوقت في الزمان لأنه مقدار مثله . ولذا قيل للموضع ميقات . وهو على وزن مفعال من وقت . والميقات مصدر الوقت . لذلك يقال للآخرة ميقات الخلق . ولللهلال ميقات الشهر ، ولمواضع الاحرام مواقيت الحج (١) .

ولم أجد في الشعر الجاهلي شواهد تدل على معرفتهم بالمواقيت الخاصة بالحج ، سواء في الزمان أو في المكان . وهذا يتفق مع ما ذكرته قيل قليل — في الحج والعمرة — أن العرب غالباً ما كانوا يحجون البيت أو يزورونه في غير وقت محدد ، ولا بشروط مسبقة موحدة أو هيآت مفروضة . كما هو الشأن في مناسك الاحرام ومواقيت الحج في الاسلام

ولا أجد داعياً هنا لاثبات شواهد شعرية في الفعل وقت وما يشتق منه ، فما أكثر ما ورد ذلك في الشعر الجاهلي ، والمعنى فيه عادي معروف كما هو مثبت . والميقات — كالاستطاعة — مصطلح صنعه القرآن عندما جعل للحج حدوداً زمانية ومكانية وشروطاً لا بد من التزامها . وذلك كله مفصل في كتب الفقه .

وقد وردت كلمة الميقات سبع مرات مرات في القرآن الكريم . ووردت مجموعة في آية واحدة هي قوله تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ (٢)

ومن هذه الآية الكريمة أخذ معنى الميقات في المصطلح الاسلامي ليدل على الوقت الذي يبدأ فيه الحج ، والمكان الذي يبدأ منه الاحرام . فالميقات — اذن — زمني ومكاني . ويقصد بالزماني « وقت بدء الحج أو بدء الاحرام ويشترط فيه أن يقع في أشهر الحج وهي من أول شوال الى فجر يوم النحر » (٣) أما الميقات المكاني فهو المكان الذي يحرم منه الحاج و يبدأ فيه مناسكه بالاحرام . وقد عرف الناس خمسة مواقيت مكانية تحيط بمكة من جهاتها كلها . فهناك ميقات المدينة المنورة ومن قدم برا من الشمال وهو ذو الحليفة . وميقات أهل الشام ومصر والمغرب القادمين بمحاذاة البحر هو الجحفة . وميقات أهل نجد والحجاز وشرق مكة

١ - لسان العرب مادة وقت .

٢ - سورة البقرة ١٨٩ .

٣ - الفقه المبسط ٣٣١ .

هو قرن المنازل . وميقات أهل العراق وخراسان هو ذات عرق . وميقات أهل اليمن والجنوب هو يلملم . (١)

ولا يجوز للحاج أن يمر بهذه المواقيت دون أن يكون قد نوى الاحرام ولبس ملابسه . والا فانه يقع في محذور من محظورات الاحرام ، وعليه عندئذ الفداء .

ومن الواضح اذن أن مصطلح الميقات مصطلح قرآني جديد في دلالته ، وأن القرآن الكريم خصص معنى هذه الكلمة وجعلها في هذا المفهوم الخاص بالحج بعد أن كانت عامة على كل ميقات في حياة الناس .

الاحرام :

وقد سمي احراما لأنه على الحاج أن يقوم ببعض الأعمال . هذا من ناحية شكلية ظاهرية . أما من الناحية السلوكية فانه يحرم على الحاج أن يقوم بأي عمل من شأنه أن يفسد الحج أو يذهب بثوابه . وقد أخذت الكلمة من حرم عليه الشيء حرما وحراما وأحرم الرجل يحرم احراما .

وقد عرف الاحرام عند العرب بمعنى أضيق مما صار اليه في القرآن الكريم ، فقد كانوا يحجون وهم يدركون ما للبيت من حرمة وهيبة . وقد عرفوا أن الحرم هو مكة وما حولها . والحرم ضد الحل . وقوم حرم وحرام أي محرمون . وأمرأة حرمية أي من سكان الحرم . قال النابغة (٢) :

لقول حرمية قالت وقد ظعنوا هل في مخيفكم من يشتري أدماء
ويروى أن رجلا من بني زبيد من بني مذحج أتى مكة بسلعة فباعها من العاص بن وائل
وكان شريفا فظلمة فأوفى الزبيدي على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش حول الكعبة
فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهرٍ لمظلم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم شعثٍ لم يقض عُمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر

١ - سبل السلام ، محمد بن اسماعيل الصنعاني ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الثالثة ١٣٦٩ هـ ص ٢٥٩ وما بعدها ، باب المواقيت .

٢ - ديوان النابغة ، ص ٦٤ .

هل يخفر من بني سهم لخفرته فعاذل أم ضلال آل معتمر
ان الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لشوب الفاجر الغدر
فقال الزبير بن عبد المطلب : ما لهذا قول فاجتمعت زهرة وقيم وأسد في دار عبد الله بن
جُدعان وصنع لهم طعاما فتحالفوا ليكونن يدا على الظالم ، وكان هذا مبدءاً لحلف الفضول
(١) .

ولكن هنالك فرقاً بين الاحرام بمعناه الاسلامي وبين الاحرام الذي كان معروفاً عند
العرب قبل نزول القرآن . فالاحرام في الاسلام له شروطه وآدابه وأهدافه السامية ولم يكن
كذلك قبل نزول القرآن . فقد روى أن العرب في الجاهلية كانت اذا حجت البيت تخلع
ثيابها التي عليها اذا دخلوا الحرم ولم يلبسوها ما داموا في الحرم (٢) . وهذه العادات
القبيلة من دخول الحرم عراة وطوافهم حول البيت كذلك قد حرمها الله عز وجل بقوله تعالى

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (٣)

وقد روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : بعثني النبي صلى الله عليه وسلم حين
أنزلت «براءة» بأربع :

ألا يطيف بالبيت عريان ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، ومن كان
بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته ، ولا يدخل الجنة الا نفس
مسلمة (٤) .

النسك والمناسك :

النُّسْكُ والنُّسْكُ من نَسَكَ يَنْسُكُ نُسْكَاً ونَسَكَ ونَسَكَ وَتَنَسَكَ . والنسك أصله ذبائح
كانت تذبح في الجاهلية . قال زهير (٥) :

فزل عنها وأوفى رأس مرقبة كمنصب العير رمى رأسه النُّسْكُ
والنسيكة شاة كانوا يذبحونها في الحرم ثم نسخ ذلك بالأضاحي . قال الأعشى (٦) :

١ - الأ وائل ، ص ٤٦ .

٢ - السيرة النبوية لابن هشام ، القسم الأول ، ص ٢٠٢ .

٣ - التوبة (١) .

٤ - السيرة النبوية ، لابن هشام ، القسم الثاني ٥٤٥ .

٥ - ديوان زهير ، ص ٥٠ .

٦ - ديوان الأعشى ص ١٧٣ .

وذا النصب المنسوب لا تنسكته ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا
وقيل النسك الدم . والنسكة الذبيحة . وقد ورد في القرآن الكريم هذا المعنى في قوله عز
وجل

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا
رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ
رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ (١)

وفي الحديث الشريف « من كان له ولد فأحب أن ينسك عن ولده فليفعل » (٢) .

وبما أن الذبائح على الأنصاب كانت مرتبطة بمعنى العبادة والطاعة فقد اتسع معنى
النسك حتى شمل العبادة والطاعة بمعناها الواسع ، وصار يعني كل ما يتقرب به العبد الى
الله تعالى . قيل لشعلب : هل يسمى الصوم نسكا ؟ فقال : كل حق الله عز وجل يسمى
نسكا (٣) .

وعن هذا المعنى تطور المعنى المجازي بمعنى العبادة وصار الناسك بمعنى العابد يقال هو
من النساك أي من العباد . وقضى مناسك الحج أي عباداته (٤) . وفي القرآن ذكرت هذه
المادة في سبعة مواضع بألفاظ ناسكوه ونسكي ومنسكا في آيتين ومناسككم
ومناسكنا . منها آية واحدة ذكرت المعنى اللغوي للكلمة ، وهي الآية السابق ذكرها . وفي
الآيات الباقية وردت المادة بالمعنى المجازي وهو العبادة والشعائر الدينية ومنها قوله تعالى

قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٥)

وفي مناسك الحج بمعنى عباداته قال تعالى

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْخُلُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا (٦)

٤ - أساس البلاغة ج ٢ ص ٢٨٨ .

١ - البقرة ١٩٦ .

٥ - الأنعام ١٦٢ .

٢ - تنوير الحوالك ج ١ ص ٣٢٨ .

٦ - البقرة ١٩٩ - ٢٠٠ .

٣ - لسان العرب ج ٣ ص ٦٢٨ .

وقد فسرت الكلمة هنا بأنها « عبادات رَحَّجكم بأن رميتم حجرة العقبة وطفتم واستقرتم بمنى » (١) .

وهكذا أصبح لفظ المناسك من المصطلحات القرآنية الجديدة التي يتجه إليها ذهن المسلم كلما ذكر الحج ، على اعتبار أن المناسك هي أعمال الحج المتنوعة .

الطواف والسعي :

جاء في معاجم اللغة طاف بالقوم وعليهم طوفا وطوفانا ومطافا وأطاف استدار وجاء من نواحيه . وأطاف فلان بالأمر إذا أحاط به وقيل طاف به حام حوله . وأطاف به وعليه طريقه ليلا . وقد فرق الأصمعي بين طاف يطيف وطاف يطوف ، فجعل الأول خاصا بالخيال يلّم في النوم . وطاف حول الشيء يطوف طوفاً وطوفانا وتطوف واستطاف كله بمعنى (٢) وطاف بالبيت وأطاف عليه دار حوله . قال أبو خراش (٣) :

تطيف عليه الطير وهو ملتحب خلاف البيوت عند محتمل الضرم
ورجل طاف كثير الطواف . وطوّف أكثر الطواف ، وطفّت أطوف طوفاً وطوفاً .

من العرض المعجمي السابق لمشتقات الطواف يتبين أن الكلمة حملت في الأصل الدوران حول الشيء . ثم تطورت إلى معانٍ مجازية أخرى مثل الاحاطة بالأمر ، أو الامام بالشيء في الليل .

ولم يتخصص الطواف في الشعر الجاهلي بمعنى محدد ، كالدوران حول الكعبة ، ولكن الجاهليين كانوا يزورون الكعبة ويطوفون حولها . وكان طوافهم يتضمن عادات سيئة مثل الطواف حول البيت عراة ، نساء ورجالا . ومن هذه العادات حملت بعض الأشياء أسماء من مشتقات الطواف لارتباطها به . وقد روى أن المرأة كانت تطوف بالبيت عريانة تقول من يعيرني تطوفاً تجعله على فرجها . وتقصد ذا تطواف وهو الثوب الذي يطاف به (٤) .

وقد ورد الفعل طاف ومشتقاته في واحد وأربعين موضعاً في القرآن الكريم . منها أربعة وعشرون موضعاً ورد في صيغ « طائفة » ، « طائفتان » و « طائفتين » . واعتقد أن الطائفة — وهي الجماعة من الناس — إنما سميت بهذا الاسم ، لأن الأفراد فيها يطوف بعضهم

١ - حاشية العلامة الصاوي ج ١ ص ٩٣ ، وكان الأصح أن يقول : واستقرتم .

٢ - لسان العرب مادة طاف .

٣ - المرجع السابق .

٤ - السيرة النبوية لابن هشام ، القسم الأول ، ص ١٩٩ وما بعدها .

حول بعض ويجتمع بعضهم الى بعض . فهو اذن صورة من صور المعنى اللغوي للكلمة . وكذلك وردت هذه المادة اللغوية في أربعة عشر موضعاً آخر بالمعنى اللغوي وهو الدوران حول الشيء ، أو ما تفرع عنه من معانٍ مجازية كالاحاطة بالشيء أو طرقه ليلاً . أما معنى الطواف الاسلامي ، وهو الدوران حول الكعبة ، فلم يرد الا في ثلاث آيات فقط هي قوله تعالى :

وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١)

وقوله تعالى :

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (٢)

وقوله تعالى :

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣)

ومن هذا العرض لآيات الطواف ومشتقاته في القرآن يظهر أن الطواف لم يتخصص في القرآن بمعنى محدد أيضاً ، ولكن ورد بالمعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي . ولكن ارتباط الطواف بالحج وكونه أحد المناسك الأساسية فيه ، جعل الطواف — في المصطلح الاسلامي — يرتبط بمعنى الدوران حول الكعبة ، كلما أدى المسلم فريضة العمرة أو الحج .

وقد اختلفت صورة الطواف حول الكعبة في الاسلام عما كانت عليها في العصر الجاهلي . فقد وضع الاسلام للطواف شروطاً وآداباً معينة لا بد للمسلم أن يراعيها . كما أنه ألغى تلك العادات القبيحة التي كانت تتبع في طواف الجاهليين .

والطواف أحد مناسك الحج ، و يقوم به الحاج ثلاث مرات ، مرة عند وصوله مكة ويسمى طواف القدوم . ومرة يوم النحر و يسمى طواف الافاضة وهذا الطواف واجب

١ - البقرة ١٢٥ .

٢ - البقرة ١٥٨ .

٣ - الحج ٢٩ .

و يدعى طواف الحج أيضا . ومرة ثالثة عند مغادرة البيت وانتهاء المناسك و يسمى طواف الوداع . وليس من فرق في هيئـة الطواف في كل مرة ، إنما الفرق في درجة كل منها من حيث كونه فرضا أو واجبا أو سنة مما هو مفصل في كتب الفقه .

وقد سبق — في المعنى اللغوي — أن الطواف قد يكون بمعنى التجول في أنحاء الشيء والالام به ومن هنا سمي السعي بين الصفا والمروة في القرآن الكريم طوافا وليس سعيـا . قال تعالى :

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ آلَبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١)

ومن المعروف أن الحاج لا يطوف حول الصفا والمروة — بمعنى الدوران حول الشيء ، وإنما يبدأ من الصفا ، فإذا انتهى الى المروة — وبينهما سبعمائة متر — وقف عليها ريثما يدعو دعاءه ، ثم يعود الى الصفا . وكل مسافة بين الصفا والمروة تكون شوطا ، كذلك كل مسافة بين المروة والصفا . وهكذا يبدأ الحاج طوافه أو سعيه كما هو مشهور ، من الصفا وينتهي بالمروة بعد سبعة أشواط . وهذا الطواف بين الصفا والمروة — وهما صخرتان مرتفعتان قليلا على يمين الكعبة — سمي في الفقه الاسلامي سعيـا . ومصطلح السعي مأخوذ من السنة النبوية الشريفة لقوله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بهما « اسعوا فان الله كتب عليكم السعي » (٢) . وفي صحيح البخاري حديث طويل عن ابن عباس رضي الله عنهما يبين فيه أصل السعي بين الصفا والمروة ، المتصل بذكرى السعي الأول الذي كان في عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، عندما طافت السيدة هاجر بينهما باحثة عن الماء لولدها الصغير اسماعيل . ويروى البخاري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فذلك سعى الناس بينهما » (٣) .

وهكذا فان الطواف قد تخصص بمعنى الطواف حول الكعبة وصار يعني القيام بهذا المنسك كلما ذكر في الفقه الاسلامي . أما السعي بين الصفا والمروة فهو يدخل ضمن مفهوم الطواف كما سبق . ولكن السعي في القرآن اتخذ معنى آخر ، وسوف أعرضه — في الفصل الأخير — في الفصل الذي جعلته للمصطلحات التي استحدثها السياق القرآني .

١ - البقرة ١٥٨ .

٢ - مسند أحمد ج ٦ ، ص ٤٢١ .

٣ - تفسير القرآن الحكيم ، ج ٢ ص ٤٦ .

الافاضة :

وقد اقترن مصطلح الافاضة بالطواف ، فقليل طواف الافاضة . وهو أحد أركان الحج الستة التي لا يتم الحج الا بها ولا يجبر تركها بشيء . وسمي طواف الافاضة لأنه يكون بعد افاضة الناس من عرفات ، كما يفهم من قول الله عز وجل:

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)

والافاضة من المكان الدفع منه ، وهو مستعار من افاضة الماء . ومثله يقال أفاض في الكلام اذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق (٢) . وأفاض القوم في الحديث فاضوا وأكثروا . وأفاض الناس من عرفات الى منى اندفعوا بكثرة الى منى للتلبية . وكل دفعة افاضة . ومعنى أفضتم دفعتم بكثرة . والافاضة الزحف والدفع في السير بكثرة . وأصل الافاضلة الصب واستعيرت للدفع في السير .

وهكذا يكون معنى الافاضة اللغوي هو الصب وتدفق الماء . ولكنها حملت في الاسلام معنى مخصوصا هو التدفق من عرفات الى منى .

عرفات :

في الشعر الجاهلي ذكر التعريف بمعنى الوقوف بعرفات ، ومنه قول ابن دريد (٣) :

ثم أتى التعريف يقرؤ مخبثا

وتقديره أتى موضع التعريف ، فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مكانه . وعرف القوم أقاموا بعرفة . وفي ذلك قال أوس بن مغراء (٤) :

١ - البقرة ١٩٨ - ١٩٩ .

٢ - تهذيب اللغة ، مادة فاض ج ١٢ ، ص ٧٧ .

٣ - لسان العرب مادة عرف .

٤ - المرجع السابق .

ولا يرمون للتعريف موقفهم حتى يقال أجزوا آل صفوانا
وسموه المعرف أي الموقف بعرفات .

ولم أجد في الشعر الجاهلي صيغة « عرفات » ، ويمكن القول أنها صيغة قرآنية . وقد
وردت في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى :

فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ (١)

وعرفات جبل صغير يقع في شرقي مكة على مسافة عشرين كيلو مترا منها . وقد حدده
الفقهاء بناء على ما ورد في السنة النبوية الشريفة . « حد الى جادة طريق المشرق والثاني
الى حافات الجبل الذي وراءه أرضها ، والثالث الى البساتين التي تلي قرنيها على يسار
مستقبل الكعبة . والرابع وادي عُرْنَة — بضم وفتح — وليست عُرْنَة ولا نَمِرَة — بفتح
فكسر — من عرفات » (٢) .

وهو اسم ورد بصيغة الجمع ، وقيل أنه جمع لمفرد كأذرعات . وهو اسم مرتجل . وذكر
المفسرون عدة وجوه للتسمية منها : أنه يتعرف الناس الى ربهم بالعبادة . أو أنه يشعر
بتعارف الناس فيه ، وهذه أحسن الوجوه (٣) . ومنها أن آدم وحواء عندما هبطا من الجنة
تعارفا عليه . وغير ذلك من الوجوه التي أطال المفسرون منها الحديث .

وقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان حدود عرفات ، واشتقاق اسمه . وسبب
تسميته فقال : « عرفة وعرفات واحد عند أكثر أهل العلم ، وعرفة حدها من الجبل المشرف
على بطن عُرْنَة الى جبال عرفة ، وقرية عرفة النخل بعد ذلك بميلين ، وقيل في سبب تسميتها
بعرفة ان جبريل عليه السلام عرف ابراهيم عليه السلام المناسك ، ولما وقفه بعرفة قال له
عرفت ؟ فقال نعم . فسميت عرفة . ويقال بل سميت بذلك لأن آدم وحواء تعارفا بها بعد
نزولهما من الجنة ، ويقال إن الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف ، وقيل بل سمي
بالصبر على ما يكابدون في الوصول اليها لأن العرف الصبر . وقال ابن عباس حد عرفة من
الجبل المشرف على بطن عُرْنَة الى جبالها الى قصر آل مالك ووادي عرفة . وقال البشاري :
عرفة قرية بها مزارع خضر ومباطخ وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة ، وبها

١ - البقرة ١٩٨ .

٢ - تفسير المنارج ٢ ص ٢٣٢ .

٣ - المرجع السابق .

سقايات وحياض وَعَلَّمَ قَد بَنَى عِنْدَهُ الْإِمَامُ « (١) .

وقد تدخل النحاة في عرفات أيضا فممنوعه من الصرف لأنه علم على بقعة معينة (٢) ولأنه ملحق بجمع المؤنث السالم .

ومهما يكن من أمر الاسم ، وحدود المكان ، فإن عرفات أصبح في المفهوم الاسلامي علما على الجبل الذي يقف الحجاج عليه في اليوم التاسع من ذي الحجة . وهو ركن أساسي من أركان الحج لقوله عليه السلام « الحج عرفة » (٣) .

المشعر الحرام :

والمشعر الحرام أيضا أحد المصطلحات الاسلامية المتعلقة بموضوع الحج . ويعرف عند العامة باسم « المزدلفة » ويقع في منتصف الطريق بين مكة وعرفات . وجاء في تعريفه قوهم : « المشعر الحرام جبل المزدلفة يقف عليه الامام ويسمى قزح - بضم وفتح - وسمي مشعرا لأنه معلم للعبادة ووصف بالحرام لحرمته . وقيل هو المزدلفة كلها من مأزمي عرفات الى وادي محسر . وليس هو (٤) من مزدلفة ولا من منى . بل هو سيل ماء بينهما في الأصل . وقد استوت أرضه الآن » (٥) .

والمشعر في اللغة المعلم والمتعبد . والمشاعر المعالم التي ندب الله اليها وأمر بالقيام عليها . ومنه سمي المشعر الحرام لأنه موضع للعبادة . وواضح أن هذا المصطلح الاسلامي قد كونه السياق القرآني عندما وصف القرآن هذا الموضع بأنه مشعر وبأنه حرام . وبذلك خصص القرآن هذه الصيغة بموضوع محدد يعرفه الحجاج في طريقهم من عرفات الى منى .

ولم يعرف الشعر الجاهلي هذا الاسم . ولم يكن هذا الموضع ضمن ما يهتم به الزائرون الجاهليون وهم في طريقهم الى الكعبة .

١ - معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

٢ - حاشية العلامة الصاوي ح ١ ص ٩٢ .

٣ - التاج الجامع للأصول ح ٢ ص ١٢٨ .

٤ - أي وادي محسر بكسر السين المشددة .

٥ - تفسير المنارج ح ٢ ص ٢٣٢ .

الفصل الخامس
نماذج البشري القرآن الكريم

سميت هذا الفصل بعنوان «نماذج البشر في القرآن الكريم» لأنني وجدت القرآن الكريم قد رسم لكل من هؤلاء الأشخاص الذين سترد صفاتهم فيه لوحات حية متحركة ، يكاد القارئ يشعر بهم يتحدثون أمامه و يتمثلون أمامه أشخاصا يقومون بأدوارهم في مسرح الحياة . وهذا شاهد جديد على دقة التصوير القرآني . فليست الصفات المتقاربة في القرآن مترادفة ، كما قد يظن بعض الناس ، بل ان كل صفة في القرآن مقصودة لذاتها ، وكل مادة في القرآن تكون معنى مستقلا . وكل آية في القرآن من الآيات التي تجمع المادة اللغوية الواحدة — كالأيات التي ترد فيها مشتقات الايمان مثلا — تعطى ملمحا وخطا من خطوط الصورة العامة للمؤمن . حتى اذا قرأ الانسان آيات الايمان تعرف الى صورة المؤمن وعرفه بعد ذلك في الناس كلما قابله في مجالات الحياة . واذا قرأنا آيات الاسلام ، وآيات الاحسان ، في القرآن الكريم ، تبين لنا أن المسلم في القرآن هو غير المؤمن ، وأن المؤمن هو شخص آخر غير المحسن . فكل من هؤلاء شخص له ملامحه وله صفاته وله سلوكه ، وله بعد ذلك أخلاقه وعمله ، وهذا الذي يحدد مكانته عند الله . ومثل هذا يقال في صفات المنافق والفاسق والكافر والملحد وغيرهم ، وهم أصحاب القسم السلبي من «نماذج البشر في القرآن الكريم» الذين سوف أتعرض لهم بعد الحديث عن أصحاب القسم الأول .

(١)

المسلم

المؤمن

المحسن والاحسان

وقد ذكرت مادة سلم وما يشتق منها في مئة وثمانية وثلاثين موضعا . وذكرت مادة آمن ومشتقاتها في ثمانية وتسعة وسبعين موضعا ، على حين ذكرت مادة أحسن ومشتقاتها في مئة وأربعة وتسعين موضعا . وسوف أحاول فيما يلي عرض ملامح كل صورة من صور هؤلاء الأشخاص .

المسلم والاسلام :

وكلمة الاسلام كلمة عربية الاشتقاق . يقال : سلم يسلم سلامة وسلاما . وسلمه الله من الأمر وقاه إياه . والسلام والسلامة : البراءة وتسلم منه تبرأ . قال أبو منصور : نتسلم

منكم سلاماً ولا نجاهلكم (١) . والاسلام والاستسلام : الانقياد (٢) . والسلم بالكسر السلام . وسلم من البلاء وسلم من المرض بمعنى برىء . وسلم اليه الشيء وسلمه . وسالت العدو وأسلم في كذا ، وأسلم لأمر الله ، وسلم واستسلم (٣) .

ومن هنا يظهر أن كلمة اسلام تعني عدة معانٍ متقاربة يمكن أن ترد كلها الى أصل واحد :

١ - أسلم الشيء : دفعه .

٢ - أسلم : خضع وانقاد .

٣ - أسلم : تبرأ .

وقد وردت في أشعار العرب مادة سلم بمعانيها المختلفة . فعلى المعنى الأول قال عمرو بن جنى (٤) :

سلبوك درعك والأغر كليهما وبينو أسيد أسلموك وخضم
وقال الأعشى (٥) :

ففاضت دموعي كفيض الغرو ب إما وكيفاً وإما انحدارا
كما أسلم السلك من نظميهِ لآلى منحدرات صغارا
وعلى المعنى الثاني قال شاعر من كندة (٦) :

دعوت عشيرتي للسلم لما رأيتهم تولوا مدبرينا
وفي معنى التحية ورد قول الشاعر (٧) :

وقفنا فقلنا ايه سلم فسلمت فما كان إلا ومؤها بالحواجب
وفي معنى البراءة روي عن سيبويه أنه زعم أن أبا ربيعة كان يقول : اذا لقيت فلانا فقل سلاماً أي تسلماً (٨) .

١ - لسان العرب مادة سلم .

٢ - جهرة اللغة مادة سلم .

٣ - أساس البلاغة مادة سلم .

٤ - الأصمعيات ص ١١٧ . وخضم اسم قبيلة .

٥ - ديوان الأعشى ص ٨١ .

٦ - جهرة اللغة مادة سلم .

٧ - لسان العرب مادة سلم .

٨ - جهرة اللغة مادة سلم .

تلك هي مدلولات كلمة « الاسلام » في الحياة الجاهلية . البراءة والتسليم والخضوع ، والتحية . وقد أصبحت هذه الكلمة فيما بعد أشهر مصطلح في حياة المسلمين وأشهر مصطلح ديني على الإطلاق . ذلك أننا نقول اليوم : المصطلحات الاسلامية ، والحياة الاسلامية ، والاسلام . وكل ما يتصل بالدين انما هو من الاسلام ، لأن الدين عند الله الاسلام . والاسلام في « المصطلح القرآني » يعني اتباع أمر الله والخضوع والانقياد له . جاء في جمهرة اللغة : والإسلام من الشريعة اظهار الخضوع واطهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي (١) . وقال أبو بكر محمد بن بشار : المسلم هو المستسلم لأمر الله (٢) .

وهكذا يظهر بوضوح ارتباط المصطلح الاسلامي الذي أظهره القرآن الكريم بمعناه في الاستعمال اللغوي . ويظل دور القرآن قائماً في تخصيص هذا المعنى من جهة لغوية وتعميمه في حياة الأمم من جهة دينية مبدئية . وقد تتبع الاستاذ أحمد أمين مادة « سلم » في كتابه « فجر الاسلام » فقال : « اذا تتبعنا مادة سلم ونشوء كلمة الاسلام رأينا أن معنى السلام : المسالمة . وضد المسالمة الحرب والخصام . جاء في القرآن الكريم « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ، ولعل هذه الآية هي المفتاح الذي نصل به الى معرفة السبب في تسمية العهد الذي قبل محمد صلى الله عليه وسلم جاهلية وعهده اسلاما » (٣) . وبعد أن يبحث المؤلف معنى الجاهلية يتابع شرحه الاسلام فيقول : « فترى من هذا كله أن كلمة الجاهلية تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة وهي أمور أوضح ما كانت في حياة العرب قبل الاسلام ، فسمي العصر الجاهلية . ويقابل هذه المعاني هدوء النفس والتواضع والاعتداد بالعمل الصالح لا بالنسب وهي كلها نزعة الاسلام . فمعنى الآية (٤) كما قال الطبري : « ان عباد الله هم الذين يمشون على الأرض بالحلل لا يجهلون على من جهل عليهم » ثم انتقلت الكلمة الى معنى آخر قريب من هذا ، وهو استعمال أسلم المشتق من السلام بمعنى الخضوع والانقياد لما كان الخضوع أدعى الى السلام . وفي هذا المعنى جاءت الآية « انبيوا الى ربكم وأسلموا له » (٥) وقد أطلقها

١ - جمهرة اللغة مادة سلم .

٢ - لسان العرب مادة سلم .

٣ - فجر الاسلام ، ص ٦٩ .

٤ - رقم ٦٣ من سورة الفرقان .

٥ - رقم ٥٤ من سورة الزمر .

القرآن بهذا المعنى أحيانا على المؤمنين والكافرين جميعا لأنهم خاضعون لله ومنقادون له بحكم خلقهم رضوا أم كرهوا

وَكَلَّمَ آبِلْمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (١)

ثم قصرت في الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعا ، فكأن المسلم هو الذي رضي بطاعة الله . وبهذا المعنى تطلق كلمة المسلم على كل من خضع لله وأطاع أي نبي من الأنبياء . فاتباع ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد مسلمون . ثم خصت في الاستعمال بالدين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى (٢) :

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣)

والاسلام بهذه الصورة هو القاعدة العريضة التي يقف عليها كل من خضع لله واستسلم له وشهد بالوهمية الله ووحدانيته ، وشهد بصدق محمد ورسالته . ولا بد للانسان — لكي يكون مسلما — أن يقيم أركان الاسلام التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم . « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج » رواه الشيخان والترمذي والنسائي (٤) .

ولكن هذه القاعدة العريضة التي يقف عليها خلق كثير في كل زمن وفي كل مكان لا بد أن يتميز فيها بعض الافراد على غيرهم في اتباع هذا الدين . وفي درجة التمسك به . ولذلك جعل الله عز وجل لعباده درجات يتميزون بها كل حسب عمله واعتقاده . وقد جعل درجة الايمان أعلى وأخص من درجة الاسلام . والمؤمن — في التعريف الاسلامي — هو الذي يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله . وقد أفاض العلماء وأحسنوا في الحديث عن الفرق بين الاسلام والايمان ، أو بين المسلم والمؤمن والمحسن كدرجات صاعدة الى الأعلى . وسوف نبين هذا الفرق بعد قليل ، بعد أن نتعرض للمعنى اللغوي لكلمة مؤمن .

المؤمن والايمان :

والايمان مأخوذ من الفعل آمن بالشيء أي صدق . وقال الجوهري آمن آمن ، والايمان

١ - آل عمران ٨٣ .

٢ - آل عمران ٨٥ .

٣ - فجر الاسلام ص ٧١ .

٤ - التاج الجامع للأصول ج ١ ص ٢٠ .

هو التصديق كما ذكر صاحب التهذيب (١) .

وأصل المادة يعني الأمن الذي هو ضد الخوف . والأمانة ضد الخيانة ، وفعله آمنتُ فأنا آمن والأمانةُ منه وهي الأمن . يقال استأمنني فلان فآمنتُه أو منه إيماناً . ويقال رجل أمين وأمان أي له دين وقيل مأمون به ثقة ، قال الأعشى (٢) :

ولقد شهدت التاجر الأمانَ موروداً شرابه

وفي أساس البلاغة يقال آمنتُه وآمننيه وهو في أمن منه ، وهو مؤتمن على كذا . وفي المجاز أعطيت فلاناً من آمن مالي أي من أعزه وأنفسه لأنه اذا عز عليه لم يعقره (٣) .

و يبدو أن الكلمة تطورت في معناها من الأمن ضد الخوف أولاً ثم الى الأمانة ضد الخيانة ثم الى الايمان بمعنى التصديق . ذلك أن الذي يعرف بالأمانة لا بد أن يشتهر بالصدق . وإذا اشتهر بالصدق يرتبط اللفظ الدال عليه بالمعنى القائم فيه . فارتبط الايمان بالصدق ارتباطاً سلوكياً حتى صار كأنما هو معناه الأساسي .

وقد بحث العلماء في الاسلام والايمان . وقالوا في ذلك قولاً جامعاً . فمما ورد في لسان العرب قوله : واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الايمان معناه التصديق ، قال الله تعالى : « قالت الاعراب آمنا كل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » قال : وهذا موضع يحتاج الناس الى تفهيمه ، وأين ينفصل المؤمن عن المسلم وأين يستويان . الاسلام أظهر الخضوع والقبول لما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وبه يحقن الدم . فان كان مع ذلك الاظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الايمان الذي يقال للموصوف به هو مؤمن مسلم . وهو المؤمن بالله ورسوله غير مرتاب ولا شاك . وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه ، لا يدخله في ذلك ريب ، فهو المؤمن وهو المسلم حقا ، كما قال الله عز وجل : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » . فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق ، فذلك الذي يقول أسلمت لأن الايمان لا بد من أن يكون صاحبه صديقا . لأن قولك آمنت بالله أو إذا قال قائل آمنت بكذا وكذا فمعناه

١ - لسان العرب مادة أمن ، وتهذيب اللغة مادة أمن ج ١٥ ، ص ٥١٣ - ٥١٤ .

٢ - ديوان الأعشى ص ٣٢٥ .

٣ - أساس البلاغة مادة أمن .

صدقت . فأخرج الله هؤلاء من الايمان فقال . « ولما يدخل الايمان في قلوبكم » أي لم تصدقوا انما أسلمتم تَعَوُّذاً من القتل . فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر والمسلم الذي أظهر الاسلام تعوداً غير مؤمن في الحقيقة الا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين » (١) .

وهناك أقوال كثيرة تدل على أن المسلمين كانوا يفرقون تفريقاً بدهياً بين المؤمن والمسلم . قال الزجاج : « صفة المؤمن بالله أن يكون راجياً ثوابه خاشعاً عقابه » (٢) وقال ابن عباس : « الايمان نزه فاذا أذنب العبد فارقه » (٣) . وفي حديث عقبة بن عامر « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » (٤) اشارة الى أناس أسلموا معه خوفاً من السيف وأن عمراً كان صادقاً في اسلامه وإيمانه .

وقد تحدث القاضي أبوبكر الباقلاني في كتابه « التمهيد » عن الاسلام والايمان فقال : « فان قال قائل : خبرونا ما الايمان عندكم ؟ قلنا : الايمان هو التصديق بالله تعالى ، وهو العلم . والتصديق يوجد بالقلب فان قال . وما الدليل على ما قلتم ؟ قيل له : اجماع أهل الفقه قاطبة على أن الايمان في اللغة قبل نزول القرآن وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم هو التصديق لا يعرفون في لغتهم ايماناً غير ذلك . فان قال قائل : ما الاسلام عندكم ؟ قيل له : الاسلام هو الانقياد والاستسلام وكل طاعة انقاد العبد فيها لربه تعالى واستسلم فيها لأمره فهو اسلام » ثم لخص القاضي الباقلاني قوله كله فقال : « الايمان خصلة من خصال الاسلام ، وكل ايمان اسلام وليس كل اسلام ايماناً » (٥) .

وما أحسن ما اختصر ثعلب ذلك فقال : « الاسلام باللسان والايمان بالقلب » (٦) . وفي العصر الحديث فهم العلماء هذا الفهم نفسه للايمان والاسلام . وقد ناقش صاحب تفسير المنار هذه المسألة وعلق على بعض أقوال القدماء ثم قال : « والصواب أن مفهومي الاسلام والايمان في اللغة متباينان : فالاسلام الدخول في السلم وهو يطلق على ضد الحرب وعلى السلامة والخلوص وعلى الانقياد كما تقدم . والايمان التصديق ويكون بالقلب كأن

١ - لسان العرب مادة أمن .

٢ - لسان العرب مادة أمن .

٣ - لسان العرب مادة أمن .

٤ - المرجع السابق .

٥ - التمهيد ، القاضي أبوبكر الباقلاني : نشر يوسف الكارثي اليسوعي ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٣٤٧ .

٦ - جوهرة اللغة مادة سلم .

يقول أمرؤ قولاً نعتقد صدقه و يكون باللسان كأن تقول له صدقت . وقد أطلق كل من الإيمان والاسلام في القرآن على إيمان خاص جعل هو المنجي عند الله تعالى . واسلام خاص هو دينه المقبول عنده . أما الأول فهو التصديق اليقيني بوحداية الله وكماله وبالوحي والرسول وباليوم الآخر بحيث يكون له السلطان على الإرادة والوجدان فيترتب عليه العمل الصالح . ولذلك قال بعد نفي دخول الإيمان في قلوب أولئك الأعراب « (٤٩ : ١٥) . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » . وأما الثاني فهو الاخلاص له تعالى في التوحيد والعبادة والانقياد لما هدى إليه على ألسنة رسوله . وهو بهذا المعنى دين جميع النبيين الذين أرسلهم لهداية عباده « (١) » .

المحسن : والاحسان

والاحسان درجة أخرى فوق الإيمان . وهي درجة لا يرقى إليها إلا من أخلص قلبه لله . ورغم أن الاحسان مصطلح اسلامي مشهور وشائع ومثله الحسنة ، إلا أن هذه المادة اللغوية لم تحمل في العصر الجاهلي سوى المعنى العادي المألوف ، وهو الحسن ضد القبح (٢) ، من الفعل حَسُنَ الشيء يحسُنُ حُسْنًا . وقال العرب : الحُسَانُ بالضم أحسن من الحُسْنِ . قال ابن سيدة : ورجل حُسَانٌ فخفف كحسن . وحَسَانٌ والجمع حَسَانُونَ والأنثى حَسَنَةٌ والجمع حِسَانٌ وحَسَانَةٌ وجمعها حَسَانَات . قال الشماخ (٣) :

دار الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبية عَظُلًا حُسَانَةً الجيد وحسنت الشيء تحسیناً زينته ، وأحسنت إليه وبه . والحسنة ضد السيئة . والجمع حسنات . والمحاسن في الأعمال ضد المساوىء . والاحسان ضد الاساءة . ورجل محسن ومحسان . وكل هذا يظهر أن الكلمة عرفت بمدلولها اللغوي المباشر ، ولم تتجاوز هذا المدلول في العصر الجاهلي .

أما في القرآن الكريم فقد كانت علما ومصطلحا لأجل طبقة من عباد الله . وهم المحسنون الذين يعبدون الله كأنهم يرونه . وإذا قرأنا آيات القرآن الكريم بتأمل وانعام

١ - تفسير المنارج ٣ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

٢ - جوهرة اللغة مادة حسن .

٣ - ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ، حققه وشرحه : صلاح الدين الهادي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ، ص ١١٢ .

نظر، وجداها ترسم بوضوح صورة ذلك الانسان المحسن الذي يراقب الله عز وجل في كل فعل وفي كل قول ، يرى الله أمامه دائماً ، فيتحول الى انسان رباني في تصرفاته وأفعاله وتفكيره وأقواله ، يراه الرجل الصغير منا فيرى فيه الهيبة في القدر، والجلالة في الزهد ، والعمق في التفكير، والرزانة في التدبير، والسمو في الاحساس ، والنبيل في القصد . قال عز وجل :

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا
وَعَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَعَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ (١)

وهذه درجات صاعدة نحو السمو والعلو . وقال تعالى :

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢)

وقال تعالى :

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ (٣)

و يبين صورة المحسنين بوضوح أن الله عز وجل جعل فواصل الآيات التي تتحدث عن الأنبياء تنتهي دائماً باعلان أن الله يحب المحسنين ولا شك أن الأنبياء والرسل هم في أعلى المراتب والدرجات في سلم العبادة . قال تعالى :

وَتِلْكَ جُجُنَاءٌ اتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ زَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ ۖ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ
وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤)

١ - سورة المائدة ٩٣ .

٢ - سورة البقرة ١١٢ .

٣ - سورة لقمان ٢٢ .

٤ - سورة الانعام ٨٣ - ٨٤ .

وقد أدرك علماء المسلمين هذا المعنى لكلمة الاحسان . ومما جاء في ذلك ، قول الامام الشافعي رضي الله عنه « المحسن هو من أحسن العمل والحال والقول . وكانت الاعمال اما قلبية أو بدنية . ولا يتحقق الاحسان الا باحسان عمل القلوب ، ولما كانت اعمال القلوب لا تكون الا عن علم ومعرفة ، لانها عبارة عن اليقين والخشية والرغبة والخوف والحب والوله والتأله والرضا والصبر والتوكل والتفويض والا ثابة والتسليم ، والاسلام لله ، والصدق والاخلاص والتوجه والمراقبة والمجاهدة والحضور ، والقرب والوصول ، والتحقق بالمعية والعندية ، وغير ذلك من المقامات التي يترقى اليها الانسان في سيره وسلوكه ، والدرجات التي يرفعه الله اليها في وصوله وقربه ، كما قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (١) » وكما قال تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة (٢) » وقال تعالى : « وأحسنوا أن الله يحب المحسنين (٣) » وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » (٤) . وقد طالما وقفت أمام قوله تعالى : « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (٥) وتساءلت عن معناها ، وعن الفرق بين الاحسان الأول والاحسان الثاني ، وربما كان أوفى تفسير لهذه الآية الكريمة أن الاحسان الأول هو احسان أهل الدنيا ، أي أرقى ما يقوم به عباد الله من عمل ، وهذا لا جزاء له الا الاحسان من الله عز وجل وفي الآخرة ، وهو أجل ما يقدم لهم من ثواب وأجر .

ومن الجدير بالذكر هنا أن السنة النبوية الشريفة صرحت بهذه المراتب الثلاثة : المسلم : والمؤمن : والمحسن ، في الترتيب التصاعدي ، وذلك في حديث مشهور متواتر ورد في الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « حدثني أبي عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد » حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه .

١ - سورة المجادلة ١١ .

٢ - سورة يونس ٢٦ .

٣ - سورة البقرة ١٩٥ .

٤ - مذكره المرشدين والمسترشدين ، محمد ماضي أبي العزائم ، سلسلة البحوث الاسلامية ، العدد ٧٧ ، شوال ١٣٩٤ - نوفمبر ١٩٧٤ ، ص ٢٦ . والحديث الشريف في صحيح البخاري ج ١ ص ١٨ وصحيح مسلم ج ١ ص ٢٨ - ٢٩ .

٥ - سورة الرحمن ٦٠ .

وقال يا محمد : أخبرني عن الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا إله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا . قال صدقت . قال فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال فأخبرني عن الايمان ، قال : تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال صدقت . قال فأخبرني عن الاحسان . قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ، قال فأخبرني عن الساعة ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : ثم انطلق ، فلبثت مليا . ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم (١) .

(٢)

الذي في قلبه مرض

المنافق والنفاق

الفاسق والفسق

الكافر والكفر

المشرك والشرك

الملحد واللاحد

الظالم لنفسه والظلم

في هذه المجموعة يقف سبعة أشخاص في اطار سبعة مصطلحات في القرآن الكريم . وهم « الذي في قلبه مرض » ثم « المنافق » ثم « الفاسق » ثم « الكافر » ثم « المشرك » ثم « الملحد » ، وكل هؤلاء ظالم لنفسه كما سنفهم معنى الظلم بعد عرض هؤلاء الأشخاص . وهم يتدرجون في الترتيب السابق ، اما هبوطا عن سلم الاسلام أو صعودا في سلم الكفر . وانما قلنا « شخوص حية » لأن القرآن الكريم عندما كان يورد احدى هذه الصفات ، أو يذكر أحد هؤلاء الأشخاص ، كان يذكره بملاحمه وصفاته التي تلمح من السياق أو تفهم من الموقف . وكأنما يرسم له صورة واضحة يستطيع الناظر اليها — من خلال الآيات — أن يميزه من غيره . فكل واحد من هؤلاء يختلف عن الآخر . واذا درست

١ - صحيح البخاري ج ١ ص ١٨ وصحيح مسلم ج ١ ص ٢٨ - ٢٩ .

آيات القرآن الكريم ، وسجلت الظلال والايحاءات التي يرسمها حول كل شخص منهم ، أصبح بإمكانك أن تتعرف اليه أينما قابلته في مجالات الحياة . وهذا التقسيم انما يكون خلال حياة هؤلاء الناس على ظهر هذه الأرض ، وذلك لسبب بسيط هو أن باب التوبة في الاسلام مفتوح دائماً لمن أراد . فالفرصة سانحة دائماً لأي منهم للانتقال من طبقته الى طبقة أفضل منها في طبقة المسلمين أو المؤمنين أو المحسنين . أما بعد الموت — ان مات كل منهم على حاله — فهم يتساوون في حكم الله عز وجل ، لأن الظالم لنفسه أو المنافق ان مات على نفاقه يساوي الفاسق ان مات على فسقه ، وكل هؤلاء يعادل الكافر أو المشرك أو الملحد ، لأن الجميع كان معرضاً عن الله منكرًا لدينه . وفي النار تختلف درجاتهم ، حيث يكون المنافق في الدرك الأسفل من النار ، لأنه بنفاقه كان أخطرهم على الاسلام والمسلمين في حياته الدنيا . وهذا ما يفسر بعض الآيات التي ساوت بين تلك الأصناف في الحكم مثل قوله تعالى :

نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١)

وقوله تعالى :

إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٢)

وقوله تعالى :

وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَعِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣)

وقوله تعالى :

وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤)

الذي في قلبه مرض :

ورد ذكر هذه الفئة في اثنتي عشرة آية في القرآن الكريم . وفي هذه الآيات الكريمات يشعر القارئ أنهم فئة مستقلة يريد الله أن يميزها من غيرها بصفاتها وتصرفاتها . قال الله

١ - سورة التوبة ٦٧ .

٢ - سورة التوبة ٨٤ .

٣ - سورة الاعراف ١٦٥ .

٤ - سورة البقرة ٢٥٤ .

عز وجل :

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ (١)

وقال تعالى :

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (٢)

وقال تعالى :

وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا (٣)

وهذا المصطلح يتألف من عبارة فيها ثلاث كلمات رتبت لتؤدي هذا المعنى « في قلبه مرض » . وبهذا يكون هذا المصطلح ناتجا عن السياق القرآني ، ويكون كذلك مصطلحا جديدا لم يعرفه الجاهليون في شعرهم . وهم كذلك لم يعرفوا معناه وأن عرفوا كلماته متفرقة في ثنايا كلامهم .

ويبدو أن الأمر فيه يتعلق بسلامة القلب أو فساده . وقد سبق أن بينت عند الحديث عن المؤمن أنه هو الذي يصدق و يعتقد بقلبه تصديقا واعتقادا يجعله أرفع درجة من المسلم . ولذا فإن القلب المريض يستحيل أن يكون صاحبه أو حامله مؤمنا . اذن فهو من المسلمين . والمسلمون الذين يظهرون اسلامهم قد يدخل في صفوفهم ذوو القلوب المريضة والنفوس الضعيفة الذين يظهرون غير ما يبطنون ، فيتكون هؤلاء فئتين : الذين في قلوبهم مرض ، والمنافقين . ولكن الذي في قلبه مرض يكون أقرب الى الاسلام من المنافق ، لأن قلبه المريض قابل للشفاء . وهذا الوصف الالهي يشف عن دعوة له بالعودة الى الصراط المستقيم حتى يصح قلبه و يستقيم دينه .

١ - سورة الانفال ٤٩ .

٢ - سورة التوبة ١٢٤ - ١٢٥ .

٣ - سورة المدثر ٣١ .

وأكثر كتب التفسير اعتبرت الذين في قلوبهم مرض والمنافقين فئة واحدة . وأعتقد أن هذا من قبيل التسرع في الشرح . ذلك أن القرآن الكريم فرق بين الفئتين في كل الآيات التي ورد فيها ذكرهما . وكانت كتب التفسير تقول عن الذي في قلبه مرض أنه ضعف اعتقاد (١) وتكتفي . وقد ورد في تفسير قوله عز وجل :

وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
إِلَّا غُرُورًا (٢)

ما يلي : « وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن . ونجم النفاق عن بعض المنافقين ، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط . وحتى قال أوس بن قيطي أحد بني حارثة بن الحارث — وذلك عن ملأ من رجال قومه — يا رسول الله أن بيوتنا عورة من العدو فأذن لنا أن نخرج فنرجع الى دارنا فانها خارج من المدينة » (٣) . وكذلك ورد في تفسير ابن كثير « يقول تعالى مخبرا عن ذلك الحال حين نزلت الاحزاب حول المدينة . والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق . ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالا شديدا فحيثما ظهر النفاق ، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم ، أما المنافق فنجم نفاقه . والذي في قلبه شبهة أو حسكة ضعف حاله فتفتن بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه » (٤) .

وتثبت النصوص السابقة أن القائلين كانوا من فئة المسلمين ولم يكن أحدهم مؤمنا . لأن المؤمنين ثبتوا مع النبي ، واعتقدوا بنصرة الله لرسوله . وقد ذكرهم القرآن الكريم بقوله تعالى :

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٥)

١ - حاشية العلامة الصاوي ج ٣ ص ٢٧٢ .

٢ - سورة الاحزاب ١٢ .

٣ - في ظلال القرآن ج ٦ ص ٥٤٨ .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٤٧٢ .

٥ - سورة الاحزاب ٢٢ .

وتثبت كذلك أن القائلين كانوا قسمين : المنافقين ومرضى القلوب . وكأن المؤمنين كانوا يعرفون المنافقين جيدا ويتوقعون منهم هذا الموقف المتخاذل ، ولكنهم فوجئوا ببعض المسلمين يضعفون ويعلنون خوفهم واضطرابهم . ولوتوفر أحد الباحثين على دراسة السيرة النبوية دراسة دقيقة ، لوجد أن القائلين في تلك الغزوة — غزوة الاحزاب — كان من بينهم من لم يكن يشك في اسلامه . ولكن قلبه المريض ، غير المطمئن بالايان ، خانه في ذلك الموقف العصيب .

المنافق : والنفاق

عرف العرب في الجاهلية عدة معان كلمة نفق :

١ - الرواج في البيع : قالوا نفق البيع نفاقا : راج . ونفقت السلعة تنفق نفاقا « بالفتح » غلت ورغب فيها . والنفاق ضد الكساد (١) . ونفقت سلعته ونفقها (٢) . وعلى هذا المعنى قال سدوس بن جناب (٣) :

عبد ينفق نفسه ويسوسها ويقول إنني أبر زراع
وعن هذا المعنى تحولت الى معنى مجازي هو السير السريع . وهو ما يفهم من قول علقمة بن عبدة (٤) :

فلا تَزِيْئُهُ في مشيه نَفِقٌ ولا الزفيف دُوَيْنَ الشَّدِّ مسؤوم
٢ - النفوق : الموت . نفق الفرس والدابة وسائر البهائم ينفق نفوقا : مات . قال ابن بري أنشد ثعلب (٥) :

فما أشياء نشرىها بمال فان نفقت فأكسد ما تكون
وأنفق الرجل اذا افتقر . ومن أمثال العرب : من باع عرضه أنفق . أي من شاتم الناس شتم . ومعناه أنه يجد نفاقا بعرضه ينال منه . وعليه كعب بن زهير يقول (٦) :

أبيت ولا أهجو الصديق ومن يبع بعرض أبيه في المعاشر يُنْفِقِ

١ - لسان العرب مادة نفق .

٢ - أساس البلاغة مادة نفق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - الفضليات ص ٤٠٠ .

٥ - لسان العرب مادة نفق .

٦ - لسان العرب مادة نفق ، شرح ديوان زهير ، ١٩٦٤ ، ص ٢٥٩ . الدار القومية .

٣ - والنفق : السرب في الأرض (١) . وزاد صاحب اللسان قوله : « سرب في الأرض مشتق الى موضع آخر » (٢) . أما الثعالبي فيرى أنه لا يكون نفقا الا اذا كان له منفذ والا فهو سرب » (٣) . وفي المثل العربي : ضل دريس نفقه » (٤) والجمع انفاق . واستعاره امرؤ القيس لحجرة الفترة ، فقال يصف فرسا (٥) :

خفاهن من انفاقهن كأما خفاهن ودق من عشي مُحَلَّبِ
والنفقة والنافقاء موضع يرققه اليربوع في حجره فاذا أتى من قبل القاصعاء ضرب
النافقاء برأسه وخرج . وانتفق ونفق : خرج منه ، وتنفقه وانتفقه : استخرجه من
نافقائه .

واستعاره بعضهم للشيطان فقال ، — وقيل أن البيتين لبعض الفتاك في أمه — (٦) :

وما أم الردين وأن أدلت بعالة بأخلاق الكرام
إذا الشيطان قصع في قفاها تَنَفَّقْنَاهُ بِالْحَبْلِ التَّوَامِ
وفي هذا المعنى ورد قول أوس بن غلفاء الهجيمي يصف جيشا عظيما (٧) :

جلبنا الخيل من جنبي أريك الى أجلى الى ضَلَعِ الرَّجَامِ
بكل مُنَفَّقِ الجردان مَجْرٍ شديد الاسر للاعداء حام

تلك هي المعاني التي وردت في الشعر الجاهلي لهذه الكلمة وما اشتق منها . وواضح أن مصطلح « النفاق » و « المنافق » كما عرف بعد نزول القرآن قد أخذ من النفق الذي هو سرب في الأرض . قال أبو عبيد « سمي المنافق منافقا للنفق وهو السرب في الأرض . وقيل : انما سمي منافقا لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاه . فهو يدخل النافقاء ويخرج من القاصعاء أو يدخل في القاصعاء ويخرج من النافقاء . فيقال هكذا يفعل المنافق يدخل

١ - جهرة اللغة مادة نفق .

٢ - لسان العرب مادة نفق .

٣ - فقه اللغة ص ٥١ .

٤ - مجمع الأمثال ج ١ ص ٤٣٢ .

٥ - ديوان امرئ القيس ص ٥١ .

٦ - الكشف ج ١ ص ١٩٤ ، وانظر لسان العرب مادة نفق .

٧ - الفضليات ص ٣٨٧ .

في الاسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه (١) . وقال مثله الجوهري وابن بري وأبو زيد . وقد وجدت في الشعر المنسوب الى طرفة — في ديوانه — بيتا يفيد بأن معنى الكلمة بدأ يعرف في الشعر الجاهلي بمعنى التلون والمخادعة ، قال طرفة (٢) :

وأما رجال نافقوا في إخائهم ولست اذا أحببت حرا أنافقه
والنفاق « بالكسر » فعل المنافق . وهو الدخول في الاسلام من وجه والخروج عنه من وجه آخر .

والمنافق — بهذه الصورة — مصطلح اسلامي جديد ، قال صاحب اللسان : وهم اسم اسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به . وهو الذي يستر كفره و يظهر ايمانه ، وان كان أصله في اللغة معروفا (٣) . وقال السيوطي في المزهري : « ان لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة ، والمنافق اسم اسلامي لم يعرف في الجاهلية » (٤) . ولا ينفي هذا الحكم بيت طرفة السابق ، لأنه ان صح فهو يدل على عدم شيوع معنى النفاق في العصر الجاهلي ، بالاضافة الى أن بيت الشعر السابق منسوب الى طرفة ، ولم يتحقق شارح الديوان من تأكيد نسبته اليه .

وفي القرآن الكريم رسمت صورة المنافقين في سبع وثلاثين آية . والناظر في هذه الآيات يجدها ترسم صورة لفئة من الناس تبطن الكفر وتظهر الايمان . فهم في الحقيقة كافرون ، ولكنهم يظهرون اسلامهم تمثيلا ، اما خوفا على أنفسهم أو خداعا للمسلمين . ويتحدث صاحب الظلال عن هذه الصورة فيقول : « لقد كانت هذه صورة واقعة في المدينة ، ولكننا حين نتجاوز نطاق الزمان والمكان نجدها نموذجا مكرورا في أجيال البشرية جميعا . نجد هذا النوع من المنافقين من عليّة القوم الذين لا يجدون في أنفسهم الشجاعة لمواجهة الحق بالايمان الصريح . وهم في الوقت نفسه يتخذون لأنفسهم مكان المترفع على جماهير الناس ، وعلى تصورهم للأمور . ومن ثم نميل الى مواجهة هذه النصوص كما لو كانت مطلقة في مناسباتها التاريخية . موجهة الى هذا الفريق من المنافقين في كل جيل ، والى صميم النفس الانسانية

١ - لسان العرب مادة نفق .

٢ - ديوان طرفة ص ٢٢٣ .

٣ - لسان العرب مادة نفق .

٤ - المزهري في علوم اللغة وآدابها ، السيوطي ، البابي الحلبي ، ج ١ ص ٣٠١ .

الثابت في كل جيل . انهم يدعون الايمان بالله واليوم الآخر ، وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين ، انما هم منافقون يجروون على الانكار والتصريح بحقيقة شعورهم في مواجهة المؤمنين « (١) .

وفي السيرة النبوية الطاهرة يرى المرء صورة المنافقين وهم ينخذلون عن نصرة المسلمين في مواقف الشدة والبأس . ثم يراهم وهم يخوضون في الأحاديث التي تثير الشك والاضطراب في القلوب . ومواقفهم من غزوات أحد والخندق وتبوك معروفة . وهم لهذا كانوا أخطر على المسلمين من الكفار والمشركين لأنهم عدو داخلي يستر عداوته ويعيش في كنف المسلمين . فيطلعون على ما لا يطلع عليه العدو البعيد ، فيكونون بذلك عوناً وعينا لأعداء الله من كفار مكة ومشركي العرب . وهم كذلك دائماً . ولذلك جعلهم الله أشد الفئات عذاباً يوم القيامة لأنهم أشد الفئات خطراً في الدنيا . جعلهم الله عز وجل في صف واحد مع الكافرين قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَئِنْ أَخْرَجْتُم لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِئَكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ
لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٥﴾ لَئِنْ أُنْجِرُوا لَا يُخْرَجُونَ مَعَهُمْ
وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأْأْثَرُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (٢)

ولكنهم يسبقون الكفار والمشركين الى نار جهنم كما ورد في قوله عز وجل :

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ (٣)

وقوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (٤)

١ - في ظلال القرآن م ١ ص ٤٤ - ٤٥ .

٢ - الحشر ١١ - ١٢ .

٣ - التوبة ٦٨ .

٤ - النساء ١٤٠ .

وقوله تعالى :

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ (١)

وأدل آية على مصيرهم المحتوم هي قوله تعالى :

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ (٢)

الفاسق : والفسق

ذكر الفسق أو الفسوق وما يشتق منه في أربع وخمسين آية في القرآن الكريم . وهو مصطلح قرآني جديد ، اشتق أصلاً من فَسَقَ يَفْسُقُ فُسُوقاً ، ويُقَالُ فَسُقَ ، أيضاً كله بمعنى فجر . والعرب تقول قد فسقت الرُّطْبَةُ إذا خرجت من قشرها . وكأن الفأرة انما سميت فويسقة لخروجها من جُحرها على الناس (٣) . هذا كل ما ورد في مادة فسق قبل نزول القرآن الكريم

أما بعد ذلك فقد صارت هذه الكلمة من أكثر المصطلحات الاسلامية وأشهرها دوراناً على ألسنة الناس . وتجمع كتب التفسير على أن الفاسق هو الخارج عن أمر ربه . وأن الفسق هو العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق (٤) .

وقد اشتق اسم الفاسق — في معناه الاسلامي — على اعتبار انتقال الكلمة من معناها اللغوي الى معنى مجازي . ذلك أن الفاسق حل هذا الاسم لانفساقه من الخبر بمعنى انسلاخه منه . وقد تحدثت كتب اللغة عن هذه الكلمة باختصار . من ذلك ما ذكره الامام السيوطي في المزهر « قال ابن خالويه : ان لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة . والمنافق اسم اسلامي لم يعرف في الجاهلية . وقال ابن الأعرابي : لم يسمع في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق . قال : وهذا عجيب وهو كلام عربي » (٥) . وفي تفسير الكشاف : « الفسق : الخروج عن القصد » (٦) .

١ - الاحزاب ٧٣ .

٢ - النساء ١٤٥ .

٣ - لسان العرب مادة فسق .

٤ - انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٤٤ ، وتفسير الكشاف ج ١ ص ٢٦٧ .

٥ - المزهر في علوم اللغة وآدابها ، الجزء الأول ، ص ٣٠١ .

٦ - تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٦٧ .

والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله ، بارتكاب الكبيرة . وهو النازل بين المنزلتين ، أي بين منزلي المؤمنين والكافر . وقيل أن أول من حُدَّ له هذا الحد أبو حذيفة واصل بن عطاء رضي الله عنه . وكونه بين بين يعني أن حكمه حكم المؤمن في أنه يناكح ويوارث ويغسل ويصلي عليه ، ويدفن في مقابر المسلمين ، وهو كالكافر في الذم واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته وإن لا تقبل له شهادة .

ومذهب مالك بن أنس والزيدية أن الصلاة لا تجزئ من خلفه . ويقال للمردة من الكفار فسقة . وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله . فقال في الفسوق « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » (١) وقال تعالى : « ان المنافقين هم الفاسقون » (٢) . وقال ابن كثير : الفاسقون أي الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون الى الباطل ، التاركون للحق (٣) . وفي موضع آخر قال فاسقون : خارجون عن الطريق المستقيم (٤) . وفي تفسير الخازن : الفسوق أصله الخروج عن الطاعة . وقال في تفسير قوله تعالى : « وما يكفر بها الا الفاسقون » أي يحدد بهذه الآيات الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به (٥) . والفسوق في تفسير ابن عباس هو المعاصي كلها . وقال ابراهيم وعطاء ومجاهد هو السباب بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتا له كفر » (٦) . ورأى صاحب تفسير المنار أن الفسوق في قوله تعالى : « لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » هو الخروج عما يجب على المحرم الى الأشياء التي كانت مباحة في الحل كالصيد والزينة باللباس المخيط (٧) . وقال الفراء : فسق عن أمر ربه : خرج عن طاعة ربه . وقال أبو العباس : فسق عن أمر ربه أي خرج . أما أبو الهيثم فقال : « وقد يكون الفسق شركا وقد يكون اثما » . وقال الخطابي : أصل الفسق : الخروج عن الاستقامة ، وبه سمي العاصي فاسقا (٨) .

و يلاحظ من مجموع تلك الآراء والأقوال أن الفسوق في رأى العلماء هو الخروج عن الدين . فالى أي مدى يكون هذا الخروج ؟ . وأول ما يجب أن يتحقق منه الدارس أن

١ - سورة الحجرات ١١ .

٢ - تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٦٧ . والآية هي ٦٧ من التوبة .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٥٨٥ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - تفسير الخازن ج ١ ص ١٥٣ .

٦ - تاج البغوي ج ١ ص ١٥٣ .

٧ - تفسير المنار ج ٢ ص ٢٢٧ .

٨ - الأقوال الأربعة الأخيرة في لسان العرب مادة فسق .

الفاسق لابد أن يكون قد أسلم أولاً لكي يخرج عن دينه و يكون فاسقاً فيما بعد . وهذا ما يميزه من الكافر بعده ، ومن المنافق قبله . ذلك أن الكافر لم يدخل الاسلام أبداً — كما سيأتي بيانه — والمنافق لم يخرج من الاسلام أبداً — كما سبق بيانه — ولو في الظاهر على الأقل ، أما الفاسق فهو قد أسلم ثم فعل ما يخرج به عن الدين سواء كان الخروج مؤقتاً أو دائماً . فإذا كان خروجه مؤقتاً — أي تاب بعد فسوقه — فإنه يعود الى أمة الاسلام كواحد من أفرادها . أما اذا كان خروجه دائماً — أي لم يتب بل استمر على فسوقه — فهو يصبح في عداد الكافرين والملحدين ، وعلى هذا يفسر قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » (١) .

وعلى هذا تكون كلمة أبي الهيثم السابقة أقرب الأقوال الى الحقيقة في بيان معنى الفاسق . فالفاسق قد يكون مشركاً وقد يكون آثماً . وذلك بحسب الذنب الذي اقترفه ، وعليه يكون مقدار خروجه عن دينه . وقد تنبه الى هذا الرأي صاحب الأشباه والنظائر عندما قال : « تفسير الفسق على ستة وجوه : فوجه منها فسق يعني المعصية وهو الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به . والوجه الثاني : الفسق يعني المعصية لله في ترك التوحيد وهو الشرك . والوجه الثالث : الفسق يعني المعصية في الدين من غير شرك ولا كفر . والوجه الرابع : الفسق يعني الكذب من غير كفر . والوجه الخامس يعني إثمًا من غير كفر . والوجه السادس : الفسق يعني السيئات » (٢) . وكان يؤيد رأيه بالآيات يسوقها مع كل وجه يذكره .

الكافر: والكفر

أصل الكفر في اللغة الستر والتغطية . كفر الشيء غطاه وستره . يقول لبيد (٣) :
يعلو طريقة متنها متواتر في ليلة كفر النجوم غمامها
ويقول أيضاً (٤) :
حتى اذا ألقى يدا في كافر وأجن عورات الشغور ظلامها
والكافر هنا الليل سمي به لكفره الأشياء أي يستره . وهذا المعنى نفسه هو ما يريد ثعلبة بن صغيرة المازني بقوله (٥) :

١ - سورة السجدة ١٨ .

٢ - الأشباه والنظائر ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

٣ - ديوان لبيد ص ٢٢٣ .

٤ - ديوان لبيد ص ٢٣١ .

٥ - لسان العرب مادة كفر .

فتذكروا ثقلاً رشيداً بعدما ألقى ذكاء يمينها في كافر
ويبدو أن هذا المعنى الأساسي للكلمة معروف مشهور في العصر الجاهلي . فقد ذكروه في
أشعارهم بمعنى تغطية أي شيء . فالتراب إذا غطى الرماد فهو رماد مكفور . والماء في النهر
إذا غطى ما فيه فهو نهر كافر .

وعليه قول المتلمس عندما ألقى الصحيفة التي أمر فيها عمرو بن هند بقتله (١) :

ألقيتها بالثني في جنب كافر كذلك أفني كل قِطٍّ مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيته يجول بها التيار في كل جدول
وعليه أيضاً قول النابغة (٢) :

وحلت بيوتي في يفاع ممنع تخال به راعي الحمولة طائرا
تزل الوعول العصم عن قذفاته وتضحى ذراه بالسحاب كوافرا
ومما سبق يتبين لنا أن الكفر معناه الستر والتغطية ، وهو معناه الأساسي . وكان يعني في
البداية ستر الأشياء المادية المحسوسة .

ويبدو أن الكلمة قد اتسع مدلولها حتى شملت ستر الأشياء المعنوية غير المحسوسة
كستر النعمة ، وستر البرهان والآية والدليل . وقد عرف هذا الاستعمال المجازي في شعر
العرب الجاهليين قبل أن ينزل به القرآن الكريم فيما بعد . وعليه يفسر بيت الأعشى في
مدح النعمان (٣) :

فلا تحسبني كافراً لك نعمة على شهيد - شاهد الله - فاشهد
ثم توسع العرب في استعمال مادة كفر وما اشتق منها حتى وصفوا بها من كفر بآيات
ربه ، رغم أن إيمانهم بالله كان إيماناً مضطرباً تشوبه كثير من الأباطيل ، والأخطاء .
ولكنهم كانوا يؤمنون بوجود الله . وهو إيمان موروث عن الأنبياء السابقين ، كان يعتنقه
بعض الأفراد ممن سمو بالحنفاء ، أو الموحدين « ومن هؤلاء أمية بن أبي الصلت الذي يقول
في حادث الفيل » (٤) :

ان آيات ربنا باقيات ما تمارى بهن إلا الكفور
حُبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معفور

١ - الشعر والشعراء ج ١ ص ١١٢ .

٢ - ديوان النابغة ص ٦٩ .

٣ - ديوان الأعشى ص ٢٢٩ . ويا شاهد الله يريد الملك الموكل . وكان إيمان العرب بالملكين بقية من دين إسماعيل عليه السلام .

٤ - ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٣٧ - ٣٨ .

ومنهم ورقة بن نوفل ، وقد ورد في شعره هذا المعنى ، في قوله (١) :

أرجى بالذي كرهوا جميعا الى ذي العرش أن سفلوا عروجا
وهل أمر السفالة غير كفر بمن يختار من سمك البروجا
فان يبقوا وأبق تكن أمور يضج الكافرون بها ضجيجا
وأن أهلك فكل فتى سيلقى من الاقدار متلفة خروجا
وهذا المعنى الأخير هو المعنى القرآني الاصطلاحي لكلمة كفر . كأنما يريد سبحانه وتعالى
أن الذي لا يؤمن بآيات ربه ، ولا يشكر نعمته ، يكون كمن سترها وغطاها ، فلا يراها
هو ، ولا يريد أن يراها أحد . وهذا التعليل لانتقال كفر من معناها اللغوي الى معناها
الاصطلاحي هو ما ارتآه أيضا أصحاب المعاجم وكتاب السير وعلماء التفسير .

وبهذا أصبح الكفر في الاستعمال القرآني نقيض الايمان . فالايان هو التصديق ،
والكفر عدم التصديق . وبهذا نرى أن الكفر هو شيء غير النفاق ، وغير الفسوق ، كما
فهمنا معناهما آنفا . وقد ورد مصطلحا الايمان والكفر كمعنيين متضادين متقابلين في قوله
عز وجل : « هم للكفريومئذ أقرب منهم للايمان » (٢) .

وفي القرآن الكريم وردت مادة كفر وما اشتق منها في هذا المعنى الاصطلاحي في
خمسائة وأربع وعشرين آية . واصرار القرآن الكريم على استخدام المادة في هذه الآيات
جميعها يدل دلالة واضحة على أن معناها أصبح ذا دلالة اصطلاحية . ولا ينفي هذا الحكم
ورود بعض الآيات كانت فيها كلمة « كفر » أو إحدى مشتقاتها تعنى كفران النعمة
وحجودها أو ستر الشيء وتغطيته . وهو معناها الأول . من ذلك قوله عز وجل :

قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (٣)

وقوله تعالى :

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ (٤)

١ - سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٢ .

٢ - سورة آل عمران ١٦٧ .

٣ - سورة النمل ٤٠ .

٤ - سورة العنكبوت ٧ .

وقوله تعالى :

لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ^(١)

والتكفير هنا هو التغطية والستر، وجاء في تفسير الآية الأخيرة « ويكفر عنهم سيئاتهم » أي خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ^(٢) . ومن هذا المعنى أخذ مصطلح :

الكفارة :

وهي في الفقه الاسلامي ما يفعله الانسان من عمل صالح أو صدقة طيبة أو صوم ليغفر الله له سيئة اقترفها أو عملاً غير صالح عمله أو يمينا حلف به ، وما الى ذلك . وهذا المصطلح الأخير « كفارة » ورد في القرآن الكريم في أربع آيات كلها في سورة المائدة ، وهي آخر سورة نزلت في القرآن الكريم لتبين للناس كثيرا من أحكام هذا الدين . ومن تلك الآيات قوله تعالى :

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ بِالْأَيْمَانِ فَكَفَرْتُمْ بِهِ ، إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ^(٣)

المشرك : والشرك

ذكر الفعل أشرك وما يشتق منه مئة وثمانية وستين مرة في القرآن الكريم . منها تسع وأربعون آية ذكرت فيها مصطلحات الشرك والمشاركة والمشركون والمشركات . وقد أخذ هذا المصطلح من معنى الشَّرْكَ أو الشَّرِكة بمعنى مخالطة الشريكين ، وهو معناه الأساسي .

١ - سورة الفتح ٥ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ١٨٤ .

٣ - سورة المائدة ٨٩ .

يقال اشتركنا بمعنى تشاركنا . وقد اشترك الرجلان وتشاركوا وشارك أحدهما الآخر . قال الشاعر (١) :

على كل نهد القصرين مقلص وجرء يأبى ربها أن يشاركها
بمعنى يأبى أن يشاركه أحد في الغنيمة . والشريك هو المشارك . والشُّرك في لغة العرب كالشريك . قال المسيب (٢) :

شركاً بماء الذَّؤْبِ يَجْمَعُهُ في طَوْدِ أَيَمَّنَ في قُرى قَسْر
والجمع أشراك وشركاء . قال لبيد (٣) :

تطير عدائد الأشراك شفعاً ووترأ والزعامة للغلام
وشاركت فلانا صرت شريكه . وطريق مشترك يستوي فيه الناس . واشم مشترك تشترك فيه معان كثيرة . ومنه المشترك اللفظي في علم اللغة . وأنشد ابن الأعرابي (٤) :

ولا يستوي المرآن : هذا ابنُ حُرّة وهذا ابنُ أخرى ظهرها مُتَشَرَّكٌ
وهذا يدل على أن كلمة الشرك كانت تعني الاشتراك في الجاهلية . إلا أن مصطلح الشرك بالله أو المشرك لم يعرف إلا بعد نزول القرآن الكريم . وهذا أمر بدهي لأن عقيدة التوحيد — التي تقابلها عقيدة الشرك — لم تكن معروفة لديهم ، على حين كانت عبادة الأصنام والأوثان شائعة بينهم . وهذا يعني أن الشرك كان معروفاً عملياً ولم يكن معروفاً اصطلاحاً . قال أبو العباس في قوله تعالى :

وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (٥)

صاروا مشركين بطاعتهم للشيطان ، وليس المعنى أنهم آمنوا بالله وأشركوا بالشيطان . ولكنهم عبدوا الشيطان وعبدوا الله فصاروا بذلك مشركين (٦) .

والمراد بالمشركين في القرآن الكريم هو عرب الجزيرة العربية الذين لم يكن لديهم كتاب . وإنما اتبعوا أهواءهم وعبدوا أشياء كثيرة مثل الأوثان والأصنام . وكانت لديهم

١ - لسان العرب مادة شرك .

٢ - المرجع السابق .

٣ - ديوان لبيد ، ص ٢٠٠ .

٤ - لسان العرب مادة شرك .

٥ - سورة النحل ١٠٠ .

٦ - لسان العرب مادة شرك .

بقية مشوهة من دين الاسلام الذي نزل على الأنبياء من قبلهم ، ولذلك كانوا يقولون إنهم يعبدون الاصنام لتقربهم الى الله زُلفى كما ذكر القرآن الكريم :

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (١)

وفي تفسير قوله تعالى :

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ (٢)

قال صاحبُ تفسير المنار: « وذهب الأكثرون الى أن المرادَ بالمشركات ، مشركات العرب اللاتي لا كتاب لهن لأن هذا هو عرف القرآن في لقب المشرك » (٣). ومما يؤيد ذلك قوله تعالى :

وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤)

وقد نزلت هذه الآية بعد أن كان المشركون وأهل الكتاب ملأوا الفضاء بكلامهم المؤذي للرسول وللمؤمنين (٥).

ويمكن أن يكون الكافر والمشرِك كلاهما شخصا واحدا . أي أنه يمكن أن يجمع شخص ما بين صفتي الشرك والكفر في آن واحد . ذلك أن الكافر هو الذي لا يؤمن بآيات الله ، والمشرِك هو الذي يعبد آلهة أخرى مع الله ، ويمكن أن يجتمعا في نفس واحدة ، هي التي صورها الله عز وجل بقوله :

١ - سورة الزمر ٣ .

٢ - سورة البقرة ٢٢١ .

٣ - تفسير المنار ج ٢ ص ٣٤٩ .

٤ - سورة آل عمران ١٨٦ .

٥ - تفسير المنار ج ٣ ص ٢٧٥ .

سُنُّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُ يُنَزَّلُ بِهِ
سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ^(١)

وفي قوله تعالى :

وَيَقُومَ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ
بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفُورِ ^(٢)

ولكن المشرك أبعد في الضلالة من الكافر. ذلك أن أساس العقيدة الإسلامية هو التوحيد ، فمن نقض هذه الحقيقة فقد ضل ضللاً بعيداً . والمشرِك يحتاج للعودة الى دين الله أن يكفر أولاً بآلِهته ، وأن يؤمن ثانياً بالله . مع أن الكافر لا يحتاج الا للايمان بالله . فطريقة اذن أقرب الى الايمان من المشرك . ولذلك جعل الله عز وجل رحمته تتسع لكل شيء ما عدا المشرك به ، فانه يستحيل عليه دخول جنة الله ، أو الأمل في رحمته ، قال تعالى :

إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ^(٣)

وقال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ^(٤)

الملحد :

أصل اللحد هو الميل ، ومنه سمي اللحد ، واللحد هو الشق الذي يكون في جانب القبر ، موضع الميت لأنه قد أميل عن وسطه الى جانبه . وقيل هو الذي يُحفر في عرضه ، والضريح والضريحة ما كان في وسطه ، والجمع ألحاد ولحد . والملحد كاللحد صفة غالبية ،

١ - سورة آل عمران ١٥١ .

٢ - سورة غافر ٤١ - ٤٢ .

٣ - سورة المائدة ٧٢ .

٤ - سورة النساء ٤٨ .

وأنشد صاحب اللسان (١) :

حتى أُغَيَّبَ في أثناء ملحود

ولحد القبر يلجئه لحدا وألحده : عمل له لحدا ، وكذلك لحد الميت يلحده لحداً وألحده ولحد له
وقيل لحدّه : دفنه . قال الشاعر (٢) :

أناسي ملحود لها في الحواجب

شبه انسان العين تحت الحاجب بالحد . وذلك حين غارت عيون الابل من تعب السير
(٣) .

وعن هذا المعنى اللغوي تفرعت عدة معان مجازية منها : الملتحد بمعنى الملجأ لأن
اللاجئ يميل اليه . والاحاد في اللسان الجور والميل عن الحق . روى عن الأهر : لحدت
جرت وملت . وألحدت ماريت وجادلت ، وألحد مارى وجادل (٤) .

وبذلك عُرفَ الاحاد في معناه الاصطلاحي بمعنى الميل عن الحق والعدول عنه . قال
ابن السكيت : الملحد : العادل عن الحق المُدْخِلُ فيه ما ليس فيه .

وقد ورد لفظ الاحاد أربع مرات في القرآن الكريم منها قوله تعالى :

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٥)

وجاء في تفسير هذه الآية : « قال المحققون : الاحاد يقع في أسماء الله الحسنى على وجوه :
* أحدها : اطلاق اسم الله عز وجل على غيره ، وذلك أن المشركين سموا أصنامهم بالآلهة .
واشتقوا لها أسماء الله تعالى ، فسموا اللات والعزى ومناة .

* والوجه الثاني : هو قول أهل المعاني أن الاحاد في أسماء الله هو تسميته بما لم يسم به
نفسه . ولم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ، لأن أسماء الله تعالى كلها توقيفية .

* والوجه الثالث : مراعاة حسن الأدب في الدعاء ، فلا يجوز أن يقال : يا ضار . يا خالق
القردة ، على انفراد ، بل يقال : يا ضاري نافع .

١ - لسان العرب مادة لحد .

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - المرجع السابق .

٥ - سورة الاعراف ١٨٠ .

* والوجه الرابع : ألا يسمى العبدُ اللهَ بِاسْمٍ لا يُعْرَفُ معناه ، فانه ربما سماه باسم لا يليق
اطلاقه على جلال الله سبحانه وتعالى (١) .

والاحاد هو وضع الكلام في غير مواضعه ، كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما في
شرح معنى الاحاد (٢) . وشواهد على الكفر والعناد — كما روى عن قتادة (٣) — في تفسير
قوله عز وجل :

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ
مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)

و يلاحظ أن مظاهر الاحاد في القديم والحديث واحدة ومتشابهة . فاذا كان الاحاد قديما
هو الكفر والعناد والميل عن القصد والعدول عن الحق فان الاحاد حديثا هو
كذلك الكفر بالله وانكار وجوده والاستخفاف بكل القيم الدينية .

وقد وضعت الملحد في صف وراء الشرك في البعد عن الله لأنني رأيت أنه أبعد منه في
الضلال . ذلك أن المشرك يعرف أن ثمة إلهام موجودا على صورة ما ، وهو مشرك بعبادته آلهة
أخرى يختارها على هواه كالشمس والقمر والنار والبقر وما الى ذلك ، ولكن الملحد لا
يعترف بوجود إله مطلقا ، وهذا هو الضلال المبين ، وهذا هو الذي يتهم في عقله ، ذلك أن
آيات الخالق عز وجل جليلة واضحة لا يمارى فيها الا من أنكر عقله ، وفسد ذوقه ، وتعطلت
حواسه .

الظالم لنفسه :

أما الظالم فهو صفة تتردد بين هؤلاء جميعا ، ويمكن أن يوصف بها كل شخص الفئة
الثانية التي رسمناها في الصفحات السابقة . ذلك أن أصل الظلم هو وضع الشيء في غير
موضعه . وقد أوردت معاجم اللغة عدة تعريفات للظلم يمكن أن ترد كلها الى هذا الأصل
الأول ، منها أن الظلم هو الجور ومجاوزة الحد ، والميل عن القصد .

١ - تفسير الخازن ج ٢ ص ٢٦٣ .

٢ - تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٠٢ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - سورة فصلت ٤٠ .

والظلم مصدر ظلّمته أظلمه ظلّما . وأصل الظلم وضعك الشيء في غير موضعه ، ثم كثر ذلك حتى سمي كل عسف ظلّما (١) .

وقد وردت الكلمة في الشعر الجاهلي بمعان تدل كلها على وضع الشيء في غير موضعه ، أو القيام بالأمر على غير وجهه . يقال : ظلّمت السقاء اذا شربت ما فيه قبل أن يروب . ويقال ظلّمت الأرض اذا حفرت في غير موضع حفر . قال النابغة (٢) :

الا الأواري لأياً ما أبينّها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد
وجاء في التهذيب : العرب تقول : ظلّم فلان سقاه اذا سقاه قبل أن يخرج زبده . ويقول
الفراء : يقال ظلّم الوادي اذا بلغ الماء فيه موضعاً لم يكن ناله فيما خلا ولا بلغه قبل ذلك .
قال أنشدني بعضهم يصف سيلا (٣) .

يكاد يطلع ظلّما ثم يمنعه عن الشواهدق فالوادي به شرق
وهكذا شاع استعمال ظلّم في كل ما جاوز حده ، ووضع في غير موضعه ، ثم صار الظلم مصطلحا عربيا معروفا على ألسنة الشعراء لكل ما جاوز حده في أي تصرف شائن . ولا يخفى أن ذلك تطور مجازي في التعبير عن ذلك المعنى الحقيقي . وقد شاع الظلم بهذا المعنى في الجاهلية . قال زهير (٤) :

جريء متى يظلم يعاقب بظلمه سريعا والا يُبَدّ بالظلم يظلم
وقال ضيغم الأسدي (٥) :
إذا هولم يَخْفُني في ابن عَمي وان لم ألقه الرَّجُلُ الظَّلومُ
وقال أبو زيد الطائي (٦) :

وأُعْطِي فوق التَّصْفِ ذوالحق منهم وأظْلِمُ بَغْضًا أو جميعاً مُؤَرِّبًا
وفي مثنى وأربع وثمانين آية ذكر الظلم ومشتقاته في القرآن الكريم . وهذه الآيات كلها تبرز المعنى الاصطلاحي له ، وهو مجاوزة الحد والميل عن الحق في التصرفات . قال

١ - جبهة اللغة مادة ظلم .

٢ - شرح المعانيق السبع ص ١٩٧ .

٣ - تهذيب اللغة مادة ظلم .

٤ - ديوان زهير ص ٨٤ .

٥ - لسان العرب مادة ظلم .

٦ - شعر أبي زبيد الطائي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ٤١ .

تعالى :

وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ^(١)

وقال تعالى :

يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ^(٢)

وقال تعالى :

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ^(٣)

ولهذا فإن كل من يقترب عملاً سيئاً فهو ظالم لنفسه أو لغيره . ولهذا وُصف بالظلم كل من المنافق والكافر والمشرک والملحد وغيرهم في القرآن الكريم . وكأن هذا المصطلح وضع لتحديد صفة ما وليس لتعيين موصوف محدد . ويوضح ذلك هذه الآيات البينات من قول الله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ^(٤)

وقوله تعالى :

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ^(٥)

وقوله تعالى :

يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(٦)

وقوله تعالى :

وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(٧)

١ - سورة الطلاق . ١

٢ - سورة البقرة . ٥٤

٣ - سورة البقرة . ٥٩

٤ - سورة النساء . ١٦٨

٥ - سورة الاعاء . ٨٢

٦ - سورة لقمان . ١٣

٧ - سورة البقرة . ٢٥٤

ومن أجل ما ورد في تفسير هذه الآية ما ورد عن عطاء أنه قال : الحمد لله الذي قال
«الكافرون هم الظالمون» ولم يقل : والظالمون هم الكافرون ، يعني أنه لا يكاد يسلم
أمرؤ من ظلم لنفسه أو لغيره فلو كان كل ظالم كافرا هلك الناس (١) .

وشرح الظلم كما سبق يتفق مع ما عدده العلماء السابقون من وجوه الظلم في القرآن
الكريم . قال صاحب الأشباه والنظائر : « تفسير الظلم على أربعة وجوه : فوجه منها الظالم
يعني الشرك . والوجه الثاني ظلم العبد لنفسه بذنب يعيبه من غير شرك . والوجه الثالث
الظالمين يعني الذين يظلمون الناس والوجه الرابع يظلمون يعني يضرّون و ينقصون أنفسهم
من غير شرك (٢) .

١ - تفسير المنارج ٣ ص ٢٠ .

٢ - الأشباه والنظائر ص ١٢١ .

الفصل السادس

مصطلحات في الجهاد والسلوك والطبائع

يتحدث هذا الفصل عن المصطلحات التي تتصل بالسلوك الانساني . وقد اخترت له عنوان « مصطلحات في الجهاد والسلوك والطبائع » لأن المصطلحات الواردة فيه تتحدث كلها عن هذه المعاني ، سواء من ناحية ايجابية أو سلبية . وقد رصدت في بدايته المصطلحات التي تتعلق بالجهاد وما يتفرع عنه أو يتصل به . ثم درست المصطلحات التي تدل على أنماط متقابلة من السلوك الانساني ، أو التي تدل على معان متقاربة ، وجعلت كل مجموعة منها في مبحث واحد ، أو وراء عنوان مشترك . ثم جعلت بعدها المصطلحات التي تدل على طبيعة خاصة في النفس الانسانية أو تشير الى سلوك معين . كمصطلحات الشورى والنسيء والنجوى ، على سبيل المثال . فالشورى تدل على طبيعة الخير في النفس ، وميلها الى التعاون ، والحرص على اشتراك الآخرين والاستهداء بآرائهم . والنسيء يدل على طبيعة الشر والحقد ، حيث يتم تغيير الحكم أو القانون ، أو العرف السائد تحقيقاً لمصلحة خاصة . وكذلك النجوى التي تدل على سريرة خبيثة ، وتخطيط خفي وهكذا .

وعلى هذا كانت مصطلحات هذا الفصل على الشكل التالي :

- ١ — الجهاد في سبيل الله .
- ٢ — المخلفون .
- ٣ — القاعدون .
- ٤ — الرباط .
- ٥ — النصر والفتح .
- ٦ — الحمد والشكر .
- ٧ — المعروف والمنكر .
- ٨ — التقوى والفجور .
- ٩ — الهدى والضلال .
- ١٠ — الرشد والغي .
- ١١ — الاثم والذنب والفاحشة .
- ١٢ — الجبت والطاغوت والطغيان .
- ١٣ — الباطل .
- ١٤ — السحت .

١٥ - شهادة الزور .

١٦ - الشورى .

١٧ - النسيء .

١٨ - النجوى .

الجهاد « في سبيل الله »

الجهاد كلمة مأخوذة من الفعل جَهَدَ . وَجَهَدَ يَجْهَدُ جَهْدًا واجتهد كلاهما جَدًّا . وجهدته وأجهدته بمعنى . قال الأعشى (١) :

فَجَالَتْ وَجَالُهَا أَرْبَعٌ جَهْدُنَا لَهَا مَعَ إِجْهَادِهَا

وأصل الجَهد والجُهد هو الطاقة . وقيل الجَهد المشقة والجُهد الطاقة . وقال ابن الأثير قد تكرر لفظ الجَهد والجُهد في الحديث وهو بالفتح المشقة وقيل المبالغة والغاية وبالضم الوسع والطاقة (٢) . وقال الأزهري الجهد بلوغك غاية الأمر الذي لا تألوا على الجهد فيه . والاجتهاد والتجاهد بذل الوسع والمجهود (٣) . وقالوا جَهِدُوا جَاهِدًا يريدون المبالغة في بذل الوسع . وجهد الرجل في كذا أي جد فيه وبالغ (٤) .

وقد ورد هذا المعنى اللغوي في شعر العرب في العصر الجاهلي . قالت سعدى بنت الشمردل في رثاء أخيها (٥) :

وَتَجَاهَدَا سِيرًا فَبَعْضُ مَطِيَّهِمْ حَسْرَى مُخَلَّفَةٌ وَبَعْضُ ظُلُغٍ
أَيِ اشْتَدَا فِي سِيرِهِمْ . وكذلك ورد هذا المعنى في شعر أحيحة بن الجلاح في قوله (٦) :

فَمَنْ نَالَ الْغَنَى فَلْيَصْطَنْعْهُ صَنِيعَتَهُ وَيَجْهَدْ كُلَّ جُهِدٍ
بل ان الفعل « جَاهَدَ » ورد في صيغة الأمر منه بمعنى استفرغ ما في الوسع والطاقة في

١ - ديوان الأعشى ، ص ١٠٩ .

٢ - لسان العرب مادة جهد ، وتهذيب اللغة ، مادة جهد ، ج ٦ ، ص ٣٧ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - المرجع السابق .

٥ - الأصمعيات ص ١٠٤ .

٦ - الأصمعيات ص ١٢٠ .

محاربة الأعداء . فقد خاطب عمرو بن الأهتم ابنه يحثه على التشدد في الحرب (١) :

وإن جَاهِدُوا عِيكَ فَلَا تَهَبْهُمْ وَجَاهِدْهُمْ إِذَا حَمَى الْقَسِيرُ
وقال الشماخ (٢) :

وإن جَاهِدْهُ بِالْخَبَارِ انْبِرَى لَهَا بِذَاؤٍ وَإِنْ يَهْبِطَ بِهِ السَّهْلُ يَمْعَجُ
وقال أيضا (٣) :

تُضْبِحُ وَقَدْ ضَمِنْتَ ضَرَاتُهَا غُرَقًا مِنْ طَيِّبِ الطَّعْمِ حُلُوءًا غَيْرَ مَجْهُودِ
أما كلمة « الجهاد » فهي مصدر الفعل جاهد . يقال جاهد مجاهدة وجهادا . والجهاد بهذه الصيغة لم تصادفني فيما قرأته وبحثت فيه من دواوين الشعر الجاهلي . بل وجدت فعل الأمر جَاهِدْ ، كما يلاحظ في بيت عمرو بن الأهتم السابق ، ويمكن لنا أن نستنتج أن الجهاد في المفهوم الجاهلي كان هو بذل كل ما في الوسع والطاقة في قول أو فعل في محاربة الأعداء .

وفي القرآن الكريم ورد الفعل جاهد وما يشتق منه مثل تجاهدون وبجاهدوا والمجاهدون والمجاهدين والجهاد في إحدى وأربعين آية . وقد حمل هذا الفعل ، وما اشتق منه ، معنى بذل كل ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل أو بذل في مواجهة الأعداء وقتالهم لاعتلاء كلمة الله . قال تعالى :

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)

وقال تعالى :

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ (٥)

١ - الفضليات ص ٤١٠ .

٢ - ديوان الشماخ ، ص ٩٥ .

٣ - ديوان الشماخ ص ١١٧ .

٤ - الصف ١١ .

٥ - النساء ٩٥ .

وقال تعالى :

فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (١)

وقال تعالى :

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ (٢)

ويتبين من الآيات السابقة أن الجهاد كلمة عامة تعنى كل ما يستطيع المسلم أن يبذله من جهد في سبيل إعلاء كلمة الحق . فليس الجهاد في الاسلام مقصورا على حمل السيف ، بل يتعداه الى حمل القلم وبذل المال ، وبذل الكلمة الحرة الشريفة في الميادين التي تجدي فيها الكلمة . وقد جعل الاسلام للمجاهد أجرا كبيرا ، في الدنيا والآخرة ، فهو في الدنيا منتصر عزيز ، وفي الآخرة في جنات الله ، وان قتل في سبيل الله فهو الشهيد ذو المنزلة الرفيعة والمكانة العالية عند ربه .

ومن هنا يتحدد الفرق الدقيق بين معنى الكلمة في الشعر الجاهلي وبين معناها في القرآن الكريم . فالشعر الجاهلي أورد هذه الكلمة بمعنى بذل الجهد . على حين أن الاسلام خصص الجهاد في مجال واحد ، هو « سبيل الله » . وهذه العبارة تُشكل مصطلحا قرآنيا جديدا يتفرع عن مصطلح الجهاد . وهي كما نرى تتألف من ثلاث كلمات ، ولا تؤدي معناها الا اذا وقعت في هذا الترتيب . وبديهي أن هذا المصطلح لم يكن معروفا في الشعر الجاهلي . أولاً لأنه مصطلح تركيبى ، جمعت كلماته ، لتحدد دلالة معنية عن هدف الجهاد في الاسلام . ولأنه ثانيا لم يكن للقتال في العصر الجاهلي دواع محددة ، كدواعيه وأهدافه في الاسلام . بل كان الغزو والقتال والغارات في العصر الجاهلي تجرى لدوافع قبلية ودواع مادية ، تختلف باختلاف ظروف الحياة ، وتتبدل بتغير النظم القبلية ، والأعراف البدوية ، والعادات المتوارثة . على حين أن الجهاد في الاسلام لا يكون الا لنصرة دين الله في الأرض ، بالوسيلة التي يمكن للانسان أن يتوصل بها . وهو كذلك يجري بحسب أمر الله عز وجل ويهدف الى تحقيق الغاية التي حددها جل شأنه . ومن هنا يكون ثوابه من عند الله وحده .

١ - الفرقان ٥٢ .

٢ - الحج ٧٨ .

وعلى هذا يكون الاسلام قد خصص مصطلح الجهاد وحدد مساره واتجاهه ونقاه مما كان يشوب القتال في العصر الجاهلي من فكر عقيم ، وتصرف شائن وغرض دنيء. ويكفي أن يلم القارئ بأيام العرب ليرى ما كان يجري بين القبائل من حروب طائفة ليست حرب البسوس أو حرب داحس والغبراء الا مثلين فقط من أمثلتهما المتعددة .

المُخَلَّفُونَ :

هذا المصطلح مأخوذ من الفعل خَلَفَه يُخَلِّفُه بمعنى صار خَلْفَه . واختلفه أخذه من خَلَفِه . واختلفه وخلفه وأخلفه جعله خلفه (١) .

ويقال جلست خلف فلان أي بعده . والخَلْف الظهر . ولذلك سمو المِرْبَدَ الذي يكون خلف البيت خَلْفًا . وخَلَفَه يُخَلِّفُه خَلْفًا وخَلْفًا . وقيل أن الخَلْف بفتح اللام يستعمل في الولد الصالح يبقى بعد الانسان . والخَلْف « بسكون اللام » يستعمل في الولد الطالح (٢) . ويستدلون على ذلك بقول ليبي (٣) :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خَلْف كجلد الأجر
ويقال في المثل : « سكت ألفا ونطق خَلْفًا » يقال ذلك للرجل يطيل الصمت فإذا تكلم تكلم بالخطأ . والخَلْف أيضا هو القرن يأتي بعد القرن .

وخلاف بمعنى المخالفة وبمعنى بعد . قال اللحياني : سررت بمقعدي خلاف أصحابي أي مخالفهم . وقال الشاعر الحارث بن خالد المخزومي (٤) :

عَقَبَ الربيعُ خلافهم فكأنما نَشَطَ الشواطِبُ بَيْتَهُنَّ حَصِيرًا
أي بعدهم . ومثله قول متمم (٥) :

وفقد بني أمّ تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضرعا
ويقال أيضا خَلَفْتُ فلاناً أخلفه تخليفاً ، واستخلفته أي أنا جعلته خليفتي . والخليفة الذي يُستخلف مِمَّن قَبْلَهُ والجمع خلائف ، وهو أيضا الخليف والجمع خلفاء . قال أوس بن حجر (٦) :

١ - لسان العرب مادة خلف .

٢ - لسان العرب مادة خلف .

٣ - ديوان ليبي ص ٣٦ .

٤ - لسان العرب مادة خلف .

٥ - المرجع السابق .

٦ - ديوان أوس بن حجر ص ٢٥ .

ان من الحي موجودا خليفته وما خليف أبي وهب بوجود

والخوالف : هم الذين لا يغزون واحدكم خالفة كأنهم يخلفون من غزا . والخوالف أيضا الصبيان المتخلفون . وهم أيضا القواعد من النساء في الدور ومفردها خالفة .

مما سبق يتبين لنا أن الفعل خلف اذا زيد عليه حرف اللام أصبح خَلَفَ « بتشديد اللام » بمعنى ترك خلفه ، ويدل على هذا المعنى حديث سعد « فخلَّفنا فكنا آخر الأربع » أي أخرنا ولم يقدمنا (١) . واذا زيد عليه حرفان التاء واللام صار تخلف بمعنى ظل وراء القوم برغبته . والتخلف هو التأخر .

فخلف اذن تحمل معنى غير تخلف . والتخلف غير التخليف .

اذا فهمنا ذلك في أصل الاستعمال اللغوي وعدنا الى القرآن الكريم وجدناه قد أورد الفعل خلف وما يشتق منه مثل يخلفون ، وأخالفكم . ويخالفون . ويختلفون وخلف ، واستخلف وخالفين وخوالف وخلائف ، والمخلفون والمخلفين وغيرها من المشتقات في مئة وتسع وعشرين آية . ونجد أن جل هذه المشتقات قد استعملت في القرآن بمعانيها اللغوية المستعملة في الشعر الجاهلي .

ولكن صيغة واحدة تسترعي انتباهنا ، لأنها خالفت أصل الاستعمال اللغوي في السياق القرآني . تلك الصيغة هي « الْمُخَلَّفُونَ » و « الْمُخَلَّفِينَ » وقد وردت في القرآن الكريم في أربعة مواضع . يضاف اليها صيغة « خُلِّفُوا » بالبناء للمجهول التي وردت مرة واحدة . قال عز وجل :

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا
لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٢)

وشرح هذه الآية ، بل سياقها أيضا ، يدلان على أن المخلفين فيها انما تخلفوا باختيارهم وبرغبتهم ، نتيجة ضعف ايمانهم . وقد نزلت في شأن المتخلفين من المنافقين الذين لم يسيروا مع النبي عليه السلام في غزوة تبوك . فاذا كان هؤلاء متخلفين فَلِمَ سماهم القرآن مخلفين ؟

١ - لسان العرب مادة خلف .

٢ - التوبة ٨١ .

وقال عز وجل :

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
لِيتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(١)

ومن المعروف في كتب السير أن هؤلاء الثلاثة قد تخلفوا باختيارهم ، وكانوا من المؤمنين ، وقد ندموا أشد الندم على تخلفهم بعد عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك . وصدقوه القول . فقاطعهم المسلمون خمسين ليلة مقاطعة كاملة ، حتى تاب الله عليهم . فلم سماهم الله عز وجل بالمخلفين وهم في الحقيقة متخلفون ؟ .

وكذلك الآيات الثلاث الأخرى في سورة الفتح تتحدث عن المتخلفين عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية . وقد ظن هؤلاء أن الرسول والمؤمنين معه لن ينقلبوا إلى أهليهم أبدا . وأن قريشا سوف تستأصلهم ، فتخلفوا عن الخروج نجاة بأنفسهم . ولكن القرآن الكريم وصفهم بالمخلفين لماذا ؟ .

وقبل محاولة الاجابة عن هذا السؤال يجب أن نذكر بأن هؤلاء تخلفوا نفاقا وكفرا . وأنه لا يجوز الظن بأن يكون الرسول عليه السلام قد خلف هؤلاء أو أحدهم أو جماعة منهم لأمر من الأمور ، كما كان يفعل عليه السلام مع بعض صحابته . وبعد هذه الملاحظة ينبغي أن نلاحظ هنا أثر السياق في بيان الدلالة ، الى جانب مساهمة علم الصرف في تحديد المعنى . فقلبُ الصيغة اللغوية من المتخلفين الى المخلفين يدل على أن هؤلاء الذين يتخلفون برغبتهم عن الجهاد في سبيل الله ، ليس المسلمون بحاجة لهم فكأنما هم الذين يتركونهم خلفهم لأنهم ليسوا بحاجة اليهم . وقد ذكر القرآن الكريم أن خروج مثل هؤلاء المنافقين لا يزيد المؤمنين الا خيبالا وفتنة . فكأن القرآن الكريم بهذه الصيغة « المخلفين » يُظهِرُ المسلمين على أن تخلف هؤلاء انما هو لمصلحتهم . فهم اذن « مخلفون » من حيث حاجة المسلمين اليهم ، ومتخلفون من حيث اختيارهم التخلف الشائن عن الجهاد .

وهكذا يضع القرآن قاعدة جديدة في ميدان الجهاد تتعلق بشأن الذين يتخلفون ، يصورهم القرآن أجمل تصوير ، و يصفهم أكمل وصف ، بصورة موجزة معجزة ، وهي تغيير

الصيغة من شكلها الصرفي المعهود الى شكل جديد يضيف تلك الصورة على مثل هذه الفئة المعروفة في عالم الواقع ، في كل زمن ، وحيثما كان جهاد في سبيل الله .

القاعدون :

القعود في اللغة ضد القيام ، يقال كان واقفا فقعد ، وكان مضطجعا فجلس (١) . وعند البحث في الشعر الجاهلي نجد أن هذه الكلمة قد استعملت فيه بهذا المعنى . وعليه قال طرفة ابن العبد (٢) :

تَرُدُّ عَلَيَّ الرِّيحُ ثَوْبِيَّ قَاعِدَا لَدَى صَدْفِي كَالْحَنِيَّةِ بَارِكْ
أَيُّ أَنَّ الرِّيحَ تَتَلَاعَبُ بِثَوْبِيهِ وَهُوَ قَاعِدٌ فَوْقَ جَمَلٍ كَبِيرٍ بَارِكْ . ومثل هذا المعنى ورد في قول صخر الغي (٣) :

فَلَا تَقْعُدَنَّ عَلَى زَخَةٍ وَتَضْمُرِي فِي الْقَلْبِ وَجَدًا وَخِيفًا
وَالرَّجُلُ قَاعِدٌ وَجَعَهُ قَاعِدُونَ . والمرأة قاعدة وجمعها قعود وقواعد وقاعدات . قال الشاعر (٤) :

سَمِعَنَ بَيَوْمِهِ فَظَلَلَنُ نُوحَا قُعُودَا مَا يُخَلُّ لَهْنُ عُود
وفي المعنى نفسه قال الأعشى (٥) :

فَلَا تَصْرِمِينِي وَاسْأَلِي مَا خَلِيقَتِي إِذَا رَدَّهَا فِي الْقِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا
وَكَانُوا قُعُودًا حَوْلَهَا يَرْقُبُونَهَا وَكَانَتْ فَتَاةَ الْحَيِّ مَمَّنْ يَنْبِيرُهَا
ويقال امرأة قاعد اذا قعدت عن الزوج . وجمع القاعدة من النساء عن الخروج قواعد . ومن أمثالهم « زوج من عود خير من قعود » (٥) . والمرأة قعيدة البيت لطول قعودها فيه . ومنه وصف الأسمر الجعفي لزوجته التي هزلت وبدت عظام صدرها وكان عندها ما يغنيها عن أمر القيام على الخيل واصلاحها (٦) :

لَكُنْ قَعِيدَةٌ بَيْتِنَا مَجْفُوءَةٌ بِإِدِّ جُنَاجِنُ صَدْرِهَا وَلَهَا غِنَى

١ - لسان العرب مادة قعد ، وانظر المزهري في علوم اللغة وآدابها ج ١ ص ٤٠٤ .

٢ - الاصنعيات ص ١٤٩ .

٣ - جهرة اللغة مادة قعد .

٤ - المرجع السابق .

٥ - ديوان الأعشى ص ٤٠٧ .

٦ - مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٣٣ .

وفي آيات القرآن الكريم ورد الفعل قعد وما يشتق منه ، في واحد وثلاثين آية . وقد استعمل الفعل في بعضها بالمعنى اللغوي السابق ، كما يظهر في قوله تعالى :

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ^(١)

وفي قوله تعالى :

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا^(٢)

ولكن استعمال الكلمة في معنى القعود عن القتال هو الذي شاع في القرآن الكريم حتى أصبح في الاسلام مصطلحا معروفا . وبعد نزول القرآن ، واستعماله الكلمة في هذا المعنى ، صار أشد وأوجع ما يهجي به امرؤ أن يقال له أنت قاعد .

والسبب في شيوع هذا المعنى عند الناس هو فهمهم لآيات القرآن الكريم التي تحدثت عن القعود والقاعدين . وقد قدمتهم في أقبح صورة يمكن أن يكون عليها المخلفون ، وبخاصة بعد ما عرفوه من مكانة المجاهدين ومنزلتهم في الاسلام ومن تلك الآيات قوله عز وجل في شأن المخلفين في غزوة تبوك :

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ^(٣)

١ - النساء ١٠٣ .

٢ - النساء ١٤٠ .

٣ - سورة التوبة ٤٦ .

وقوله عز وجل فيهم أيضا

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا
مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (١)

وقوله تعالى أيضا

وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعِذَّنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ
مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ
الْخَوَالِفِ (٢)

وفي موقف بني اسرائيل من نبيهم موسى عليه السلام عندما أمرهم بالخروج في سبيل
الله ، قال تعالى :

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٣)

والى جانب ذلك صاغ الناس من ذلك الفعل مثلا يضرب للذلة والجبن فقالوا لمن
يتصف بهذه الصفات « قعدد بني فلان » اذا كان خاملا (٤) .

ومعظم الآيات التي تحدثت عن القعود وردت في سورة التوبة مما يدل على أنه معنى
خالد الى يوم الدين لأنها من أواخر السور نزولا ولأنها السورة التي حددت آخر صورة
للمؤمنين والمنافقين . وهكذا نجد أن القرآن الكريم قد خصص معنى القعود بعد أن كان
عاما وجعله في موقف مخصص ، وأضفى عليه ظلالا وصفات يعرفها القارئ من السياق
القرآني .

١ - سورة التوبة ٨٣ .

٢ - سورة التوبة ٨٦ .

٣ - سورة المائدة ٢٤ .

٤ - لسان العرب مادة قعد .

الرباط — المراقبة — الربط على القلب :

الرباط على وزن فعال من ربط الشيء يربطه ربطاً بمعنى شده . والرباط ما ربط به وجمعه رُبط . والمِرْبُط والمِرْبَطة ما تربط به الدابة . والمَرْبُط موضع الربط . والربيط ما ارتبط من الدواب . وجمعه رُبط . ويجمع الرُّبُط رباطاً جمع الجمع (١) .

هذا وقد عرف الشعر الجاهلي « الرباط » على أنه الخمسة من الخيل فما فوقها . قال بشير بن أبي حماد العبي (٢) :

وان الرباط التُّكْدُ من آل داحس أَبَيْنَ فَمَا يُفْلِحَنَّ دُون رِهَانِ
اذن فقد حمل الرباط في العصر الجاهلي ثلاث معان :

* الأول : ما تربط به الدابة .

* الثاني : ما ارتبط من الدواب .

* الثالث : الخمسة من الخيل فما فوقها .

ويمكن ملاحظة الارتباط بين المعاني الثلاثة . فالمعنى الثاني من قبيل تسمية الشيء بالآلة التي تُسْتَعْدَمُ فيه . والمعنى الثالث تخصيص لبعض ما يشتمل عليه عموم المعنى الثاني . فالمعنى الثاني ما ارتبط من الدواب ، قد خصص في المعنى الثالث ما ارتبط من الخيل . والخيول بعض الدواب .

وفي القرآن الكريم ذكرت مادة « الرباط » في خمس آيات . منها :

* آيتان ذكر فيهما الفعل ربط (٣) .

* وآية ذكر فيهما الفعل يربط (٤) .

* وآية ذكر فيها الفعل رابطوا (٥) .

* وآية ذكر فيها الرباط (٦) .

قال تعالى :

وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

١ - لسان العرب مادة ربط .

٢ - المرجع السابق .

٣ - في سورة الكهف ١٤ وسورة القصص ١٠ .

٤ - في سورة الانفال ١١ .

٥ - في سورة آل عمران ٢٠٠ .

٦ - في سورة الانفال ٦٠ .

وقال تعالى :

إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

وقال تعالى :

وَلِيَرِّبَطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

وقال تعالى :

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

فما معنى الرباط ؟ وما المقصود بالمرابطة ؟ وما الربط على القلب ؟

أما الرباط - في القرآن - فهو اعداد ما يمكن من عدة لمقاتلة الأعداء ومقاتلتهم . وتختلف أسباب القوة تبعاً لما يجذب في كل عصر من أصناف الأسلحة وأدوات القتال . وتعير « رباط الخيل » في القرآن يصور أقوى سلاح كان يمدح استخدامه في العصور الأولى . أما في العصور الحديثة فإن العلم الحديث استبدل عدداً من صنوف الأسلحة التقليدية بالخيال وبالسيوف وما إليها (١) .

وأما المرابطة في المفهوم الاسلامي فهي الإقامة في ثغور البلاد ومدخلها على حدود المحاربين دفاعاً عنها إذا هاجمها الأعداء . وكان المسلمون يتخذون من المرابطة شعاراً لا يغفلون عنه . لأن الله عز وجل أمرهم بأن يأخذوا جذرهم دائماً في مواجهة أعدائهم . وأصل المرابطة أن يربط كل من الخصمين خيولهم بحيث يكونون مستعدين للقتال ، وقد اتسع هذا المعنى في الاسلام حتى صار كل مقيم لحراسة العدو مرابطاً وإن لم يكن هناك عدو ولا مركوب ولا مربوط (٢) .

١ - اراجع معنى الرباط بتوسع في تفسير المنارج ٤ ص ٣١٩ .

٢ - حاشية العلامة الصاوي ج ١ ص ١٩٩ . و اراجع كذلك تفسير المنارج ٤ ص ٣١٩ . وفي ظلال القرآن ، ٢ م ص ٢٠١ .

فالرباط ، والمراقبة — اذن — هما الاستعداد لمقابلة الاعداء بكل الجهد والقوة . وبذل كل ما في الوسع في سبيل ذلك . والرباط يشعر المسلمين بالقوة والمنعة . ودوام المراقبة يجعل بلاد المسلمين بلادا عزيزة آمنة قوية . ولذلك تكون قلوب المؤمنين واثقة مطمئنة دائما . وهذا معنى المصطلح الثالث — الربط على القلب — وقد فسرهُ المفسرون بأنه سكينه القلوب واطمئنانها وهو كذلك اليقين والصبر عند مقاتلة الاعداء (١) .

والربط على القلب احساس يعرفه كل فرد في مواطن الشدة . فكم من موقف عصيب ، وقف فيه الفرد بمجّوف الصدر ، شديد الاضطراب ، مرتجف الأوصال ، ذاهلا عمّن حوله ، وفجأة اذا به يستردّ رَوْعَهُ ، ويملك جَنَانَهُ ، ويشعر بوجوده ، ويحس بالشجاعة والثبات واليقين ، وهذا هو ما سماه القرآن « الربط على القلب » ، وهو تعبير قرآني عجيب ، يقدم صورة حية موحية .

ولا شك أن معنى مصطلح الرباط في القرآن الكريم ، هو تخصيص لمعناه في الشعر الجاهلي . فبعد أن كان في العصر الجاهلي عاما في كل ما يربط ، وفي كل ما هو من صنف الدواب ، وفي كل قتال مهما كان هدفه ، صار في القرآن خاصا باتخاذ العدة في قتال الاعداء من أجل نشر كلمة الله .

النصر والفتح :

لا يتم الحديث عن الجهاد في سبيل الله الا بالحديث عن مصطلحي النصر والفتح في القرآن الكريم ، لانهما النتيجة الحتمية للجهاد .

وقد استعملت كلمة النصر وما اشتق منها في الشعر الجاهلي . ويمكن جمع المعاني التي وردت فيها الكلمة في أربعة معان :

- ١ - النصر بمعنى سقوط الغيث على البلاد : يقال نصر الغيث البلد اذا أعانه على الخصب والنبات . والنصرة المطرة التامة . قال أبو عبيد : نُصرت البلاد اذا مطرت فهي منصورة أي ممطرة . وعلى هذا المعنى يقال : النواصر . وهي مجاري الماء الى الأودية . واحدها ناصر . وقال أبو خيرة : النواصر من الشباب ما جاء من مكان بعيد الى الوادي فقصر سيل الوادي (٢) . قال الشاعر (٣) :

١ - في ظلال القرآن ، م ٤ ص ٤٨ .

٢ - لسان العرب مادة نصر .

٣ - المرجع السابق .

ما كان أخطاه الربيع فانما نصر الحجاز بغيث عبد الواحد وعن هذا المعنى تفرع معنى آخر عن طريق المجاز. فصار يقال نصرت أرض بني فلان اذا أتيها ، أي كما يأتي الناصر من الشباب فينصر الوادي .

٢ - النصر بمعنى العطاء . نصره ينصره نصرا أعطاه . والنصائر العطايا . والمستنصر السائل . وقف اعرابي على قوم فقال : أنصروني نصركم الله . أي أعطوني أعطاكم الله (١) .

٣ - النصر أعانة المظلوم . نصره على عدوه ينصره نصرا . ورجل ناصر من قوم نُصار ، ونَصَرَ وأنصار . قال الشاعر (٢) :

والله سمى نصرك الانصارا آثرك الله به ايثارا
وقال خدّاش بن زهير وقيل هو لأبي ذؤيب الهذلي (٣) :

فإن كنت تشكون من خليل مخانّة فتلك الحواري عَقْبُها ونُصُورُها
وهنا يمكن أن تكون « نصورها » جمع ناصر كشاهد وشهود ، وأن يكون مصدرا كالدخول والخروج .

والنصرة حسن المعونة . والنصير الناصر والجمع أنصار مثل شريف وأشراف . ومن هذا المعنى أخذ مصطلح « الأنصار » على أهل المدينة لأنهم نصروا النبي عليه السلام .

وعن هذا المعنى الثالث أيضا تفرع معنى آخر للانتصار بمعنى الانتقام . يقال انتصر الرجل اذا امتنع من ظالمه وانتصر منه بمعنى انتقم (٤) .

مما تقدم يظهر أن العرب عرفوا النصر بمعاني الغيث ، واتيان البلاد ، واغاثة المظلوم ، والمعونة ، والعطاء ، والانتقام . ولا شك أن في الامكان إيجاد الصلة بين هذه المعاني كلها ، ومعرفة العلاقة التي تربط بينها وبين المعنى اللغوي الأول ، وهو الغيث .

وعندما نبحث عن معنى النصر في القرآن الكريم نجده قد استمد من هذه المعاني . ولكن هناك فرقا في مصدر النصيرين الشعر الجاهلي وبينه في القرآن الكريم . ذلك أن المعونة والعطاء والمساعدة في القرآن هي من الله . لأن النصر في القرآن الكريم مقصور على الله عز وجل . وهو أيضا لا يتنزل الا لأهله . ولا يكون الا لمن يستحقونه ممن ينصرون الله ويقاثلون في سبيل رفع كلمته .

١ - المرجع السابق .

٣ - ديوان الهذليين القسم الأول ص ١٥٨ .

٤ - لسان العرب مادة نصر .

٢ - لسان العرب مادة نصر .

وقد تضافرت الآيات الكريمات تحقق هذا المعنى وتؤيده . وقد ورد النصر وما اشتق منه في مئة وثلاثة وأربعين آية . أسند فيها النصر — غالبا — الى الله عز وجل . قال تعالى :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ^(١)

وقال تعالى :

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ^(٢)

وقال تعالى :

وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ^(٣)

ويلاحظ أسلوب الحصر في هذه الآية الكريمة .

وفي آيات قليلة ورد النصر غير مسند الى الله عز وجل ، بل أسند الى بعض الناس أو بعض المخلوقات الأخرى التي يدعي المشركون أنها شركاء الله . وأرى أن هذا الاسناد كان من قبيل التعجيز والاستخفاف بالمشركين . لأن من يستنصر بغير الله فلا ناصر له . وذلك واضح في قوله تعالى :

فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً^(٤)

وفي قوله تعالى :

فَإِذَا كَانَ لَهُمْ مِنَ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ^(٥)

وهنا يمكن أن نفهم كيف يكون النصر بمعنى الانتقام والانتصاف . فالمسلمون ، لا يحاربون أساسا الا في سبيل اعلاء كلمة الله ، ونشر دينه . والذين يقفون في سبيل ذلك هم طواغيت أهل الأرض الذين لا يريدون لكلمة الله أن تكون هي العليا . ولهذا فان الله ينتقم

١ - آل عمران ١٢٣ .

٢ - الصافات ١١٦ .

٣ - آل عمران ١٢٦ .

٤ - الاحقاف ٢٨ .

٥ - القصص ٨١ .

من الطواغيت و ينتصر للمظلومين . فالنصر في حقيقته انتقام من القوى الظالم في سبيل
احقاق الحق للضعيف المظلوم . وقد فسر العلماء قوله تعالى :

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ^(١)

بمعنى انتقم^(٢) ، وذلك في قصة نوح عليه السلام عندما خذله قومه واستهزأوا به وهو يبني
سفينته ..

ويحمل معنى النصر — في القرآن — لطيفة من لطائف الاشارات القرآنية . وذلك عندما
يفهم على أساس من قاعدته الراسخة وهو أنه لا يكون الا من عند الله . وذلك أن النصر
يحمل معنى غلبة الحق والخير دائما . لأن الله ينصر سوى الحق والخير . أما غلبة قوة على
أخرى — بعيدا عن نصر الله — فهي غلبة فقط . قد لا تحمل معنى الخير . بل ربما يؤدي
الغالب بالشروع والأخطار التي تضيّع عليه متعة النصر ، وهذا سر أسلوب الحصر الذي جاء
به القرآن الكريم ، وما النصر الا من عند الله .

وبهذا يكون النصر مصطلحا اسلاميا له معناه وله حدوده ، وله مصدره الذي لا يتعداه .
وبهذا يكون القرآن قد خصص استعمال هذه الكلمة بعد أن كانت معانيها منتشرة على عدة
دلالات كما سبق بيانه . وحدد مصدره بعد أن كان عاما . وفي هذه الأيام يتحدث الناس
عن النصر ولا يعرفون طريقه وأسبابه ، ويسمون الغلبة لفئة على أخرى من هذه الفئات
المتناحرة نصرا ، وهم بذلك مخطئون ، وأسباب الخطأ في الحالين واحدة : جهل الناس
بأحكام دينهم ، وقواعد لغتهم .

وأما الفتح فهو النتيجة الحتمية للنصر . وقبل أن نبين هذا المعنى الاصطلاحي للفتح
سنمر أولا على معناه اللغوي ، واستعمالاته في الشعر الجاهلي وكيف تطور المعنى حتى صار
الفتح مصطلحا قرآنيا جديدا في معناه .

وأصل الفتح في اللغة هو ضد الاغلاق . وكل أمر قد بدأت به فقد استفتحته وكل شيء
انكشف عن شيء فقد انفتح عنه ومنه قولهم تَفَتَّحَ الثَّوْرُ^(٣) . وفعله فتح يفتح فتحا . وفتحه
فانفتح وتفتح^(٤) . والمفتح والمفتاح : مفتاح الباب وكل ما فتح به الشيء . وقد ذكرت
معاجم اللغة عدة معان للفتح :

١ - القمر ١٠ .

٢ - انظر تفسير القرطبي ، المجلد التاسع ص ٦٣٠١ .

٣ - جهرة اللغة مادة فتح .

٤ - لسان العرب مادة فتح .

١ - الفتح ضد الاغلاق - كما سبق - وهو المعنى الأساسي الذي تفرعت عنه المعاني المجازية التالية :

٢ - الفتح الماء المفتوح الى الأرض لتسقى به ، أو هو الماء الجاري على سطح الأرض أو هو النهر ، أو هو الماء يجري من عين أو غيرها ، أو هو قناة الماء . وهذه كلها معانٍ متقاربة . وفي الحديث : ما سقى فتحا وما سقى بالفتح ففيه العشر» (١) .

٣ - الفتح : افتتاح دار الحرب وجمعه فتوح . والفتح هنا النصر (٢) . ويلاحظ أن المعاجم اللغوية تجعل الفتح هنا مرادفاً للنصر ، يقول صاحب اللسان : والفتح النصر وفي حديث الحديبية : أهو فتحُ أي نصر . وبمضي قائلاً : الاستفتاح : الانتصار . ومن هذا المعنى الثالث يقال : استفتح الله على فلان : سأله النصر عليه . والفتاحة على وزن فعالة من فتح وهي النصرة .

٤ - الفُتاحة بالضم هي الحكم . وقيل الفُتاحة والفتاحة « بالضم والكسر » أن تحكم بين خصمين . وقيل الفتاحة : الحكومة . قال الأسعر الجعفي :

ألا من مبلغ عمرا رسولا فإنني عن فتاحتكم غنيٌّ
ويقال للمقاضي الفتح لأنه يفتح مواضع الحق . والفتح الحاكم . ويقال إن أهل اليمن يقولون للمقاضي الفتح . ويقول أحدهم لصاحبه : تعال حتى أفتحك الى الفتح . وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أدري ما قوله عز وجل « ربنا افتتح بيننا وبين قومنا » حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها : تعال أفتحك أي أحاكمك . وهذا من فاتحه مفاتحة وفتاحا بمعنى حاكمه (٣) .

وحقيقة قد يكون هذا المعنى الأخير قد دخل اللغة العربية من بعض اللهجات العربية الجنوبية كالتي كانت شائعة في اليمن كما فهم من رواية حديث بنت ذي يزن أحد الباحثين (٤) . وقد يكون أيضا توسعا في معنى الكلمة واستعمالها على اعتبار أن الحكم في أمر ما هو كشف عن خباياه ، وتوضيح لمختلف جوانبه وتفصيل وجه الحق فيه .

ومهما يكن من أمر هذه المعاني التي أوردتها المعاجم اللغوية ، فاني لم أعثر في دواوين الشعر الجاهلي ما يثبت أن الجاهليين عرفوا الفتح على أنه افتتاح دار الحرب . على

١ - لسان العرب مادة فتح ، سنن النسائي ج ٥ ص ٣١ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - لسان العرب مادة فتح .

٤ - بحث جديد عن القرآن الكريم ص ٦٦ وما بعدها .

حين وردت بعض الأقوال تدل على أنهم عرفوا الفتح بمعناه اللغوي الأول وهو ضد الإغلاق ، والفتح بمعنى الحكم .

وفي القرآن الكريم ذكر الفعل فتح وما يشتق منه في ثمان وثلاثين آية . وإذا أنعمنا النظر في هذه الآيات الكريمة نجد أن معنى الفتح فيها دار حول ثلاثة معان :

١ - الفتح ضد الإغلاق ، وهو معنى الكلمة اللغوي الأول . ويتضح ذلك في قوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ ^(١)

وقوله تعالى :

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَلْعِهِمْ رُءُوسَ إِلَهِهِمْ ^(٢)

وقوله تعالى :

وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِيَ الْقُوَّةِ ^(٣)

٢ - الفتح بمعنى الحكم ، ويدل على ذلك قوله تعالى :

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ^(٤)

قال أبو عبيدة : قوله تعالى : الفتح العليم ، من قولهم فتح فلان بين بني فلان إذا حكم بينهم ^(٥) . وعلى هذا المعنى يكون يوم الفتح في مثل قوله تعالى :

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ^(٦)

هو يوم القيامة .

١ - الأعراف ٩٦ .

٢ - يوسف ٦٥ .

٣ - القصص ٧٦ .

٤ - مآ ٢٦ .

٥ - جبهة اللغة مادة فتح .

٦ - سورة السجدة ٢٩ .

٣ - الفتح هو انتشار الاسلام وظهوره بعد نصر الله لجنده في ميادين الجهاد . وهذا هو المعنى الاصطلاحي الذي ذاع وانتشر بعد نزول القرآن الكريم . وهو المعنى الذي يفهم من السياق القرآني عندما نجمع الآيات التي ذكرت النصر والفتح في سياق واحد . وسوف نرى أن للنصر معنى يختلف عن معنى الفتح . وليس الأمر كما ذكرت معاجم اللغة . ونستطيع أن نتبين معنى كلمة « فتح » الاصطلاحي وكذلك الفرق الدقيق بين كلمتي « النصر » و « الفتح » اذا نظرنا في الآيات التالية :

— قال تعالى :

وَأُخْرَىٰ مُّجِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۖ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١)

— وقال تعالى :

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (٢)

ودراسة هاتين الآيتين تدل على أن الفتح هو نتيجة من نتائج النصر . وقد سبق بيان أن النصر نتيجة لازمة للجهاد في سبيل الله . وسياق الآية الأولى يبين أن الذين يؤمنون بالله ويجاهدون في سبيله يكتب الله لهم النصر أولاً في ميدان الجهاد ، ثم يحقق لهم الفتح وهو انتشار الاسلام نتيجة جهودهم واخلاصهم في دعوتهم . هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فهو النجاة من عذاب أليم ، ومغفرة ذنوبهم ، ودخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار . وبذلك استحقوا البشري ، لفوزهم العظيم في الآخرة والفتح الذي تحقق على أيديهم في الدنيا . وبهذا المعنى الاصطلاحي ارتبط الفتح بالنصر في القرآن .

والآية الثانية هي من آخر ما نزل من القرآن ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها عند نزولها « انه قد نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » . وقد نزلت السورة بعد أن فتح الله على المسلمين مكة المكرمة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا وصار عدد المسلمين مئة ألف أو يزيدون كما قدر عددهم في حجة الوداع ، بعد أن كانوا لا يزيدون عن عشرة آلاف يوم فتح مكة ، وبعد أن كانوا ألفاً وأربعمائة رجل بعد صلح الحديبية . ولاشك أن هذا الانتشار في العدد وفي المكان للاسلام انما حصل بعد الجهاد المستمر في ميادين القتال وميادين الجهاد الأخرى . ومن تلك الميادين التي خاضها النبي عليه السلام والمسلمون معه ، ميدان الحديبية الذي عقد فيه الصلح المعروف بهذا الاسم . والذي كان سببا من أسباب انتشار الاسلام

١ - سورة الصف ١٣ .

٢ - سورة النصر ١ .

بعده . وقد قال الله عز وجل فيه

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)

في سورة الفتح التي تتحدث كلها عن أحداث الصلح .

وقد كان هذا المعنى لكلمة « الفتح » معروفا عند الصحابة وهم أهل اللغة وأهل البيان . فبعد نزول الآية الأولى من سورة الفتح روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه — في رواية — ، أو رجلا آخر من أصحاب الرسول عليه السلام ، في رواية أخرى ، قال بعد أن سمع الآية « يا رسول الله : أوفتح هو؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أي والذي نفس محمد بيده انه لفتح » (٢) .

وهناك من التعليقات ما يدل على فهم المسلمين لهذا المعنى ، وإن لم يقرروه كحقيقة علمية . قال أحد المفسرين في شأن صلح الحديبية : « سمي ظفر المسلمين فتحا تعظيما لشأن المسلمين » (٣) . وقال في موضع آخر : « وهذا من محاسن نكت القرآن ، فإن الذي كان يتفق للمسلمين فيه استئصال الكفار واستيلاء أرضهم وديارهم وأموالهم وأرض لم يطمئوها . وأما ما كان يتفق للكفار فمثل الغلبة والقدرة التي لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحا . فالتفريق بينهما مطابق أيضا للواقع ، والله أعلم » (٤) .

ويمكن أن نفهم هذا المعنى من الآيات الأخرى التي ورد فيها ذكر الفتح في مثل قوله تعالى :

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٥)

وفي تفسيرها قال قتادة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن لنا يوما أوشك أن نستريح فيه وننعم ، فقال الكفار : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين » . فهذا الحوار يدل على أن الصحابة فهموا أن الفتح معناه الراحة بعد التعب ، والصفاء بعد العناء وتحقق الغايات بعد طول السعي والجهاد .

هذه هي المعاني التي حملتها كلمة الفتح في القرآن الكريم . وقد تأكد لدينا أن الفتح بمعناه الثالث هو مصطلح قرآني جديد لم يرد في الشعر الجاهلي . وكذلك تبين لنا الفرق

١ - الفتح ١ .

٢ - في ظلال القرآن م ٧ ص ٤٨٥ .

٣ - حاشية الشريف الحسيني على الكشاف ج ١ ص ٥٧٣ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - سورة السجدة ٢٨ .

الدقيق بين مصطلحي النصر والفتح في القرآن . وهذا من كنوز القرآن الكريم الكثيرة التي لا تزال تنتظر الدارسين رغم كل ما ألف حول القرآن من كتب ودراسات .

الحمد والشكر:

الحمد في اللغة نقيض الذم . وقد حَمَدَه حَمْدًا وَمَحْمَدًا وَمَحْمَدَةً وَمَحْمِدًا وَمَحْمِدَةً ، فهو محمود وحميد والأنثى حميدة . ورجل حَمْدَةٌ كثير الحمد ، ورجل حَمَازٌ مثله . ويقال فلان يتحمد الناس بجوده أي يريهم أنه محمود . وأحمده استبان أنه مستحق للحمد ، وعن ابن الأعرابي : رجل حَمْدٌ وامرأة حَمْدَةٌ محمودان (١) . قال الأعشى (٢) :

وَأَحْمَدْتُ إِذْ نَجَّيْتُ بِالْأَمْسِ صِرْمَةً لَهَا غُدَرَاتٌ وَاللَّوَاهِقُ تَلَحَّقُ
وَيُرَوِّى أَيْضًا :

وأحمدت أن ألحقت بالأمس صِرْمَةً لها غدرات واللواحق تلحق
وحماذك أن تفعل كذا أي غايتك وقصاراك . وحماذِي أي غايتي وقصاري . وقالت أم سلمة : حماديات النساء غرض الطرف وقصر الوهادة (٣) . والمُحَمَّدُ التي كثرت خصاله المحمودة . قال الأعشى (٤) :

اليك أبيت اللعن كان كلالُها الى الماجد الفرع الجوادِ الْمُحَمَّدِ
والحمد في العصر الجاهلي كان للناس من الناس . أي أنهم كانوا يحمد بعضهم بعضا . ودليل ذلك تلك الصيغ التي وردت في مشتقات هذه الكلمة ، في أشعارهم وأمثالهم . فمن أقوالهم في الأمثال : من أنفق ماله على نفسه فلا يتحمد به الى الناس (٥) . وهناك المثل المشهور: العود أحمد .

قال طرفة (٦) :

والمجد نُؤْمِيهِ وَنَثْلِيذُهُ والحمد في الأكفاء نَذْخِرُهُ
وقال النابغة (٧) :

علون معدا نائلا ونكاية فأنت لغيث الحمد أول رائد

١ - لسان العرب مادة حمد .

٢ - ديوان الأعشى ، ص ٢٥٩ .

٣ - لسان العرب مادة حمد .

٤ - ديوان الأعشى ، ص ٢٢٥ .

٥ - لسان العرب مادة حمد .

٦ - ديوان طرفة ٩٩ .

٧ - ديوان النابغة ، ص ١٧١ .

وقال الهذلول بن كعب الغنبري (١):

واني لأشري الحمد أبغي رباحه واترك قرني وهو خزيان ناعس
ومن الأدلة القاطعة على ذلك أنهم عرفوا اسم «محمد» في العصر الجاهلي . فقد روي أنه
تسمى به سبعة من الرجال هم : محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي . ومحمد بن عتارة
الليثي ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي . ومحمد بن جمران بن مالك الجعفي المعروف
بالشويعر . ومحمد بن مسلمة الأنصاري أخو بني حارثة ومحمد بن خزاعي بن علقمة . ومحمد
بن حرماز بن مالك التميمي العمري (٢) .

أما في القرآن الكريم فقد ذكر الحمد وما يشتق منه في ثمانية وستين آية . منها ثمانية
وثلاثون آية ورد فيها « الحمد » بهذه الصيغة ذاتها . وست عشرة آية أخرى بصيغة
« الحميد » أو « حميد » . وأربع آيات ورد فيها اسم « محمد » عليه السلام ، وآية واحدة
ذكر فيها اسم « أحمد » .

وإذا تلونا آيات الله عز وجل نجد أن الحمد لم يرد في القرآن الا لله .

قال تعالى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣)

وقال تعالى :

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٤)

وقال تعالى :

وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٥)

وهناك آية واحدة فقط ، من كل الآيات التي ورد فيها ذكر الحمد أو مادته توهم أن

الحمد قد يكون للناس ، وهي قوله تعالى :

١ - ديوان الحماسة ١/ ٤١٠ .

٢ - لسان العرب مادة حمد .

٣ - الفاتحة ١ .

٤ - ق ٣٩ .

٥ - البروج ٨ .

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١)

والآية الكريمة ذاتها تؤكد أن الحمد لا يكون إلا لله. ذلك أن هؤلاء الكفار الذين ورد ذكرهم في سياق هذه الآية نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا فهم كذبوا بآيات الله اذن ، ولم يؤمنوا بأن الله عز وجل هو خالق كل شيء ، وهو أصل كل شيء على حين أن الحمد في القرآن معناه الايمان بأن النعمة والحياة والخير كله من الله ، وأنه وحده عز وجل الفاعل الأول ، الذي لا فاعل غيره لكل ما يتعامل به الانسان في الدنيا ، فالحمد اذن له وحده ، وهؤلاء — لجهلهم وانفرهم — يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا .

هكذا يكون معنى الحمد في القرآن هو معنى الحمد نفسه في الشعر الجاهلي . ولكن القرآن الكريم خصص الحمد لله عز وجل . وبذلك صار مصطلحا خاصا معروفا في حياة المسلمين لا يتوجه به المسلم إلا لله عز وجل . ومن هنا كان اسم الله عز وجل « الحميد » أي هو عز ذاته المحمود على كل حال .

وأما الشكر فالأصل اللغوي فيه هو سمن الدواب بعد أخذها العلف . وشكرها هو ظهور نمائها وظهور أثر الطعام فيها^(٢) . قال الأعشى^(٣) :

ولابد من غزوة في المصيف حَتَّى تُكِلَّ الْوَقَاحُ الشُّكُورَا
وأشكر الضرع واشتكر امتلاؤا لبناً . قال امرؤ القيس^(٤) :

تخرج الودَّ إذا ما اشجذت وتواليه إذا ما تشتكر

والشكرة والمشكار من الحلوبات التي تفرز على قلة الحظ من المرعى . ونعت اعرابي ناقته فقال : انها معشار مشكار مغبار . وجمع الشكرة شكارى ، وشكرى . وقد شكرت الحلوبة شكراً . قال الشاعر^(٥) :

نضرب دراتها إذا شَكَرَتْ بأقْطِهَا والرَّخَافُ نَسَلُوهَا
وأشكر القوم شكرت أبلهم والاسم : الشكرة . قال الخطيئة يصف ابلا غزارا^(٦) :

١ - ديوان امرؤ القيس ص ١٤٤ .

٢ - لسان العرب مادة شكر .

٣ - المرجع السابق .

٤ - آل عمران ١٨٨ .

٥ - لسان العرب مادة شكر .

٦ - ديوان الأعشى ص ١٣٥ .

إذا لم يكن إلا الماليس أصبحت لها خلق ضراتها شكرات
ثم تطورت عن هذا المعنى اللغوي عدة معان مجازية . كقولهم : اشتكرت الريح اشتدت
وأنت بالمطر . قال ابن أهر (١) :

المطعمون إذا ريح الشتا اشتكرت والطاعنون إذا ما استلحم البطل
واشكر الحر أو البرد أي اشتد .

وأما المعنى المجازي الذي اشتهر فهو الشكر بمعنى الثناء على المحسن بما أولاكه من
معروف . يقال شكرته وشكرته له . وشكران النعمة خلاف نكرانها . ويمكن تتبع طريق
تطور هذا المعنى من المعنى الأساس . فالشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل ويسمن
على قلة العلف ، فكأنه يظهر أثر ذلك العلف عليه . والإنسان يشكر كأنه يظهر أثر ذلك
الاحسان عليه .

وهكذا يكون الشكر قد استعمل في الشعر الجاهلي — كالحمد — لما يجري بين الناس ،
وما يقدم بعضهم لبعض .

وفي القرآن الكريم ورد الشكر ومشتقاته في خمس وسبعين آية . وجل الآيات تنسب
الشكر لله عز وجل لأنه تعالى وحده هو ولي النعم . ولكن الناس أيضا — من خلال نعم
الله — ينعم بعضهم على بعض ، ولذلك يشكر بعضهم بعضا . لذلك وردت آيات قليلة
تنسب الشكر للعباد . قال تعالى في قصة علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — عندما
أطعم مسكينا ویتما وأسيرا

إِنَّمَا نُنْطَعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٢)

وقال تعالى :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهِ فِي عَامَيْنِ أَنْ
أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ (٣)

١ - المرجع السابق .

٢ - الإنسان ٩ .

٣ - لقمان ١٤ .

وهكذا يكون الشكر في القرآن قد استعمل بمعناه الذي عرف به في الشعر الجاهلي وهو الثناء على المحسن . ولكن القرآن الكريم لم يجعل الحمد مرادفا للشكر كما فعل الشعر الجاهلي بل فصل بينهما بأن خصص الحمد لله وجعل الشكر لله وللعباد .

وقد تنبه بعض العلماء لوجود فرق ما بين الحمد والشكر، ولكنهم لم يتابعوا الأمر كما يظهر في السياق القرآني . قال ثعلب : الشكر لا يكون الا عن يد والحمد يكون عن يد وعن غير يد (١) . وكذلك قال ابن سيده . وقال صاحب اللسان : الشكر مثل الحمد الا أن الحمد أعم منه . فانك تحمد الانسان على صفاته الجميلة وعلى معرفته ولا تشكره الا على معرفته دون صفاته (٢) .

ولكن أحدا لم يتنبه لما ذكرته آنفا من فرق بينهما . وهو أن الحمد خاص بالله عز وجل ، والشكر يكون لله ويكون للعباد . وهذا هو الفرق الذي أكدته سياق القرآن الكريم ، وأجمعت عليه الآيات القرآنية الكريمة .

المعروف والمنكر:

المعروف مفعول من عَرَفَهُ يَعْرِفُهُ عِرْفَانًا وَمَعْرِفَةً (٣) . وتدور هذه المادة اللغوية حول عدة معان يمكن أن ندرك الرابطة بينها .

١ - العرفان هو العلم ، واعترف بمعنى عرف . قال أبو ذؤيب يصف ريحا (٤) .

مَرَّتُهُ النِّعَامِي فَلَمْ يَعْتَرِفْ خِلاف النِّعَامِي مِنَ الشَّامِ رِيحًا
والعريف والعارف مثل عليم وعالم . قال طريف بن مالك العنبري وقيل طريف بن عمرو (٥) :

أَوْ كَلِمَا وَرَدَتْ عِكَازَ قَبِيلَةٍ بَعَثُوا إِلَى عَرِيفِهِمْ يَتَوَسَّمُ
وقال ابن بري : و يأتي تعرف بمعنى اعترف ، قال طريف العنبري (٦) :

تَعَرَّفُونِي أَنَّنِي أَنَا ذَاكُمْ شَاكَ سِلَاحِي فِي الْفَوَارِسِ مَعْلَمُ

١ - لسان العرب مادة شكر .

٢ - لسان العرب مادة شكر .

٣ - المحكم والمحيط الأعظم ، ابن سيده ، تحقيق مصطفى الشعاروحسين نصار ، البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٨ ، مادة عرف

ج ١ ، ص ٧٨ .

٤ - لسان العرب مادة عرف وديوان الهذليين ١/١٣٢ .

٥ - لسان العرب مادة عرف .

٦ - المرجع السابق .

و يقال للحازي — وهو الذي ينظر في الاعضاء وفي خيلان الوجه يتكهن — عراف .
وللفنّاقن — وهو المهندس الذي يعرف الماء تحت الأرض — عراف ، لمعرفة كل منهما
بعلمه (١) .

ويبدو أن العلم بالشيء هو أصل أساس في المعاني الأخرى التي تفرعت عنه .
٢ - وتأتي اعترف بمعنى سأل ، واعترف فلان القوم سألمهم عن خبر ليعرفه . قال بشر بن
أبي حازم (٢) .

أسئلة عميرة عن أبيها خلال الجيش تعترف الركابا
٣ - والعرف — بالضم — والعرف — بالكسر الصبر . والعارف والعروفة الصابر .
والعارفة النفس الصابرة ، وعلى هذا المعنى فسروا قول عنترة (٣) :

وعلمت أن منيتي أن تأتني لا يُنجني منها الفرار الأسرع
فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو اذا نفس الجبان تطلّع

٤ - وعرف بذنبه عرفا واعترف بمعنى أقرّ ، ويقال له عرف أيضا .
أما كلمة « معروف » على وزن مفعول من الفعل عرف ، فقد عرفها الشعر الجاهلي
بعده معان :

١ - المعروف ضد المنكر . والعرف ضد النكر . والمنكر في الأصل هو المجهول ، وبذلك
يكون المعروف هو المعلوم ، وهذا المعنى متفق مع المعنى الأساسي . وعلى هذا الفهم
ورد قول المرقش الأكبر (٤) :

ودَوِيَّة « غبراء » قد طال عهدا تهالك فيها الورد والمرء ناعس
قطعت الى معروفها منكراتها بعيهمة تنسل والليل دامس

٢ - ومنها أن المعروف والعرف بمعنى الجود ، قال طرفة (٥) :

وأبذل معروفني وتصفوخليقتي اذا كُدرت أخلاق كل فتى محض

١ - لسان العرب مادة عرف .

٢ - المرجع السابق .

٣ - ديوان عنترة ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٦ ، ص ٤٩ .

٤ - الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٩ .

٥ - ديوان طرفة ص ٢٠٠ .

٣ - المعروف ، كلمة عامة لما يستحسن من الأفعال . قال إياس بن الأرت (١) :

وانسي لَقَوَاكَ لِعَافِيٍّ مَرَحَباً وللطالب المعروف إنك واجِدُهُ
وقال النابغة : (٢)

فأهلي فداء لأمريء ان أتيته تَقَبَّلَ معروفي وَسَدَّ المفاقرا
أما في القرآن الكريم فقد وردت مادة « عرف » وما يشتق منها في واحد وسبعين آية .
اثنتان وثلاثون منها ذكرت « المعروف » بهذه الصيغة نفسها ، وست آيات أخرى ذكرت
كلمة « معروفا » . وإذا أنعمنا النظر في الآيات الكريمة ، وقرأنا شروحها ، وجدنا أن هذه
المادة اللغوية قد استعملت في القرآن ببعض المعاني التي حملتها في الشعر الجاهلي ، على حين
ترك القرآن بعض المعاني الأخرى .

ففي المعنى الأساسي ، وهو المعرفة بمعنى العلم ، وإدراك الشيء ، قال تعالى :

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا
مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٣)

وقال تعالى

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَعْتَهُمْ فِي رِجْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْفُقُونَهَا إِذَا أُنْقَلَبُوا إِلَى
أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤)

وفي معنى الاقرار بالذنب قال تعالى :

وَأَخْرَوْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ
أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

١ - الحماسة ٤٤٢/٢ .

٢ - ديوان النابغة ، ص ٦٩ .

٣ - سورة المائدة ٨٣ .

٤ - سورة يوسف ٦٢ .

٥ - سورة التوبة ١٠٢ .

وقال تعالى :

قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ
مِّن سَبِيلٍ ^(١)

وأما المعنى الثاني في الاستعمال الجاهلي وهو الاعتراف بمعنى السؤال ، وكذلك المعنى الثالث وهو العرف بمعنى الصبر فلم يستعملا في القرآن الكريم .

أما كلمة المعروف فأكثر ما وردت في القرآن على أنها ضد المنكر ، وكثير ما ورد عَرَفَ في مقابل أنكر ، وبالتحديد فانه يمكن القول أن اثنتي عشرة آية في القرآن أوردت هاتين الكلمتين المتقابلتين منها :

قوله تعالى :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرُسُلَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(٢)

وقوله تعالى :

وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(٣)

وقوله تعالى :

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ^(٤)

١ - سورة غافر ١١ .

٢ - التوبة ٧١ .

٣ - آل عمران ١٠٤ .

٤ - يوسف ٥٨ .

وكلمة المعروف في القرآن جامعة الدلالة ، لا تعني شيئاً محدداً بعينه ، بل تجمع كل صفة حسنة وكل خلق كريم ، وكل تصرف متزن ، وكل سلوك سام ، وكل دعوة خيرة . وقد فسرته معاجم اللغة بمعان عامة منها أنه الجود وأنه النصفة وحسن الصحبة مع الأهل والناس جميعاً ، وأنه الصبر ، وقالوا إن المنكر ضد ذلك كله (١) . وفي كتب التفسير قالوا إنه اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه ، والاحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات ، وهو من الصفات الغالبة أي هو الخلق المعروف الذي إذا رأوه لا ينكرونه (٢) . وقد كان المفسرون يشرحون المعروف بالمعنى الذي يتلاءم مع سياق الآية الشريفة التي يرد فيها ذكره . يمثل هذا ما ذكره صاحب الأشباه والنظائر في شرح المعروف قال : « المعروف على أربعة وجوه : فوجه منها المعروف يعني الفرض ، والوجه الثاني المعروف العدة الحسنة ، والوجه الثالث أن تزين المرأة نفسها بعد العدة ، والوجه الرابع يعني ما ييسر على الإنسان » (٣) . وفي تحصيل نظائر القرآن قال : « وأما قوله المعروف على كذا وجه : فالمعروف ما عرف في أحكام الله ، وهو كذلك اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن محمداً جاء بالمعروف . والمعروف الفرض ، وإنما صار المعروف الفرض لأن ذلك معدود في محاسن الاخلاق ومعروف . والمعروف أيضاً حسنة وإنما صار المعروف حسنة لأن ذلك من تطييب نفس المؤمن » (٤) .

وما دام الأمر كذلك فإن من الأفضل أن نعتبر المعروف خلقاً اسلامياً عاماً ومقياساً ايمانياً دقيقاً يحدد به المسلم الخير من الشر في السلوك والتصرفات . ولا شك أن المعروف بهذا المعنى يختلف عن المعروف في الحياة الجاهلية ، ذلك لأن كل عصر له مقياسه وقوانينه . أما المنكر، فهو مأخوذ في الفعل نكر الأمر نكيراً وأنكره انكاراً ونُكِرَ بمعنى جَهْلَةٍ . وقد وردت له في الشعر الجاهلي المعاني التالية :

١ - المنكر خلاف المعروف على معناه الأصلي وهو المعرفة بالشيء ، والمنكر هنا بمعنى المجهول غير المعلوم . يقال أنكرت الشيء ونَكِرْتُهُ ، وعلى هذا يفسر قول الأعشى (٥) :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

١ - لسان العرب مادة عرف .

٢ - المرجع السابق .

٣ - الأشباه والنظائر ص ١١٥ .

٤ - تحصيل نظائر القرآن ص ١٠٩ .

٥ - ديوان الأعشى ص ١٣٧ .

٢ - والمنكر من الأمر خلاف المعروف على معناه الاصطلاحي . ويمكن أن ندرك تطور المعنى من الجهل بالشيء الى عدم قبوله ورفضه . كأن المعنى أخذ من عدم معرفة الناس بشيوع هذا الأمر فيما بينهم ومخالفته لما يسود بينهم في مفاهيم وعادات وأخلاق . فقالوا أنه أمر منكر، أي غير معروف ، ثم شاع هذا الاستعمال حتى صارت الكلمة مصطلحا على كل أمر أو على سلوك أو خلق مرفوض . وعليه يفسر قول الأسود بن يعفر (١):

أتونى فلم أرض ما بَيّتوا وكانوا أتوني بشيء نُكّر

٣ - كذلك شاع في العصر الجاهلي معنى ثالث لهذه الكلمة وبعض مشتقاتها . فقالوا النكر والنكراء الدهاء والفتنة . ورجل نكر ونُكِرَ ونُكِرَ ومُنْكَرٌ من قوم مناكير . ورجل منكر وامرأة نكراء بمعنى داه وداهية . وجماعة المنكر من الرجال منكرون . ومن غير ذلك يجمع أيضا بالمناكير . قال الأقبيل القيني (٢) :

مستقبلا صُحفا تدمى طوابعها وفي الصحائف حيات مناكير
وقول النابغة (٣) :

أبى الله الا عدله ووفاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

أما في القرآن الكريم فقد ورد الفعل نكر ومشتقاته في سبع وثلاثين آية لم يختلف فيها معنى الفعل ومشتقاته عن المعاني التي عرفت في الشعر الجاهلي . وقد ذكرت كلمة المنكر وحدها في ست عشرة آية ، وتقابلت مع كلمة المعروف في تسع آيات منها .

وإذا أنعمنا النظر في آيات القرآن الكريم وجدنا هذه الكلمة استعملت في آيات قليلة بالمعنى الأصلي ، على حين تضافرت الآيات الأخرى على استخدامها في المعنى الاصطلاحي وهو رفض الشيء وعدم استساغة وقوعه لمخالفته ما اتفق عليه الناس .

وعلى هذا يكون « المعروف » و « المنكر » مصطلحين قرآنيين عادا في القرآن الكريم بمعناهما في الشعر الجاهلي نفسه ، ولكن لا بد أن نذكر المقياس الذي يقاس عليه المعروف والمنكر قد تغير بنزول القرآن الكريم . فاذا احتفظت الكلمتان من حيث الاطار العام بمعناهما الجاهلي ، فانهما قد حملتا روحا جديدة في العصر الاسلامي .

١ - لسان العرب مادة نكر .

٢ - لسان العرب مادة نكر .

٣ - ديوان النابغة ، ص ٣٩ .

التقوى والفجور:

عرفت التقوى في الشعر الجاهلي بمعناها اللغوي فقط وهو الحماية والستر والصيانة ، من وقاه وقياً ووقاية وواقية بمعنى صانه (١) . قال أبو معقل الهذلي (٢) :

فعاد عليك أن لَكُنَّ حظاً وواقية كواقية الكلاب
ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى ، قال مهلهل (٣) :

ضربت صدرها إليّ وقالت يا عدياً لقد وقَّك الأواقي
وقال المتنخل الهذلي (٤) :

لا تقه الموت وقبائهُ خُطَّ له ذلك في المهبل
والتوقية: الكلاءة والحفظ . وتوقى واتقى بمعنى ، وتقيته أتقيه وأتقيه تقى وتُقيه وتقاه
والاسم التقوى (٥) . قال أوس بن حجر (٦) :

تقاك بكعب واحد وتلذه يداك إذا ما هز بالكف يغسلُ
والتقوى في الشعر الجاهلي الحذر في الشر، مهما كان مصدره ، قال زهير (٧) :

وقال سأفضي حاجتي ثم أتقي عدوي بألف من ورائي ملجَم
وقال أيضاً (٨) :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يَفِرُّه ومن لا يتق الشتم يشتم
وقال علقمة بن عبدة يمدح الحارث بن أبي شمر الغساني في يوم أباغ حيث قتل المنذر بن ماء
السماء (٩) :

فقاتلتهم حتى اتقوك بكبشهم وقد حان من شمس النهار غروب
وكذلك وردت مشتقات كثيرة لهذه المادة اللغوية في شعر عمرو بن كلثوم وعنترة والأعشى
وغيرهم . الا أنني لم أعثر على كلمة « التقوى » بهذه الصيغة نفسها فيما قرأته في الشعر
الجاهلي .

٦ - ديوان أوس بن حجر ص ٩٦ .

٧ - ديوان زهير ص ٨٤ .

٨ - ديوان زهير ص ٨٧ .

٩ - المفضليات ص ٣٩٥ .

١ - لسان العرب مادة وقى .

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - ديوان الهذليين ، القسم الثاني ، ص ١٤ .

٥ - لسان العرب مادة وقى .

أما في القرآن الكريم فقد وردت كلمة التقوى وما يشق منها في مئتين وثمان وخمسين آية . ومعنى التقوى في هذه الآيات هو عمل الانسان الصالح لحماية نفسه من عذاب الله وغضبه . وهذا المعنى هو المعنى الاصطلاحي الذي اتسع الآن حتى صار يعني الاستقامة والاخلاص في عبادة الله عز وجل . وليس من العسير ادراك العلاقة بين المعنى الجاهلي والمعنى الاسلامي ، فكلاهما يريد اتقاء الشر . ولكن المعنى الجاهلي يجعل التقوى من شروور الحياة الدنيا بالمقاييس التي تعارفوا عليها في بيئتهم ، والنظم التي وضعوها لتسيير حياتهم . أما في الاسلام فان التقوى هي من عذاب الله فقط ، وذلك عن طريق واحدة فقط ، هي اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه . ومن هنا صار المسلمون يربطون بين التقوى وبين الاستقامة في العمل . وعلى هذا يكون القرآن الكريم قد خصص دائرة استعمال مصطلح التقوى وجعله مرتبطا بحدود الدين . وقد أفاضت كتب التفسير والدراسات الاسلامية في شرح التقوى ، وبيان مظاهرها والسبيل اليها ونتائجها ، وما الى ذلك مما يطول شرحه . ويكفي هنا أن نمثل ببعض الآيات القرآنية لكي يتضح معنى التقوى في الاصطلاح القرآني .

قال تعالى :

رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١)

وقال تعالى :

قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٢)

وقال تعالى :

وَلِلَّذِينَ خَبِرُوا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفْلا تَعْقِلُونَ (٣)

وقال تعالى :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤)

١ - سورة البقرة ٢٠١ .

٢ - سورة النساء ٧٧ .

٣ - الانعام ٣٢ .

٤ - الدخان ٥١-٥٢ .

وقال تعالى :

ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعِظِمَ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (١)

وأما الفجور فهو من الفعل « فجر » ، والأصل في معنى الفجر هو الشق . ومنه الفجار الطرق مثل الفجاج . ومن فجر الرمل طريق يكون فيه . والفَجْرُ تفجيرك الماء ، والمفجر الموضع ينبثق منه . وانفجر الدم ونحوهما . تفجر أي سائلا كأنه انبعث من شق (٢) .

وعن هذا المعنى اللغوي الأساسي تطورت عدة معان أخرى ، يمكن أن نتلمس العلاقات بينها بسهولة :

١ - الفجر ضوء الصباح وهو حرة الشمس في سواد الليل . وقد انفجر الصبح وتفجر وانفجر عنه الليل ، وأفجروا دخلوا في الفجر ، قال الشاعر (٣) :

فما أفجرت حتى أهبَّ بِسُدْفَةٍ علاجيم ، عين ابني صُباحٍ تشيرها .
وقد سمي الفجر فجرا لانفجاره ، وهو انصداع الظلمة عن نور الصبح .

٢ - الفَجْرُ : بفتح الفاء والجيم هو العطاء والكرم والجود والمعروف . قال أبو ذؤيب (٤) :

مطاعيم للضيف حين الشتاء قُبُّ البطون كثيرو الفَجَر
والفجر أيضا كثرة الماء ، قال أبو محجن الثقفي (٥) :

وقد أجود وما لي بنذي فجر وأكتم السرفيه ضربة العنق
والفاجر الكثير المال . وربما كان هذا المعنى متطورا عن المعنى الأساسي بأن الذي يخالف الناس في كثرة الانفاق كأنما هو منشق عن طريقتهم ، متخذا لنفسه طريقا جديدة وأسلوبا فريدا ظاهرا في التصرف بماله .

٣ - والفَجْرُ : الميل عن الحق . قال لبید يخاطب عمه مالك (٦) :

فان تتقدم تغش منها مقدما غليظا وان أخرت فالكفل فاجر

١ - الحج ٣٢ .

٢ - لسان العرب مادة فجر .

٣ - المرجع السابق .

٤ - ديوان الهذليين ، القسم الأول ، ص ١٥٠ .

٥ - لسان العرب مادة فجر .

٦ - ديوان لبید ص ٦٥ .

يقول : مقعد الرديف مائل . وعن هذا المعنى الأخير عرف معنى الفجر الميل عن الحق والانبعاث في المعاصي . يقال فجر الانسان يفجر فُجْراً وفُجُوراً . وصار الفجر يعني الكذب والزنا والعناد وغيرها من الذنوب التي تميل بالانسان عن جادة الصواب . قال أبو ذؤيب (١) :

ولا تخنوا علي ولا تشطوا بقول الفَجْرِ إن الفَجَرَ حوبُ
وقد عرف هذا المعنى وشاع في الشعر الجاهلي . ومن ذلك تسميتهم فجار للفجرة والفجور . ويظهر ذلك من قول النابغة (٢) :

انا اقتسمنا خُطَّتَيْنَا بيننا فَحَمَلْتُ بَرَّةً وَاخْتَمَلْتُ فَجَارِ
وقد ذكر القرآن الكريم مادة فجر وما يشتق منها في أربع وعشرين آية . منها آيات وردت على المعنى الأساسي وهو انفجار الماء ، وآيات بمعنى انبثاق ضوء الصباح . ولكن جل الآيات الكريمة في هذه المادة اللغوية كرست المعنى الاصطلاحي وهو الذي يقابل التقوى في القرآن الكريم .

وتظهر تلك المقابلة في قوله تعالى :

أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٣)

وقوله تعالى :

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٤)

وهناك آيات قرآنية أوردت هذا المعنى — الانبعاث في المعاصي — مستقلاً كأنما لتوحي بأن معنى الكلمة صار من الوضوح والانتشار بحيث يمكن اعتباره مصطلحاً على معنى معروف ، مثال ذلك قوله تعالى :

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (٥)

١ - لسان العرب مادة فجر، وديوان الهذليين ٩٨/١ .

٢ - ديوان النابغة ، دار المعارف ، ص ٥٥ .

٣ - سورة ص ٢٨ .

٤ - سورة الشمس ٧-٨ .

٥ - الانفطار ١٣-١٤ .

و يلاحظ من الآية الكريمة السابقة كيف قابل القرآن بين البر والفجور وهي المقابلة نفسها التي تعرف من بيت النابغة السابق . وقال تعالى أيضا في وصف الكافرين :

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (١)

يتبين لنا من العرض السابق أن الفجور في القرآن الكريم معناه التماذي في العصيان والاغراق في المنكرات . وهو يقابل معنى التقوى وهو التماذي في طاعة الله والاستغراق في عمل الخيرات . ولكن يبدو أن معنى الفجور في القرآن الكريم لم يختلف عن معناه في الشعر الجاهلي ، على حين يمكن اعتبار مصطلح التقوى من المعاني التي خصص القرآن الكريم استعمالها ، و بين حدودها .

الهدى والضلال :

الهدى يقابل الضلال في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم . وفي الشعر الجاهلي حملت كلمة « الهدى » معنى الارشاد ودلالة الطريق . يقال هديته الى الشيء بمعنى دللته عليه وعرفته به . وما كان أحوج الناس في الجاهلية الى الهدى والهداة . فبلادهم صحراء مترامية الاطراف ، وظروفهم تدعو الى الترحال في كل حين . وعلاقاتهم بعضهم مع بعض تستدعي الحذر والحيلة من كل شيء . فلا بد اذن من الهداية في كل أمر ، في وعورة الطريق ، وفي مكامن الخطر ، وفي معضلات الأمور . ولذلك كثرت هذه المادة اللغوية في أشعارهم . قال تأبط شرا يصف دخوله شعبا وعرا دونما هاد (٢) :

تبطنته بالقوم لم يهديني له دليل ولم يُثبِّت لي النعت خابر

وقال الأسعر الجعفي في وصف ليلة مظلمة شديدة الذعر (٣) :

ومن الليالي ليلة مزؤودة غبراء ليس لمن تجشمها هدى
وقال سنان بن أبي حارثة (٤) :

ان أمس لا أشتكي نصبي الى أحد ولست مهتديا الا معي هاد
وقد قابل الشعراء الجاهليون بين الهدى والضلال ، لأن الضلال هو السير على غير هدى ، أي

١ - عبس ٤٢ .

٢ - الأصمعيات ص ١٢٥ .

٣ - الأصمعيات ص ١٤٣ .

٤ - الأصمعيات ص ٢٠٩ والفضليات ص ٣٥٠ .

بلا دليل ، ولا رفيق مؤنس ، ولا معرفة جهة السير ، ولا وجهة الطريق . وهذا معناه الضياع التام الذي لا يدري فيه الانسان شيئا عن نفسه ، فيقف حائرا قلقا مضطربا ، يتلفت ، ذاهلا عن نفسه ، وهذه الصورة هي التي أوردتها معاجم اللغة ، يقال : ضل في الأرض ضلالا اذا لم يهتد الى السبيل . وضل في الأمر ضلالا ، اذا لم يهتد له . وذهب فلان ضلة اذا لم يدرك أين ذهب (١) . قال الراجز وقيل هو أم تأبط شرا (٢) :

ليت شعري ضلة أي شيء قتلتك
وقال سبيع بن الخطيم التميمي (٣) :
ومسيب خصر ثوى بمضلة واذا تُحرَّكُ الرياحُ يزيفُ
وقال عدي بن رعاء الغساني يصف طعنة نجلاء واسعة (٤) :

وغموس تضل فيها يد الآسي ويعيا طبيبها بالدواء
وجدير بالذكر أن معنى الهدى ومعنى الضلال قد اتسع منذ العصر الجاهلي حتى شمل اتباع الرأي السديد والمشورة الناضجة أو تقديمها . وصار يوصف ذوو العقل الراجح والحكمة البالغة بأنهم أهل الهدى ، ويقابلهم — عند غياب هذه الصفات منهم — أهل الضلال . وقد ورد في ذلك أيضا شعر كثير ، اذكر منه — على سبيل التمثيل — قول الأفوه الأودي في بعض نصائحه وحكمه (٥) :

لا يصلح القوم فوضى لاسراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا
تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فان تولت فبالأشرار تنقاد
وقول أبي زبيد الطائي (٦) :

ان طول الحياة غير سعاد وضلالات تأميل طول الخلود
وهكذا نجد أن الشعر الجاهلي قد استعمل الهدى والضلال بمعنى عام مستمد من ضرورات البيئة التي كانوا يحيونها . فالهدى عندهم هو الإهداء الى الطريق والى الرأي الصحيح ، والضلال هو الضياع والتهيه أو هو الرأي الخاسر والتفكير الخاطيء .

١ - جهرة اللغة مادة ضل .

٢ - جهرة اللغة مادة ضل .

٣ - المفضليات ص ٣٧٤ .

٤ - الأصمعيات ١٥٢ .

٥ - الشعر والشعراء ١٤٩/١ .

٦ - شعر أبي زبيد الطائي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ٤٢ .

أما في القرآن الكريم فقد ورد الفعل هدى وما يشتق منه في ثلاثمائة وستة عشر موضعاً . منها تسع وسبعون آية وردت فيها صيغة « الهدى » . ومنها ستة وأربعون موضعاً ذكر فيها الهدى في مقابل الضلال . وقد ذكر الفعل ضل وما يشتق منه في القرآن الكريم في مئة وواحد وتسعين موضعاً ، منها سبع وثلاثون آية ذكر فيها الضلال بهذه الصيغة نفسها .

والهدى في القرآن الكريم هو اتباع دين الله في الأرض . ومعلوم أن دين الله لم يترك من أمر الإنسان صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وبينها وأرشد الناس إليها . فمن اتبع دين الله فهو المهتدي . ومن أعرض عنه فهو الضال . وذلك واضح في آيات الله عز وجل

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (١)

وقال تعالى :

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٢)

وقال تعالى :

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣)

وقال تعالى :

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٤)

١ - سورة الضحى ٧ .

٢ - سورة يونس ١٠٨ .

٣ - سورة الاعراف ٤٣ .

٤ - النمل ٨١-٨٢ .

وقال تعالى

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (١)

وقد أفاضت كتب التفسير في شرح معنى الهدى والضلال ، وصفات المهتدين وصفات الضالين ، ولكنها كلها لم تخرج عن معنى عام ، وهو أن المهتدين هم أهل الحق ، المتبعون لدين الله ، وأن الضالين هم الخارجون عن المنهج الإلهي الى طريق الغي (٢) .
وثمة ملاحظة أخيرة هي أن الهدى والضلال بمعنى كل منهما السابق ، كان قد تنبه له بعض الموحدين قبل نزول القرآن الكريم ، ومنه أمية بن أبي الصلت حيث يقول (٣) :

لولا وثاق الله ضل ضلالنا وَلَسَرْنَا أَنَا نَلَّ فَنُودُ
ويمكن القول ان الهدى والضلال كانا معنيين عامين في الحياة الجاهلية ، وأن القرآن الكريم خصص كلا منهما وربطه بالعقيدة الاسلامية .

الرشد والغى :

هما مصطلحان متقابلان في المعنى . جاء في اللسان الرشد والرشد والرشاد نقيض الغي . من رشد الانسان يرشد رُشدا . فهو راشد ورشيد . والرشد بالضم والتحريك اصابة وجه الأمر ومحجة الطريق . ومثله الرشاد ، ويستعمل في كل خير ، وضده الغي (٤) . وقد ذكر الرشد والغى في الشعر الجاهلي بهذا المفهوم . كل منهما يقابل الآخر في دلالة . قال دريد بن الصمة (٥) :

وهل أنا الا من غزية ان غوت غويت وأن ترشُد غزية أرشُد
وقال طرفة (٦) :

سادرا أحسب غيِّي رَشَدًا ففناهيت وقد صابت بِقُر
وقال الغطمش من بني شقرة بن كعب (٧) :

١ - آل عمران ٩٠ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ٦٩/٢ .

٣ - ديوان أمية بن أبي الصلت .

٤ - لسان العرب مادة رشد .

٥ - الحماسة ٤٧٤/١ .

٦ - ديوان طرفة ص ٨٧ .

٧ - الحماسة ٥٩٩/١ .

الا رب من يغتابني ود أنني أبوه الذي يُدعى اليه ويُنسبُ
على رَشْدَةٍ من أمه أو لَغْيَةٍ فيغلبها فحل على النسل مُتَجَبِّ
وقد ورد الرشد وحده في شعر جاهلي كثير . وهو بمعنى إصابة وجه الحق ، وحسن التصرف .
قال النابغة الذبياني (١) :

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الله ضرورة متعبد
لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولخاله رشدا وان لم يرشد
وأما الغي فهو ضد الرشد (٢) . وهذا معنى مجازي متحول عن المعنى الأساسي للكلمة وهو
من غوى الفصيل يغوى غوى إذا لم يصب ريا من اللبن حتى كاد يهلك ، أو يشم من اللبن
وفسد جوفه (٣) . ومن السهل تتبع الخطوات التي سارت فيها الكلمة حتى صارت الى
معناها وهو الهلاك لعدم سلوك سبيل الحق والخير ، فالفصيل لا يشرب اللبن حتى يكاد
يهلك . والانسان لا يستمع كلمة الحق حتى يكاد يهلك . وبذلك يكون الغي نقيض
الرشد . ولهذا ورد الغي في معظم الشواهد نقيضا للرشد ، كما ورد في الأمثلة السابقة .

ومن الغي أخذ العرب تعبير الأَرْضِ المغواة أي المضلة . والمغواة حفرة كالزُبَّةِ تُحْتَفَرُ
للأسد ليقع فيها . قال مُعَلِّسُ بْنُ لَقِيطٍ (٤) .

وإن رأيتني قد نَجَوْتُ تَبَغْيَا لِرَجْلِي مُغَوَاةَ هَيَامَا تُرَابَهَا

وفي القرآن الكريم وردت المقابلة بين الغي والرشد في آيتين . قال تعالى :

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (٥)

وقال تعالى

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ
آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (٦)

٤ - المرجع السابق .

٥ - البقرة ٢٥٦ .

٦ - الاعراف ١٤٦ .

١ - ديوان النابغة ص ٩٥ .

٢ - جهرة اللغة مادة غوى .

٣ - لسان العرب مادة غوى .

وفي تفسير أبي السعود أن الرشد هو اصابة الأمر ومحنة الطريق وهو الحق (١). وهكذا يكون الرشد في المصطلح الاسلامي هو الاهتداء الى طريق الحق وسلوكها والثبات عليها . والغني نقيضه . وهما معنيان لا يختلفان عما حملته الكلمتان في الشعر الجاهلي .

والرشيد اسم من أسماء الله تعالى كما نص الحديث الذي ورد في مقدمة فصل العقيدة . ولكنه لم يرد في القرآن الكريم . وقيل في معناه هو الذي تنساق تدبيراته الى غاياتها على سبيل الرشاد والسداد من غير اشارة مشير ولا تسديد مسدد . وقد وردت كلمة رشيد بمعنى مهتد في القرآن الكريم ، في قوله تعالى على لسان لوط عليه السلام :

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٢)

الاثم والذنب والفاحشة :

شاعت كلمة الاثم في الشعر الجاهلي ، وهي هناك بمعنى الذنب الذي يوجب العقوبة ، من ذلك قول امرئ القيس (٣) :

فاليوم أشرب غير مستحقب اثمًا من الله ولا واغل

وقول الحصين بن الحُمام المَرَى (٤) :

جزى الله أثناء العشيرة كلها بدارة موضوع عقوقا ومأثما
وتُعرّف معاجم اللغة الإثم بأنه الذنب ، والذنب بأنه الاثم (٥) . الا أنني أرى أن بينهما فرقا في المعنى يؤدي الى اختلاف في الاستعمال . خاصة اذا علمنا أن كلا منهما قد ذكر في القرآن الكريم .

أما الاثم ، فقد ورد تعريف جامع له في السنة الشريفة : « عن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البرِّ والإثم فقال : البرُّ حسنُ الخُلُقِ ، والاثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » (٦) . فلا اثم — بناء على الحديث الشريف — يحمل احدى صورتين :

١ - تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٥٤ .

٢ - هود ٧٨ .

٣ - الأصمعيات ص ١٣٠ ، وديوان امرئ القيس ص ١٢٢ وواغل متطفل على الشرب دون دعوة .

٤ - المفضليات ص ٦٤ .

٥ - القاموس المحيط مادة اثم .

٦ - التاج الجامع للأصول ج ٥ ص ٣ .

— الأولى : التخطيط والتدبير لأفعال السوء .

— الثانية : اقتراف المنكر وكتمان ذلك عن الناس ، وخشيته المرء أن يطلع على سره أحد .

والاثم يسبب الضرر لمقتربه وللأمة جميعا . والضرر قد يصل الى حد المرض الخطير . وقد قالوا في تفسير قوله تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا^(١)

أن الاثم هو الضرر^(٢) . وقالوا في معناها أيضا — فيما روي عن ثعلب — « كانوا اذا قاموا فقمروا أطعموا ومنه تصدقوا ، فالاطعام والصدقة منفعة ، والاثم القمار . وهو أن يهلك الرجل ويذهب ماله^(٣) . وليس أشد ضررا من أن يهلك رجل ويذهب ماله نتيجة اقترافه عملا ما .

وآيات القرآن الكريم تبين أن الاثم بهذا المعنى أوسع من الذنب . فالذنب هو الفعل الخاطيء الذي يقتربه الانسان ، وهو غالبا ما يندم عليه ويتمنى الا يعود اليه وهو ليس في خطورة الاثم وفي تأثيره على المجتمع ككل .

وقد اهتم العلماء السابقون بشرح معنى الاثم أكثر من اهتمامهم بكلمة الذنب ، وربما يدل هذا على شعورهم بأن الإثم شيء أكبر من الذنب وأخطر . قال صاحب الأشباه والنظائر : « ورد تفسير الاثم على خمسة وجوه : فوجه منها الاثم يعني الشرك . والوجه الثاني الاثم يعني المعصية ، والوجه الثالث يعني الذنب . والوجه الرابع الاثم يعني الزنا والوجه الخامس الاثم يعني الخطأ »^(٤) . ومن هذا النص يظهر أن الذنب هو بعض الاثم . وأن دائرة الاثم تتسع لتشمل الكبائر . والواقع أن آيات القرآن الكريم قد ربطت بين الاثم والكبائر العديدة مما يدل على أنه عمل منكرو ، وتصرف بعيد عن الصواب . قال تعالى في وصف عباد الرحمن :

١ - البقرة ٢١٩ .

٢ - تفسير المنار ٢/٣٢٢ .

٣ - لسان العرب مادة اثم .

٤ - الأشباه والنظائر ص ٣١١ .

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ^(١)

ولا شك أن الشرك بالله وقتل النفس والزنا من أشد المنكرات وأكبر الكبائر. وقال تعالى أيضا

لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(٢)

وهو أكل مال اليتامى ، وأموال الناس . وقال تعالى :

وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ^(٣)

وقال تعالى :

أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ^(٤)

وفي خطأ من يكتب شهادة الحق قال تعالى

وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ رِءَاثِمٌ قَلْبُهُ ^(٥)

وكتمان شهادة الحق هو في الحقيقة شهادة زور، لأن عدم التصريح بالحق هو نشر للباطل والكذب . كل تلك الآيات تبين الى أي حد يسبب الإثم ضررا في الحياة الانسانية .

أما الآيات القرآنية التي ذكر فيها الذنب فهي غالبا تتحدث عن خطأ الانسان ، ولما يرد فيه ذكر الكبائر. قال تعالى

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْعَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ^(٦)

١ - الفرقان ٦٨ - ٦٩ .

٢ - البقرة ١٨٨ .

٣ - المجادلة ٨ .

٤ - النساء ٥٠ .

٥ - البقرة ٢٨٣ .

٦ - الرحمن ٣٩ .

والآيات القليلة التي ربطت بين الذنب والكبائر معدودة ومحددة ، منها قوله تعالى :
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ (١)

وهذا يدل على أن دائرة الذنب أضيق في الاسلام من دائرة الاثم . وأن الذنب والاثم ليسا مترادفين كما قالت معاجم اللغة ، خاصة عندما نؤكد أن كلمة الاثم تحمل في ثناياها أيضا مفهوم الجزاء . فكلمة الاثم تدل على كبر الذنب وشناعة الجزاء التي ينتظر الاثم .

أما الفاحشة فهي صفة تقع بين الاثم والذنب فهي تدخل ضمن الاثم وترتفع عن مستوى الذنب . وقد عرفت بأنها ما يتجاوز الحد في القبح من العظائم . وهي ما يجب الحد فيه عن الاعمال المنكرة (٢) . وقد تعددت أقوال الفقهاء في الفرق بين الفاحشة والاثم ، فقالوا ان الفواحش هي الكبائر لأنه قد تفاحش قبحها وتزايد ، والاثم عبارة عن الصغائر من الذنوب (٣) . وقالوا إن الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب والاثم اسم لما لا يجب فيه الحد (٤) . ويمكن أن تردّ هذا الرأي بأن القرآن الكريم قرن كبائر الذنوب بالاثم وقدمه على الفواحش في قوله تعالى

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ (٥)

وقالوا إن الفاحشة اسم للكبيرة والاثم اسم لمطلق الذنب ، وأعتقد أن هذا أقرب الآراء الى الصواب ، فالاثم — كما سبق — يتضمن الفواحش والذنوب ، الى جانب أن الفاحشة تكاد تقتصر في القرآن على احدى الكبائر وهي الزنا . وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن الفاحشة وتقصد بها الزنا الأمر الذي جعل الفقهاء يقرنون بين الفاحشة والزنا دائما . جاء في التفسير «وقيل إن الفاحشة وان كانت بحسب اللغة اسم لما تفاحش من قول أو فعل ، لكنه قد صار في العرف مخصوصا بالزنا ، لأنه اذا أطلق لفظ

١ - آل عمران ١٣٥ .

٢ - الكشف ٣٢٨/١ .

٣ - تفسير الخازن ١٨٥/٢ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - سورة النجم ٣٢ .

الفاحشة لم يفهم منه الا ذلك فوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا» (١) .

وقد وردت الفاحشة في الشعر الجاهلي بمعنى اقتراف الفعل المشين دون تخصيص فعل معين . قال الأعشى باهلة (٢) :

لَا يُضْعِبُ الْأَمْرَ إِلَّا رِيثَ يَرْكَبُهُ وَكُلُّ أَمْرٍ سَوَى الْفَحْشَاءِ يَأْتِمُرُ
وقال عمرو بن معد يكرب (٣) :

تَمَتَّعْتُ ذَاكَ وَكُنْتُ أَمْرًا أَصْدُّ عَنِ الْخُلُقِ الْفَاحِشِ
وقال النابغة (٤) :

بِضَاءِ كَالشَّمْسِ وَافَتْ يَوْمَ أَسْعَدِهَا لَمْ تُؤْذِ أَهْلًا وَلَمْ تَفْحَشْ عَلَى جَارِ
وقال النابغة أيضا وهو يهجو النعمان بن المنذر (٥) :

لَا أَرَى حَاجِزًا عَنِ الْفَحْشِ فِيهِمْ وَحَارًا عَنْ أُمِّهِ مَشْكُولًا
وقال الأعشى (٦) :

خَلْفَ الْعِضَارِيطِ لَا يُوقِنُ فَاحِشَةً مَسْتَمْسِكَاتٍ بِأَقْتَابِ وَأَكْوَارِ
وهكذا يكون القرآن الكريم قد خصص هذا المعنى العام كثيرا، وكاد أن يحصر الفاحشة بالزنا، الا أن ذلك لا يمنع من أن تفسر الفاحشة في القرآن بأنها كل قبيحة تشيع بين الناس و يصيب أذاها المجتمع بأسره .

الجبث والطاغوت والطغيان :

في آية واحدة فقط ذكر الجبث في القرآن الكريم . قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبْثِ وَالْطَّاغُوتِ (٧)

وذكر الطاغوت في ثماني آيات ، بينما وردت مادة « طغى » وما يشتق منها في اثنتين وثلاثين آية . والجبث كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك . وفي الحديث الشريف « الطيرة والعيافة والطرق من الجبث » (٨) وفي كتب اللغة والتفسير تخصيص لمعنى الجبث بأنه حيي بن أخطب رئيس اليهود ، وورد عن الشعبي وعطاء ومجاهد بأنه السحر (٩) .

٦ - ديوان الأعشى ، ٧٦ .

٧ - النساء : ٥١ .

٨ - مختار الصحاح : ٩١ ، رواه أبو داود ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

٩ - لسان العرب : مادة جبث .

١ - تفسير البغوي ١٨٥/٢ .

٢ - الأسمعيات ٩١ .

٣ - الأسمعيات ١٧٨ .

٤ - جواهر الأدب ج ٢ ص ٤١ .

٥ - ديوان النابغة ص ١٧٠ .

وفي تفسير القرطبي لهذه الآية من سورة النساء قال : « اختلف أهل التأويل في تأويل الجبت والطاغوت ، فقال ابن عباس وابن جبير وأبو العالية : الجبت الساحر بلسان الحبشة والطاغوت الكاهن . وقال الفاروق عمر رضي الله عنه الجبت السحر والطاغوت الشيطان . وقال قتادة : الجبت الشيطان والطاغوت الكاهن . وروى ابن وهب عن مالك بن أنس : الطاغوت ما عبد من دون الله . وقيل هما كل معبود من دون الله ، أو مطاع في معصية الله ، وهذا حسن . وأصل الجبت الحبس ، وهو الذي لا خير فيه فأبدلت التاء من السين ، قاله قطرب . وقيل الجبت كل ما حرم الله ، والطاغوت كل ما يظنى الانسان ، والله أعلم (١) . وأما الطاغوت فهو مأخوذ من طغى طغياناً . والطغيان هو تجاوز الحد . مثل طغيان البحر . وطغيان الحاكم . وقد ذكر أن الطاغوت هو ما تكون عبادته والايمان به سبباً للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يعبد ورئيس يقلد وهوى يتبع (٢) .

والآيات القرآنية تفسر هذا المعنى وتوضحه قال تعالى :

أَذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٣)

وقال تعالى :

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْغَىٰ ﴿١﴾ أَن رَّأَاهُ اسْتَغْنَىٰ (٤)

وقال تعالى :

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَاغِيَةٍ (٥)

والطاغية هنا الصاعقة .

والجبت والطاغوت كلاهما مصطلح قرآني جديد ، ولم أجد — فيما قرأت — من الشعر الجاهلي شاهداً على أي منهما .

الباطل :

الباطل هو العمل الذي ليس له نتيجة ، أو العمل الذي يعود بنتيجة سلبية على فاعله .

١ - تفسير القرطبي ، المجلد الثالث ، ص ١٨١٨ .

٢ - تفسير المنارج ٣ ص ٣٧ .

٣ - طه ٤٣ .

٤ - العلق ٦ .

٥ - الحاقة ٥ .

وهو مأخوذ من بطل الشيء يبطل بُطْلَانًا وْبُطْلًا وْبُطُولًا بمعنى ذهب ضياعاً وخُسراً، فهو باطل . وقد شملت الكلمة القول والعمل . يقال بَطَلَ في حديثه بَطَالَةً وأَبْطَلَ قَهْرًا ، والاسم البَطْلُ (١) . وبذا يكون الباطل معنى شاملاً لكل عمل أو قول يخافى الصواب ويتنكر .
للحق . وهذا هو معنى الكلمة في الشعر الجاهلي . قال دريد بن الصمة (٢) :

صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه فلما علاه قال للباطل أبعد
وقد شرحوا الصبوة بأنها جهلة الفتوة واللهو، وهو ما يريده الشاعر بالباطل .
وقال عبيد بن الأبرص (٣) :

زعمتُ أنني كبرتُ وأنى قَلَّ ما لي وَضَنَّ عني المولي
وصحا باطلاي وأصبحتُ شيخا لا يواتي أمثالها أمثالي
وقال المثقب العبدى (٤) :
فأبقى باطلاي والجد منها كدكان الدرابنة المطين
وقال امرؤ القيس (٥) :

يا لهف نفسي اذ خطئن كاهلا القاتلين الملك الحاحلا
تالله لا يذهب شيخي باطلا
والباطل هنا في البيت الأخير هو الخسارة . أي لا يذهب دم أبي هذرا وضياعا . وقد عرفت
الكلمة في الجاهلية بأنها نقيض الحق . والحق هو الصواب ، والباطل هو عكس ذلك .
قال زهير (٦) :

وذى نعمة تَمَّمْتُها وشكرتها وخصم يكاد يغلب الحق باطله
وقال لبيد (٧) :
أنكرت باطلها وبؤت بحقها عندي ولم يفخر عليّ كرامها

١ - لسان العرب مادة بطل .

٢ - الحماسة ٤٧٤/١ ، الأصمعيات : ص ١٠٨ .

٣ - ديوان عبيد بن الأبرص ص ١١٤ .

٤ - جهرة اللغة ج ٢ ص ٢٩٣ .

والدراينة جمع دربان وهو البواب بالفارسية .

٥ - ديوان امرؤ القيس ص ١٣٤ .

٦ - الشعر والشعراء ٨٦/١ وديوان زهير ص ٦٨ .

٧ - شرح المعلقات السبع ص ١٢١ .

ونزل القرآن الكريم . فأكد هذا المعنى للباطل ، وجعل منه مصطلحا اسلاميا شائعا ، لأنه جعله أيضا نقيض الحق . والحق أساس في حياة المسلمين . وقد وردت كلمة الباطل في أربعة وعشرين موضعا في القرآن الكريم ، منها اثنتا عشرة آية تجعل الحق والباطل معنيين متقابلين :

قال تعالى :

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(١)

وقال تعالى :

لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ^(٢)

وقال تعالى :

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ^(٣)

وعلى هذا يكون الباطل في الاسلام هو الجهد الضائع والعمل الخاسر والاعتقاد الزائف ، لأنه نقيض الحق . والحق هو الدين الباقي والشرع الخالد .

السحت :

ذكر السحت في ثلاث آيات من سورة واحدة هي سورة المائدة . قال تعالى :

سَمِعُوعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْسُّحْتِ ^(٤)

وقال تعالى

وَرَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ
لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ
الْأَيْمِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ^(٥)

١ - البقرة ٤٢ .

٢ - الانفال ٨ .

٣ - الاسراء ٨١ .

٤ - المائدة ٤٢ .

٥ - المائدة ٦٢ - ٦٣ .

وقد ورد في تفسير السحت أنه الحرام من الربا والرشوة وشبه ذلك (١) . وهو أيضا كل ما لا يحل كسبه (٢) . وهو ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار ، وقبيح الذكر كثمن الكلب والخنزير وغيرهما (٣) .

والسحت مأخوذ من سحت الشيء أو أسحته أي استأصله هلاكا (٤) . وبذلك يدخل فيه كل حرام من قول أو فعل ، ولذلك قالوا هو كل حرام قبيح الذكر يلزم فيه العار (٥) . والسحت بهذا المعنى الأساسي ورد في القرآن الكريم أيضا في قوله تعالى :

لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ (٦)

ود انتقل هذا المعنى الى المعنى الاصطلاحي لارتباط السبب بالنتيجة . فكل مال محرم ، وكل ربح غير مشروع ، وكل عمل قبيح سوف يؤدي بصاحبه وفاعله الى الهلاك ، أي يسبب هلاكه ، وبذلك يسبب له السحت الذي هو في الأصل الاستئصال وشدة العذاب .

والدليل على أن السحت هو ما يحصل عليه الانسان من مال حرام هو حديث النبي صلى الله عليه وسلم « كل لحم انبته السحت فالنار أولى به » (٧) . وهذا يدل على أن الكسب الحرام من الربا والرشوة وغيرهما سبب في انبات أجسام هائلة وتوفير أموال عظيمة ، وقد تعجب أهل الدنيا ولكنها في الحقيقة أموال محرمة ، بل هي — لو علموا — نارتأكل أصحابها قبل أن تأكل نفسها .

والسحت مصطلح قرآني جديد ، لم يعرف في الشعر الجاهلي . ذلك أن هذه المصطلحات نبتت في البيئة الاسلامية بسبب القوانين الجديدة التي سنّها الاسلام ، ولم تكن معروفة في حياة الجاهليين ، وبالتالي لم ترد في أشعارهم .

شهادة الزور:

حذر القرآن الكريم من قول الزور وشهادة الزور مرتين . وفي آيتين أخريين وصف المنكر من القول بأنه قول زور . قال تعالى :

١ - التسهيل ج ١٧٧/١ وحاشية العلامة الصاوي ٢٨٤/١ .

٢ - تفسير أبي السعود ٢٩/٢ . والكشاف ٦١٤/١ .

٣ - المخصص باب الاسحات في المكاسب ٣٠١/٣ .

٤ - جبهة اللغة ٤/٢ مادة سحت .

٥ - فقه اللغة ٣١ . واللسان مادة سحت .

٦ - سورة طه ٦١ .

٧ - سنن الدارمي ، دار احياء السنة النبوية ، المدينة المنورة ، ١٩٧٣ ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (١)

وقال تعالى في صفات عباد الرحمن

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٢)

وقال تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ
فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٣)

وقال تعالى :

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ
إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٤)

والزور هو الميل من زور يزور إذا مال . والزور جمع أزور من الزور بمعنى الميل (٥) . وعن هذا المعنى استعمل معنى الكذب والباطل . حيث اعتبر كل كلام مائل عن الحق هو كلام مزور أي موه بالكذب . ويكون الزور أحياناً بمعنى الكلام المشف الذي يهويه الإنسان قبل أن ينطق به ، وعليه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ما زورت كلاماً لأقوله إلا سبقني أبو بكر » (٦) . ولكن معنى الزور بأنه الكذب والباطل غلب على الكلمة - حتى شاع وانتشر وأصبح اصطلاحاً قرآنياً . والزور في المعنى الاسلامي شهادة الباطل وقول الكذب . قال أبو عبيدة : كل ما عبد من دون الله فهو زور (٧) . وكل شيء يتخذ ربا ويعبد من دون الله عز وجل فهو الزور (٨) . وقد عرف هذا المعنى في الشعر الجاهلي ، وفي حياة الجاهليين . قال عروة بن الورد العبسي (٩) :

٥ - لسان العرب مادة زور .

٦ - المرجع السابق .

٧ - المرجع السابق .

٨ - فقه اللغة ٣٩ .

٩ - ديوان عروة بن الورد والسموأل ، دار صادر ، ١٩٦٤ ، ص ٣٢ . والنسء هو : الشراب المزيل للعقل .

سَقُونِي النَّسَاءَ ثُمَّ تَكْنِفُونِي عِدَاةُ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ

كل ذلك يدل على أن الزور كان معروفاً في الجاهلية بمعنى عام يجمع كل ما يدل على الباطل والكذب والميل والانحراف وعبادة الأصنام وما إلى ذلك . ثم خصصه القرآن الكريم بالقول الزائف والشهادة الملفقة . ودارس الفقه الاسلامي يعرف الى أي مدى حارب الاسلام هذه الصفة السيئة ، لما لها من أثر سلبي ، ودور واسع في افساد المجتمع وزرع الكراهية فيه . وقد تكون المصطلح الاسلامي من اضافة كلمة شهادة الى كلمة الزور ، فصار « شهادة الزور » وهو من المصطلحات التي كونها القرآن الكريم .

النسيء :

ذكر النسيء مرة واحدة في القرآن هو قوله تعالى :

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا
وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُطِيعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ
لَهُمْ سُوِّ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١)

وأصل هذا اللفظ من نساء الأمر بمعنى آخره . ونساء الابل عن الحوض : أبعداها . وأنسأته البيع أخرت ثمنه (٢) . وفي تاج العروس : نساء الشيء أخره وينسؤه نساء ومنسأة كأنسأه . وفي الفصيح يقال نساء الله في أجله ، وأنساء الله في أجلك أي أخره وأبقاه من النسأة وهي التأخير والاسم النسئية والنسيء (٣) وفي اللسان النسيء المصدر ، ويكون المنسوء مثل قتيل ومقتول والنسيء فعيل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته ثم يحول منسوء الى نسيء (٤) .

و يقال أيضا نسأه كمنعه زجره وساقه . ونساء الابل زجرها ليزداد سيرها (٥) . ومن هذا يتبين أن النسء هو التأخير ومنه النسيء . والنسيء كذلك هو الزجر والابعاد والمنع ، ويمكن أن يلتقي المعنيان في مجال واحد اذا تذكرنا أن المنع يؤدي الى التأخير . وقد

١ - التوبة ٣٧ .

٢ - أساس البلاغة مادة نساء .

٣ - تاج العروس : مادة نساء .

٤ - لسان العرب : مادة نساء .

٥ - المرجع السابق .

ورد في شعر العرب ما يؤيد استعمالهم لهذين المعنيين . روى صاحب تاج العروس (١):
وَعَنَسٍ كَأَلْوَحِ الْإِرَانِ نَسَأَتْهَا إِذَا قِيلَ لِلْمَشْبُوتَيْنِ هُمَا
وقال الأعشى (٢):

وَمَا أُمُّ خَشِيفٍ بِالْعَلَايَةِ شَادِنٍ تَنْسَى فِي بَرْدِ الظَّلَالِ غَزَالَهَا
بَأَحْسَنِ مِنْهَا يَوْمَ قَامَ نَوَاعِمُ فَانْكُرْنَا مَا وَاجَهْتَهُنَّ حَالَهَا
والنسيء في المصطلح العربي والاسلامي - شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية فنهى الله عنه . وذلك أنهم كانوا إذا صدروا عن شيء يقوم رجل منهم فيقول : أنا الذي لا يرد لي قضاء ، فيقولون : أنسنا شهرا أي أخر عنا حرمة المحرم : واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم (٣).

وفي كتاب الانساب للبلاذري ما نصه : « فمن بني فقيم جنادة وهو أبو تمامة وهو القلمس بن أمية بن عوف بن قلع بن حنيفة بن عبد بن فقيم نسأ الشهور أربعين سنة وهو الذي أدرك الاسلام منهم . وكان أول من نسأ قَلْعُ نسأ سبع سنين ونسأ أمية إحدى عشرة سنة . وقال المفضل الضبي : يقال لنسأة الشهور القلامس واحدهم قَلَمَسَ وهو الرئيس المعظم (٤) .

وقد شرح صاحب تاج العروس السبب في ذلك النسيء فقال : « وكانوا يحبون أن يكون يوم صدورهم عن الحج في وقت واحد من السنة فكانوا ينتسونه . والنسيء التأخير . فيؤخرونه في كل سنة أحد عشر يوما فاذا وقع في عدة أيام من ذي الحجة جعلوه في العام المقبل لزيادة أحد عشر يوما من ذي الحجة ، ثم على تلك الأيام يفعلون كذلك في أيام السنة كلها . وكانوا يحرمون الشهرين اللذين يقع فيهما الحج والشهر الذي بعدهما ليواطئوا في النسيء بذلك عدة ما حرم الله . وكانوا يحرمون رجبا كيف وقع الأمر ، فيكون في السنة أربعة أشهر حرم (٥) .

وفي تفسير آية النسيء قالوا : وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام . يلقي الرجل قاتل أبيه ولا يمد اليه يده . فلما كان عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -

١ - تاج العروس : مادة نسأ .

٢ - ديوان الأعشى ، طبعة دار صادر ، ص ٣٤٣ .

٣ - تاج العروس . ١٠ ص ١٢٤ .

٤ - تاج العروس مادة نسأ .

٥ - المرجع السابق .

رجل من بني كنانة يقال له القلمس — قال : اخرجوا بنا . قالوا له هذا المحرم . قال ننسئه العام . هما العام صفران ، فاذا كان العام القابل قضينا ، جعلناها محرمين . قال ففعل ذلك . فلما كان عام قابل قال : لا تغزوا في صفر ، حرموه مع المحرم هما محرمان (١) . ثم تابع صاحب الظلال قوله : « فالشهور المحرمة هي أربعة في العدد ، ولكنها ليست هي التي نص عليها الله بسبب احلال شهر المحرم . وفي الصورة الثانية يحرم في عام ثلاثة أشهر وفي عام خمسة أشهر فالمجموع ثمانية في عامين بمتوسط أربعة في العام ، ولكن حرمة المحرم ضاعت في أحدهما وحل صفر ضاع في ثانيهما » (٢) . وقد ورد شرح النسيء في معظم التفسير على الصورة نفسها : اتحاد في المضمون ، مع اختلاف يسير في الشكل والرواية (٣) . وقد كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بهذا الصنع الذي وصفه القرآن الكريم بأنه زيادة في الكفر . ومن شعرهم في ذلك قول أحد بني أسد (٤) :

لهم ناسيء يمشون تحت لوائه يحل اذا شاء الشهور ويحرم
ومنه قول جدل الطعان وقيل عمير بن قيس بن جدل الطعان (٥) :

لقد علمت معد أن قومي كرام الناس ان لهم كرامنا
وأى الناس فأتونا بوقر وأي الناس لم يعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

مما سبق يتبين لنا أن النسيء في المصطلح القرآني لم يختلف معناه عن المعنى الذي حمله في الجاهلية . وقد عمل القرآن على تحريم هذا الفعل المنكر الذي يدل على تلاعب الناس بأحكام الشريعة . ولكن هذا النسيء لم يعرف بعد نزول القرآن ، وإن كان المسلمون — مع الأسف — قد اقتتلوا فيما بينهم في كثير من الشهور المحرمة وفي عدد كبير من الحروب المؤلمة ، ولا يزالون ، إلا أن يعودوا الى دينهم ويجعلوه الحكم الصادق في كل أمر من أمور حياتهم .

النجوى :

وردت مادة « نجاه نجوا ونجوى : بمعنى ساره » (٦) بمختلف صورها الاشتقاقية في

١ - في ظلال القرآن م ٤ ص ٢٢١ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٢١ .

٣ - انظر حاشية العلامة الصاوي ١٤٨/٢ . وتفسير القرآن العظيم ٢/ شرح سورة التوبة .

٤ - تاج العروس ١٢٤/١ مادة نسا .

٥ - الأوائل ص ٤٤ . وانظر تاج العروس مادة نسا . والوقر : الرزاة والخلم .

٦ - لسان العرب مادة نجا .

ثمانية عشر موضعاً في القرآن الكريم . وهي في هذه المواضع كلها تدور حول معنيين :

— أولهما : هو معناها اللغوي وهو السريدور بين اثنين أو هو الصوت الهامس ، يقال نجوته نجوا أي ساررتة وكذلك ناجيته والاسم النجوى (١) : وعليه يفسر قول الشاعر (٢) :

فبت أنجوبها نفسا تكلفني ما لا يههم به الجثامة الورع
والنجي هو الذي تساره . والجمع أنجية . وقال الأخفش وقد يكون النجى جماعة مثل
الصديق (٣) . وأنشد ابن بري (٤) :

قالت جوارى الحي لما جينا
وهن يلعبن وينتجينا
يا لمطايا القوم ، قد وجينا
وقال سحيم بن وثيل اليربوعي (٥) :

اني اذا ما القوم كانوا أنجيه
واضطرب القوم اضطراب الأرشية
هناك أوصيني ولا توصي بيه

— وثانيهما هو المعنى الاصطلاحي الذي اتخذته القرآن الكريم في استعمال هذه المادة .
ذلك أن الآيات الكريمة قد تحدثت عن النجوى على أنها التشاور لفعل الشر . أو هي
التسار بقصد إيقاع الشر بين الناس .

وهذا المعنى الاصطلاحي له صلة بالمعنى الأساسي ، ذلك أن معاجم اللغة ذكرت أن
الفعل نجا يعني الحديث الهامس بين اثنين أو أكثر لاحداث الشر ، أو احداث الذنب ، نجا
فلان ينجوا إذا أحدث ذنبا (٦) . فالتناجي — اذن — يحدث بين الناس الوقعة والفساد .
وقد فسر العلماء الآيات للكريمة على هذا المعنى . قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ

١ - لسان العرب مادة نجا .

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - المرجع السابق .

٥ - المرجع السابق .

٦ - المرجع السابق .

بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلُونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجُّوْا بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجُّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النُّجُوى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١)

قالوا هم اليهود، نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عما كانوا يفعلون من تناجيهم أي تحدثهم سرا ناظرين الى المؤمنين ليوقعوا في قلوبهم الريبة (٢). وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود مودة، فكانوا اذا مر بهم رجل من الصحابة جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية (٣). وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان المنافقون يتناجون بينهم، وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم فأنزل الله «انما النجوى من الشيطان» (٤). والآيات الأخرى التي ذكرت فيها النجوى تبين هذا المعنى نفسه. قال تعالى:

تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٥)

وقال تعالى:

فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (٦)

١ - المجادلة ٨ - ١٠ .

٢ - تفسير الجلالين ١٨١ وحاشية العلامة الصاوي ١٨١/٤ .

٣ - لباب النقول في أسباب النزول ٧٢٣ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - الاسراء ٤٧ .

٦ - طه ٦٢ .

وقال تعالى :

مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢٠﴾
لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ (١)

وهذه الآيات الكريمة تظهر أن النجوى إذا أطلقت تعنى التشاور على فعل الشر . وهي صفة الأشرار والخادعين وأعداء الاسلام . ولا يمنع من اعتبار أن هذا المعنى هو معناها الاصطلاحي القرآني ، وجود بعض الآيات التي وردت فيها النجوى بمعنى التسار فقط دون ارادة خير أو شر . وقد مر معنا أن الأساس الأول هو اجماع الآيات القرآنية ، لأن هذا الاجماع مقصود لله عز وجل ، ولم يكن عفوا . وإن آية أو آيتين تأتي بالكلمة على معناها الأساسي ، لا تهدم المصطلح القرآني ، بل ربما تقويه وتدعمه .

هذا وقد عرف هذا المعنى الاصطلاحي قبل نزول القرآن . وقد سجل بعض الشعراء هذا المعنى في أقوالهم . من هؤلاء الأسعر الجعفي الذي كان يكنى أبا حمران (٢) .

أبلغ أبا حمران أن عشيرتي ناجوا وللقوم المناجين التوى
باعوا جوادهم لتسمن أمهم ولكي يعود على فراشهم فتى
ومنهم حاجب بن حبيب الأسدي الذي يقول (٣) :

ألا أن نجواك في ثادق سواء عليّ واعلانها

وهكذا تكون النجوى من الأسماء غير الحسنة ، لأن مدلولها سيئ وتكون هي إحدى المصطلحات التي توافق معناها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم .

١ - الأنبياء ٢-٣ .

٢ - الأسمعيات ١٤٠ . والتوى : الهلاك .

٣ - لسان العرب مادة : نجا .

الفصل السابع

مصطلحات في صفات الدنيا والآخرة

مصطلحات في صفات الدنيا والآخرة

نتحدث في هذا الفصل عن مصطلحات : الحياة والموت ثم الدنيا وصفاتها ، وقد وجدت فرقا في التعبير القرآني بين الدنيا والحياة الدنيا ، الأولى ، الحافرة ، ثم البرزخ ، ثم النفخ في الصور والناقور ثم الساعة ، ثم البعث والنشر ثم الحشر وصفاته — القيامة — الحاقة ويشرح معها مصطلح الحق — القارعة — التغابن ثم الآخرة . ولعل هذا الترتيب ان يتفق مع مسيرة الانسان منذ ولادته الى يوم الدين أي الحساب حيث يذهب اما الى الجنة واما الى النار...

الحياة والموت :

الحديث عن الحياة والموت طويل . وقد ألفت كتب كثيرة تبحث في « لغز الحياة » و « لغز الموت » (١) . ويهمنا في هذا البحث أن نتحدث عن المعاني التي تحملها هاتان الكلمتان ، كما بينتها آيات القرآن الكريم :

- ١ - الحياة والموت : معناهما الحقيقي ومعناهما القرآني .
- ٢ - الفروق في المصطلح القرآني بين جاء الموت ، وحضر الموت .

أما المعنى الحقيقي للحياة والموت — في اللغة — أن كلا منهما نقيض الآخر . والحي هو الانسان (٢) الذي يولد ويعيش حياته هذه الدنيا ، الى أجل مسمى عند الله ، فاذا انقضت اقامته فيها مات . أي يغادرها الى حياة أخرى سيأتي الحديث عنها . وعندما يقال فلان حي أو ميت ، فان هذا المعنى — لا غيره — يتبادر الى الذهن . وذلك عند الحديث العادي المألوف . وقد وردت في المعنى الحقيقي للحياة والموت اشعار كثيرة في العصر الجاهلي ، سأورد هنا بعضا منها على سبيل التمثيل لا الحصر . يقول صخر بن عمرو بن الشريد (٣) :

١ - كتابان للدكتور مصطفى محمود .

٢ - الحديث عن الحياة والموت هنا يقتصر على الانسان . ولا شك أن في الدنيا كائنات حية أخرى تولد وتموت ليس هنا مجال الحديث عنها .

٣ - الأصمعيات ، ص ١٤٧ . والقارح ماتت أسنانه وذلك في الخامسة من عمره . والعدوان : شديد العدو .

فلو أن حيّا فائتُ الموت فاتَه
ويقول علباء بن أرقم (١) :

زعمت تماضر أنني إما أمت
تربت يدك وهل رأيت لقومه
ويقول معاوية بن مالك (٢) :

وقفْتُ بها القلوص فلم تجبني
ويقول حاتم الطائي (٣) :

إذا ما أتى يوم يفرق بيننا
وقال طرفه (٤) :

ألا إن خير الناس حيا وميتا
ببطن قضيب عارفا ومناكرا

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الحياة والموت بمعناها هذا الأساسي في آيات كثيرة منها . قوله عز وجل :

قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى
حِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٥)

وقوله عز وجل :

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ
ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٦)

ولكن ليس هذا هو المعنى الوحيد للحياة والموت في القرآن الكريم . بل إن هناك معنى آخر للحياة هو الايمان والعيش في جو عبادة الله والاستسلام له ، وارتداء لباس الدين في كل تصرف يقوم به الانسان . وهذا هو معنى الحياة الحقيقي للانسان المسلم . بل هذه هي الحياة

١ - الأصمعيات : ١٦ .

٢ - الأصمعيات ٢١٣ . والفضليات ١٠٥ .

٣ - الشعر والشعراء ج ١ ص ١٧٩ .

٤ - ديوان طرفة ، ص ١٩١ .

٥ - الأعراف ٢٤ - ٢٥ .

٦ - البقرة ٢٨ .

الحققة . ودون هذه الحياة أو غيرها هو الموت . فالموت بمعناه الاصطلاحي هو الكفر والبعد عن طريق الله عز وجل ، والعيش تحت تحكم الأهواء بعيدا عن شرع الله . وعلى هذا يمكن أن يكون الانسان حيا وميتا في الوقت نفسه .

و يكفي لتقرير هذا المعنى أن نتدبر آيات الله عز وجل :

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١)

وهذه هي الحياة الطيبة كما سماها القرآن الكريم :

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢)

واذا كان هذا المعنى لم يتضح بعد فلنقرأ هذه الآيات الحاسمة في توضيح ذلك . قال الله عز وجل :

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ^(٣)

صدق الله العظيم : فما معنى الأعمى والبصير هنا . ومن هم الأحياء ومن هم الأموات في النص القرآني ؟ وما معنى القبور هنا ؟ . ان ها هنا اعجازا قرآنيا فريدا . ان القبور هنا هي الأجساد المتحركة بالقلوب المغلقة . تلك الأجساد التافهة التي لا هم لها الا الأكل والشرب ، كما تأكل الأنعام وتشرب . وبذلك تكون أحط منزلة من الدواب البهائم ، التي لم تكلف بعمل ، ولم تشرف برسالة . ان القبور هنا هي أجساد الأحياء بشهواتهم، الأموات بأعمالهم الفاسدة التي لا هدف لها الا الصد عن سبيل الله .

١ - الأنعام ١٢٢ .

٢ - النحل ٩٧ .

٣ - فاطر ١٩ - ٢٣ .

وقد أنزل الله القرآن الكريم ليحيى من حيٍّ عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة . ولكي يكون في هذه الحياة الدنيا فرقانا بين الأحياء من الأموات . وقد قال الله عز وجل في وصفه :

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٩٩﴾
لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (١)

وأرجو أن ألفت النظر الى هاتين الآيتين من سورة يس والى التأمل ملياً في مغزى قوله عز وجل

لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ

جاء الموت وحضر الموت :

وقد فرق القرآن الكريم بين مصطلحين آخرين هما : جاء الموت وحضر الموت . والذي يتلو آيات الله عز وجل يجد أن تعبير جاء الموت يعني الموت المفاجيء الذي لا يملك الانسان معه شيئاً . أو هو السكته القلبية كما يقال اليوم . أما تعبير حضر الموت فهو الموت البطيء الذي يملك الانسان معه نفسه فيستطيع أن يوصي أصحابه وأهله ، وأن يتدبر أمره ، وأن يستغفر عن ذنوبه ، وأن يتوب ان شاء ، ويعدل من سيرته . وقد ورد تعبير « جاء أحدكم الموت ، وجاء أجلهم ، وجاء أمر الله ، في تسع آيات كريمة ، منها قوله تعالى

رَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ (٢)

وقوله تعالى :

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣)

وقوله تعالى :

وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٤)

١ - يس ٦٨ - ٦٩ .

٢ - الأنعام ٦١ .

٣ - الأعراف ٣٤ .

٤ - المنافقون ١١ .

وقوله تعالى :

يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١)

هذا بالإضافة الى سبعة مواضع ورد فيها تعبير « جاء أمرنا » وجاء أمر ربك وبخاصة في قصص الأنبياء الذين كذبتهم أقوامهم فأخذهم الله بذنوبهم فجاءهم عن أمر الله غافلون . ولا يغير من هذا الفهم ورود ثلاثة مواضع في القرآن الكريم جاء فيها تعبير جاء الموت بما يوحي أن الانسان يملك معه نفسه فيستطيع أن يتكلم أو يفكر . منها قوله تعالى :

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٢٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٢)

ونص هذه الآية يحمل تأكيد المعنى الاصطلاحي الذي ذهبنا اليه ولا يدحضه . فالانسان عندما يفاجئه الموت الذي كان غافلا عنه ، يذهل عن نفسه ، وعن كل شيء حوله ، ويتركز كل همه أن يعود الى الدنيا ليعمل عملا صالحا غير الذي كان يعمل ، وذلك لأنه رأى أن الموت حق ، وبدت له أمانة الآخرة (٣) ، فيقول متعجلاً « رب ارجعون » ولكنها الآن كلمة لا تغني ، ولا تسمع ، كلا انها كلمة هو قائلها من فرط الدهشة والهول — ولكن لات حين مناص . فقد جاءه الموت وان أجل الله اذا جاء لا يؤخر .

أما تعبير حضر الموت فقد ذكر في أربع آيات في القرآن الكريم في سور النساء والبقرة والمائدة . منها قوله تعالى :

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤)

١ - نوح ٤ .

٢ - المؤمنون ٩٥ - ١٠٠ .

٣ - تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٢٣ .

٤ - البقرة ١٣٣ .

وقوله تعالى :

كُنِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١)

والحوار في الآية الأولى بين يعقوب عليه السلام وبنيه يشعر بأنه أحس بأعراض الموت ،
ولكنه لا يدري متى يجيء . فها هو يوصي بنيه باتباع الاسلام ، و يواصل دعوته التي أرسله
الله بها . وكذلك في الآية الثانية حيث لا يوصي الانسان الا وهو مالك كل قواه ، يعرف
كل ما يحيط به ، ومن يحيط به . وبذلك يتحقق هذان المصطلحان في القرآن الكريم بكل
وضوح ، وهما لا شك مصطلحان جديدان في السياق القرآني .

الدنيا وصفاتها

الدنيا وصف على صيغة فُعلٍ من دنا الشيء من الشيء دنوا أو دناوة بمعنى قَرَّبَ .
والدناوة القربة والقربى (٢) وقد وردت كلمة الدنيا في الشعر الجاهلي وصفا لما قبلها بهذا
المعنى اللغوي أي القربى ، قال جبر بن حية العبسي (٣) :

لا أحرم الجارة الدنيا اذا اقتربت ولا أقوم بها في الحي أخزيها
ولا أكلمها إلا علانية ولا أخبرها إلا أناديها

وقد وردت كلمة الدنيا في القرآن الكريم في مئة وخمس عشرة آية . منها سبع وأربعون
آية وردت فيها كلمة الدنيا وحدها ، على أساس أنها عَلِمَ قائم بذاته ، وفي ثمان وستين آية
وردت كلمة الدنيا وصفا لكلمة الحياة في تعبير « الحياة الدنيا » . ووردت كلمة الدنيا
أيضا ثلاث مرات وصفا لكلمة السماء ، في تعبير « السماء الدنيا » (٤) . كما وردت
مرة واحدة في وصف العدو في تعبير « العدو الدنيا » (٥) .

١ - البقرة ١٨٠ .

٢ - لسان العرب مادة دنا .

٣ - ديوان الحماسة ، ج ٢ ص ٣٠٧ .

٤ - في سورة الصافات ٦ ، وسورة فصلت ١٢ ، وسورة الملك ٥ .

٥ - في سورة الأنفال ٤٢ .

الدنيا :

وقد فرق القرآن الكريم بين كلمة « الدنيا » وحدها ، وبين كلمة « الحياة الدنيا » فكلمة « الدنيا » عندما ترد وحدها ، تقابل في السياق القرآني كلمة الآخرة » ، وترد عندما يكون الحديث عن الدنيا فقط ، ولا يتعرض لعمل الانسان وصفاته وآثاره ونتائجه ، وهذا يدل على أن « الدنيا » بهذا الاستعمال هي عِلْمٌ على هذه الحياة التي نحياها قبل الموت . وتدل الآيات الكريمة التالية على هذا المعنى :

— قال تعالى :

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١)

— وقال تعالى :

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (٢)

— وقال تعالى :

مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ (٣)

— وقال تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (٤)

الحياة الدنيا :

أما تعبير « الحياة الدنيا » فيرد عندما يريد الله عز وجل أن يصور استغراق الانسان في هذه الحياة ، وعدم اهتمامه بما بعدها . واغتراره بأهوائها وشهواتها . كأنما يريد الله عز وجل أن يقول لنا إن هذا الانسان — ومن هم على شاكلته — يظنون أن هذه هي الحياة . ولكنهم

١ - البقرة ١٣٠ .

٢ - النساء ١٣٤ .

٣ - آل عمران ١٥٢ .

٤ - الأحزاب ٥٧ .

لا يعملون أنها الحياة الدنيا ، لا الحياة العليا ، ولا الحياة الفضلى السامية الحقة . ويدل على ذلك أن الله عز وجل وصفها بأنها متاع الغرور . وأن الانسان الذي يغتر بها هو الانسان الهالك ، الذي لا خلاق له في الآخرة .

— قال تعالى

زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(١)

وقال تعالى :

قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ ^(٢)

— وقال تعالى :

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ^(٣)

الأولى :

وهي على وزن فعلى من أول . والمذكر منها أول . مثل أدنى : دنيا . وقد ذكرت هنا لأنها وردت في خمسة مواضع في القرآن الكريم في مقابل الآخرة ^(٤) . مما يدل على أنها صفة من صفات الدنيا . على حين ذكرت في اثني عشر موضعاً آخر صفة لكلمات أخرى مثل « سيرتها الأولى » ^(٥) و « القرون الأولى » ^(٦) و « الصحف الأولى » ^(٧) و « الجاهلية الأولى » ^(٨) و « موتتنا الأولى » ^(٩) و « الموتة الأولى » ^(١٠) و « عاداً الأولى » ^(١١) و « النذر الأولى » ^(١٢) و « النشأة الأولى » ^(١٣) .

٨ - الأحزاب ٣٣ .

٩ - الصافات ٥٩ ، والدخان ٣٥ .

١٠ - الدخان ٥٦ .

١١ - النجم ٥٠ .

١٢ - النجم ٥٦ .

١٣ - الواقعة ٦٢ .

١ - البقرة ٢١٢ .

٢ - القصص ٧٩ .

٣ - العنكبوت ٦٤ .

٤ - في سور القصص ٧٠ ، النجم ٢٥ ، النازعات ٢٥ ، الليل ١٣ ، الضحى ٤ .

٥ - طه ٢١ .

٦ - طه ٥١ ، والقصص ٤٣ .

٧ - طه ١٣٣ ، والأعلى ١٨ .

وفي وصف الدنيا بأنها الأولى تؤكد من القرآن الكريم بأن حياة أخرى سوف تتبعها ، وفي تسمية الله عز وجل للحياة الثانية بأنها الآخرة توجيه من الله عز وجل للإنسان ألا تستغرقه هذه الحياة الأولى الفانية ، ويجب أن يجعل همه الوصول بسعادة وعبادة الى تلك الحياة الباقية ، الحياة الآخرة .

الحافرة:

الحافرة في اللغة هي أول الأمر . والخلقة الأولى ، والعودة في الشيء حتى يرد آخره على أوله (١) . ويقال في المثل « النقد عند الحافرة » أي عند أول كلمة (٣) ، وأنشد ابن الاعرابي (٤) :

أحافرة على صَليح وشيب معاذ الله من سفه وعار
وقد وردت كلمة « الحافرة » في آية واحدة من القرآن الكريم ، وقعت ضمن هذا السياق القرآني . قال تعالى :

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝
أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۖ يَقُولُونَ أَوْنَانَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۖ أَوْذَا
كُنَّا عِظْمًا تَنَحَّرَةٌ ۖ قَالُوا تِلْكَ إِذْ أَكْرَهُ خَاسِرَةٌ ۖ فإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (٥)

وهذا السياق الكريم يدل على أن الحافرة هي الدنيا ، ذلك أن الكفار عندما يبعثون يقولون متعجبين منه أننا لمردودون بعد موتنا الى الحياة الأولى ، الى الدنيا (٦) .

البرزخ:

يبدو أن كلمة « برزخ » كلمة غير عربية الأصل . لأن معاجم اللغة تحدثت عنها

١ - لسان العرب مادة حفر .

٢ - فقه اللغة ، ص ٥٧ .

٣ - لسان العرب مادة حفر .

٤ - المرجع السابق ، ويريد أُرْجِع الى ما كنت عليه في شبابي وأمرني الأول من الغزل والصبا بعدما شبت وصلعت .

٥ - التازعات ٦ - ١٤ .

٦ - تفسير « أبو السعود » ج ٥ ص ٢٣٠ .

بسرعة دون أن تذكر صيغة من صيغ الاشتقاق لها . فقد ذكرت أن البرزخ هو الحاجز بين الشيئين (١) . وذكر صاحب الزينة أنها كلمة معربة عن « برزك » الفارسية ومعناه النحيب والبكاء والشدة (٢) . وقد حاولت بعض المعاجم أن تربط بين هذا الأصل الفارسي وبين حال الانسان بين الموت والبعث فعرفت البرزخ أنه الحال الذي فيه الشدة والنحيب لأنه حاجز بين حالين ، ما بين الدنيا والآخرة . أو هو ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت الى البعث فمن مات فقد دخل البرزخ (٣) .

ولم أجد - فيما قرأت - في الشعر الجاهلي شاهدا على هذه الكلمة .
وقد ذكر البرزخ في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم .
قال تعالى :

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٢٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا
فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢١﴾

وقال الله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ
بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٠﴾

وقال تعالى :

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾

١ - انظر لسان العرب ، ومختار الصحاح .

٢ - الزينة ج ١ ، ص ٩١ .

٣ - انظر لسان العرب ومختار الصحاح .

٤ - المؤمنون ١٠٠ .

٥ - الفرقان ٥٣ .

٦ - الرحمن ١٩ - ٢١ .

وسياق الآيات في سورة «المؤمنون» يؤكد أن البرزخ هو فترة واقعة بين الموت والبعث . وهذا هو معنى البرزخ في المصطلح الاسلامي . وقد غلب هذا المعنى وشاع حتى صار معروفا لدى كل مسلم ومسلمة . وقد أوردت كل التفسير هذا في سياق تفسيرها لهذه الآيات . قال أبو السعود : «ومن ورائهم أي أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة الى يوم القيامة . وهو إقنات كلى عن الرجعة الى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا . وإنما الرجعة يومئذ الى الحياة الأخروية (١) . وفي التسهيل : ومن ورائهم أي فيما يستقبلون من الزمان برزخ : يعني المدة التي بين الموت والقيامة ، وهي تحول بينهم وبين الرجوع الى الدنيا . وأصل البرزخ الحاجز بين شيئين » (٢) . وفي ظلال القرآن : أي لا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة إنما هم في ذلك البرزخ بين بين الى يوم يبعثون » (٣) .

أما البرزخ في الموضعين الآخرين فهو بمعناه الأصلي وهو الحاجز بين شيئين . وقد تعددت وجهات النظر في تفسير المقصود بالبحرين في الآيات الكريمة . ولكنها كلها تجمع على أن البرزخ هو الحاجز بين البحرين (٤) . وعن هذا المعنى صار ذلك المعنى الاصطلاحي الذي اذا أطلق الآن لا يعني سوى الفترة الواقعة بين الموت والبعث .

الصور والناقور والساعة :

هناك توافق بين الصور والساعة . فالنفخ في الصور للمرة الأولى يعني قيام الساعة . والنفخ فيه للمرة الثانية يعني يوم البعث والنشر استعداداً ليوم الحشر ، ثم تتوالى صفات هذا اليوم الأخير من قيامة وحاقة وصاخة ... الخ .
فما الصور، وما الناقور، وما الساعة .
ذكر الصور في عشر آيات في القرآن الكريم ، التزم فيها كلها بكلمة النفخ . قال تعالى :

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَهُمْ جَمْعًا (٥)

١ - تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٤٣ .

٢ - التسهيل ج ٣ ص ٥٦ .

٣ - في ظلال القرآن م ٦٨ ص ٤٨ .

٤ - يمكن مراجعة معنى البرزخ والمقصود بالبحرين في كتب التفسير المختلفة . وبخاصة في ظلال القرآن م ٧ ص ٦٨١ .

٥ - الكهف ٩٩ .

وقال تعالى :

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ^(١)

وفي تأكيد النفختين قال تعالى :

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ
اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ^(٢)

والصور في اللغة هو القرن ^(٣) قال الراجز ^(٤) :

لقد نطحناهم غداة الجمعين

نطحاً شديداً لا كنطح الصورين

وقد ذكره النبي عليه السلام في الحديث الشريف « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر متى يؤمر ^(٥) . والنفخ في الصور هو إعلان الناس أجمعين أنه جاء أمر الله ، وحان وقت الرحيل عن الدنيا . وحلت الساعة لاستقبال حياة أخرى . وتصوير ذلك بالنفخ في الصور هو تشبيه حسي مادي من واقع ما يعرفه الناس ويشاهدونه . أما ما هو الصور ، ما حقيقته ، وكيف يكون النفخ ، فذلك من عالم الغيب الذي لا شأن للإنسان أن يبحث فيه . ويكفيه يقينا أن يصدق به ^(٦) .

وقد ذكر القرآن الكريم أيضا كلمة الناقور في آية واحدة هي قوله عز وجل :

فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ^(١)

وقد ذكر بعض المفسرين أنه النفخ في الصور ذاته ^(٨) . وذكر فريق آخر أن النقر أشد إحياء من النفخ في الصور . « والنقر في الناقور هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور ، ولكن التعبير هنا أشد إحياء بشدة الصوت ورنينه ، كأنه نقر يصوت ويدوي . والصوت

١ - أنعم ٨٧ .

٢ - ٦ .

٣ - لسان العرب ج ٤ ص ٤٧٣ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - سنن الترمذي ، مطبعة الفجالة بالقاهرة رقم ٢٤٣١ ، ورقم ٣٢٤٣ .

٦ - انظر تعليق « في ظلال القرآن » على معنى النفخ في الصور ص ٣٨٥ .

٧ - المذكر ٨ .

٨ - تفسير أبي السعود ج ٥ ص ٢٠٨ وانظر التسهيل ج ٤ ص ١٦٠ .

الذي ينقر الآذان أشد وقعا من الصوت الذي تسمعه الآذان» (١) .

وفي معاجم اللغة : النقر صوت اللسان وهو إصااق طرفه بمخرج النون ثم يصوت به فينقر بالداية لتسير . وأنشد صاحب اللسان (٢) :

وخانقٍ ذي عَضَّة جرياض راخيتُ يوم النقر والانقاض
وهو صوت يزجج الداية (٣) .

ولكأنني بالناقور آلة النقر . كأنما هو صوت يلم بجسد كل ميت ليوقظه بفرع وشدة . وهو — والله أعلم — مرافق للنفخ في الصور . فان آيات القرآن تدل على أن الصور والناقور يقومان بعمل واحد ، ونتيجته واحدة .

الساعة :

والساعة في المعنى اللغوي جزء من أجزاء الليل والنهار ، والجمع ساعات وساع . وقد يعني بها الوقت الحاضر الآن . وقد استعملت ساعة في الشعر الجاهلي بمعنى ساعة الموت . كأنما هي الساعة المعنية التي لا بد منها . قال عدي بن زيد العبادي (٤) :

أعاذل ما يدريك أن منيتي الى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
وفي القرآن الكريم وردت الساعة بمعناها اللغوي . مثاله قوله تعالى :

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ (٥)

وقوله تعالى :

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ (٦)

١ - في ظلال القرآن م ٨ ص ٣٦١ .

٢ - لسان العرب مادة نقر .

٣ - المرجع السابق .

٤ - الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥١ .

٥ - يونس ٤٥ .

٦ - التوبة ١١٧ .

ولكن الساعة — في المصطلح القرآني — هي علم على الوقت المحدد الذي تنتهي فيه حياة كافة البشر، وتبدأ بعدها خطوات الحياة الآخرة من بعث ونشر وحشر وما الى ذلك . وقد سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة محددة معلومة لله عز وجل ، مخفية مستورة عن كل العباد ، وعندما يموت الخلق كلهم عند الصيحة التي ذكرها القرآن الكريم :

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ (١)

قال الزجاج : معنى الساعة في كل القرآن : « الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم ، فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة » (٢) . ولا أتفق مع الزجاج في أنها الوقت الذي تقوم فيه القيامة . بل هي الوقت الذي تنتهي فيه الحياة الدنيا . وانما القيامة هي قيام الناس بعد البعث والنشر . وهذا أمر يكون لاحقا للساعة كما يفهم من آيات الله تعالى . ولذلك جعلتها بعد الموت ، وقبل البعث والنشر . وبعدها وضعت صفات القيامة والحاقة ...

وقد عرف العرب الساع والساعة بمعنى المشقة والبعد . قال رجل لأعرابية : أين منزلك ؟ فقالت :

أما على كسلان وإن فـَسَاعَةً وأما على ذي حاجة فـيسير (٣)
ومعنى الساعة في الاصطلاح القرآني يحمل معنى المشقة أيضا . وهذا أمر فسرتة الآيات القرآنية . قال تعالى :

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ (٤)

وقال تعالى :

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٥)

ولا شك أن من يقرأ كتاب الله عز وجل يوقن بأن الساعة في المصطلح القرآني هي الساعة الأخيرة من عمر هذه الحياة الدنيا . أو الساعة الأولى من عمر الآخرة أو هي الساعة الخامسة والعشرون في يوم الزمن
١ - يس ٢٩ .
٢ - لسان العرب مادة سوع .
٣ - المرجع السابق .
٤ - القمر ٤٦ .
٥ - الأنبياء ٤٩ .

البعث والنشر:

وردت كلمة البعث ومشتقاتها سبعا وستين مرة في القرآن الكريم . ودراسة الآيات الكريمة تظهر أن البعث ورد في القرآن الكريم في ثلاثة معان :

١ - ارسال الله الأنبياء والرسل الى الناس في أقوامهم ليبشروهم وينذروهم . مثاله قوله تعالى :

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ^(١)

وقوله تعالى :

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ^(٢)

٢ - إحياء الله الخلق بعد موتهم لملاقاة وجه ربهم . ويلحق بهذا المعنى إحياء بعض الأشخاص الذين أماتهم الله في أثناء حياتهم الدنيا فترة محددة ثم بعثهم ، ليكون ذلك دليلا على قدرة الله عز وجل على بعث من يموت . أو معجزة يؤيد الله بها أحد أنبيائه . وهذا هو المعنى الشائع لكلمة البعث في القرآن الكريم . ومثاله قوله تعالى :

ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ^(٣)

وقوله تعالى

فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ^(٤)

وقوله تعالى :

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ^(٥)

١ - البقرة ٢١٣ .

٢ - آل عمران ١٦٤ .

٣ - البقرة ٥٦ .

٤ - الكهف ١١-١٢ .

٥ - البقرة ٢٥٩ .

٣ - ارسال الشيء واثارته على صورة المفاجأة غير المتوقعة اما للارشاد واما للانتقام .

وفي معنى الارشاد يقول تعالى في قصة قابيل وهابيل :

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٥﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَيْلَتَى أَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ^(١)

وفي معنى الانتقام قال تعالى :

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ^(٢)

والمعاني السابقة لكلمة بعث ليست جديدة في استعمال القرآن الكريم ، بل جاءت موافقة لما حملته الكلمة من معان في الشعر الجاهلي . قال حميد بن ثور في وصف رجل كان لا يزال ينبعث من نومه ^(٣) :

يهوى بأشعث قد وهي سرباله	بعث تؤرقه الهموم فيسهر
وقال السموأل بن عادياء ^(٤) :	
وأتني الأنباء اني اذا ما	مِتُّ أَوْ رَمَّ أعظمي مبعوث
وقال الحصين بن الحُمام المري ^(٥) :	
فانك لو فارقتنا قبل هذه	إذن لبعثنا فوق قبرك مأثما
وقال الأعشى ^(٦) :	
مهلا بني فان المرء يبعثه	هَمٌّ اذا خالط الحيزوم والضلعا

١ - المائدة ٣٠ - ٣١ .

٢ - الأنعام ٦٥ .

٣ - أساس البلاغة ج ١ ص ٣٧ ، ديوان حميد بن ثور الهلالي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ - ص ٨٥ .

٤ - الأصمعيات ص ٨٦ .

٥ - المفضليات ص ٦٨ .

٦ - الزينة ج ٢ ص ١١٧ ، ديوان الأعشى ، ص ١٣٧ .

وقال زهير بن أبي سلمى في الحرب (١):

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر اذا ضرّيتموها فتضرم

وواضح من المعاني السابقة أن البعث — في المصطلح الاسلامي — هو المعنى الثاني ، وهو احياء الخلق بعد موتهم لوقوفهم بين يدي الله ليحزي كل انسان بما قدمت يداه . والبعث بهذا المعنى مصطلح قرآني جديد . لم يكن شائعا في العصر الجاهلي ، ربما ورد هنا أو هناك في بيت أو بيتين من الشعر على السنة بعض الحنفاء الذين كانوا يؤمنون بالله ، أو يعرفون ذلك من خلال الكتب السماوية السابقة ، كما في قول السموأل بن عدياء السابق .

ومن هذا المعنى اشتق اسم الله عز وجل « الباعث » . وقد ورد هذا الاسم في نص الحديث الشريف الذي عدد أسماء الله الحسنى . لكنه لم يرد في القرآن الكريم . وهو عز وجل « الباعث » أي الذي أرسل الأنبياء بمعنى « أثارهم من بينهم بالرسالة وأنهضهم لذلك ، كأنهم ساكنون بين الناس ، فلما أوحى الله اليهم ثاروا من بينهم » (٢) . وهو عز وجل « الباعث » أي الذي سيحيي الخلق جميعا بعد موتهم جميعا لتبدأ مرحلة أخرى من الحياة ، غير الحياة الدنيا ... وذلك هو المعنى الاسلامي للبعث كما سبق . وهو المعنى الذي نقصد بيانه في هذا البحث . وقد ذكر البعث بهذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله عز وجل :

وَلَيْنَ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٣)

وقوله تعالى :

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١٠١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٤)

النشر:

يحمل النشر — في الشعر الجاهلي ، ثم في القرآن — معنى أوسع من البعث . فالبعث — كما سبق — هو احياء الخلق ليلاقوا أعمالهم . أما النشر فهو احياء الميت حاملا معه

١ - شرح المعلقات السبع ص ٨٦ .

٢ - الزينة ج ٢ ص ١١٨ .

٣ - هود ٧ .

٤ - المطففين ٤ .

صفاته التي مات عليها . كأنما صفاته منشورة عليه بعد بعثه . ويحمل أيضا معنى انتشار كل فرد حسب عمله السابق . ولذا تتجمع كل طائفة من الناس حسب أعمالها في الحياة الدنيا . وقد ورد في الأحاديث النبوية الشريفة أن كل أمة من الناس متشابهة في أعمالها تجمع في مكان واحد أو في طائفة واحدة . فيجمع المصلون معا ، ومؤدو الزكاة ، والصائمون ، والمجاهدون . من جهة . ويجمع أيضا المرابون والزناة وقاطعو الأرحام وما الى ذلك من فئات من جهة أخرى . وقد أيدت أحاديث الاسراء والمعراج ذلك .

وقد ورد في لغة العرب ما يدل على أن النشر في مفهومهم هو انبعاث الشيء من جديد ، بعد أن يكون قد مات أو اختفى ، حاملا الصفات نفسها التي كان عليها . يقال في اللغة أنشر الله الريح أحيائها بعد موت . وعلى هذا قالوا ماتت الريح اذا سكنت ، وفي الشعر الجاهلي النشر بمعنى الحياة بعد الموت ، قال الشداخ بن يعمر الكنانى (١) :

قاتلي اليوم يا خزاع ولا يدخلكم من قتالهم فشل
اليوم أمثالكم لهم شعر في الرأس ينشرون إن قتلوا

ونشرت الأرض تنشر أصابها الربيع فأنبئت . ومن المعروف أن الأرض تنبت ما كان قد سقط في ترابها من بذور نباتات سابقة نبتت ثم ماتت . ولذا قالوا « النشر أن يخرج النبت ثم يبطيء المطر فييبس ثم يصيبه مطر فينبت بعد اليبس » (٢) . ويقال أيضا نشر الجرب على الابل اذا حوى بعد ذهابه ، وابل نشرى اذا انتشر فيها الجرب . وهذا من واقع البيئة العربية والتجربة العملية في حياتهم .

وعلاوة على ذلك فقد وردت أبيات شعرية في العصر الجاهلي تفيد أن النشر هو احياء الميت ، قال الأعشى (٣) :

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجا للमित الناشر
وأنشد الأصمعي لأبي ذؤيب (٤) :

لو كان مدحهُ حيّ أنشرت أحدا أحيا أبوتك الشمّ الأمادح

١ - ديوان الحماسة ١/٩٤ .

٢ - لسان العرب مادة نشر .

٣ - ديوان الأعشى ، ص ١٧٧ .

٤ - ديوان الخليلين ١/١١٣ .

واذا أنعمنا النظر في آيات القرآن الكريم نجد أنها تفيد معنى النشر السابق ، والذي رأينا أنه أوسع من معنى البعث . قال تعالى :

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ^(١)

قال تعالى :

إِنِّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ^(٢)

هذا وقد وردت مادة النشر ومشتقاتها في القرآن الكريم احدى وعشرين مرة ، منها خمس مرات بلفظ النشور، ونشورا .

يوم الحشر وصفاته :

يأتي يوم الحشر بعد النشر ، أو نتيجة له . والحشر هو الجمع . يقال حشروهم يحشرهم ويحشرهم حشرا بمعنى جمعهم . والمحشر : المجمع الذي يُحشر اليه القوم . ومن معانيه أيضا الجلاء عن الأوطان . قال الليث : اذا أصابت الناس سنة شديدة فأجحفت بالمال وأهلكت ذوات الأربع قيل : قد حشرتهم السنة . وذلك أنها تضمهم من النواحي الى الأمصار ^(٣) . وحشرت السنة مال فلان أهلكته . قال رؤبة ^(٤) :

وما نجا من حشرها المحشوش وخش ولا ظمش من الطموش

وفي بصائر ذوي التمييز الحشر هو اخراج الجماعة عن مقرهم وازعاجهم عنه الى الحرب وغيره ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « النساء لا يعشرون ولا يحشرون » ^(٥) هذا معنى الحشر في اللغة . وليس يختلف عنه معنى الحشر في المصطلح الاسلامي . فالحشر هو جمع الناس يوم القيامة . والمحشر مكان لا يعلمه الا الله . وفي المحشر تبلى السرائر وتنكشف الضمائر وتبيض وجوه وتسود وجوه ، ذلك أن النشر — كما سبق — هو بعث الانسان بصفاته . وقد نص الحديث الشريف على أن الانسان يبعث على ما مات عليه . ولذلك

١ - فاطر ٩ .

٢ - الدخان ٣٤ - ٣٥ .

٣ - لسان العرب ج ٤ ص ١٩٠ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - بصائر ذوي التمييز ، ص ٤٦٨ في الجزء الثاني .

فصلت آيات القرآن في يوم الحشر، وقد حمل هذا اليوم عدة أسماء في القرآن الكريم منها يوم القيامة، الحاقة، الصاخة، القارعة... وسنتناول كل مصطلح من هذه المصطلحات بالتفصيل.

القيامة، والقيوم:

يوم القيامة هو الاسم الرئيسي الشائع لهذا اليوم. وقد ورد في القرآن الكريم في سبعين آية، بينما لم ترد الصفات الأخرى له الا في آيات قليلة قد لا تتعدى آية واحدة في بعض الصفات كالتغابن. وتقول معاجم اللغة إن القيامة مصدر قام يقوم قوما وقياما وقيامة (١).

ولم تتوقف كتب التفسير عند يوم القيامة، واعتبرته واضحا لا يحتاج الى شرح، اللهم الا ما كان من اسهاب بعض التفاسير في ذكر صفاته وأحواله وأحداثه. ومعناه مأخوذ من قوله تعالى:

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

و يوم القيامة يكون بعد البعث، أو هو مرتبط بالبعث، وذلك واضح من سياق الآيات القرآنية الكريمة: قال تعالى:

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٣)

و يوم القيامة هو يوم الفصل لقوله عز وجل:

إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٤)

و يوم القيامة هو يوم القضاء لقوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٥)

١ - لسان العرب مادة قام.

٢ - المطففين ٦.

٣ - المطففين ٤-٦.

٤ - الحج ١٧.

٥ - يونس ٩٣.

وهو يوم الجمع لقوله تعالى :

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ
لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (١)

وهو كذلك يوم الدين ويوم الحساب .

وجدير بالذكر أن بعض المفسرين رأى أن كلمة القيامة كلمة معربة عن كلمة
«قيمًا» بالسريانية (٢) وأن القيوم — من أسماء الله الحسنى — هو الذي لا ينام في
السريانية . وأعتقد أن الكلمة عربية صرفه ، وإن كان ثمة تشابه في النطق فذلك لتقارب
اللغات خاصة إذا كانت من فصيلة لغوية واحدة .

والقيوم ذكر في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم . في قوله تعالى :

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٣)

وفي قوله تعالى :

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢٠١﴾ تَزَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ (٤)

وفي قوله تعالى

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (٥)

١ - الأنعام ١٢ .

٢ - لسان العرب مادة قام .

٣ - البقرة ٢٥٥ .

٤ - آل عمران ٢ .

٥ - طه ١١١ .

والآيات الثلاث تدل على أن الله عز وجل قيوم الدنيا والآخرة . وقد أحسن مفسرو القرآن الكريم عند تفسير هذه الصفة الجليلة . قال صاحب الظلال : « أما صفة القيوم فتعني قيامه سبحانه على كل موجود ، كما تعني قيام كل موجود به . فلا قيام لشيء الا متركنا الى وجوده وتدبيره (١) . وقال صاحب المستطرف : « وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له . فرد لا مثل له . صمد لا ند له . أزلى أبدي دائم . لا أول لوجوده ولا آخر لأبديته ، قيوم لا يغنيه الأبد ولا يغيره الأمد » (٢) .

الحاقة والحق :

الحاقة من صفات القيامة ، وردت في مطلع سورة خاصة بها ، قال فيها سبحانه وتعالى :

الْحَاقَّةُ ۖ مَا الْخَاقَةُ ۖ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْخَاقَةُ ۖ (٣)

وهي فاعلة من حق الأمر **يَحِقُّ وَيُحَقُّ** حقاً وحقوقاً بمعنى صار حقاً وثبت . وقال الأزهري معناه وجب يجب وجوباً (٤) . وحقه يحقه حقاً وأحقه بمعنى أثبتته ، وصار عنده حقاً لا يشك فيه . وحقه وحققه بمعنى صدقه .

وقد وردت هذه الكلمة في الشعر الجاهلي كثيراً . لأن التحاكم عندهم كان منتشراً . وكثيراً ما كانوا يلجأون الى حكم يختارونه ليفضي في منازعاتهم . قال النابغة (٥) :

أتاك بقول هلهل النسج كاذب ولم يأت بالحق الذي هو ساطع
وقال زهير (٦) :

وان الحق مقطعه ثلاث يمين أو نـفـار أو جـلاء
وقال لبيد (٧) :

أنكرت باطلها وبؤت بحقها عندي ولم يفخر على كرامها
وقد اتفق المفسرون على أن الحاقة من صفات القيامة . قال صاحب الظلال : برز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هذه الصورة ، التي به سميت السورة « الحاقة » وهذه

١ - في ظلال القرآن م ١ ص ٤١٩ .

٢ - المستطرف في كل فن مستطرف ج ١ ص ٥ .

٣ - الحاقة ١ - ٣ .

٤ - لسان العرب مادة حق .

٥ - ديوان النابغة ، ص ٣٥ .

٦ - ديوان زهير ، ص ١٢ .

٧ - ديوان لبيد ص ١٧٨ .

بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار (١). وفي موضع آخر يقول: «الحاقة هي القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة. ومن ثم تبدأ السورة باسمها وتُسمّى به، وهو اسم مختار بجرسه ومعناه. فالحاقة هي التي تَحَقُّ فتقع، أو تحق فتُنزل بحكمها على الناس أو تحق فيكون فيها الحق» (٢). وقال في التسهيل: هي القيامة ووزنها فاعلة وسميت الحاقة لأنها تحق أي حَقَّ وجودها ولا ريب في وقوعها. ولأنها حقت لكل أحد جزاء عمله أو لأنها تبدي حقائق الأمور» (٣).

أما الحق فهو اسم من أسماء الله عز وجل. قال ابن الأثير: هو الموجود حقيقة، المتحقق وجوده وألوهيته (٤). وقال قوم إن الحق صفة من صفات الله عز وجل. والذين قالوا ذلك تأثروا بالآيات التي ورد فيها ذكر الحق وعددها مائتان وسبع وعشرون آية، على أنه صفة لشرع الله ولآيات الله ولحكم الله ووعده، وبالآيات التي تورد الحق على أنه نقيض الباطل بوجه عام. ولكن الذين قالوا إنه اسم من الأسماء الحسنى تمثلوا بالآيات التي ذكرت ذلك صراحة، في مثل قوله تعالى:

هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٥)

وقوله تعالى:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى (٦)

وقوله تعالى:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ (٧)

وقوله تعالى:

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٨)

١ - في ظلال القرآن م ٨ ص ٢٤٦.

٢ - المرجع السابق م ٨ ص ٢٤٩.

٣ - التسهيل ج ٤ ص ١٤١.

٤ - لسان العرب مادة حَقَّ.

٥ - الكهف ٤٤.

٦ - الحج ٦.

٧ - الحج ٦٢.

٨ - النور ٢٥.

وقد وردت كلمة الحق صفة لله عز وجل في احدى عشرة آية في القرآن الكريم .
والحق هو الوجود حقيقة ، وهو المتحقق وجوده وألوهيته ، والذي يتصف كل شيء
يتعلق بذاته بالحق .

والحق والحاقه كلاهما ، مصطلح قرآني جديد في معناه . وان كان معناه اللغوي قد
عرف في العصر الجاهلي وانتشر في أشعاره .

الصاخة :

وردت كلمة « الصاخة » مرة واحدة في القرآن الكريم في المشهد القرآني التالي :

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾
وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾
وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
عَلِيَّا غَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهُّقُهَا قَتَرٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ (١)

والصاخة هي القيامة أيضا . « وهي مشتقة من قولهم صخ الأذن اذا أصمها صياحه ،
فكأنه اشارة الى النفخة في الصور أو الى شدة الأمر . يصخ من يسمعه لصعوبته ، وقيل هي
من قولهم أصاخ للحديث اذا استمعه . والأول هو الموافق للاشتقاق » (٢) . وقال آخر ان
الصاخة هي الداهية العظيمة التي يصخ لها الخلائق ، وصفت بها النفخة الثانية لأن الناس
يصيخون لها ، وهي الصيحة التي تصخ الآذان أي تصمها لشدة وقعها (٣) . ويقرر الامام
السيوطي أن الصاخة هي النفخة الثانية (٤) .

وفي تفسير القرطبي ان الصاخة هي الصيحة التي تكون عنها القيامة وهي النفخة
الثانية ، تصيخ الأسماع أي تصمها فلا تسمع الا ما يدعى به للأحياء ، وأنشد لشاعر لم
يذكر اسمه :

١ - عيس ٣٣-٣٧ .

٢ - التسهيل ج ٤ ص ١٨٠ .

٣ - تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٢٣٩ . وحاشية العلامة الصاوي ٢٩٤/٤ .

٤ - حاشية العلامة الصاوي ج ٤ ص ٢٩٤ .

يصيخ للنبأ أسماعه إصاخة الناشد للمنشد
وأصل الكلمة في اللغة الصك الشديد . ومن هذا الباب قول العرب : صختهم الصاخة
وباتتهم الباتة وهي الداهية (١) .

فاذا كانت الصاخة هي النفخة الثانية — وهو الأرجح — فان ذلك يؤكد أنها من
صفات يوم القيامة ، لأن الناس يقومون لله رب العالمين بعد هذه النفخة . والحق أن الآيات
السابقة تدل دلالة قاطعة على أن الصاخة هي إحدى صفات يوم القيامة . وقد سبق في شرح
هذه الصفات أن وجوه الناس تتلون في ذلك اليوم حسب أعمالها في الدنيا وهذا ما تبرزه
الآيات الكرمة . وما أجمل ما علق عليها صاحب الظلال بقوله : « والصاخة ذو جرس
عنيف نافذ ، يكاد يخرج صماخ الأذن وهويشق الهواء شقا * حتى يصل الى الأذن صاخا
ملحا ... والهول في هذا المشهد هول نفسي بحت ، يفرغ النفس ويفصلها عن محيطها ،
ويستبد بها استبدادا ، فلكل نفسه شأنه ، ولديه الكفاية في الهم الخاص به الذي لا يدع له
فضلة من وعي أو جهد (٢) .

القارعة :

ذكرت القارعة خمس مرات في القرآن الكريم . في قوله تعالى :

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ
حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣)

في قوله تعالى :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤)

وفي سورة القارعة

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٥)

١ - تفسير القرطبي ، المجلد العاشر ، ص ٧٠١٤ .

٢ - في ظلال القرآن م ٨ ص ٢٧٢ .

٣ - الرعد ٣١ .

٤ - الحاقة ٤ .

٥ - القارعة ١- ٣ .

والقارعة في الآية الأولى والثانية يقصد بها داهية تفرعهم بصنوف من البلاء : من القتل والأسر والحرب والجذب . والتنوين في قوله « قارعة » للتذكير إشارة الى أنها ليست مخصوصة بشيء معين بل هي عامة في كل ما يهلكهم (١) . وفي تفسير آخر: « يعني بها المصيبة في أنفسهم وأولادهم وأموالهم أو غزوات المسلمين » (٢) .

والقارعة في الآيات الثلاث الأخرى هي مظهر من مظاهر يوم القيامة . وهي تشمل كل المظاهر الكونية التي تحدثت عنها سور كثيرة وآيات عديدة (٣) . وقد جاء في تفسيرها : « القرع هو الضرب بشدة واعتماد بحيث يحصل منه صوت شديد . وهي القيامة التي مبدؤها النفخة الأولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق — كما في سورة التكوين — ، سميت بها لأنها تفرع القلوب والأسماع بشن الافزاع والاهوال وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال الى حال . السماء بالانشقاق والانفطار والشمس والنجوم بالتكوين والانكدار والانتشار . والأرض بالزلزال والتبديل ، والجبال بالدك والنسف » (٤) .

ومما يؤكد ذلك أن الله عز وجل قال بعد الافتتاح بالقارعة

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿١﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)

اذن فالقارعة صفة تجمع كل تلك الأهوال التي تحدث في الكون لتهيء الناس للوقوف في يوم القيامة .

التغابن :

ذكر يوم التغابن مرة واحدة في القرآن الكريم ، في سورة حملت هذا الاسم نفسه . قال تعالى :

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبَعَمَلِ

١ - تفسير الجلالين ج ٢ ص ٢٧٥ .

٢ - التسهيل ج ٢ ص ١٣٥ .

٣ - تراجع في كل هذه المشاهد سور الرحمن والتكوين والانفطار .

٤ - تفسير أبي السعود ج ٥ ص ٢٨١ .

٥ - القارعة ٤ - ٥ .

صَلِحًا يُكْفِرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۖ وَيُدْخِلُهُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١)

وقد قيل في تفسيرها: «اليوم يجمع فيه الأولون والآخرون أي لأجل ما فيه من الحساب والجزاء . و يوم التغابن أي غبن بعض الناس بعضا بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ونزول الاشقياء منازل السعداء لو كانوا أشقياء . وفي الحديث الشريف : « وما من عبد يدخل الجنة الا أُرِّي مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار الا أُرِّي مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة » . وتخصيص التغابن بذلك اليوم للايدان بأن التغابن في الحقيقة هو الذي يقع فيه لا ما يقع في أمور الدنيا » (٢) وقيل فيها أيضا : ذلك يوم التغابن يعني القيامة . والتغابن مستعار من تغابن الناس في التجارة . وذلك اذا فاز السعداء بالجنة فكانهم غبنوا الأشقياء في منازلهم التي كانوا ينزلون فيها لو كانوا سعداء . قال وفيه تهكم لأن نزولهم في جهنم ليس في الحقيقة بغبن للسعداء » (٣) .

وفي ظلال القرآن قال : « وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن . والتغابن مفاعلة من الغبن . وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيروتهم الى الجحيم فهما نصيبان متباعدان . وكأنا كان هنالك سباق بكل شيء . وليغبن كل فريق مسابقه ، ففاز فيه المؤمنون ، وهزم فيه الكافرون . فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك » (٤) .

و يوم التغابن بهذا المعنى مصطلح قرآني جديد ، لم يعرف من قبل في شعر الجاهلية . ولكن الكلمة عرفت وتداولها الناس في أمور التجارة وفيما يجري بينهم من منافسات في الأقوال والآراء . ومما ورد في شعرهم في استعمال مادة غبن في معناها اللغوي قول المتنخل الهذلي (٥) :

ويل أمه رجلا تأبى به غَبَنًا اذا تجرد لا خالًّا ولا بَخَل

١ - التغابن ٩- ١٠ .

٢ - تفسير أبي السعود ج ٥ ص ١٦٨ .

٣ - التسهيل ج ٤ ص ١٢٤ .

٤ - في ظلال القرآن م ٨ ص ١٢٦ .

٥ - ديوان الهذليين ، ٣٤/٢ .

الآخرة:

الآخرة هي اسم يجمع كل ما يكون بعد هذه الحياة الدنيا. وقد وردت في القرآن الكريم في مئة وخمس عشرة آية. تبدأ منذ قيام الساعة وتستمر في خلود لا يعلم مداه الا الله . وقد ذكرت الآخرة في القرآن كمقابل للدنيا تارة ومقابل للأولى تارة أخرى . وقد جاءت وصفا لكلمة الدار في آيات قرآنية بينما لم يرد تعبير « الدار الدنيا » في القرآن أبدا . وهذه ملاحظة لها دلالتها ذلك أن الدار تعني الاستقرار والدوام . والآخرة دار الدوام والاستقرار والخلود ، والدنيا ليست كذلك . ولنقرأ الآن هذه الآيات الكريمة التي تقابل بين الدنيا والآخرة ...

قال تعالى :

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ (١)

وقال تعالى

مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ (٢)

وقال تعالى :

لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣)

وقال تعالى :

وَإِنَّا لَنَآلِ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى (٤)

وقال تعالى :

وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥)

وقال تعالى :

وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦)

١ - النساء ٧٤ .

٢ - آل عمران ١٥٢ .

٣ - القصص ٧٠ .

٤ - الليل ١٣ .

٥ - الاعراف ١٦٩ .

٦ - العنكبوت ٦٤ .

وفي اللغة العربية عرفت كلمة الآخرة مقابل الدنيا والأولى . قالوا الآخر خلاف الأول . والأنثى آخرة . حكى ثعلب : هن الأولات دخولا والآخرات خروجاً» (١) وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله وهو يمجّد الله عز وجل : « أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء » (٢) وفي شعر العرب ما يدل على أن الآخر خلاف الأول . والآخرة خلاف الأولى . قال عوف بن الأحوص (٣) .

حَبَّتْ دونهم بكرٌ فلم نستطعْهُمُ كأنهم بالمشرفية سامر
وما برحت بكر تشوب وتدعى ويلحقُ منهم أولون وآخر
والعرب تقول : لا أفعله أخرى الليالي أبدا . وأخرى المنون أي آخر الدهر . قال (٤) :

وما القوم الا خمسة أو ثلاثة يخوتون أخرى القوم خوت الأجدال
أي في آخر القوم .

وورد في الشعر الجاهلي ما يدل على أنهم كانوا يدركون أن الآخرة هي الحياة الثانية بعد الدنيا ، ويدل على ذلك قول المثلم بن رباح المري (٥) :

اني مُقسَّم ما ملكْتُ فجاعلٌ أجرا لآخرة ودنيا تنفع

والآخر والآخرة نقيض المتقدم والمتقدمة . والأخرى دار البقاء صفة غالبية عليها .
والآخر بعد الأول وهو صفة . والآخرة بالمد آخر كل شيء والأنثى آخرة والجمع أواخر .
وأنتيتك آخر مرتين ، وآخرة مرتين . قال ابن سيدة : وعندي أنها المرة الثانية من المرتين (٦) .

وعلى هذا فإن الآخرة — في المصطلح القرآني — هي آخر الحياتين . أي الحياة الثانية من الحياتين . والحياة الأولى هي الحياة الدنيا والثانية هي الآخرة .

والآخرة — بهذا المعنى — مصطلح قرآني استعمله القرآن الكريم في المعنى الذي كان معروفاً عند الجاهليين بأنه الحياة الأخرى ، كما يفهم من قول المثلم بن رباح المري السابق . ويمكن القول إن القرآن الكريم خصصه كثيراً لهذه الحياة ، لأن الآيات الكثيرة

١ - لسان العرب مادة آخر .

٢ - الكشف ج ١ ص ١٣٧ .

٣ - المفضليات ٣٦٥ .

٤ - لسان العرب مادة آخر .

٥ - الحماسة ٤٢٦/٢ .

٦ - لسان العرب مادة آخر .

التي وردت فيها كلمة الآخرة ، جعلتها تتخصص في أفهام الناس بهذا المعنى ، وتبتعد عن المعنى اللغوي الأساسي لها .

ويتبع الحديث عن الآخرة ، توضيح مصطلح الأ ول والآخر والمؤخر من أسماء الله الحسنى . فالأ ول معناه الله الذي لم يكن له سابق من خلقه . والآخر هو الله الذي ليس له غاية ولا نهاية (١) . وفي تعريف آخر قالوا : الآخر هو الباقي بعد فناء خلقه كله ناطقه وصامته ، والمؤخر هو الذي يؤخر الأشياء فيضعها في مواضعها . قال تعالى :

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢)

صدق الله العظيم

١ - الزينة ج ١ ص ٤٨ .

٢ - الحديد ٣ .

الفصلُ الثامن

مصطلحات الجزء وصفات الجنة والنار

مصطلحات الجزاء وصفات الجنة والنار

يشمل هذا الفصل شرح معاني مصطلحات : القسط ، العدل ، الميزان ، الجزاء ، الثواب ، الأجر ، الفوز ، الفلاح ، العذاب والعقاب ، الحد والتعزيز ، ثم يفصل القول في الجنة وصفاتها — الفردوس ، عدن ، النعيم ، الخلد ، المأوى ، دار السلام ، طوبى ، والغرفة — ويتبع ذلك عرض النار وصفاتها — جهنم ، الجحيم ، السعير ، سقر ، الحطمة ، لظى ، الهاوية ، الغاشية . وأخيرا يأتي الحديث عن المصطلحات التي تصف طعام أهل النار وشرابهم وهي : الضريع والزقوم والغسلين ، والغساق والمهمل والحميم .

القسط والعدل :

القِسط — بكسر القاف — هو العدل . وفعله أَقْسطَ يَقْسطُ و يَقْسطُ فهو مقسط اذا عدل (١) . والقِسط — بفتح القاف — والقُسط — بضمها — الجور وفعله قسط يقسط فهو قاسط . فكان الفعل المزيد بحرف على وزن أفعل يفيد السلب كما يقال شكا اليه فأشكاه وجار عليه وأجاره .

والقِسط هو الميزان ، لأن هذا الأخير يقسم بين الناس بالعدل . والأقساط هو العدل في القسم والحكم ، يقال أقسطت بينهم وأقسطت اليهم .

وقد ورد كل من الفعلين — قسط وأقسط — في القرآن الكريم . ولكن الفعل أقسط ورد في جل الآيات التي ذكرت هذه المادة ، على حين لم يرد ذكر القاسطين — من الفعل قسط — الا في آيتين اثنتين : هما قوله تعالى :

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنَ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا
رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

ومثال المقسطين قوله تعالى :

١ - القاموس المحيط ج ٢ ص ٣٧٩ .

٢ - الجن ١٤ - ١٥ .

وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (١)

وقوله تعالى :

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ
مِّنَ النِّسَاءِ (٢)

وجاء في تفسير القرطبي لهذه الآية قوله : تقسطوا معناه تعدلوا ، يقال أقسط الرجل اذا عدل ، وقسط اذا جار وظلم صاحبه ، وقال عليه السلام « المقسطون في الدين على منابر من نور يوم القيامة » يعني العادلين (٣) .

ولكن ما الفرق بين القسط والعدل في آيات القرآن الكريم ؟ .
ربما كان القسط أخص من العدل . فالذي ينعم النظر في آيات القرآن الكريم . يجد أن القسط ورد في الآيات التي تبحث في الأمور المالية ، وشؤون اليتامى وارتبط دائما بالكيل والميزان . لكأنما القسط هو العدل في أمور الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، أو هو العدل في تصريف شؤون الحياة التي تتشابك فيها العلاقات المادية . فالتجارة وما ينتج عنها من تداخل أموال الناس فيما بينهم ، لا بد فيها من مراعاة الكاييل والمقاييس الدقيقة . وأموال اليتامى ، وأحوالهم ، والمحافظة عليهم ورعاية شؤونهم من قبل الأوصياء . وما يجري بين الناس من عهود وعقود ، وديون ، وإيجار واستجار كل ذلك عبر عنه القرآن الكريم بكلمة القسط وما اشتق منها . يمثل ذلك قوله تعالى :

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ
مِّنَ النِّسَاءِ (٤)

وقوله تعالى في آية الدين وهي أطول آية في القرآن :

وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ

١ - المائدة ٤٢ .

٢ - النساء ٣ .

٣ - تفسير القرطبي ، المجلد الثالث ، ١٥٨٣ .

٤ - النساء ٣ .

عِنْدَ اللَّهِ وَأَقُومُوا لِلشَّهَادَةِ وَأَدِّقُوا أَلَا تَرْتَابُونَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَجَرَّةً حَاضِرَةً
تُذِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ^(١)

وقوله تعالى :

لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ
أَنْ تَبَرَّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ^(٢)

وفي تفسير هذه الآية الأخيرة قالوا : « لا ينهاكم عن الاحسان الى الكفرة الذين لا يقاتلوكم في الدين كالنساء والضعفة منهم أن تبروهم أي تحسنوا اليهم » ^(٣) . ومثاله أيضا قوله تعالى :

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^(٤)

وقوله تعالى

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ^(٥)

أما العدل فهو المصطلح الذي يفيد معنى العموم والشمول في صدق الحكم وصدق القول . فالعدل هو الحكم المنصف بمعناه العام . والعدل كذلك صفة للحاكم المنصف . وهو أيضا صفة للقول الصادق الذي يترتب عليه اقامة الحق ودحض الباطل . فكأن العدل — بذلك — كلمة تشمل القسط في طياتها . ويبقى القسط هو الانتصاف في المعاملة اليومية ، والشؤون الاجتماعية السائرة بين الافراد . ولنقرأ قوله تعالى :

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ
إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ

١ - البقرة ٢٨٢ .

٢ - الممتحنة ٨ .

٣ - تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٤٩ .

٤ - الأنعام ١٥٢ .

٥ - الرحمن ٩ .

فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (١)

وتدل هذه الآية أولاً على أن العدل والقسط غير مترادفين . لأنها أمرت أن يصلحوا بينهما بالعدل . وهنا يفهم أن يكون الحكم بين الفئتين حكماً عادلاً ، يراعى فيه وجه الحق . وبعد ذلك تأمر الآية أن يقسطوا بينهما أي يحسنوا المعاملة بين الفريقين ولا يميلوا إلى أحدهما على الآخر حتى يتم تنفيذ الحكم العادل بينهما عملياً .. لأن معاملة حسنة لأحد الفريقين دون الآخر بعد الحكم قد توغر وتبعث العداوة من جديد . وربما كان أبو السعود يريد هذا المعنى في تفسيره هذه الآية « فأصلحوا بينهما بالعدل » بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى ، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى يكون بينهما قتال في وقت آخر ، وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة ، وقد أكد ذلك حيث قيل « وأقسطوا » أي واعدلوا في كل ما تأتون وما تذكرون » (٢) .

ومادة عدل في القرآن جاءت على عدة معان ، وربما كان هذا الحوار بين عبد الملك بن مروان وبين سعيد بن جبيرة يبيّن شافياً . روي أن الخليفة عبد الملك بن مروان كتب إلى سعيد بن جبيرة يسأله عن العدل فأجابه : ان العدل على أربعة أنحاء : العدل في الحكم ، قال تعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . والعدل في القول ، قال الله تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا » والعدل : الفدية ، قال الله عز وجل « ولا يقبل منها عدل » والعدل في الاشراك ، قال الله عز وجل : « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » (٣) ، أي يشركون .

وقالوا في تعريف العدل : أنه ما قام في النفس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور . والعدل هو الحكم بالحق . ويقال رجل عدلٌ بَيَّنَّ العدالة . وعدل الشيء عدلاً وعادله : وازنه . وتعديل الشيء تقويمه (٤) .

وقد وردت آيات القرآن الكريم بكل المعاني التي ذكرها سعيد بن جبيرة في النص السابق . ولكن معظم الآيات تضافرت على أن العدل هو الحكم الحق . قال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى (٥)

١ - الحجرات ٩ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ج ٥ ص ٩٠ .

٣ - لسان العرب مادة عدل .

٤ - المرجع السابق .

٥ - النحل ٩٠ .

وكلمة العدل معروفة متداولة في شعر العرب قبل نزول القرآن . وقد عرفت بالمعاني التي ذكرها القرآن الكريم فيما بعد . ومن ذلك قولهم : تعديل الشيء بمعنى تقويمه . جاء في اللسان (١) :

صَحَبْتُ بِهَا الْقَوْمَ حَتَّى امْتَكَسْتُ بِالْأَرْضِ أَعْدُلُهَا أَنْ تَمِيلَا .

وفي معنى النظير والمثيل والفدية قال مهلهل (٢) :

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدَلًا مِنْ كَلِيبٍ إِذَا بَرَزْتَ مَخْبَأَةَ الْخُدُورِ
وَقَالَ الْأَعْلَمُ (٣) :

مَتَى مَا تَلَقَّنِي وَمَعِيَ سِلَاحِي تَلَاقَ الْمَوْتُ لَيْسَ لَهُ عَدِيلُ
وَفِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَخَذَ الرَّجُلُ فِي مَعْدَلِ الْحَقِّ وَمَعْدَلِ الْبَاطِلِ أَيِ فِي طَرِيقِهِ وَمَذْهَبِهِ . وَيُقَالُ
انْظُرُوا إِلَى سُوءِ مَعَادِلِهِ وَمَذْمُومِ مَدَاخِلِهِ . وَفِي ذَلِكَ قَالَ زَهِيرُ (٤) :

وَأَقْصَرْتُ عَمَّا تَعْلَمِينَ وَسُدَّدْتُ عَلَيَّ سَوَى قَصْدِ الطَّرِيقِ مَعَادِلُهُ
كَذَلِكَ مِنْ مَعَانِيهِمْ عَدْلٌ يَعْدِلُ عَدُولًا إِذَا مَالَ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْمُرَارُ (٥) :

فَلَمَّا أَنْ صَرَّمْتُ وَكَانَ أَمْرِي قَوْمًا لَا يَمِيلُ بِهِ الْعَدُولُ
وَفِي مَعْنَى الْعَدْلِ بَنَى وَزْنَ الْأُمُورِ بِمِيزَانِ الصَّوَابِ وَالْحَقِّ قَالَ الْأَعَشَى (٦) :

وَأَنْ يَسْتَضَافُوا إِلَى حُكْمِهِ يَضَافُوا إِلَى عَادِلٍ قَدْ وَزَنَ
وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ الْعَدْلَ بِشَتَّى مَعَانِيهِ مَعْرُوفٌ مُتَدَاوِلٌ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ . إِلَّا أَنَّ الْعَدْلَ
بِمَعْنَى قَصْدِ الْحَقِّ فِي الْحُكْمِ هُوَ الَّذِي شَاعَ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ . وَصَارَ بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ أَحَدُ
الْقَوَاعِدِ الْأَسَاسِيَةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا نِظَامُ الْحُكْمِ فِي الْإِسْلَامِ .

الميزان :

عرف الوزن والميزان في الجاهلية . وهو أمر بدهي حيث كانت بعض قبائل العرب تتجر

١ - لسان العرب مادة عدل .

٢ - المرجع السابق .

٣ - لسان العرب مادة عدل .

٤ - ديوان زهير ، ص ٦٤ .

٥ - لسان العرب . والعدول هنا المائلون .

٦ - ديوان الأعشى ، ص ٥٥ .

بين الشمال والجنوب . أي بين بلاد العراق والشام شمالا وبين اليمن والحبشة جنوبا .
وقريش أشهر تلك القبائل . وقد ذكر القرآن الكريم تجارتها في سورة قريش

لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١ إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ
مِنْ خَوْفٍ ۝٤

وكانت التجارة — في صورها البسيطة — تدور أيضا بين قبائل العرب في الجزيرة العربية نفسها ، حيث يتبادل الناس السلع المتوفرة في بيئاتهم ، أو يقايضون بها . قال أبو منصور :
ورأيت العرب يسمون الأوزان التي يوزن بها التمر وغيره ، المسواة من الحجارة والحديد :
الموازين (٢) .

وقد ذكرت معاجم اللغة كلمة الوزن بمعانيها المختلفة التي ترددت على ألسنة الناس في
العصر الجاهلي . فقالت : الوزن هوروز الثقل والخفة . وقال الليث : الوزن ثقل شيء مثله .
وقالوا أبو العباس : قال ابن الأعرابي العرب تقول ما لفلان عندي وزن أي قدر لخصته ..
(٣) ويقال وزنت فلان ووزنت لفلان . وهذا يزن درهما ، وهو درهم وازن . جاء في اللسان
(٤) :

مثل العصافير أحلاما ومقدرة لو يوزنون بيزف الريش ما وزنوا
جهلا علينا وجبنا من عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن
ومن هذا المعنى قالوا فلان خفت موازينه ، وفلان ثقلت موازينه . وقالوا فلان أوزن بني
فلان أي أوجههم . ورجل وزين الرأي : أصيله . ووزن الشيء رجحه . قال الأعشى (٥) :
وان يستضافوا الى حكمه يضافوا الى عادل قد وزن .
ثم اتسع معنى الميزان حتى صار يفيد المقدار نفسه ، جاء في اللسان (٦) :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرَّةٍ عندي لكل غصام ميزانه

١ - سورة قريش .

٢ - لسان العرب مادة وزن .

٣ - المرجع السابق .

٤ - المرجع السابق .

٥ - ديوان الأعشى ، ص ٥٥ .

٦ - لسان العرب مادة وزن .

وفي شعر النابغة الميزان بمعنى آلة الوزن ، سواء كانت آلة حقيقية للوزن أو كان صواب الحكم وسداد الرأي ، قال (١) :

الى خير دين نُسَكُّه قد علمته وميزانه في سورة البر مائع

والميزان في اللغة أيضا هو العدل . أي النظير . فقالوا هذا وزن هذا أي عدله ونظيره وان لم يكن هناك ما يوزن . وروي عن الضحاك أن الميزان هو العدل .

ولم يخرج معنى الميزان في القرآن عن هذه المعاني التي عرفها العرب واستعملوها . ورد بمعنى روز الشيء لتقدير ثقله وهو معناه الأول :

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٢)

وقال تعالى :

وَأَقِمْوْا لِّلْوَزْنِ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٣)

وبمعنى القدر والقيمة قال تعالى :

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا (٤)

وأعمال الانسان في الدنيا توزن عليه يوم الحساب ، فمنهم من خفت موازينه ومنهم من ثقلت موازينه . قال تعالى :

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾
وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَاثِتِنَا يَظْلُمُونَ (٥)

١ - ديوان النابغة ، ص ٥٢ .

٢ - المطففين ٣ .

٣ - الرحمن ٩ .

٤ - الكهف ١٠٥ .

٥ - الاعراف ٨ - ٩ .

ولا يستطيع الانسان أن يتصور أو يحدد ما المقصود بالميزان يوم القيامة ، بل الذي نستطيع أن نؤكد هـنا أن القرآن يخاطبنا على قدر أفهامنا ومدى ما نستطيع أن نتصوره في خيالنا . وحيالنا لا يتعدى ما رأيناه في حياتنا الدنيا من كيفية وزن الأشياء وآلات ذلك الوزن . والله عز وجل يهـدينا الى سبيل الحق ، ويأمرنا أن نوفي الكيل والميزان في هذه الدنيا لأننا سنواجه ميزانا آخر يزن أقوالنا وأعمالنا . ولعل هذا معنى قوله تعالى :

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (١)

و يلاحظ من نص الآيات الكرعة أن ميزان الآخرة وضع لتقويم ميزان الدنيا . قال ابن كثير في تفسيرها :

« أي لا تبخسوا الوزن ، بل زنوا بالحق والقسط » (٢) . وقال صاحب الظلال : « والى جوار هذه العظمة في رفع هذه السماء الهائلة الوسيعة « وضع الميزان » ، ميزان الحق . وضعه ثابتا راسخا مستقرا ، وضعه لتقدير القيم ، قيم الأشخاص والأحداث والأشياء كي لا يختل تقويمها ولا يضطرب وزنها ، ولا تتبع الجهل والغرض والهوى ، وضعه في الفطرة ، ووضع في هذا المنهج الالهي الذي جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن » (٣) .

الجزاء والجزية :

الجزاء مقابل الفعل الذي يقوم به الانسان إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . فالجزاء هو النتيجة العادلة التي يجوز عليها لقاء ما يقوم به . وقد شاع الجزاء بمعنى المكافأة على فعل الخير . ولكن الحقيقة أنه مطلق المكافأة على الشيء . وبمثل ذلك ورد في الشعر الجاهلي . يقول أمية بن أبي الصلت (٤) :

كل امرئ سوف يجزي قرضه حسنا أو سيئاً أو مديناً كالذي دانا

١ - الرحمن ٦ - ٨ .

٢ - تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٠ .

٣ - في ظلال القرآن م ٧ ص ٦٧٧ .

٤ - ديوان أمية بن أبي الصلت ، ص ٦٣ .

وقال أيضا (١):

فلما بلغت السَّرَّ والغاية التي إليها مدى ما كنتُ فيكَ أُوْمَلُّ
جعلتُ جزائي منك جَبْهًا وغلظة كأنك أنتَ المنعمُ المتفضل
وقد بحث علماء اللغة هذا المعنى . قال أبو الهيثم الجزاء يكون ثوابا ويكون عقابا . وسئل
أبو العباس عن جَزَيْتُهُ وجازيته فقال : قال الفراء : لا يكون جَزَيْتُهُ الا في الخير . وجازيته
يكون في الخير والشر (٢) . وقال غيره يجوز جزيته في الخير والشر ، وجازيته في الشر .

وفي شعر طرفة ما يدل على أن الجزاء هو مقابل ما يقوم به الانسان من عمل يقول (٣):

أكف الأذى عن أسرتي متكرما على أنسي أجزى المقارض بالقرض
وقال أيضا (٤):

وان هولم يطلب صديقا لنفسه فناد به في الناس هذا جزاؤه
وفي شعر أبي ذؤيب (٥):

جَزَيْتُكَ ضَعَفَ الود لما نَكَيْتِهِ وما ان جَرَاكِ الضَّعْفَ من أحدٍ قبلي

و يأتي الجزاء بمعنى القضاء . يقال جزى هذا الأمر أي قضى . وجزيت فلان حقه أي
قضيته . والمتجاري هو المتقاضي . روى ثعلب عن ابن الاعرابي أنه أنشد لبعض بني عمرو
بن تميم (٦):

ونحن قتلنا بالخارق فارسا جبر - العطاس لا يموت المعاقب

وفي القرآن الكريم استعمل الجزاء بمعنى المكافأة في الخير والشر . كأنما أراد الله أن يجعل
الجزاء لمطلق المكافأة ثم يخصص بعد ذلك الثواب والأجر في الخير ، والعقاب والعذاب في
الشر . وقد تحدثت آيات القرآن عن الجزاء بحانيه السليبي والايجابي . قال الله تعالى :

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٧)

١ - الحماسة ، ٤٤٢/١ .

٢ - لسان العرب مادة جزي

٣ - ديوان طرفة ص ٢٠٠ .

٤ - ديوان طرفة ص ١٦١ .

٥ - ديوان الهذليين ٣٥/١ .

٦ - لسان العرب مادة جزي

٧ - النجم ٣١ .

وقال تعالى :

كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ^(١)

وقال تعالى :

فَإِنْ قَتَلْتُمْكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ^(٢)

وقال تعالى :

أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ^(٣)

واشتق العرب الجزية من الجزاء . وهي خراج الأرض . وجمعها جزى . وقال أبو علي :
الْجِزَى وَالْجِزْيُ وَالْجِزَاءُ . ^(٤) قال أبو كبير ^(٥) :

وَإِذَا الْكُمَاءُ تَعَاوَرُوا طَعَنَ الْكُلَى نَذَرَ الْبِكَارَةِ فِي الْجِزَاءِ الْمُضْعَفِ

والجزية في الاسلام هي ما يؤخذ من أهل الذمة . أي المال الذي يعقد الكتابي عليه
الذمة . وهي فعلة من الجزاء كأنما جزت عن قتله . بل هي جزت عن حماية المسلمين له .
وهي ضريبة مادية قليلة فهي مقابل ضريبة الدم التي يدفعها المسلم لحماية أهل الذمة الذين
ارتضوا أن يعيشوا في كنف المسلمين .

وفي القرآن ذكرت الجزية في آية واحدة فقط هي قوله تعالى :

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ^(٦)

وفي تفسيرها قال صاحب الظلال : « واذن فان الوسيلة العملية لضمان ازالة العوائق المادية

١ - الجاثية ٢٨ .

٢ - البقرة ١٩١ .

٣ - آل عمران ١٣٦ .

٤ - لسان العرب مادة جزي .

٥ - ديوان الهذليين القسم الثاني ص ١٠٤ .

٦ - التوبة ٢٩ .

وعدم الاكراه على اعتناق الاسلام في الوقت نفسه هي كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق حتى تستسلم، وتعلن استسلامها بقبول اعطاء الجزية فعلا. وعندئذ تتم عملية التحرير بضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع. فان لم يقتنع بقي على عقيدته، وأعطى الجزية لتحقيق عدة أهداف: منها أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وحرماته التي يكفلها الاسلام لأهل الذمة الذين يؤدون الجزية، فيصبحون في ذمة المسلمين وضمانتهم» (١).

والجزية - بذلك - مصطلح جديد في المفهوم الاسلامي. لأنه مصطلح ناتج عن ظروف الدعوة الى دين الله، وما ينتج عن ذلك من مقابلة الناس للدعاة اما بالاسلام أو بالكفر أو اعطاء الجزية والذمة. وهذه كلها ظروف جدت بعد نزول القرآن الكريم.

الأجر والثواب:

الأجر مصطلح قرآني يعني تلقي الانسان مكافأة على عمله الصالح في الدنيا والآخرة. أقرر ذلك رغم أن الذي يشيع على ألسنة الناس للتعبير عن هذا المعنى هو الثواب. وعند دراسة اللفظين في القرآن الكريم نجد أن لفظ الأجر وما اشتق منه قد ذكر في مئة وسبع آيات قرآنية، بينما لم يرد الثواب الا في عشرين آية فقط. وليس هذا وحده سببا كافيا لتقرير هذا الحكم، انما يمكن أن يعطي انطبعا ما، وبخاصة اذا علمنا حرص القرآن الكريم على بيان أجر الذين يؤمنون بالله و يتقونه حق تقاته، ليطمئنوا الى نتيجة عملهم وجهودهم في دنياهم وآخرتهم. فاختيار الله عز وجل لهذا اللفظ دون غيره دليل على أنه هو المصطلح المقصود لبيان نتيجة العمل الخير والجهاد المتواصل في سبيل الله. ومن جهة أخرى فان الأجر في القرآن لم يرد الا مقترنا بالعمل الصالح في معظم تلك الآيات. وفي آيات قليلة ورد ليُعني مجرد الأجر على العمل بينما ورد لفظ الثواب في الخير والشر وان كان في الخير أخص وأكثر استعمالا، وسبب آخر هو أن القاعدة في الاسلام تقضي بأن يكون الأجر لقاء العمل، وبذلك يكون التوجيه القرآني واضحا عندما يقرن الأجر بالعمل، حتى لا يتكئ انسان على الأمان فيفتقاس عن تحمل مسؤوليته. وهذا متفق مع أصل اشتقاق كلمة أجر. فالأجر هو الجزاء على العمل. والاجارة من أجر يأجر وهو ما أعطيت من أجر على العمل. وقد أجره الله يأجره ويأجره، وأجره الله ايجارا. وأجر المرأة مهرها. ويقال

١ - في ظلال القرآن م ٤ ص ١٩٠.

أجرك الله على ما فعلت وأنت مأجور عليه (١) . وفي استخدام الأجر بمعنى الجزاء على العمل دون تحديد صفته ، أو مقابل جهد مقدم من قبل المأجور ، قال الله تعالى :

قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا^ج (٢)

وقال تعالى :

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ (٣)

على أنه من السهل أن نفسر الأجر هنا على أنه أجر على عمل صالح مشهود . فمساعدة موسى عليه السلام لامرأتين تزدوان ، ضعيفتين عن مزاحمة الناس ، وأبوهما شيخ كبير لم يستطع العمل بنفسه ، وهو عمل صالح بلا شك . وكذلك دعوة النبي لقومه أن يعبدوا الله هي بالتأكيد عمل صالح .

والأجر على العمل الصالح في التعبير الصريح في القرآن الكريم كثير جدا . وهذا هو معناه الاصطلاحي في الاسلام . ومثاله قول الله عز وجل

وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٤)

وقوله تعالى :

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٥)

وهكذا يظهر أن الأجر هو مكافأة العمل الصالح فقط في الدنيا والآخرة .

وأما الثواب ... فهو من ثاب الرجل يثوب ثوبا وثوبانا بمعنى رجع بعد ذهابه . ويقال ثاب فلان الى الله وثاب وأثاب كلها بمعنى واحد . وثاب الناس اجتمعوا وجاءوا (٦) . وفي تاج العروس : الثواب : الجزاء . قال شيخنا ظاهره - كالأ زهري - مطلق في الخير والشر ، لا جزاء الطاعة فقط كما اقتصر عليه الجوهرى . واستدلوا بقوله تعالى :

١ - أساس البلاغة ج ١ ص ٧ .

٢ - القصص ٢٥ .

٣ - سبأ ٤٧ .

٤ - يوسف ٥٧ .

٥ - الحديد ٧ .

٦ - تاج العروس م ١ ص ١٦٨ .

هَلْ ثَوَابَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١)

وقد صرح ابن الأثير في النهاية بكونه في الخير والشر، قال : الا أنه في الخير أخص وأكثر استعمالاً . قلت وكذا في لسان العرب ، ثم نقل شيخنا - والحديث لا يزال لصاحب تاج العروس - عن العيني في شرح البخاري ، الحاصل بأصول الشرع والعبادات ثواب ، وبالكمالات أجر . لأن الثواب لغة بدل العين ، والأجر بدل المنفعة ، الى هنا وسكت . مع أن الذي قاله من الثواب لغة بدل العين غير معروف في الأمهات اللغوية « (٢) ...

ولا أرى صحة ما نقل عن الامام العيني في شرح البخاري لسببين اثنين :

١ - أن الآيات القرآنية التي ذكرت جزاء بعض أصول الشرع والعبادات - كما قال - قد ذكرت الأجر لا الثواب : في مثل قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ
لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣)

٢ - أنه لم يحدد المقصود بالكمالات والعبادات . وان الذي يجب أن يثبت في إيمان كل مسلم هو أن العبادة ليست مقتصرة على الصلاة والصيام فقط ، بل هي تشمل كل ما أمر الله عز وجل به . وقد سبق الحديث عنها في فصل أركان الاسلام . وهناك ذكرنا أن التقسيم بين العبادات والمعاملات هو تقسيم متأخر نتيجة التأليف في الفقه الاسلامي .

وربما كان ما يقال في الثواب أنه مصطلح يعني عودة عمل الانسان اليه سواء في الخير أو في الشر . أو هو ما يرجع الانسان ذاته اليه من العمل الذي قدمه الى الله جل ذكره ، لأنه يشوب اليه في الآخرة ويصير اليه ويرجع اليه (٤) . والثواب بهذا المفهوم مستعمل في شعر العرب قبل نزول القرآن . قال أوس بن غلفاء الهجيمي (٥) :

١ - المطففين ٣٦ .

٢ - تاج العروس ١ م ص ١٦٨ .

٣ - البقرة ٢٧٧ .

٤ - الزينة ج ٢ ص ٢٢١ .

٥ - المفضليات ٣٨٨ .

هم منوا عليك فلم تُثبِّهْهُمْ فتَيْلا غير شتم أو خصام
وقال عدي (١) :

وان تشمر حرب بعدما لقحت حتى تثوب شيئا كان منكارا
وقال ساعدة بن جؤية الهذلي (٢) :

من كل مُعْنِقَةٍ وكُلِّ عَطَافَةٍ مِمَّا يُصَدِّقُهَا ثَوَابٌ يَزْعَبُ
وقال طرفة (٣) :

أبلغ قتادة غير سائله منه الثواب وعاجل الشُّكْمِ

ومن الثواب بهذا المعنى المثابة أي مكان التجمع ، وعليه قوله تعالى :

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا (٤)

وأُشد الشافعي قول أبي طالب في البيت الحرام (٥) :

مثابا لأفناء القبائل كلها تحب اليه اليعملات الذوابل

وهكذا يختلف معنى الثواب عن معنى الأجر في المصطلح الاسلامي . فالثواب هو
الجزء على كل عمل . ولكن يغلب عليه الجزء في الخير . والأجر هو جزاء العمل الصالح
فقط ، في الدنيا والآخرة .

الفلاح والفوز:

الفلاح هو الظفر والنجاح في الدنيا ، والفوز هو النجاح في الآخرة ، ولكي أوضح هذه
الحقيقة القرآنية سأشرح معنى كلمتي الفلاح والفوز في اللغة العربية وفي اللغة الاسلامية
أعني في استعمال القرآن الكريم لكل منهما .

والذي ينعم النظر في آيات القرآن الكريم التي تعرضت لكلمة الفلاح وما يشق منها
يجد أنها تعني الظفر في ميادين العمل والجهاد في هذه الحياة الدنيا . ولنقرأ معا قول الله عز
وجل

١ - الزينة ج ٢ ص ٢٢١ .

٢ - ديوان الهذليين ، القسم الأول ص ١٧٧ .

٣ - ديوان طرفة ١٤٥ .

٤ - البقرة ١٢٥ .

٥ - لسان العرب مادة ثاب .

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا^(١)

وقوله تعالى يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾^(٢)

وقوله تعالى :

(٣)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

وقوله تعالى :

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ^(٤)

وقوله تعالى

إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى^(٥)

وغير ذلك كثير من الآيات الكريمة .

ولا أراني مضطرا لعرض تفسير الآيات السابقة للتأكيد على أن المقصود بالفلاح هو الظفر في الدنيا ، فان ذلك لا يخفى على أي مسلم له أدنى اتصال بالقرآن الكريم . وإلا فأين يتوصى أهل الكهف بالتستر والخفية حتى لا يظهر عليهم أعوان الحاكم الروماني المستبد ؟ وأين يفلح الناس الذين يصبرون و يصابرون و يرابطون ؟ وأين تتلاقى الفئة المؤمنة الثابتة التي تعمل للفلاح والنصر مع الفئة الكافرة ؟ وكذا قول سيدنا يوسف عليه السلام . ثم الكلام الموجه الى موسى عليه السلام . كل ذلك في هذه الحياة الدنيا . ولعل سائلا يسأل عن معنى الفلاح في بعض الآيات التي يظهر أن المقصود به فيها هو الظفر في الآخرة . مثل قوله تعالى :

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٦)

١ - الكهف ٢٠ .

٢ - آل عمران ٢٠٠ .

٣ - الانفال ٤٥ .

٤ - يوسف ٢٣ .

٥ - طه ٦٩ .

٦ - الاعراف ٨ .

وقوله تعالى :

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١١﴾
مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١)

و (يومئذ) في الآيتين الكريميتين هو يوم القيامة . ولا شك أن الوزن مقصود به تقويم الأعمال يوم الحساب . وليس يلغي المصطلح القرآني الذي يطرد في عشرات الآيات أن يأتي في آية واحدة أو آيتين على المعنى الأصلي أو المعنى اللغوي للكلمة في مثل مصطلحات الكفر والنفاق والسجود والصلاة والزكاة مما سبق بيانه . ثم إنه ليس عسيرا أن نفسر « المفلحون » في الآيتين أنهم الذين كانوا من المفلحين في الدنيا . وأن فلاحهم في الدنيا هو سبب ثقل موازينهم في الآخرة .

و يعزز هذا القول معرفتنا بأن العرب عرفوا الفلاح في أشعارهم بمعنى البقاء والدوام في الدنيا . قال الاضط بن قريع الأسدي (٢) :

لكل هم من الهموم سعة والمُسَيُّ والصَبْحُ لا فلاح معه
يقول ليس مع كسر الليل والنهار بقاء . فكأن فلاح الآخرة هو بقاء ودوام وخلود لفلاح من أفلح في الدنيا . وقال الأزهري يعزز هذا المعنى ، وإنما قيل لأهل الجنة مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد . وفلاح الدهر بقاءه ، يقال لا أفعل ذلك فلاح الدهر .
وقال الشاعر (٣) :

ولكن ليس في الدنيا فلاح

وقال الأعشى (٤) :

ولئن كنا كقوم هلكوا ما حيي - يالقوم - من فلاح
وقال النابغة (٥) :

١ - المؤمنون ١٠٢-١٠٣ .

٢ - لسان العرب مادة فلاح .

٣ - تهذيب اللغة ، مادة فلاح .

٤ - ديوان الأعشى ، ص ٢٧٣ .

٥ - ديوان النابغة ص ٢٥ .

وكل فتى ستشعبه شعوب وان أثرى وان لقي الفلاحا
يعني البقاء .

وقال الشنفرى الأزدى (١) :

فلما رأنا قومنا قليل أفلحوا فقلنا اسألوا عن قائل لا يكذب
والفلاح بمعنى الظفر في الدنيا معروف في الشعر الجاهلي . قال عبيد بن الأبرص (٢) :

ثم بعد الفلاح والرشد والأمة وارتهم هناك القبور
وكذلك ذكرت معاجم اللغة أن أفلح بمعنى ظفر . وقال أبو اسحق : يقال لكل من أصاب
خيرا مفلح وفي السيرة النبوية ... تلك القصة الرائعة السامية التي تصور استقبال النبي
صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أنيس ، الرجل الفدائي الذي أرسله ليفسد تخطيط بني
هذيل لغزو المدينة . فلما عاد الرجل ظافرا استقبله النبي صلى الله عليه وسلم مبتسما قائلا :
أفلح الوجه ان شاء الله . فقال عبد الله بن أنيس : أفلح وجهك يا رسول الله (٣) .

الفلاح اذن ظفر في الدنيا ، يخلد و يدوم حتى يكون فلاحا في الآخرة .
أما الفوز ، فهو في القرآن الظفر بالخير والنعيم في الحياة الآخرة . ولننعم النظر في الآيات
التالية :

قال تعالى :

مَنْ زُحِرَ حَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (٤)

وقال تعالى :

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥)

وقال تعالى :

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ

١ - الطرائف الأدبية ص ٣٢ .

٢ - ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٣٨ .

٣ - السيرة النبوية لابن هشام ، القسم الثاني ص ٦٢٠ .

٤ - آل عمران ١٨٥ .

٥ - النساء ١٣ .

عَنْهُ يَوْمِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١)

وقال تعالى :

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢)

وقال تعالى :

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٣)

ولعل آية واحدة فقط أوردت مادة الفوز في هذه الحياة الدنيا . وسنوردها هنا — في سياقها — للقارئ ليظهر له اعجاز القرآن الكريم في تصويره لنفسيات الناس . قال تعالى :

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٦﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنْ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِئَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٤)

تصور هذه الآيات نفرا من الناس من المبطينين المخذلين المعوقين ، سواء أكانوا يبطنون أنفسهم أو يبطنون غيرهم معهم . فهذا هو شأنهم عادة . ولفظة «ليبطنن» مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر . وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها حتى يأتي على آخرها وهو يشدها شدا . وانها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهذا التعثر والتثاقل في جرسها ، وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة» (٥) . هذا الفريق يرى التخلف عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمة . لأنهم لا يعرفون لم خلقهم الله ، ولا يقدرّون ما في تخلفهم من كفر . هذا الفريق نفسه يتألم أشد الألم عندما يسمع أن رسول الله وأصحابه قد أصابوا فضلا من الله . فيقول

١ - الانعام ١٥-١٦ .

٢ - المؤمنون ١١١ .

٣ - الحشر ٢٠ .

٤ - النساء ٧٢-٧٣ .

٥ - في ظلال القرآن م ٢ ص ١٣٩ .

بنفس متحسرة «يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما». وهنا يظهر اعجاز القرآن في بيان تقدير الفوز العظيم عند كل فريق. ان أهل الايمان ينظرون الى الفوز العظيم هناك في طاعة الله وفي جناته. أما أهل الأرض المثبطون المثاقلون، الملتصقون بالتراب، فيرون أن الفوز العظيم هو في الحصول على سهم من غنيمة عابرة في يوم من أيام الدنيا. وبذلك يظهر معنى الفوز في القرآن الكريم. انه لفوز برضا الله ورضوانه يوم القيامة. وذلك كما يقول عز وجل هو الفوز العظيم. هذا المعنى للفوز في القرآن سيشتد سحره، و يظهر تأثيره عندما يعرف القارئ الصلة بينه وبين الأصل اللغوي لكلمة فاز وما يشق منها.

ذكرت معاجم اللغة أن الفوز هو النجاء والظفر بالأمنية. وهو من فاز به فوزا ومفازا ومفازة. يقول الليث: الفوز الظفر بالخير والنجاة من الشر. ولكن يبقى هذا أيضا معنى مجازيا متطورا عن المعنى اللغوي الأساسي. وهو الذي حدده الفراء في قوله: أصل المفازة مهلكة، فتفاءلوا بالسلامة والفوز. ويقال فاز اذا لقي ما يقتبط، وتأويله التباعده من المكروه. والمفازة أيضا واحدة المفاوز، وسميت بذلك لأنها مهلكة من فوز اذا هلك (١). والفوز أيضا الهلاك. فاز يفوز وفوز اذا مات. وعليه قول كعب بن زهير (٢):

فمن للقوافي شأنها من يحوكها اذا ما ثوى كعب وفوّر جرول
يقول فلا يعيا بشيء يقوله ومن قائلها من يسيء ويعمل
وفوز الرجل بابه اذا ركب بها المفازة. ومنه قول الراجز (٣):

فوّز من قراقر الى سوى

وعن ابن الأعرابي: سميت الصحرا مفازة لأن من خرج منها وقطعها فاز (٤) ...

أين يكمن السحراذن في تعبير القرآن؟ أين موطن الاعجاز؟

اننا نستطيع الآن أن نعرف لماذا سميت الدنيا مفازة. ولماذا سمي من لم ينخدع بها، ولم تشده أهواؤها، ولم تهلكه مفاتها أنه فاز. الدنيا دار زوال. ودار ابتلاء. ودار فناء. وقد تضافرت الآيات والأحاديث تحذر من الاطمئنان الى الدنيا والركون اليها. فمن يركن اليها فقد هلك وضيع نفسه، ومن لم يجعل لها عليه سلطانا فقد أفلح وفاز. ولذلك فإن الدنيا للانسان كالصحراء للمسافر، فمن اجتازها فقد فاز فوزا عظيما.

١ - لسان العرب مادة فاز.

٢ - ديوان كعب بن زهير، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠، ص ٥٩.

٣ - لسان العرب مادة قراقر وسوى ماء ان لقبيلة كلب.

٤ - المرجع السابق.

العذاب والعقاب :

العذاب هو الجزاء الذي يناله الانسان عن عمله السيئ في الدنيا والآخرة . ويغلب عليه أن يكون في الآخرة . أما العقاب فهو جزاء العمل السيئ في الدنيا فقط ، هذا ما قررته آيات القرآن الكريم . وأصل العذاب من قولهم : عَذَبَ الرجل والحمار والفرس يَعْذِبُ عَذْبًا وَعُذُوبًا فهو عاذب والجمع عذوب ، أو فهو عذوب والجمع عُذْب : لم يأكل من شدة العطش . ويعذب الرجل عن الأكل فهو عاذب لا صائم ولا مفطر (١) . وفي التهذيب : القول في العذوب والعاذب أنه الذي لا يأكل ولا يشرب أصوب من القول في العذوب أنه الذي يمتنع من الأكل لعطشه (٢) ، وهذا المعنى مشتق من معنى أعذب عن الشيء : امتنع ، وأعذب غيره : منعه . وكأن العذاب في الأصل هو منع المرء عن الشيء ، لأنهم قالوا : عذبه عنه عذبا وأعذبه اعذابا وعذبه تعذيبا : بمعنى منعه وفطمه عن الأمر (٣) .

ومعنى هذا أن العذاب هو حرمان الانسان مما يشتهيهِ ويتمناه . والذي يقرأ آيات القرآن الكريم يعرف تماما أن العذاب هو كذلك أيضا . فالعذاب هو حرمان الكفار من نعيم الجنة ، وهو منعهم من الماء النмир والظل الذي يمنح لأهل الطاعة والايان . والآيات القرآنية تشعر أن العذاب يكون في الدنيا ويكون في الآخرة . قال تعالى :

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٤)

وقال تعالى :

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)

وقال تعالى :

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٦)

١ - لسان العرب . مادة « عذب » .

٢ - تهذيب اللغة : « مادة عذب » .

٣ - لسان العرب : مادة عذب .

٤ - التوبة ٥٥ .

٥ - الشعراء ١٨٩ .

٦ - الزخرف ٧٤ .

ولم يشتهر ذكر العذاب في العصر الجاهلي . بل لم يستخدم في ألسنتهم بهذا المعنى ولم أعثر - فيما قرأت - من الجاهلي على كلمة العذاب .

وبهذا يكون العذاب مصطلحا قرآنيا صنعه القرآن الكريم من كلمة عربية لم تعرف إلا بمعناها اللغوي في الاستعمال الجاهلي .

أما العقاب فهو الجزء السريع على العمل القبيح في الدنيا . وهناك صلة قوية بين المعنى اللغوي للكلمة وهذا المعنى الاصطلاحي لها . فالعقبُ في اللغة والعقب والعاقبة والعاقب والعقبة والعقبى والعقبان كل ذلك يعني آخر الشيء (١) . قال خالد بن زهير الهذلي ، وروى في ديوان الهذليين لأبي ذؤيب الهذلي (٢) .

فان كنت تشكو من خليل مخافة فتلك الجوازي عقبها ونصورها ومن هذا أخذوا عَقِبَ القدم وعَقَبها : بمعنى مؤخرها . وأنشدوا : فرق المقادير قصار الأعقب (٣) . - وفلان وطئ عقب فلان اذا مشى في أثره . وفي الجاهلية شاع مصطلح « المعقب » وهو الذي أغير عليه فعاد وأغار على الذي أغار عليه واسترد ماله (٤) ، وأنشدوا في وصف فرس (٥) .

يملاً عينيك بالفناء ويرضيك عقبا ان شئت أو نَزَقا

أي يرضيك اذا أغرت معقبا أو مبتدئا . والعقب « بالتسكين » الجري بعد الجري الأول ، يقال لهذا الفرس عقب حسن . وفي ذلك يقول امرؤ القيس في وصف حصانه (٦) :

على العَقَب جَيَّاش كأنَّ اهتزامه إذا جاش فيه حميه غليّ مرجل
وقد وردت كلمة « عقاب » في الشعر الجاهلي كثيرا ، وهي تفيد العقاب في الدنيا ، قال طرفة بن العبد (٧) :

١ - لسان العرب : مادة عقب .

٢ - ديوان الهذليين : القسم الأول ص ١٥٨ .

٣ - لسان العرب : مادة عقب .

٤ - المرجع السابق .

٥ - المرجع السابق .

٦ - ديوان امرئ القيس ، ص ٢٠ .

٧ - ديوان طرفة ١٤٨ .

أَخْشَى عِقَابَكَ إِنْ قَدَّرْتَ وَلَمْ
وَقَالَ النَّابِغَةُ (١) :

فَمَنْ أَطَاعَ فَأَعْقِبْهُ بِطَاعَتِهِ كَمَا أَطَاعَكَ وَادُّلُّهُ عَلَى الرُّشْدِ
وَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبْهُ مَعَاقِبَهُ تَنْهَى الظُّلُومَ وَلَا تَقْعُدُ عَلَى ضَمْدٍ
وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ ، شَقِيقُ أَبِي جَهْلٍ (٢) :

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَجِبَّةَ فِيهِمْ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمِ مُرْصِدٍ
أَيُّ يَرْصِدُ الشَّرَّ لَهُمْ ، وَيَتِمَكَّنُ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ قَادِمٍ .

وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَخَذَ الْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِيَّ لِلْكَلِمَةِ ، لِأَنَّ الْعِقَابَ وَالْمَعَاقِبَةَ وَالْعُقُوبَةَ هِيَ أَنْ تَجْزِيَ الْإِنْسَانَ سُوءًا بِمَا فَعَلَ . وَلِذَلِكَ نَقُولُ اعْتَقَبَ الرَّجُلُ بِمَا صَنَعَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا . وَنَقُولُ تَعَقَّبْتَهُ إِذَا أَخَذْتَهُ بِذَنْبٍ كَانَ مِنْهُ . فَكَأَنَّ الْعِقَابَ هُوَ النَّاتِجَةُ الَّتِي تَلِي الْفِعْلَ السَّيِّئَ وَالْعَمَلَ الْمُنْكَرَ مُبَاشَرَةً . وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَلِمَةَ « الْعِقَابِ » فِي مَعْنَى الْجَزَاءِ السَّرِيعِ فِي الدُّنْيَا . قَالَ تَعَالَى :

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَفِيفَ كَانَ عِقَابِ (٣)

وَقَالَ تَعَالَى :

كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ
اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)

وَقَدْ وَرَدَتْ الْكَلِمَةُ فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا بِمَعْنَاهَا اللَّغَوِيَّةُ ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى الصَّلَةِ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ . قَالَ :

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ

١ - ديوان النابغة ص ١٣ .

٢ - الحماسة ٩١/١ .

٣ - الرعد ٣٢ .

٤ - الانفال ٥٢ .

أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي
اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١)

الحد والتعزير...

ظهر لنا مما سبق أن العقاب هو الجزاء السريع في الدنيا . وهذا الجزاء يختلف باختلاف الذنب الذي يقتضيه المرء . ولكن لا خلاف في أن المجرم يجب أن يتحمل نتيجة جرمه ، ويجب كذلك أن ينال جزاءه . كتب الأستاذ العقاد في هذا المعنى فصلا بعنوان « العقوبات في القرآن » قال فيه : « من المبادئ المتفق عليها في عصرنا أن الجريمة فساد في نفس المجرم ، وأن العقوبة اصلاح له . أو وقاية للمجتمع من فساد ، وأن مصلحة المجتمع مقدمة على مصلحة الفرد ، ولكن لا تغفل مصلحة الفرد في سبيل مصلحة المجتمع الا اذا كانت احدى المصلحتين معارضة للأخرى . وأن القصاص مصلحة اجتماعية . وأن الشبهة انما يكون لمصلحة المتهم ، فلا يدان المتهم اذا وقع الشك في أدلة الادانة . وهذه المبادئ كلها مسلمة في شريعة القرآن ، فلا وزر على القاصر ولا على المكره ، ولا على المجنون ، ولا وزر على من تاب على التوبة . قال تعالى

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوا بِالْأَلْبَبِ (٢)

وفي كل ذلك تدراً الحدود بالشبهات » (٣) والعقوبات في الاسلام قسمان : قسم التعزير وقسم الحدود . فما التعزير؟ وما الحدود؟ في أصل اللغة أولا وفي المصطلح الاسلامي ثانيا؟ العزير في اللغة هو المنع وهو الرد واللوم . يقال عزره يعزره عزرا وعزره : رده (٤) . ولأن العزير والتعزير يحمل معنى الرد والمنع فقد صار وسيلة للتأديب ، أي تأديب الجاني حتى لا يعاود الذنب . ولأن العزير والتعزير أيضا هو اللوم ، فقد صار كل منهما عقابا في الذنوب غير الكبيرة التي يجدي فيها لوم الانسان وتأنيبه لرده عما هو فيه .

والتعزير في المصطلح الاسلامي هو عقاب يتناول الزجر والغرامة والحبس والجلد وهو في كل ذلك دون مقدار الحد — وهو العقاب الأكبر الذي سيأتي تفصيله بعد قليل — قال

١ - آل عمران ١٤٤ .

٢ - البقرة ١٧٩ .

٣ - الفلسفة القرآنية ٩٨ .

٤ - لسان العرب : مادة عزر .

الامام ابن تيمية في رسالته عن الحسبة « فيها عقوبات غير مقدرة ، وقد تسمى التعزير وتختلف مقاديرها وصفاتها بحسب كبر الذنوب وصغرها . وبحسب حال المذنب ، وبحسب حال الذنب في قلته وكثرته ، والتعزير أجناس فمنه ما يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام . ومنه ما يكون بالحبس ، ومنه ما يكون بالنفي عن الوطن ، ومنه ما يكون بالضرب ، والتعزير بالعقوبات المالية مشروع أيضا في مواضع مخصوصة في مذهب مالك في المشهور عنه ، ومذهب أحمد في مواضع بلا نزاع ، وفي مواضع فيها نزاع ، والشافعي في قول الخ » (١) .

ومن الجدير بالذكر أن التعزير بهذا المعنى لم يرد في القرآن ، إنما هو باب من أبواب الفقه الاسلامي . وقد وردت الكلمة في القرآن بمعنى النصرة والمؤازرة . وذلك واضح في قوله تعالى :

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢)

وفي قوله تعالى :

لَتَتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتَعَزَّوهُ وَتُقِرُّوهُ ۖ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٣)

فكيف تحول معنى الكلمة من الرد والمنع الى النصرة والتعظيم ؟ والصلة بين المعنيين واضحة وممكنة ... ذلك أن التعزير هو في الأصل الرد والمنع ، فتعزير الأنبياء هورد أعدائهم

١ - الفلسفة القرآنية ص ٩٩ . وتراجع تفاصيل هذه المذاهب في كتب الفقه . ومهمة هذا البحث دراسة المصطلح الاسلامي ، دون الخوض في تفصيلاته الفقهية .

٢ - الأعراف ١٥٧ .

٣ - الفتح ٩ .

عنهم ومنع الأعداء عن أيدائهم . قال ابراهيم بن السري : « وهذا هو الحق — والله تعالى أعلم — وذلك أن العز في اللغة الرد والمنع ، وتأويل عززت فلانا أي أدبته انما تأويله فعلت به ما يرد عنه القبيح ، كما أن نكلت به تأويله فعلت به ما يجب أن ينكل معه عن المعاودة ، وتأويل عززتموهم نصرتموهم بأن تردوا عنهم أعداءهم » (١) .

أما الحد فأساس المعنى فيه أيضا هو المنع (٢) . . يقال حدني عن كذا : منعني عنه ومنه تسمية السجن بالحداد ، لأنه يمنع السجين من الحركة . قال الشاعر (٣) :

يقول لي الحداد وهويقودني الى السجن لا تجزع فما بك من بأس
وعلى هذا المعنى سمي الأعشى الخمار حدادا لأنه يحبس الخمر عنده ، قال (٤) :

فقمنا ولما يصح ديكننا الى جونة عند حدادها

وعن هذا المعنى تطور معناه المجازي المعروف بأنه الفصل بين الشيئين أو الفرق بينهما لثلا يعتدي أحدهما على الآخر. كأن الحد هو المانع من تداخل الشيئين . والعرب تقول فلان حديد فلان اذا كانت داره الى جانب داره أو أرضه الى جانب أرضه وحد الشيء من غيره يحده حدا ، وحدده بمعنى ميزه (٥) .

وقال النابغة في هذا المعنى :

الا سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحدها عن الفند (٦)

والحدود في المصطلح القرآني هي الأحكام التي بين الله عز وجل تحريمها وتحليلها . وأمر ألا يتعدى الانسان تلك الاحكام فيخالف حكم الله فيما أمر به أو نهى عنه . وقد وردت آيات كثيرة في القرآن تذكر هذه الحدود وتحذر من مخالفتها . قال تعالى :

الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ

١ - لسان العرب مادة عزز .

٢ - جهرة اللغة مادة حدد وأنظر اللسان كذلك .

٣ - جهرة اللغة مادة حدد .

٤ - ديوان الأعشى ص ٦٩ .

٥ - جهرة اللغة مادة حدد .

٦ - ديوان النابغة ، ص ١٣ .

تَأْخُذُوا مِمَّا آتَبْتُمُوهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافُوا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١)

وقد عرف الفقهاء الحد بأنه الفعل الذي يمنع المجرم عن معاودة جرمه ويمنع غيره من إتيان الجنايات .

والحد مصطلح في مصطلحات الفقه الاسلامي ، وهو عقوبة أشد من التعزير لأن الحد هو عقوبة من يقع في احدى الكبائر كالقتل والزنا وشرب الخمر والقذف والردة والتولي يوم الزحف . والحد والتعزير كلاهما مصطلح اسلامي لم يكن معروفا من قبل في الشعر الجاهلي ، لأن كلا منهما نتيجة من نتائج النظام الاسلامي الذي شرعه القرآن الكريم

الجنة وصفاتها

الجنة هو الاسم العلم ، أو الاسم الشخصي — ان جاز التعبير — للمكان الذي وعد الله عز وجل عباده المتقين . والقرآن الكريم والحديث الشريف استخدم لفظ الجنة على هذا الاعتبار ، أي على أنها الاسم العام . ثم استعمل القرآن الكريم بعد ذلك أسماء هي في الحقيقة صفات لهذه الجنة أو أسماء المنازل فيها .. وكأن الجنة درجات جعل الله عز وجل لكل صنف ، من عباده المتقين درجة منها ، حسب تقواهم وأعمالهم في الدنيا . ومن الصفات التي وصفت بها الجنة في القرآن : الفردوس وعدن والنعيم والخلد والمأوى ودار السلام وطوبى والغرفة أو الغرفات .

ومما يدل على أن الجنة هي الاسم الرئيسي أنها وردت في القرآن الكريم أكثر من مئتين وأربعين مرة ، بينما لم ترد أكثر تلك الصفات الا في بضع آيات . وكانت ترد معظم هذه الآيات — على قلتها — مقترنة بكلمة جنة أو جنات مثل جنة عدن ، أو جنة الخلد ، أو جنات النعيم . وسأحاول فيما يلي عرض معنى الجنة ومعنى الصفات التي ذكرت لها . ومقارنة دلالاتها في القرآن مع ما كانت تحمله من دلالات ومعان في الشعر الجاهلي .

الجنة:

لم تكن صورة تؤثر في نفس العربي أكثر من صورة روضة من الرياض الخضراء ، تلتف فيها الأشجار ، وتخللها الأنهار الرقراقة الصافية ، وتحمل مختلف أصناف الفواكه والثمار . وتترأى من خلال أشجارها القصور الأنيقة ، التي يكاد أهلها أن يقطفوا الثمار من خلال نوافذها المشرعة . لعل هذه الصورة — للعربي ساكن الصحراء — أعلى ما يمكن أن يطمح اليه في حياته ، وأجل ما يمكن أن يطوف بخياله . ذلك أن العربي في بيئته عانى حياة قاسية ، تشد فيها الحرارة في الصيف حتى تكاد تحرق الأجساد . وتشد فيها البرودة في الشتاء حتى تكاد تتجمد الأعصاب . علاوة على المناخ القاري المضطرب ، نهار حارق وليل زمهرير . يضاف الى ذلك رياح السموم التي تلمح الوجوه وتؤذي العيون . ورمال ساخنة تلهب الاقدام وتحرق الأكباد . وما يتبع ذلك من الجفاف والعطش ، وشظف العيش . وربما كان العربي — وهذه صورة حياته — يلم في بعض الأحيان بالشمال حيث الشام بجنتها وخيراتها . وبالجنوب حيث اليمن السعيد . فيرى ما عليه هذه البلاد من خير عميم وطقس معتدل وحياة هنيئة . وليس العربي هو الذي كان يعاني هذه الحياة القاسية حسب ، بل ارتبطت حياته بحياة ماشيته وأنعامه . فهو في تنقل مستمر طلبا للماء والكأ ، له ولها .

ولما كان الشعر ديوان العرب ، ومراة حياتهم — كما يقال — فإن الشعر الجاهلي صور الحياة العربية في الجزيرة العربية بكل ما ذكرناه من صنوف الحياة القاسية . ثم نزل القرآن الكريم بعد ذلك ، فاذا به يخاطب العربي ، فتحرك آياته نفسه وتستجيش مشاعره . يأمره باتباع أمر الله ليكون مصيره الى الجنة ، ويحذره من عصيان أمر الله ، فيكون مصيره الى النار... وَمَنْ أَعْرَفَ مِنَ الْعَرَبِيِّ بَوَاقِعَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؟ .

كان العربي في الجاهلية يعرف الجنة على أنها بستان كثيف الأشجار ، دائم الاخضرار ، ويتخذ هذه الصورة مشبها به لأعز ما ينتظره ويتمناه . يقول امرؤ القيس (١) :

تبصر خليلي هل ترى من طعائن سَوَالِكَ نَقَبَا بَيْنِ حِزْمِي شَعْبَع
علون بأنطاكية فوق عَقْمَةٍ كجرمة نخل أو كجنة يشرب

١ - ديوان امرؤ القيس ، ص ٤٣ . والنقب الطريق في الجبل ، وشعبع اسم ماء . والعقمة ضرب من الوشى .

وأنطاكية مدينة ساحلية من أعمال بلاد الشام . و يثرب — التي سميت فيما بعد المدينة المنورة — مدينة كثيرة المياه ، تحيط بها واحات النخيل . وهي في الجزيرة العربية أجل بقاعها . ولذا فإن صورتها لا تزايل خيال العربي حيثما توجه . وهذا شاهد على حضور هذه المعاني ، بل هذه الآمال في ذهن العربي دائما . ويعود امرؤ القيس نفسه ليشبه الطعائن وارتفاع هوداجهن واختلاف ألوانهن بالنخيل وطلعه المختلف الألوان . يقول (١) :

فشبهتهم في الآل لما تكمشوا حدائق دوم أو سفيننا مقيرا
أو المكرعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائي يلين المشقرا
ويقول لبيد (٢) :

درى باليسارى جنةً عبقريةً مُسَطَّعةً الأعناق بُلقَ القوادم
وتغنى العربي بناقته ، وشبهها بالنخلة في امتداد صلبها ، وأحب العشب الذي ترعاه ماشيته ، وأحب المطر وترقبه ، وعشق اللون الأخضر ، لون العشب الذي ترعاه ماشيته ، ولذلك تكونت لدى العربي صورة مثلى للجنة . فهي عنده البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه (٣) .

ولكن لماذا سُمي هذا البستان بالجنة ؟ أو بعبارة أخرى هل هذا الاسم هو الوصف الحقيقي أم هو تطور مجازي أطلق على هذه الصورة ؟ وأعتقد أن الجنة في الأصل مأخوذة من الستر والتغطية من جنة يجنه اذا غطاه وستره . وأن الجنة أخذت من تغطية الأشجار الملتفة لما يكون خلالها من أناس أو حيوان أم مبان . وقد ذهب إلى هذا الرأي أصحاب المعاجم والمفسرون . قال الزمخشري : أخذ معنى الجنة من الستر . وكأنها لتكاثفها وتظليلها سميت جنة التي هي المرة من جنة اذا ستره ، كأنها سترة واحدة لفرط التفافها (٤) . وزاد أبو حاتم الرازي هذا المعنى وضوحا في تعليقه (٥) : « وعملوا تسميتها بالجنة لأنها ثواب ادخره الله لأوليائه وأهل طاعته ، وهو مستور عنهم وهو مأخوذ من أجن الشيء اذا ستره . وبذلك أخبر

١ - ديوان امرؤ القيس ص ٥٧ . والمكرعات النخيل المفروش في الماء . والمشقر والصفا قصران بناحية اليمامة .

٢ - ديوان لبيد ص ٥٥ .

٣ - يراجع في صفات الجنة والنار البحث الجيد « التعابير القرآنية في البيئة العربية في مشاهد القيامة » .

٤ - الكشف ج ١ ص ٢٥٦ .

٥ - الزينة ج ٢ ص ١٩٧ .

الله عز وجل في كتابه

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١)

وأعتقد أن مراد القرآن بالجنة ليس هو الستر بمعنى ما ادخره الله لأوليائه من أجر— لا من ثواب— كما قال الرازي، بل إن الجنة في القرآن هي صورة ذلك البستان أو تلك الروض التي يحلم بها العربي ويتمناها. وهو التطور لذلك المعنى اللغوي الأساسي. وصورة الجنة في الشعر العربي— كما سبق الإشارة إليها— هي الصورة نفسها التي رسمتها آيات القرآن الكريم. قال الله عز وجل:

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (٢)

والجداد والصرام في النخل كالحصاد في الزرع والقطاف في العنب والاجتناء في الثمار (٣). وقال تعالى:

أَيُّودٌ أَحَدُكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ (٤)

وقال تعالى:

وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٦﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْعًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٥)

وجدير بالذكر أن الجنة «وهي مصطلح إسلامي شهير» ليس مصطلحا جديدا في الاستعمال القرآني، لأنه ورد بالمعنى الذي عرف به في الشعر الجاهلي.

الفردوس:

ذكرت كلمة الفردوس في آيتين اثنتين من آيات القرآن الكريم. في قوله تعالى:

١ - السجدة ١٧.

٢ - القلم ١٧.

٣ - الزينة ج ٢ ص ١٩٦.

٤ - البقرة ٢٦٦.

٥ - الكهف ٣٢-٣٣.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ
تُزْلَا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا (١)

وفي قوله تعالى :

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢)

فما هذا الفردوس ؟ وما صلته بالجنة ؟ في معاجم اللغة الفردوس هو البستان يجمع كل ما يكون في البساتين . وهو الأودية التي تنبت ضروبا من النبت (٣) . ويفهم من هذا أن الفردوس يعني الرياض أو البساتين المليئة بالأشجار، كثيرة الثمار، وارفعة الظلال .

وقد اختلف في أصل الكلمة أعربية هي أم معربة عن الرومية أو السريانية . قال الفراء هو عربي . ووافقه ابن سيده ووصفه بأنه الوادي الخصيب عند العرب ، وكذلك السيرافي وقال أنه الروضة وهو خضرة الاعناب (٤) . والذين قالوا بهذا الرأي أخذوه من الفردسة بمعنى السعة .

وقال مجاهد : الفردوس البستان بالرومية (٥) . وقيل هي فارسية عربت ، وقيل حبشية . وإن ثبت ذلك فهي وفاق بين اللغات . والعرب تقول للكروم فراديس (٦) . وكرم مفردس أي معرش (٧) .

وقد تتبع الدكتور حلمي خليل أصل كلمة فردوس في كتابه « المولد » حيث قال : « وقد اختلف اللغويون العرب حول مصدر هذه اللفظة ، فاعتبرها أبو عبيدة عربية الأصل لوقوعها في القرآن الكريم . بينما ذهب ابن سيده الى أنها بلسان الروم . وقال الفراء إنها

١ - الكهف ١٠٧-١٠٨ .

٢ - المؤمنون ٩-١١ .

٣ - القاموس المحيط مادة فردس .

٤ - المرجع السابق .

٥ - تفسير القرطبي ، المجلد السادس ص ٤١٧ .

٦ - المرجع السابق ، المجلد السابع ، ص ٤٥٠ .

٧ - المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص ٤١٧ .

عبرية الأصل . واعتبرها الزجاج من الرومية أو السريانية أو النبطية . أما السيوطي فقال أنها بالرومية . وقد أجمعوا على أن معناها البستان أو الوادي الخصيب أو الحديقة .

فاذا بحثنا عن لفظة الفردوس وجدنا أن أصلها في لغات إيران وهي في أفستا «بايرديسا» ثم دخلت الى اليونانية Paradeisos . والظاهر أنها انتقلت في الوقت نفسه الى بعض اللغات السامية كالعبرية والسريانية . ففي العبرية نجد Paradise بمعنى الجنة أو جنة عدن . وفي السريانية Pardoies . ويرى البطريق أفام أنها دخلت العربية عن طريق السريانية . ولكن من المعتمد أن تكون دخلت الى العربية عن طريق اليونانية مباشرة ، وقد استعملها عدي بن زيد منذ العصر الجاهلي . ونطق بها القرآن الكريم » (١) .

وانني أميل الى اعتبار كلمة الفردوس معربة عن اللغة الرومية أي اليونانية . وربما يرجح هذا الرأي انتشار الكلمة على لسان أهل الشام أكثر من غيرهم . فهم يسمون البساتين الفراديس . بالاضافة الى أن تركيب الكلمة ليس شائعا في الاشتقاق العربي الأصل .

وقد وردت الكلمة في الشعر الجاهلي . من ذلك قول أمية بن أبي الصلت (٢) .

كانت منازلهم اذ ذاك ظاهرة فيها الفراديس والفومان والبصل
وقول حكيم بن قبيصة الضبي يعاتب ابنه (٣) :

لعمري أبي بشر لقد خانته بشر على ساعة فيها الى صاحب فقر
فما جنة الفردوس هاجرت تبتغي ولكن دعاك الخبز أحسب والتمر

وهذا يدل على أن الكلمة كانت معروفة في الشعر الجاهلي ، وفي مفهوم الناس في هذا العصر . ولذا فان استعمال القرآن الكريم لها جاء موافقا لهذا المفهوم الشائع بين الناس لكلمة الفردوس .

عدن:

أما كلمة عدن فقد وردت احدى عشرة مرة في القرآن الكريم . وفي كل الآيات وردت الكلمة مقترنة بكلمة جنات . كالمضاف والمضاف اليه «جنات عدن» ومن تلك الآيات

١ - المولد ، الدكتور حلمي خليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

٢ - ديوان أمية بن أبي الصلت . ص ٤٨ .

٣ - الحماسة ٥٣٣/٢ .

قول الله عز وجل :

وَمَسْكَنَ طَيْبَةً فِي جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ (١)

وقوله تعالى :

جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ (٢)

وقوله تعالى :

جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ (٣)

وقوله تعالى

جَنَّتِ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ (٤)

وهذه الآيات تدل على أن كلمة عدن تقوم مقام الصفة — في المعنى — للجنات ، وليس اسما خاصاً أو علما على مكان معين . و يظهر هذا بوضوح عندما نتعرف الى معنى كلمة عدن . وفي تحقيق أصل الكلمة فيما يلي سيتكشف معنى الكلمة من خلال الآراء التي قيلت حول هذا الموضوع .

يرى فريق من الباحثين أن « عدن » في الأصل كلمة غير عربية . ولكنهم لم يتفقوا على تعيين اللغة التي تنتسب لها الكلمة . فبعضهم يرى أنها مأخوذة من الكلمة البابلية « عدنيو » ومعناه السهل . وبعضهم يرى أن اللفظ يماثل في العبرية الربانية (جن عدن) « ١٦٧. ١٦ » يعني به جنة النعيم (٥) وقد انتصر الدكتور ابراهيم أنيس لهذا الرأي . وناقش صاحب كتاب الزينة ، أحد أصحاب مدرسة الاشتقاقين الذين ربطوا بين الالفاظ ومدلولاتها ربطا وثيقا ، وحاولوا إرجاع كثير من الالفاظ المشتركة في حروفها الى معنى أصلي عام منه اشتقت كل الكلمات . يقول الدكتور أنيس « ويسلك أبو حاتم نفس المسلك في علاجه للالفاظ ، فجنة عدن في رأيه مأخوذ من عدن بالمكان أي أقام ، ومنه

١ - التوبة ٧٢ .

٢ - الرعد ٢٣ .

٣ - فاطر ٣٣ .

٤ - ص ٥٠ .

٥ - الزينة ج ٢ ص ٢٠١ .

المعدن الذي يثبت في الأرض ولا يبرحها غير مدرك أن كلمة عدن وردت في النصوص العبرية القديمة في سفر التكوين «لأصحاح الثاني والثالث» في صورة لا تدع الباحث يتردد في أنها علم على مكان في الأرض أو في السماء لا ندري . أي أنها اسم من أسماء الجنة ، ومن الخير ألا نسرف في الربط بينها وبين المادة العربية المألوفة» (١) .

وفريق آخر يرى أن الكلمة عربية الاشتقاق . منهم أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة ، وتابعهما الأمام الرازي في كتابه «الزينة» . وهم يرون أن الكلمة مأخوذة من عدن بالمكان يَغْدِن ويَغْدُن عَدْنَا وَعُدُونَا بمعنى أقام (٢) . وعدنت البلد توطنته . ومركز كل شيء معدنه . وسمي معدن الذهب والفضة بذلك لانبثاق لآثارها واثباته إياه في الأرض (٣) .

وأرى أن عدن كلمة عربية ، وليست معربة ، لعدة أسباب منها :

١ - شيوع مادة الكلمة في العصر الجاهلي ، في شعر العرب ونثرهم . ثم استعمالها على ألسنة الناس بكثرة مما يوحي أنها معنى شائع معروف . قال المخبل (٤) :

خوامسُ تَنْشَقُّ العصا عن رؤوسها كما صدَّع الصخر الشَّقَالُ الْمُعَدَّنُ
والمعدَّن هو الذي يبحث عن الذهب والفضة في صخور الأرض .
والعِيدَان في لغة العرب موضع العدون ، أي الدوام . والعدان هو الزمان .
قال الأزهري : سمعت أعرابيا يقول : كان أمر كذا وكذا على عدان ابن بور (٥) .
وقال الفراء : كان ذلك — أمر يتحدث عنه — على عدان فرعون .
والْعَدَان — يفتح العين — سبع سنين . يقال مكثنا في غلاء السعر عَدَانِينَ . وعدان البحر ساحله . قال يزيد بن الصعق (٦) .

جلبن الخيل من تثليث حتى وردن على أواره فالعَدَان

١ - المرجع السابق مقدمة بقلم الدكتور إبراهيم أنيس ص ١٠ .

٢ - لسان العرب مادة عدن .

٣ - المرجع السابق .

٤ - المرجع السابق .

٥ - تهذيب اللغة مادة عدن .

وقال شمر: عدان السيف موضع على سيف البحر. وفيه يقول لبيد بن ربيعة العامري (١):

ولقد يعلم صحبي كلهم بـعدان السيف صبري ونقل

وهكذا كانت مادة عدن معروفة شائعة في كلام العرب ، واتخذت عدة معان تستمد كلها من معنى اللزوم والثبات والدوام . حتى صار معدن كل شيء صفته اللاصقة به ، والمميزة له . عن النبي صلى الله عليه وسلم : فعن معادن العرب تسألوني ؟ (٢) أي عن أصول العرب . ولكنني لم أعثر — فيما قرأت — على كلمة عدن نفسها في الشعر الجاهلي .

٢ - أنه لا يمنع أن تكون الكلمة عربية وردوها في اللغة العبرية القديمة . فقد أثبتت الدراسات المقارنة وجود كلمات كثيرة مشتركة بين اللغتين الساميتين . وكثيرا ما تكون الكلمات متشابهة الأصول والمعانى مثل : كلمات : الله — برأ — السماء — الأرض — الماء — القدس — وما الى ذلك ولا يمنع أن تكون عدن من تلك الكلمات .

٣ - أن الكلمة استخدمت في القرآن كصفة للجنة وليس اسما علما على مكان ما . ويثبت ذلك آيات القرآن التي وردت فيها كلمة عدن دائما على اعتبار أنها صفة تفيد الخلود والدوام في الجنة لمن آمن واتقى وعمل صالحا . وهي تشترك في كونها صفة مع صفات أخرى كالنعيم والفردوس والمأوى . فلو كانت الكلمة علما على مكان ما لما اشتركت مع صفات الجنة الأخرى في الخصائص نفسها .

ومهما يكن من أمر فان عدن — في القرآن الكريم — مصطلح قرآني ، اذا أطلق يستثير ذهن المسلم وخياله لما أعد الله له في الجنة من خلود وبقاء ، ولا يتصور القارئ — الآن — لها معنى غير أنها صفة من صفات الجنة .

النعيم ، والنعمة :

النعمة عطاء من الله فقط ، ولا تكون من غيره . وهيمنة الله على عباده في الدنيا ، ولا تكون في غيرها . لأن ما يكون في غيرها — أي في الآخرة — هو النعيم ، وهو أجر الله لعباده

١ - ديوان لبيد ، ص ١٤٣ .

٢ - صحيح البخاري ، طبعة الشعب ، ج ٤ ، ص ١٧٠ .

على طاعتهم وعملهم . هكذا يقرر القرآن الكريم . فلم ترد النعمة الا مقترنة بلفظ الجلالة أو ما يدل عليه مثل كلمات ربكم ، ربي ، نعمتي . ويستثنى من هذا الحصر آيات ثلاث من سبع وستين آية ذكرت فيها هذه الكلمة ، وفي هذه الآيات الثلاثة تأييد للحكم السابق . قال تعالى :

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١)

وهذا ذكر للنعمة بمعناها العام ، لم تنسب لأحد . وقال تعالى :

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ (٢)

والخطاب في هذه الآية موجه للرسول عليه السلام . ونعمته من نعمة الله ، بل هي تحقيق لنعمة الله كما تنص الآية . فالله عز وجل أنعم على زيد بن حارثة وأمر رسوله عليه السلام أن ينفذ تلك النعمة . وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام منكرًا على فرعون أن يكون ما صنعه مع بني اسرائيل من قبيل النعمة :

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ (٣)

أي أنها ليست نعمة ، وهذا يدل على أن البشر لا يملك أن يقدم نعمة أو يؤخرها ...

وقد وردت النعمة أحيانًا بمعنى « الاسلام » أو « الدين كله » وهذا من أجل نعم الله على عباده .

أما النعيم فقد تكرر في القرآن الكريم سبع عشرة مرة ، أضيف في معظمها الى الجنة أو الجنات . كما في قوله تعالى :

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤)

١ - الليل ١٩ .

٢ - الأحزاب ٣٧ .

٣ - الشعراء ٢٢ .

٤ - الحج ٥٦ .

وفي قوله تعالى :

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٩﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ^(١)

وفي المواضع الأخرى ذكر النعيم على أنه ما يقدم للمؤمنين في الجنة . « قال تعالى :

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ^(٢)

وفي مرة واحدة ذكر النعيم مقابل الجحيم

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ^(٣)

ولا شك أن الذي يقابل الجحيم هو الجنة ، والنعيم صفة من صفات الجنة .

تدل هذه الآيات على أن النعيم هو ما أعده الله عز وجل للمتقين في الجنة . كأن الذي استحق نعمة الله بعمله في الدنيا سوف ينعم الله عليه بمثله في الآخرة ، في حياة خالدة ونعيم مقيم لا يزول .

على أن كلمة النعيم قد وردت في آية واحدة فقط تشعر أنه نعيم الدنيا ، وذلك في قوله تعالى في سورة التكاثر

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ

وقد ذكرت من قبل أن آية واحدة قد لا تمنع من اطراد المصطلح القرآني اذا تضافرت الآيات الأخرى على تحقيقه في السياق اللغوي .

والنعمة كلمة عربية شاعت في العصر الجاهلي على أنها ما يتفضل به الانسان على غيره ، وهي اليد البيضاء الصالحة من أنعم ينعم . ومثلها أيضا النعمة من نَعَمَ يَنْعَمُ بمعنى الرفه والحفض والدعة والمال . قال المزمق العبدي ^(٤) .

وظننى به الا يكدر نعمة ولا يَقْلِبِ الاعْداءَ مِنْهُ بِمَعْبِقٍ
وقال الفضل البكري ^(٥) .

١ - الواقعة ٨٩ .

٢ - التوبة ٢١ .

٣ - الانقطار ١٣ .

٤ - الأصمعيات ١٦٦ .

٥ - الأصمعيات ٢٠٣ .

وَأَنْعَمْنَا وَأَبْأَسْنَا عَلَيْهِمْ لَنَا فِي كُلِّ أَبْيَاتٍ طَلِيرٍ
وَمَنْ شَعَرَ عُلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِةٍ يَمْدَحُ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرٍ الْغَسَّانِي (١) :

وَأَنْتَ الَّذِي آثَارُهُ فِي عَدُوهِ مِنْ الْبُؤْسِ وَالنَّعْمَى لَهُنَّ نُدُوبُ
وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبِطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْبُ
وَمَنْ شَعَرَ الْأَفْوَهُ الْأَوْدِي (٢) :

أَمَّا نِعْمَةٌ قَوْمٍ مَتْعَةٍ وَحَيَاةُ الْمَرْءِ ثَوْبٌ مُسْتَعَارُ
وَقَالَ النَّابِغَةُ (٣) :

عَلَى عَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لَوَالِدِهِ لَيْسَتْ بِذَاتِ عِقَارِ
وَقَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ (٤) :

وَسَاعَدَنِي فِيهَا ابْنُ عَمْرٍو بْنِ عَامِرٍ خَدَّاشُ فَأَدَى نِعْمَةً وَأَفَاءَهَا
وَفِي هَذِهِ الشَّوَاهِدِ نَسْتَدِلُّ عَلَى أَنَّ النِّعْمَةَ - بَوَاحٍ عَامٌ - هِيَ الْعَطَاءُ وَالْفَضْلُ . وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ
الْكَرِيمَ خَصَّصَ مَصْدَرَ النِّعْمَةِ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

أَمَّا النِّعِيمُ فَقَدْ ذَكَرَ أَحْيَانًا فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ بِمَعْنَى النِّعْمَةِ ، فَلَمْ أَجِدْ فَرْقًا فِي الْإِسْتِعْمَالِ
الْجَاهِلِيِّ بَيْنَ مَعْنَى النِّعْمَةِ وَالنِّعِيمِ . يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ النَّابِغَةِ (٥) :

يَصُونُونَ أَجْسَادًا طَوِيلًا نَعِيمَهَا بِخَالِصَةِ الْإِرْدَانِ خَضِرِ الْمَنَاكِبِ
وَقَالَ بَعْضُ بَنِي أَسَدٍ ، وَقَدْ اقْتَتَلَ فَرِيقَانِ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى بَثْرِ أَدْعَايَا كُلِّ مِنْهُمَا (٦) :

فَمَا الرُّشْدُ فِي أَنْ تَشْتَرُوا بِنَعِيمِكُمْ بِثِيَسَا وَلَا أَنْ تَشْرَبُوا الْمَاءَ بِالْأَدَمِ
وَقَالَتْ حُرْقَةُ بِنْتُ النُّعْمَانِ (٧) :

بَيْنَا نَسُوسُ النَّاسِ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سَوْقَةٌ نَتَنَصَّفُ
فَأَقْ لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقَلَّلُ تَارَاتِ بِنَا وَتَصَرَّفُ

١ - الفضليات ٣٦٥ .

٢ - الشعر والشعراء ج ١ ص ٨٦ .

٣ - ديوان النابغة ص ٥٥ .

٤ - الحماسة ٥٤/١ .

٥ - ديوان النابغة ٦٣ .

٦ - الحماسة ١٣٣/١ .

٧ - الحماسة ٧٦/٢ - ٧٧ .

وعلى هذا يكون السياق القرآني قد أعطى النعمة والنعيم معنى غيرما استعملهما به الشعر الجاهلي . ويمكن اعتبارهما من المصطلحات التي خصص القرآن معناها بعد أن كانت عامة في الشعر الجاهلي .

الخلد :

ذكرت هذه الصفة من صفات الجنة لشيوعها على ألسنة الناس ، ولأنها اذا ذكرت ينصرف الذهن الى « جنة الخلد » . ولكنها ليست صفة خاصة بالجنة وانما وصفت بها النار كذلك . ولكن القرآن ذكر « جنة الخلد » ليصور النعيم الدائم . بينما ذكر عذاب الخلد ودار الخلد في تصوير العذاب المقيم . ولذلك جعلها صفة من صفات الجنة لأن تعبير المضاف والمضاف اليه لم يرد مع ذكر النار فيها . قال تعالى :

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (١)

وقال تعالى :

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ (٢)

والخلد معناه البقاء والدوام . وهي مأخوذة من أخلد بالمكان يخلد إخلادا اذا أقام به . وخلد يخلد خلودا اذا بقي . والحوالد : الجبال والحجارة والصخور لطول بقائها . قال زهير (٣)

لمن الديار غشيتها بالفرقد كالوحي في حجر المسيل المخلد
وقال النابغة الذبياني في مرض الملك النعمان بن المنذر (٤) :

ألم تر خير الناس أصبح نعشه على فتية قد جاوز الحى سائرا
ونحن لديه نسأل الله خُلْدَهُ يرد لنا ملكا وللأرض عامرا
ونحن نرجى الخلد إن فاز قدحنا ونرهب قدح الدهر ان جاء قامرا
وقال لبيد (٥) :

١ - الفرقان ١٥ .

٢ - يونس ٥٢ .

٣ - ديوان زهير ، ص ٢٥ .

٤ - ديوان النابغة ، ص ١٣١ . وكان النعش لحمل الملوك المرضى ولم يكن للاموات .

٥ - ديوان لبيد ، ص ٤٦ .

وعمرت دهرًا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود
ومن شعر حاتم الطائي (١) :
أريني جوادا مات هزلا لأنني أرى ما ترين أو بخيلا مغلدا

وهكذا يكون معنى الخلد في الشعر الجاهلي هو المعنى نفسه الذي جاء به القرآن الكريم .

بقية صفات الجنة :

الى جانب تلك الصفات ، ذكر القرآن المأوى ، ودار السلام ، وطوبى ، والغرفات .
فأما المأوى فانه يشبه الخلد في كونه صفة للجنة والنار . وقد وردت في القرآن صفة
« جنات المأوى » و « جنة المأوى » في ثلاث آيات فقط . وورد « ومأواكم النار » و
« مأواه جهنم » و « مأواه النار » و « مأواهم النار » و « مأواهم جهنم » في تسع عشرة
آية . وقد أردت باثباتها هنا التنبيه على أنها ليست صفة خاصة بالجنة كما تذكر بعض
كتب التفسير .

وأما دار السلام فهي صفة خاصة بالجنة . وهي الدار التي يجد فيها المؤمنون راحتهم
واطمئنانهم و يقينهم بعد الحياة الدنيا المضطربة ، التي صبروا فيها على المكاه وتحملوا فيها
المصاعب . والحديث الشريف يقول « لا راحة لمؤمن الا بالموت » أي أن حياته الحقيقية
تبدأ بعد مغادرته هذه الحياة الدنيا . والدار كلمة توحى بالاستقرار لأن الانسان مهما اغترب
فانه يعود في النهاية الى داره .

وقد أضيفت الدار في القرآن لعدة كلمات أخرى مثل : « الدار الآخرة ، دار الفاسقين ، دار
البوار ، دار المتقين دار المقامة ، دار القرار ، دار الخلد » . وكل امرئ يعود الى داره لا
محالة .

ودار السلام تقابل دار البوار كما تقابل الجنة النار . وقد فهم أن الله أراد بدار السلام
الجنة في قوله عز وجل :

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ (٢)

لأن السلام صفة للجنة . والذي يقرأ هذه الآية الشريفة يدرك كيف قابل الله عز وجل بين

١ - ديوان حاتم ، ص ٤٠ ولأنني هنا بمعنى لعنني .

٢ - يونس ٢٥ .

دارين . دار فيها اضطراب وقلق ومصيرها الى زوال مهما ازينت وازخرفت وظن أهلها أنهم قادرون عليها . ودار فيها السلام واليقين والنعيم .

أما طوبى فقد ذكرت في القرآن مرة واحدة ، هي في قوله عز وجل :

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ^(١)

وما أكثر ما أغرب المفسرون في تفسير طوبى . قالوا إنها شجرة في الجنة . وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : طوبى شجرة يسير الراكب في ظلها ألف عام ^(٢) « وفي حديث آخر قال : ليس في الجنة دار ولا بيت ولا قصر الا وفيه فنن من أفنان طوبى ، وفي أصلها مجتمع أهل الجنة وزيارة الملائكة ومنها يصدرون الى الزيارة . وقال بعض أهل العلم : مأخوذ من طاب يطيب كأن أهل الجنة طاب لهم أن يستظلوا فيها » ^(٣) . كل ذلك قليل . وقيل غيره في بعض التفاسير . ولست أنفي ذلك أو أثبته . اما الذي أحب أن أؤمن به دائماً هو أن تفصيل القول في أمور الغيب ليس في امكان البشر ولا من حقهم . و يكفي أن نفهم القرآن حسب ما يدعو اليه أو نتصور ما يرسمه لنا من ظلال وصور دونما تكلف أو تخمين .

وطوبى بعد ذلك كلمة عربية ^(٤) من طاب يطيب على وزن فُعلَى مثل عليا وقصوى . وهي غاية الطيب . وقد وردت في القرآن الكريم لتعظيم ما أعده الله عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات من طيب الإقامة الذي لا يعلوه طيب ولا يفوقه حسن .

الغرفة أو الغرفات :

ووعده الله الذين آمنوا غرفاً في الجنة تجري من تحتها الأنهار . قال تعالى :

أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَبَّةً وَسَلَامًا ^(٥)

وقال تعالى :

لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

١ - الرعد ٢٩ .

٢ - انظر تفسير القرطبي ، المجلد الخامس ، ص ٣٥٤٥ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - ذكر عن ابن عباس أنها اسم الجنة بالحبشية ، وعن الربيع بن أنس « أنها البستان بلغة الهند . ولكن القرطبي يرجح أنها عربية ،

انظر تفسير القرطبي ، المجلد الخامس ، ص ٣٥٤٥ .

٥ - الفرقان ٧٥ .

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ (١)

وقال تعالى :

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا (٢)

وقال تعالى :

إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَضْعَفٍ مِّمَّا عَمِلُوا
وَهُمْ فِي الْغُرَفِ ءَامِنُونَ (٣)

وفي تفسير هذه الآيات قالوا إن الغرفة هي الجنة سميت بذلك لارتفاعها (٤) . وقالوا إنها الدرجة العليا في الجنة ، وهي اسم جنس أريد به الجمع . والغرفة أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا (٥) . ولم تخرج كتب التفسير عن هذه الأوصاف عند ذكر الغرفة . وكلها كما نرى تجمع على أن الغرفة صفة من صفات الجنة وليست علما عليها .

وهكذا اذا نحن أعدنا تلك الصفات جميعها وجدنا أن كلا منها يشكل خطأ في صورة كبيرة رسمها الله جل وعلا للجنة . وكل هذه الخطوط والألوان انما هي من واقع ما كان العربي يعرفه أو يسمع عنه في البيئات المجاورة . وتبقى تلك الصفات في رأيي دعوة لترغيب المسلم فيما أعد الله له من جنة لا يسع الانسان — بوضعه البشري وامكاناته المحدودة — أن يتعرف الى حقيقتها كما هي في علم الله . وقد تكون تلك الصفات منازل أو درجات في الجنة . والناس كما هو معروف درجات عند الله

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ (٦)

يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (٧)

١ - الزمر ٢٠ .

٢ - العنكبوت ٥٨ .

٣ - سبأ ٣٧ .

٤ - تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٣٠ .

٥ - حاشية العلامة الصاوي ج ٣ ص ١٦٦ .

٦ - آل عمران ١٦٣ .

٧ - المجادلة ١١ .

ولكن تبقى تلك الدرجات معروفة للمسلم في معناها العام ومجهولة في كیفیتها الحقيقية . فلا نستطيع أن نقرر أن هذه الصفات التي ذكرت للجنة هي درجات أو أماكن أو أحياء . إنما نستطيع فقط أن نصف ما ذكره الله عز وجل في حدود امكانية التصور الانساني .

النار وصفاتها

النار هي الاسم العلم على مقر العذاب الذي أعده الله لمن أعرض عن عبادته ولمن أشرك به . وقد وردت في القرآن الكريم صفات للنار مثل جهنم والجحيم والسعير وسقر ولظى والهواية والحطمة والغاشية .

النار:

كما ظهر لنا اعجاز القرآن الكريم في وعد المتقين بالجنة ، يظهر اعجازه في وعيد المشركين بالنار . وَمَنْ أَعْرَفَ مِنَ الْعَرَبِيِّ بِالنَّارِ؟ . كان العربي — الذي خوطب بالقرآن أول الأمر — يعيش في صحراء قاحلة ، شديدة الحر ، قليلة الماء ، شحيحة الغذاء . يقول الجاحظ : « ان أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف ، وشدة البرد في الشتاء ، لأنها بلاد صخور وجبال . والصخر يقبل الحر والبرد . ولذلك سمت الفرس بالفارسية العرب والاعراب » « كهيان » والكه بالفارسية هو الجبل ، فمتى أحببت أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء وحرها في الصيف فانظر في أشعارهم ، وكيف قسموا ذلك وكيف وصفوه لتعرف أن الحالتين سواء عندهم في الشدة » (١) .

ونجد مصداق قول الجاحظ في تأمل مناخ البيئة العربية المتطرف . وذلك لأن العرب عرفوا التطرف المناخي في بيئتهم . وساعدتهم هذه المعرفة على تصور الصور الرهيبة لعذاب الآخرة ، لأنهم عانوا بعض جوانبها أيام الحر والسوم . كما ساعدتهم أيام البرد الشديد على معرفة النعيم الرائع الذي وعد به المتقون في جنة معتدلة الهواء ، وارفة الظلال (٢) .

وتدل الأحاديث النبوية الشريفة ، وبعض الأحكام الدينية على شدة ما كان يعانيه الناس من حر وقبظ في الجزيرة العربية . قال عليه السلام « ان شدة الحر من فيح جهنم » (٣) .

١ - التباير القرآنية في البيئة العربية ص ٢٠٥ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - صحيح البخاري ، طبعة الشعب ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

وفي الشعر الجاهلي صور كثيرة لما كان يعانيه الناس من شدة الحر. وهيب المناخ فقد وصفوا سيرهم وقت الهجرة، وكيف أن شدة الحر تجاوز أذاهم إلى أذى حيواناتهم، فالناقة يصيبها الهزال، وتحتفر الظباء والثيران كُئُسا تتقي فيها لفتح الهجرة، وفصلوا في وصف صورة الحيوانات حين تنزوي من أذى الرمضاء كالضباب والجنادب والحرباء، بل نرى بعضهم يبالغ في وصف لهيب الحرق يقول عنه أنه يكاد يشوي اللحم أو أن ملائسه تكاد تشتعل لشدة لفتح الهجرة (١).

وعلاوة على نار الشمس، فإن العرب عرفوا النار الموقدة لأسباب كثيرة في حياتهم، ولدواع كثيرة في عاداتهم. وقد قسموا النار إلى عدة أسماء حسب ما كان يجري في مجتمعهم من عادات: فقالوا «نيران العرب هي نار الاستمطار ونار التحالف ونار الأهمية للحرب ونار الطرد، ونار الحرس، ونار السعالي، ونار الأسد، ونار القرى، ونار السليم، ونار الفداء، ونار الموسم» (٢). وقد ذكرت الكتب الأدبية الشواهد الكثيرة لهذه النيران، والقصص الطريفة في إيقادها، ودلالاتها (٣).

ومما جاء في الشعر الجاهلي عن النار قول النابغة (٤):

فإن عُصِيْتُ فاني غير منفلت مني اللصابُ فجنبنا حرة النار
وقالت امرأة من بني هزان يقال لها أم ثواب في ابن لها عقها (٥):

قيالت له عرسه يوما لتسمعني مهلا فان لسا في أمنا أربا
ولو رأتنني في نار مسعرة ثم استطاعت لزادت فوقها حطبا
وقال زهير (٦):

هم الخير البجيل لمن بغاهم وهم نار الغضا لمن اصطلاها
ومهما يكن من أمر، فإن القرآن الكريم عندما توعد الكافرين بالنار، إنما توعدهم

١ - التباير القرآنية ص ٢٠٧.

٢ - الأوائل ص ٢٨.

٣ - المرجع السابق وفيه عشرات الأمثلة من الأبيات الشعرية التي فيها ذكر النار.

٤ - ديوان النابغة، ص ٨٣.

٥ - الحماسة ١/ ٤٤٥.

٦ - ديوان زهير، ص ٢٧.

بأشد ما كانوا يعانون منه في بيئتهم . قال الخطابي ذاكرا بلاغة القرآن في ذلك : « فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منشورا اذا قرع السمع خلص الى القلب في اللذة والحلاوة في الحال ، حتى اذا أخذت حظهما منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق تقشعر منه الجلود وتنزع له القلوب » (١) .

جهنم :

وهي الصفة الغالبة للنار، وقد ذكرت في القرآن في ست وسبعين آية . منها قوله تعالى :

وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا (٢)

وقوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٣)

وقوله تعالى

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٤)

وقد اختلف المفسرون في أصل كلمة جهنم . أهي عربية أم معربة . واذا كانت معربة فمن أي لغة هي : أمن العبرية أم الفارسية أم من غيرها .

يرى الامام الرازي أنها عربية مأخوذة من التجهم والتكره . يقال رجل جهم الوجه أي كربه الوجه (٥) . ووافقه في هذا الرأي أبو عبيدة ، وابن خالوية . وأبو عبيدة يرى أنها مأخوذة من قولهم : بثر جهنم أي بعيده القعر .

ولكن فريقا آخر يرى أن جهنم أعجمية ، ومنهم يونس الذي قال ان جهنم اسم أعجمي ، ومنهم الجوهرى صاحب الصحاح الذي يرى أنها فارسية معربة . ويرى صاحب اللسان أنها « كهنام » باللغة العبرية (٦) . وعند تحقيقه لكتاب الزينة قرر الاستاذ حسين الهمداني أن الكلمة من أصل عبري وهي بالعبرية جي هنم . وجي معناها واد وهنم معناها

١ - التعابير القرآنية ص ٢٠٣ .

٢ - التوبة ٦٨ .

٣ - غافر ٦٠ .

٤ - ق ٣٠ .

٥ - الزينة ج ٢ ص ٢١٢ .

٦ - المرجع السابق .

الهمس والأنين فهي واد العذاب والبكاء ، و يرى نولدكه أن الكلمة عبرية دخلت في الحبشه ثم أخذها العرب عن الحبشية (١) .

و يبدو أن الكلمة معربة فعلا حيث أنها لم ترد في الشعر العربي ، ولم يعرف لها اشتقاق في معاجم اللغة .

ولكن الكلمة ظلت — بعد نزول القرآن الكريم — أحد المصطلحات الاسلامية التي تعني عذاب النار، حتى لم يبق انسان ملم باللغة العربية الا وقد استقرت في ذهنه بهذا المعنى .

الجحيم :

هي الصفة الثانية من صفات النار من حيث شهرتها وعدد الآيات التي ذكرت فيها . ومنها قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٢)

وقوله تعالى :

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣)

والجحيم كلمة عربية ، لم يختلف عليها العلماء . وهي مأخوذة من جحمت النواوذا اضطربت . وقيل حجر جاحم اذا اشتد اشتعاله (٤) . والنار الجاحمة هي الشديدة المضطربة . ومنه قيل لعيني الأسد جحمتاه لتوقدهما (٥) . ويقال فلان ذاق جاحم الحرب ، فبرد وفتر وسكنت حفيظته . ومنه قول الشاعر (٦) :

١ - المرجع السابق .

٢ - الحديد ١٩ .

٣ - النازعات ٣٤ - ٣٩ .

٤ - جهرة اللغة ج ٢ ص ٥٩ .

٥ - أساس البلاغة ج ١ ص ٧٢ .

٦ - المرجع السابق .

الباغي الحرب يسعى نحوها ترعا حتى اذا ذاق منها جامها بردا
وكلمة الجحيم ذاتها وردت في الشعر الجاهلي . مثال ذلك قول قيس بن الخطيم (١):

ونصدق في الصباح اذا التقينا ولو كان الصباح جحيم جمر
وقال عمرو بن قميئة (٢):

وهاجرة كأوار الجحيم قطعت اذا الجندب الجون قالا

وقال ساعدة بن جؤبة (٣):

ان تأته في نهار الصيف لا تره الا يُجَمَّع ما يصلي من الجُحيم
وقال أيضا (٤):

وأخصَّته تُجَرُّ الطُّبَات كأنها اذا لم يُغَيَّبْها الجفير جحيم
وقال بعض بني بولان من طيء (٥):

نحن حبسنا بني جديلة في نار من الحرب جحمة القرم

تلك الشواهد تدل على أن كلمة الجحيم كلمة عربية ، وأنها تصور شدة الحرارة وهيب النار الحارقة ، سواء كان ذلك من حرارة الشمس أو حرارة النار أو حرارة الحرب أو أي شدة تصيب الانسان في حياته . والجحيم — عندما تخصص في القرآن الكريم لوصف النار — تصبح إحدى المصطلحات القرآنية التي حددها القرآن الكريم .

السعر وسقر:

هما صفتان من صفات النار الشديدة . والسعر مأخوذة من قولهم سَعر النار والحرب يسَعرُها سعرا . وأسعرهما وسعرهما أوقدهما وهيجهما . وتسَعت النار استوقدت ونار سعيد أي مسعورة (٦) . ومسعر الحب موقدها ، وقيل إن الشاعر الاسعر الجعفي قد سمي بهذا الاسم لقوله (٧):

١ - ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٨٤ .

٢ - لسان العرب مادة ججم .

٣ - ديوان الهذليين ١/ ١٩٢ .

٤ - ديوان الهذليين ١/ ٢٣١ .

٥ - الحماسة ١/ ٤٦ .

٦ - لسان العرب مادة سحر .

٧ - المرجع السابق .

فلا تَدْعُنِي الْأَقْوَامُ مِنْ آلِ مَالِكٍ إذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب
وعلى هذا المعنى يفسر كلام « خيفان » يصف قومه : « وأما هذا الحي من همدان فانجاد
بُسل مساعيرُ غير عزل » (١) . وعليه أيضا قول النابغة (٢) :

جن عليها مساعير لحربهم شم العرائن من مرد ومن شيب

ويقال للرجل إذا ضربته السموم فاستعر جوفه به سعار . وسعار العطش التهابه . ويقال
أيضا سعار الرجل فهو مسعور إذا اشتد جوعه وعطشه (٣) . وفي كلام العرب : السعير : شهوة
من جوع . والسَّعْر والسَّعْر كذلك الجنون .

ونستطيع أن نتصور حياة البدوي في البيئة العربية . وقد عانى من شدة الحر وانفزع
نفسه في مفاجآت الغزوات والحروب . وانقضى عمره بين الحل والترحال . فليس غريبا —
اذن — أن نتصور مسافرا أنهكه التعب وهذه الجوع وقتله العطش ، أو أن نراه يصف ناقتة
بالسعار من شدة التعب واجهاد السير ، كما ذكر الكشاف (٤) .

كأن بها سعرا إذا العيس هزها ذميل وارخاء من السير متعب
وقد استعار العربي الذي جرب سعار المناخ والحياة — استعار هذا التعبير نفسه للدلالة على
سعار الحب ، وحرقة ، وشدة أسره للنفوس . يقول طرفة بن العبد (٥) :

أصحوث اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستعر
هذه المعاني هي التي أراد القرآن الكريم أن يبرزها عندما توعد الكفار نار السعير فهم
يصلونها في عذاب دائم شديد . تقشعر جلودهم من شدة الخوف . بل تنضج جلودهم من
شدة اللهب . وتجف حلوقهم من قسوة العطش . ولنقرأ معا قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَيَصِيلُونَ سَعِيرًا (٦)

١ - الزينة ج ٢ ص ٢٠٧ .

٢ - ديوان النابغة ص ٩١ .

٣ - لسان العرب مادة سعار .

٤ - المرجع السابق .

٥ - ديوان طرفة ، ص ٤٥ .

٦ - النساء ١٠ .

وقوله تعالى :

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١)

وعلى هذا تكون كلمة السعير قد استخدمت في القرآن الكريم بالمعنى الذي عرفت به الكلمة في الشعر الجاهلي .

أما سقر فمأخوذ من السقر أو الصقر وهو حر الشمس وأذاه ، سقرته الشمس بمعنى صهرته وأذابته ولوحته وغيره . ويقال أيضا سقرته أو صقرته علوته ضربا . فكأن نار سقر سميت بذلك لأنها تلوع من فيها وتغيرهم وتبلغ اليهم وتدقهم وتجهرهم (٢) .

وآيات القرآن الكريم التي وردت فيها هذه الكلمة توجي بأن سقر نار شديدة مجعدة . ومنها قوله تعالى :

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٣)

ومنها قوله تعالى :

سَاصِلِهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٤)

الحطمة :

الحطمة على صيغة المبالغة من حطم الشيء يحطمه حطما اذا كسره . والحطم الكسر على أي وجه كان . وحطمه فانحطم وتحطم . والحطمة والحطام ما تحطم من ذلك . والحطمة والحطمة والحاطوم — في اللغة — هي السنة الشديدة لأنها تحطم كل شيء . ويقال أصابتهم حطمة أي سنة وجدب (٥) . قال ذو الخرق الطهوي (٦) :

١ - الملك ٥ .

٢ - الزينة ج ٢ ص ٢١٤ .

٣ - القمر ٤٧ - ٤٨ .

٤ - المدثر ٢٦ - ٢٩ .

٥ - جهرة اللغة ج ٢ ص ١٧٢ .

٦ - الأصمعيات ١٢٤ .

من حطمة أقبلت حَتَّتْ لنا ورقا فمارس العود حتى ينبت الورق
ويقال حطمت الدابة اذا أسنت كأن الأيام حطمتها . والخطيم موضع بمكة كانوا
يخلفون فيه في الجاهلية فيحطم الكاذب (١) . وقالوا رجل حطم وراع حطم اذا ساق مواشيه
سوقا عنيفا . ومنه قول الراجز :

قد لفها الليل بسواق حطم

وقد وصفت النار بأنها « حطمة » لأنها تحطم من يلقي فيها لشدتها وهولها . وقد ذكرت
مرتين في القرآن كلاهما في سورة الهمة :

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ
الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ
فِي عَمْدٍ مُّمدَّدةٍ ﴿٨﴾ (٢)

وقد ذكرت كذلك في حديث شريف « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا » (٣) .

لظى :

تلظى النار هو توقدها وشدة اشتعالها ، وهول لهيبها . ولظى الجمر هو توقده وشدة وهجه
حتى يتطاير منه الشرر . قال امرؤ القيس (٤) :

برهين من كنانتَه كتلظى الجمر في شرره
ويقال لظى فلان فلانا اذا أغضبه حتى كاد يلهب . ووصفوا شدة القوم بأن سيوفهم
تتلظى . وهذا الوصف ، أو هذا الهول ، هو الذي أراد القرآن الكريم أن يبرزه عندما ساق
هذا اللفظ في معرض تصوير النار وما يلقاه الكافرون من مصير أسود فيها . قال تعالى :

كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوْنِ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مِّنْ أَدْبَرٍ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ (٥)

١ - لسان العرب مادة حطم .

٢ - الهمة ٤ - ٩ .

٣ - صحيح البخاري ، طبعة الشعب ، ج ٦ ، ص ٦٩ .

٤ - ديوان امرئ القيس طبعة دار المعارف ، ص ١٢٥ .

٥ - المعارج ١٥ - ١٧ .

وقال تعالى :

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾

الهواية :

رغم أن هذه الصفة وردت في كتب كثيرة على أنها إحدى صفات النار، فإني أرى أنها ليست كذلك . إنما هي تعبير قرآني جاء موافقا أو مصورا لدعوة كانت العرب — قبل نزول القرآن — يدعونها إذا أرادوا بأحد الناس الهلاك والسوء . وهي دليل على مدى موافقة لغة القرآن للغة العرب . والذين رأوا أنها إحدى صفات النار عللوا ذلك بأن الهواية تهوى بهم وتبلغ بهم قعرها . أو أنها سميت بذلك لغاية عمقها وبعد مهواها (٢) . واستأنسوا ببعض الأحاديث التي تذكر أن أهل النار يهونون فيها سبعين خريفا (٣) . واستدلوا على ذلك بنص الآية الشريفة — وهي الآية الوحيدة التي ورد فيها هذا التعبير — ، قال تعالى فيها

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمَّهُ هَوَايَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾
نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ (٤)

وهذا الرأي ليس بعيدا عن الصواب ، والحق . ولكن العرب استعملوا تعبير هوت أمه دليلا على الهلاك والضياع ، والنتيجة في الحالين واحدة . وقد ورد ذلك التعبير في شعر الجاهليين ، ورد في شعر كعب بن سعد الغنوي (٥) :

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا وماذا يرد الليل حين يشوب
ومنه قول أمية بن أبي الصلت (٦) :
فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد
وروى القرطبي في هذا المعنى (٧) :
يسا عمرو لو نالتك أرماحنا كنت كمن تهوى به الهواية

١ - الليل ١٤ - ١٦ .

٢ - انظر تفسير القرطبي ، المجلد العاشر ، ص ٧٢٥٧ .

٣ - حاشية العلامة الصاوي ج ٤ ص ٣٤٨ .

٤ - القارعة ٨ - ١١ .

٥ - تنزيل الآيات ج ٤ ص ٣٤٩ .

٦ - ديوان أمية بن أبي الصلت ، ص .

٧ - تفسير القرطبي ، المجلد العاشر ، ص ٧٢٥٧ .

وفي شعر زهير بن أبي سلمى (١) :

فشج بها الأماعز وهي تهوي هُويّ الدلو أسلمها الرشاء

وهناك رأى يقول إن الأم في الآية الشريفة يقصد بها معناها الحقيقي . وروى الطبري عن ابن عباس قوله « وانما جعل النار أمه لأنها صارت مأواه، كما تأوى المرأة ابنها » . وقال ابن قتيبة « كانت الأم كافلة الولد وغاذيته وأمواه وقريبته وكانت النار للكافر كذلك ، جعلها أمه » (٢) وقد اعتمدوا في هذا الفهم على استعمال لغوي وهو قولهم : هوت أمه هلكت . وهوت أمه فهي هاوية أي ثاكلة (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا التعبير اللغوي لا شك مأخوذ في أصله من المعنى الحقيقي للهوي وهو السقوط والتردي . وهو بذلك يكون وصفا معبرا من أوصاف النار .

الغاشية :

والغاشية صفة من صفات النار في القرآن الكريم . ذكرت في آيتين كريمتين : الأولى قوله تعالى :

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٤)

والغاشية هنا عذاب يعم الناس في الدنيا عقابا لهم على كفرهم وأعراضهم عن آيات الله . ولكن الغاشية التي وصفت بها جهنم وردت في قوله تعالى :

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾
تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾
لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾

١ - ديوان زهير ، دار صادر ، ص ١٠ .

٢ - التعابير القرآنية في البيئة العربية ٢١٢ .

٣ - المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

٤ - يوسف ١٠٧ .

٥ - الغاشية ١ - ٧ .

وقد فسرت هذه الآية بقولهم : « الغاشية الداهية الشديدة التي تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها ، وهي القيامة ، من قوله تعالى : « يوم يغشاهم الغذاب » وقيل هي النار من قوله تعالى « وتغشى وجوههم النار » وقوله تعالى « ومن فوقهم غواش » والأول هو الحق فان ما سيروى من حديثها ليس مختصا بالنار وأهلها بل ناطق بأحوال الجنة أيضا « (١) .

ورغم أن صاحب التفسير يقول « والأول هو الحق » يعني أن الغاشية من صفات القيامة الا أن الأولى أن تكون الغاشية من صفات النار كما يدل عليه سياق الآيات الكريمة في هذه السورة . وقراءة الآيات التالية في السورة نفسها نجدها بعد ذلك تتحدث عن أحوال المؤمنين في الجنة

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيَاهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ (٢)

والجنة كما هو معروف تقابل النار . فالغاشية اذن صفة من صفات النار ، تغشى وجوه من يلقي فيها من الكفار .

وقد ذكرت الكلمة في الشعر الجاهلي بمعناها اللغوي وهو تغطية الشيء تماما .
قال الحارث بن خالد المخزومي (٣) :

صحبْتُك إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتَ نَفْسِي أَلُومَهَا
وقال عمرو بن كلثوم (٤) :

نَطَاعِنُ مَا تَرَاحَى النَّاسُ عَنَا وَنَضْرِبُ بِالسَّيْفِ إِذَا غَشَيْنَا
وقال أبو ذؤيب (٥) :

غَدَاةُ « الْمُلَيْجِ » حَيْثُ نَحْنُ كَأَنَّا غَوَاشِي مُضِرٌّ تَحْتَ رِيحٍ وَوَابِلِ

١ - تفسير أبي السعود ج ٥ ص ٢٥٨ .

٢ - الغاشية ٨ - ١١ .

٣ - لسان العرب مادة غشى .

٤ - مختار الشعر الجاهلي ، البابي الحلبي ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ ، ص ٣٦١ .

٥ - ديوان الهذليين ٨٤/١ .

وقال أيضا (١) :

ظَخَاءٌ يُبَارَى الرِّيحَ لَا مَاءَ تَحْتَهُ لَهُ سَنَنْ يَغْشَى الْبِلَادَ طُحُورُ
وقال النابغة (٢) :

قالت أراك أcha رحل وراحلة تغشى متالف لن ينظرنك الهرما
وقال المثلث بن رباح المري (٣) :

وقتود ناجية وضعت بقفرة والطير غاشية العوافى وَقُعُ
ومن النظر في الشواهد السابقة ، والآيات القرآنية الكريمة ، نجد أن معنى الغاشية في الشعر
الجاهلي هو معناها في القرآن الكريم ، حيث إن دلالة الكلمة لم تتغير فيه عن دلالتها في
الشعر الجاهلي .

مصطلحات في طعام أهل النار وشرابهم

لكي يتم الغرض من تصوير النار بتلك الصفات العديدة التي مر ذكرها ، لابد من
ذكر طعام أهل النار وشرابهم . وقد بين الله عز وجل للمؤمنين ما ينتظرهم في جنات النعيم
وما فيها من فواكه وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، وانهار من لبن مصفى وأنهار من ماء لم
يتغير طعمه ، وما الى ذلك من ألوان النعيم . وبين كذلك طعام أهل النار وشرابهم الخاص
بهم . وليس في طعام أهل الجنة وشرابهم ما يكون مصطلحا خاصا . أما ما ذكر من طعام
أهل النار وشرابهم فهي كلها مصطلحات جديدة . وكأن شذوذ الكفار عن الطريق
الصحيح والصراط المستقيم في الدنيا ، كان سببا في تهئية أطعمة وأشربة غريبة شاذة لهم ،
جزاء وفاقا لما استنفذوه من طيباتهم في الحياة الدنيا .

الطعام : الضريع والزقوم والغسلين :

ورد ذكر الضريع طعاماً لأهل النار في قوله عز وجل :

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦١﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٦٢﴾

١ - ديوان الهذليين ١/١٣٩ .

٢ - ديوان النابغة ص ١٠٦ .

٣ - الحماسة ٢/٤٢٥ .

٤ - الغاشية ٥ - ٦ .

وقد اختلفت الآراء في تفسير الضريع على أربعة أوجه : أحدها أنه شوك يقال له الشبرق ، وهم سم قاتل . والثاني أنه الزقوم ، والثالث أنه نبات منتن ينبت في البحر ، والرابع أنه واد في جهنم (١) .

وفي بحث آخر قيل إن الضريع شوك يكون في البادية (٢) . وقال ابن قتيبة مفسرا الضريع بأنه نبت يكون في الحجاز يقال لرطبة الشبرق لا يسمن ولا يشبع (٣) .

والرأي الصائب أن الضريع نبت يعرفه العرب ويصفونه بذلك (٤) . ولا يكون الضريع واديا في جهنم ولا شوكا فيها ولا شيئا من ذلك . إن الله عز وجل يخاطب الانسان في هذه الأرض . وأول من خوطب بالقرآن هم أهل الجزيرة العربية بعامه ، وأهل الحجاز بخاصة . ولا بد أن يكونوا قد عرفوا من تجربتهم الخاصة نباتا تأكله أنعامهم لا يسمن ولا يغني من جوع وعرفوه باسم الضريع . وقد ذكر هذه الحقيقة ابن قتيبة في تعليقه « وأما قولهم : كيف يكون في النار نبت وشجر والنار تأكلهما ، فإنه لم يرد — فيما يرى أهل النظر — و — الله أعلم — أن الضريع بعينه ينبت في النار . ولا أنهم يأكلونه . والضريع من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس . وإذا وقعت فيه الابل لم تشع وهلكت هزلا . قال قيس بن عيزارة الهذلي يذكر ابلا وسوء مراعاها : (٥)

فَحُسَيْنٌ فِي هَزْمِ الضَّرِيْعِ فَكُلُّهَا حَذْبَاءُ بُادِيَةِ الضَّلُوعِ حَرُودِ فَأَرَادَ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَقْتَاتُونَ مَا لَا يَشْبَعُهُمْ ، وَضَرَبَ الضَّرِيْعَ لَهُمْ مَثَلًا ، أَوْ يَعَذُّونَ بِالْجُوعِ كَمَا يَعَذُّبُ مِنْ قُوَّتِهِ الضَّرِيْعُ » (٦) .

وقد ذكر الضريع في قول أبي ذؤيب (٧) :

رعى الشبرق الريان حتى اذا قوى وعاد ضريعا بان منه النحائص .
وفي قول دريد بن الصمة (٨) :

- ١ - التسهيل ج ٤ ص ١٩٥ .
- ٢ - التعابير القرآنية ص ٢٤٧ .
- ٣ - تأويل مشكل القرآن ص ٤٨ .
- ٤ - المرجع السابق .
- ٥ - ديوان الهذليين ج ٣ ص ٧٣ .
- ٦ - تأويل مشكل القرآن ص ٤٨ .
- ٧ - انظر في معنى الضريع ، واشتقاق الكلمة تفسير القرطبي ، المجلد العاشر ، ص ٧١٣٠ ، وفيه ورد هذا الشاهد ويقول إنه لم يجده في ديوان أبي ذؤيب .
- ٨ - الأصمعيات ص ١٠٨ .

ولا برما اذا الرباع تناوحت برطب العضاه والضريع المعضد
هذا هو الضريع اذن - طعام أهل النار- يُؤكل ولا يُشيع ، يضر ولا ينفع . أنذرهم الله
عز وجل به ، من واقع يعيشونه ويعرفونه ، لكي يعرفوا ما ينتظرهم من عذاب .

الزقوم:

ذكر الزقوم في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم :

- في قوله تعالى :

أَذْكَاءَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّاقُمِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾
إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾
فَلَا يَهُمُّ لَّا كَلُونَ مِنْهَا فَالْعُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا
مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (١)

- وفي قوله تعالى :

إِنَّ شَجَرَتَ الزَّاقُمِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَأَلْمُهْلٍ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ
﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ (٢)

- وفي قوله تعالى :

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهِيَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَّا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ
﴿٥٢﴾ فَالْعُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾
فَشَرِبُونَ شُرْبَ آهٍ (٣)

١ - الصفات ٦٢-٦٨ .

٢ - الدخان ٤٣-٤٦ .

٣ - الواقعة ٥١-٥٥ .

وهذه أوصاف مرعبة مخيفة . وهي متشابهة في المواضع الثلاثة . وأقرر — ابتداء — أن العرب قبل نزول القرآن لابد أن يكونوا قد عرفوا الزقوم . أو عرفوا ما أحاط به من صفات وردت في الآيات الكريمة السابقة .

وقد احتل الزقوم مساحة كبيرة في كتب التفسير، واختلفت فيه الآراء .

وسبب ذلك ما ورد من أنه شجر لم تعرفه قريش . فقد روى أن أبا جهل قال عندما سمع الآيات القرآنية « ان هذا لشجر ما ينبت في بلادنا ، فمن منكم من يعرف الزقوم ؟ فقال رجل قدم عليهم من افريقية : الزقوم بلغة افريقية الزبد بالتمر . فقال أبو جهل : يا جارية هاتي لنا زبدا وتمرنا نزدقمه . فجعلوا يأكلون منه ويقولون : أفبهذا يخوفنا محمد في الآخرة . فبين الله تعالى في آيات أخرى صفتها حيث قال :

« انها شجرة تخرج من أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * » (١) .

ومن أسباب ذلك أيضا ما روى عن أحد المشركين أنه قال عندما سمع ذكر الزقوم : كيف يكون في النار شجر والنار تأكل الشجر ؟ (٢) .

وأرى أن هذا الاختلاف ، وإسهاب المفسرين في عرض الآراء ومناقشتها انما هو من قبيل الدقة عند النظر فيما يتعلق بالقرآن الكريم . ولكنني هنا أوجز القول في أن شجرة الزقوم وما صاحبها من أوصاف ، كان لها عند العرب في الجاهلية اعتبار كبير . واذا كانت لهجة قريش لم تعرف الزقوم فان لهجات أخرى في الجزيرة العربية قد عرفتها وتحدثت عنها . وقد روى عن أبي حنيفة رضي الله عنه قال : أخبرني أعرابي من أزد السراة قال : الزقوم شجرة غبراء صغيرة الورق ، مدورتها ، لا شوك لها ، ذفرة مرة ، لها كعابر في سوقها كثيرة ، ولها وريد ضعيف جدا يجرسه النحل ، ولوزتها بيضاء ، ورأس ورقها قبيح جدا (٣) .

وفي تعليل تشبيهها برؤوس الشياطين ذكرت ثلاثة أوجه (٤) :

١ - ان طلعها يشبه — في قبحه — رؤوس الشياطين ، لأنها موصوفة بالقبح وان كانت غير مشاهدة ، يقال عن الشيء كأنه رأس شيطان اذا كان قبيحا .

١ - انظر تفسير القرطبي ، المجلد الثامن ، ص ٥٥٢٩ .

٢ - المرجع السابق . وفي ظلال القرآن م ٧ ص ٥٤ .

٣ - لسان العرب مادة زقم .

٤ - المرجع السابق .

٢ - أن الشيطان ضرب من الحيات قبيح الوجه وهو ذو العرف .

٣ - أنه فعلا نبت قبيح يسمى رؤوس الشياطين .

ويمكن أن يكون كل واحد من هذه الوجوه كافيا لتعليل ذلك التشبيه . وقد ورد في الشعر الجاهلي ما يدل على استقباح الشياطين ، والتخوف منها وان لم يشاهدوها . فقد أصبح ذكرها مثارا للشر والريبة والقلق والخوف - كما يشيع اليوم من ذكرها في أوساط الناس . يدل على ذلك قول الشاعر (١) :

تلاعب مثنى حضرمي كأنه تمعج شيطان بذى خروج قفر
كذلك وصف الشعر الجاهلي شجرا بشعا منكر الصورة يسمى « الاستن » في شعر النابغة الذبياني (٢) :

تحيدُ عن أستن سود أسافله مثل الاماء الغوادي تحمل الحزما

هذا وقد عرف العرب الكلمة واستعملوها . قالوا : ازدقم الشيء وتزقمه بمعنى ابتلعه . والتزقم هو التلقم . وروى عنهم أن الزقوم هو كل طعام يقتل . وأن الزقوم والزقمة هو الطاعون . فليس غريبا - أن يكون الزقوم طعاما كريها بشعا ، ذكر في القرآن الكريم حسب ما جرى في تشبيهات العرب ، وما تصورته خيلتهم (٣) . ومرة أخرى يأتي ابن قتيبة - وهو من أهل النظر - فيحسم هذا الأمر بقوله : وكل ما أراد الله بهذا معلوما عندهم مفهوما ولولم يكن كذلك لأنكروه كما أنكروا قوله : « انها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعا كأنه رؤوس الشياطين » وقالوا كيف تكون في النار شجرة والنار تأكل الشجر ؟ فأنزل الله : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن » يعنى بالرؤيا ما رآه ليلة أسرى به وأخبر عنه ، فارتد لذلك قوم ، وزاد الله في بصائر قوم ، وأراد بالشجرة الملعونة شجرة الزقوم فهذا وجه . وقد يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار ، وكذلك سلاسل النار واغلاها ، وانكائها وعقاربها وحياتها ، لو كانت كما نعلم لم تبق على النار . وانما دلنا الله سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء

١ - التعابير القرآنية ص ٢٥٢ .

٢ - المرجع السابق ، ديوان النابغة ص ٦٥ .

٣ - راجع في هذه الفكرة البحث الكامل عن طعام أهل النار في كتاب التعابير القرآنية ، ص ٢٥٠ وما بعدها .

متفقة للدلالة ، والمعاني مختلفة ، وما في الجنة من شجرها وثمرها وفرشها وجميع آلاتها على مثل ذلك (١) .

الغسلين :

ورد الغسلين في آية واحدة في القرآن الكريم ، في قوله تعالى

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾
لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِطُونَ (٢)

والغسلين كلمة عربية على وزن فعلين من غسل الشيء يغسله غسلاً وغسلاً .
والغسل تمام غسل الجسد كله . وشيء مغسول وغسيل والجمع غسلي وغسلاء (٣) .
والغسول والمغتسل الماء الذي يغتسل به . والمغتسل كذلك الموضع الذي يغتسل فيه .
والغسل والغسلة ما يغسل به الرأس من خطميّ وطن وأشنان ونحوه . ويقال غسول .
وأُنشد شعر (٤) :

فألرحبتان فأكناف الجناب إلى أرض يكون بها الغسول والرّثم

والغسلين من غسلت كأنه غسالة الشيء (٥) .

وقد تعددت آراء المفسرين في الغسلين ، فمنها أنه صديد أهل النار (٦) . وهو قول
الفراء والزجاج ، ومنها أنه ما يسيل من جلود أهل النار كالقيح وغيره كأنه يغسل عنهم ،
والتمثيل لسيبويه والتفسير للسيرافي (٧) . وقيل هو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم .
وقال مجاهد هو طعام من طعام أهل النار (٨) ، وقال الكلبي هو ما أنضجت النار من لحومهم
وسقط فأكلوه (٩) .

١ - تأويل مشكل القرآن ٥٠ .

٢ - الحاقة ٣٥ - ٣٧ .

٣ - لسان العرب مادة غسل .

٤ - المرجع السابق .

٥ - تأويل مشكل القرآن ص ٤٨ .

٦ - الاثقان ج ١ ص ١١٨ .

٧ - لسان العرب مادة غسل .

٨ - المرجع السابق .

٩ - المرجع السابق .

ولم يخرج الغسلين في كتب الفقه والتفسير عن هذه الصور . وهي لاشك صور تبعث في النفس الانسانية التقيؤ والاشمئزاز والتفرز . ويمكن أن نلاحظ بوضوح الصلة بين معنى الكلمة اللغوي وبين ما أراد القرآن الكريم أن يصوره من ذكرها . فالغسلين هو غسالة أهل النار . إن المضطرب يركب الصعب ؛ وفي النار ، حيث يشتد الجوع بالكافرين ، ينظرون أمامهم وحولهم فلا يجدون الا الغسلين ، لحومهم الساقطة ، وصديد أجسادهم السائل ، فيأكلونه .. ولكن هيهات . أذهبوا طيباتهم في الحياة الدنيا . وهو جزاء عادل لذوي القلوب النكدة التي عاثت في الأرض فسادا ، وطالما جرّعت عباد الله — ظلما وعدوانا — ألوانا من العذاب والشقاء .

ومن البدهي أن أهل الجاهلية لم يخطر ببالهم قطعا أن الضريع والزقوم والغسلين سيكون ألوانا من الأطعمة للبشر — أو لنوع من البشر — يوما ما . وهم كذلك لم ينظروا الى هذه الأشياء على أنها طعام في الجاهلية . أريد من ذلك أن أقدر ، بل ألفت النظر الى هذه المصطلحات الجديدة التي تفرد فيها القرآن الكريم ، ليقدم للانسان دليلا جديدا وبرهانا دائما على أنه كتاب الله الخالد المعجز .

الشراب : الغساق والمهمل والحميم :

ذكرت الآيات القرآنية هذه الأصناف الثلاثة على أنها شراب أهل النار :
قال تعالى :

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَكَّابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَوْنَ الْمِهَادُ
هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (١)

وقال تعالى :

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاعِينَ مَكَّابًا ﴿٢٢﴾ لِّلشَّيْطَانِ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾
لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا (٢)

(١) سورة ص ٥٥ - ٥٧ .

(٢) النبأ ٢١ - ٢٦ .

ولم يرد الغساق في غير هذين الموضعين ، و يلاحظ أنه في كليهما اقترن بالحميم . وقد ورد الحميم في مواضع أخرى منه قوله تعالى

كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ^(١)

أما المهل فقد ورد في ثلاثة مواضع هي : قوله تعالى :

وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ^(٢)

وقوله تعالى :

إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ^(٣)

وقوله تعالى :

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ^(٤)

ومجدر بنا قبل البحث في معاني هذه المصطلحات أن نشير الى دلالة الآيات القرآنية ، وتأثيرها في الناس . فهذه الآيات تصور العطش والحرمان من الماء على أنهما وسيلتان من وسائل التعذيب التي يعاني منها المجرمون يوم القيامة . فشدة عطش أهل النار أولا ثم اغاثتهم بهذا الشراب ثانيا هو صورة رائعة يظهر فيها الاعجاز القرآني متجليا و يقف أمامها الانسان ذاهلا^(٥) .

والعربي الذي عاش في الجزيرة العربية ، وجرب شدة الجوع وقسوة العطش يستطيع أن يستوعب معنى حرمان المجرمين في النار من الماء ، ثم اغاثتهم فيما بعد بماء كالمهل يشوي الوجوه . انه يستطيع أن يتمثل هذا الحوار صورة حيّة ماثلة أمامه ، عندما ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة « أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله »^(٦) فيرد عليهم سبحانه

١ - محمد ١٥ .

٢ - الكهف ٢٩ .

٣ - الدخان ٤٣ - ٤٦ .

٤ - المعارج ٨ - ٩ .

٥ - التباير القرآنية والبيئة العربية ص ٢٣٠ .

٦ - الأعراف ٥٠ .

وتعالى « اخسأوا فيها ولا تكلمون » (١) فلا يجد الكفار بدا من النظر حولهم فلا يجدون الا الغساق يشربونه ولا يسيغونه فيشتد بهم العطش ، ويستمر عليهم العذاب .

هذه الأثرية ، ما طعمها ، ما لونها ، ما الغساق وما المهل وما الحميم ؟ .
أما الغساق فمأخوذ من غسقت عينه تغسق غسقا وغسقانا دمت ، وقيل انصبت ،
وقيل أظلمت . والغسقان : الانصباب . وغسق اللبن غسقا انصبَّ من الضرع . وغسقت
السماء تغسق غسقا وغسقانا انصبت وأرشت . وغسق الجرح غسقا وغسقانا أي سأل منه
ماء أصفر (٢) .

وأنشدوا في الغاسق بمعنى السائل (٣) :

أبكى لفقدهم بعين ثرة تجري مساربها بعين غاسق
اعتمادا على هذا المعنى اللغوي ذكر المفسرون أن الغساق هو ما يسيل من صديد
أهل النار (٤) . وقالوا هو ماء أسود يسيل من جلودهم (٥) . وكذلك ذكر صاحب التسهيل
(٦) وصاحب الظلال (٧) وهو معنى أجمعت عليه كتب التفسير كلها .

ولكن الشيء المفاجيء — في التعبير القرآني — هو أن هذا الصديد الذي عرفه العرب
ووصفوه عندما يسيل من جروحهم أو من عيونهم الرمدة، قد صار هو الشراب المخصص
لأصحاب النار. هذا الصديد النتن الذي تتقرز منه نفس المرء حتى لو سال من جرح في
جسده ، فكيف به عندما يرى هذا الصديد نهرا في جهنم ، يتكون مما يسيل اليه من أجساد
المعذبين المتقرحة من شدة الهول ، وعندما يشتد به العطش — وهو دائما كذلك — يجد نفسه
مضطرا أن يشرب من ذلك الصديد المتقرح. هذه هي الصورة الجديدة في القرآن الكريم .
صورة تجعل من الغساق شرابا لأهل النار .. عليها تذكر الناس أو تنذرهم قبل أن يحل اليوم
الموعود .. وما أكثر ما تقسون نفس الانسان وتنسى .

المهل :

وردت للمهل عدة معانٍ ؛ يمكن في النهاية التقريب بينها لتؤلف صورة كاملة ومفهوما

٥ - أساس البلاغة ج ٢ ص ١٠٩ .

٦ - ج ٣ ص ١٨٨ .

٧ - ٨٢ ص ٤٣٤ .

١ - المؤمنون ١٠٨ .

٢ - لسان العرب مادة غسق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - حاشية العلامة الصاوي ج ٤ ص ٢٨٤ .

واحدا . قالوا انه دردى الزيت (١) أي ما يبقى في أسفل الاناء من حثالة كثيفة لزجة . وقالوا إنه الفضة المذابة (٢) وقال أبو عبيدة « كل شيء أذبت من نحاس أو رصاص فهو مهل (٣) . وروى عن أبي عبيدة أن ابن مسعود سئل في قوله تعالى : « كالمهل يشوي الوجوه » فدعا بفضة فأذابها فجعلت تميع وتلون فقال : هذا من أشبه ما أنتم راؤون « (٤) . وقال ابن دريد « المهل ما ذاب من صفر أو حديد » . وفي لسان العرب أن المهل والمهلة ضرب من القطران ما هي رقيق يشبه الزيت ، وهو يضرب الى الصفرة من مهاوته وهو دسم تدهن به الابل في الشتاء « (٥) .

وليس عسيرا بعد ذلك أن نحدد صورة المهل . فالفضة أو أي معدن آخر ، يحتاج الى نار شديدة مستعرة لكي تذيبه وتحوله الى سائل . ثم انظر الى ذلك السائل الحار الملتهب عندما يكون شرابا . بل عندما يُكره المجرمون في نار جهنم أن يتخذوه شرابا . انه لا شك يغلي في البطون ، خاصة اذا أدركنا أن كل المعادن اذا صهرت لا بد أن تظل لها تفاعلات وتقلبات كأنما هي في درجة الغليان . ان هذه هي صورة المهل ، شراب أهل النار ، وهي صورة تمزق النفس الانسانية وترعبها .

ولابد لاتمام القول في المهل أن تذكر تلك الصورة التي ذكرها الله عز وجل في القرآن الكريم للسماء في يوم القيامة ، في قوله تعالى

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (١) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٢)

وهذه الصورة تحتم علينا أن نبدي ملاحظة في سياق هذا البحث ، وهي أننا بحاجة ماسة الى دراسة علمية موضوعية مفصلة عن أحوال الدنيا يوم القيامة كما وردت في القرآن الكريم . وهذه الدراسة لا بد أن تتوفر على القيام بها مؤسسة علمية يكون فيها المختصون في العلوم واللغة والفقه والتفسير . ففي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تدل على أن شيئا كبيرا سيحدث ، وهذا الشيء هو يوم الساعة ، أو ما يشكل قيام الساعة . فالنجوم المنكسرة والبحور المسجورة والجبال المنفوشة والسماء المنفطرة ، والكواكب المتناثرة ، كل ذلك يدل على حقائق علمية وظواهر كونية لا بد أن العلم في طريقه للوصول اليها . ولكن الله عز وجل

(١) التباير القرآنية ٨٣ .

(٢) التسهيل ج ٢ ص ١٨٦ .

(٣) التسهيل ج ٢ ص ١٨٦ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) لسان العرب ج ١٤ ص ١٥٥ .

(٦) المعارج ٨ - ٩ .

يخاطب العربي — في تلك الفترة الأولى — على حسب عقله وعلى مقدار تصوره ، ويقول له يوم الساعة تكون السماء كالمهل . والمهل شيء رآه العربي وعرفه على صورة دهان أبيض سائل كان يدهن به إبله في الشتاء ، ولكن هذا لا يمنع أن يتحرك العقل الانساني ، فيجد في قوله عز وجل « يوم تكون السماء كالمهل » شيئا أكثر دقة وتحديدًا عن صورة المعدن المذاب الذي عرفه العربي وطلّى به إبله . وما أجمل ما علق أحد الباحثين المعاصرين على هذه الآيات بقوله : « وهذه النصوص جديرة بأن يتأملها المشتغلون بالعلوم الطبيعية والفلكية ، فمن المرجح عندهم أن الاجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة الى الدرجة الغازية ، وهي بعد درجة الانصهار والسيولة بمراحل . فلعلها يوم القيامة ستنتطفئ وتبرد حتى تصير معادن سائلة وبهذا تتغير طبيعتها الحالية وهي الطبيعة الغازية » (١) .

الحميم :

أما الحميم فهو الماء الحار . يقال : حمة الحر : معظمه . وأتيته حم الظهيرة أي في شدة حرها (٢) .

وأحمه وحممه غسله بالحميم . وكل ما سخن فقد حم . والحمائم جمع الحميمة وهي الماء الحار (٣) .

وعرف العرب الحميم على أنه عرق الخيل اذا جرت وطردت ، قال لبيد (٤) :

قلقت رحالتها وأسبل نحرها وابتلّ من زبد الحميم حزامها
وقال آخر (٥) :

من التمطرات بجانبها اذا ما بل محزمها الحميم
فالحميم — اذن — هو الماء الحار . وهو العرق الذي يسيل على الأجساد من شدة الحرارة والتعب . والشواهد السابقة تثبت أن العرب عرفوه ، وهذا أمر بدهي في بيئة شديدة الحرارة ، قاسية المناخ . وقد مر بنا طرف من تصوير هذه البيئة القاسية اللافتحة المجهدّة . فليس غريبا اذن أن ينذرهم الله عز وجل بأن من يعرض عن عبادته ستكون جهنم مأواه ، والحميم الذي

١ - في ظلال القرآن م ٨ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

٢ - لسان العرب مادة حم .

٣ - المرجع السابق .

٤ - شرح المعلقات السبع ص ١٢٠ ، ديوان لبيد ص ١٧٧ .

٥ - لسان العرب مادة حم .

يقطع الأمعاء شرا به . وفي التعليق على آية سورة القتال قال أحد العلماء المعاصرين « وهي صورة عنيفة من العذاب تناسب جو سورة القتال (سورة محمد) وتناسب مع غلظ طبيعة القوم وهم يأكلون ويتمتعون ، كما تأكل الأنعام . فالجو جو متاع غليظ . والجزاء ماء حميم ساخن وتقطع للأمعاء التي كانت تحشى وتلتهم الأكل كالأنعام » (١) .

وهكذا يصف القرآن الكريم الغساق والمهل والحميم . من واقع تجربة العرب في بيئتهم . ولكن القرآن الكريم يتميز في استعمال هذه المصطلحات باعجاز خالد . ذلك أن العرب لم يعرفوا هذه المصطلحات بهذه المعاني الجديدة التي أضافها لها القرآن . عرفوا الغساق كصيد الجروح . والمهل معادن مذابة ، والحميم ماء حارا ، ولم يكن يخطر في بالهم أبدا أن هذه السوائل النتنة الكريهة يمكن أن تكون الشراب الوحيد لأصحاب النار الذين يضطرون فيها طالبين قطرة من الماء ... وهيئات .

١ - في ظلال القرآن م ٧ ص ٤٥٨ .

الفصل التاسع

مصطلحات في عالم الغيب

مصطلحات في عالم الغيب

هل يمكن للانسان أن يلم بعالم الغيب . هل في طاقته أن يتعرف على ما ورد في القرآن الكريم من مسميات مثل الوحي والأمر، والعرش، والكرسي، والقلم واللوح المحفوظ، والصراط المستقيم، والجن والملائكة؟

والحق أن الانسان ليس له أن يطمع في معرفة ما لم يخطر أساسا على امكانية ادراكه . ذلك أن كل ما يمكن للانسان ادراكه انما هو ما أتاه من قبيل معطيات الحواس التي وهبه الله اياها . ولما كانت حواس الانسان قاصرة دائما وخادعة أحيانا ، فان مدركات الانسان الذاتية لا بد أن يصيبها الفتور والقصور والاضطراب والتغير . وقد فسر الدكتور المهدي بن عبود ، في احدى محاضراته القيمة حاجة الانسان الى ما يأتيه من أنباء من خارج حدود عقله وادراكه . قال : « فاذن الجوهر هو هذه الثقافة الجديدة المبنية على العقل . وعلى ما هو فوق العقل . لأن العقل معرض للخطأ . فينبغي فرضا ومنطقا أن نفكر في شيء آخر هو فوق طاقتنا ، لأن الانسان في نفس الوقت مسير ومخير . فالقسم الذي هو مسير فيه هو جسمه من ناحية ، وهو ما فوق طاقة عقله كالحياة والموت . وكنظام الكون الذي لا يمكن أن يغيره فيرد الليل نهارا ، والنهار ليلا ، ويجعل الشمس تسبق القمر . فالعالم منظم ، وهو فوق طاقة العقل البشري . فاذن — فرضا ومنطقيا — اذا أراد الانسان أن يخرج من طور التسلسل ، وهذا الفراغ ، ينبغي أن يفرض وجود الوحي . والوحي وحده ... فالحضارة اليوم ينبغي أن تتركز على شيئين : الشيء الأول وهو الجوهر : الثقافة المبنية على العقل والوحي . والشيء الثاني هو مظاهر البناء وهو جسم هذه الثقافة ، وهو ما يسمى بالحضارة ، ولا بد لها من عقل الفكر» (١) .

واذا كان الأمر كذلك فما القصد الذي يريده الله عز وجل من عرضه لهذه المسميات التي لا يستطيع الانسان أن يدركها . وما قيمة أن يقرأ المرء في القرآن عن العرش والكرسي والقلم واللوح وما الى ذلك ؟ . وقد اجتهد العلماء في الاجابة عن هذه التساؤلات كثيرا . والحق أنه باب جدير بأن يفرد له بحث خاص . ومن أوفى الاجابات عن ذلك ما ورد في كلام سيدنا الامام الغزالي رضي الله عنه حيث يقول : « فاعلم أنا انما أشرنا الى العلوم الدينية التي لا بد من وجود أصلها في العالم حتى يتيسر سلوك طريق الله تعالى والسفر اليه .

(١) نور على نور ص ٩٦ .

أما هذه العلوم التي أشرت إليها فهي علوم ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد ، فلذلك لم نذكرها . ووراء ما عدته علوم أخر يعلم تراجعها ولا يخلو العالم ممن يعرفها ، ولا حاجة الى ذكرها . بل أقول ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في الامكان والقوة أصنافا في العلوم بعد لم تخرج من الوجود ، وان كان في قوة الأدمى الوصول إليها . وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن فلم يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها ، وعلوم أخر ليس في قوة البشر أصلا ادراكها والاحاطة بها ، ومحظى بها بعض الملائكة المقربين » (١) ويمضي الامام الغزالي قائلا ... « وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين — وكذلك لا يعرف — كما مضى قوله (سويته ونفخت فيه من روحي) ما لم يعلم التسوية والنفخ والروح ، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق ، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها » (٢) .. وبعد هذه المقدمة يصل الامام الغزالي الى القاعدة المقررة فيقول : « فاعلم أن التكلف والترسم ممقوت عند ذوي الجسد فما كلمة طمس الا وتحتها رموز واشارات الى معنى خفى يدركها من يدرك الموازنة والمناسبة بين عالم الملك وعالم الشهادة . وبين عالم الغيب والملكوت ، اذ ما من شيء في عالم الملك والشهادة الا وهو مثال لأمر روحاني من عالم الملكوت ، كأنه هوفي روحه ومعناه ، وليس هوفي صورته وقالبه . والمثال الجسماني من عالم الشهادة مندرج الى المعنى الروحاني من ذلك العالم . ولذلك كانت الدنيا منزلا من منازل الطريق الى الله ، ضروريا في حق الأنس . اذ كما يستحيل الوصول الى اللب الا من طريق القشر ... فيستحيل الترقى الى عالم الأرواح الا بمثال عالم الأجسام » (٣) .

وهذا الشرح الذي بينه الامام الغزالي هو ما نعبّر عنه بلغتنا الحديثة مخاطبة الله لنا على قدر حواسنا وادراكنا . وهو ما سبق أن أشرنا اليه في الحديث عن بعض المصطلحات التي لا يعلم حقيقة أمرها ، ولكننا خوطبنا بها على قدر ما يمكن أن نتصوره من أحوالها . وهذا القول الذي أورده الامام الغزالي في فائدة الايمان بالغيب ، فصلته كتب ودراسات كثيرة في الدراسات الاسلامية المعاصرة . من ذلك ما كتبه الشهيد سيد قطب في كتابه الكبير في ظلال القرآن ، حيث يقول : « والايمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الانسان فيتجاوز

(١) جواهر القرآن ، أبو حامد الغزالي ، بيروت ، دار الافاق الجديدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ م ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .

(٣) المرجع السابق

مرتبة الحيوان الذي لا يدرك الا ما تدركه حواسه ، الى مرتبة الانسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس — أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس — وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الانسان لحقيقة الوجود كله ، ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود . وفي احساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدير . كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض ، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديته وبصيرته ، ويتلقى أصداءه وإحباطاته في أطوائه وأعماقه . ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود . وأن وراء الكون ظاهره وخافيه حقيقة أكبر من الكون هي التي صدر عنها واستمد من وجودها وجوده ... حقيقة الذات الالهية التي لا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بها العقول » (١) .

وفي امكانية العقل القاصرة عن ادراك حقائق عالم الغيب يقول : « فأما محاولة ادراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة ، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول ... فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولا ومحاولة عابثة أخيرا ... فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال . وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال . ومتى سلم العقل البشري بالبديهة العقلية الأولى ، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق الزمه — احتراماً لمنطقه ذاته — أن يسلم بان ادراكه للمطلق مستحيل ، وأن عدم ادراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون . وأن عليه أن يكل الغيب الى طاقة أخرى غير طاقة العقل . وأن يتلق العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن والغيب والشهادة . وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون ، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين » (٢) .

اذن ما الذي نحاوله نحن الآن .. ؟ اذا كان البحث في علم الغيب محاولة فاشلة وعابثة أخيرا .. ؟ ان الذي نريده هو تحقيق هذه المصطلحات الاسلامية التي وردت في القرآن الكريم . ومحاولة تقريب معناها من فهم الانسان المسلم الذي يتلو القرآن . والربط بينها وبين مدلولاتها في لغة العرب قبل نزول القرآن ان كان لها ثمة مدلولات معروفة .

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، بيروت ، دار احياء التراث العربي ، الطبعة السابعة ، ١٩٧١ ، م ١ ص ٤٠ .

(٢) في ظلال القرآن م ١ ص ٤٠ - ٤١ .

وهنا أحب أن أقرر أن كل هذه المصطلحات هي مصطلحات قرآنية جديدة ، لأن العرب لم يكونوا ليدركوا شيئاً وراء عالمهم المحسوس القريب ، ولم تكن لديهم دراسات فلسفية أو دينية عميقة . وكل ما كان لديهم تلك المحاولات الساذجة في التعرف الى أحوال الطقوس ، أو اخلاق الانسان ، أو مكنونات نفسه ، فيما سمي بينهم بالفراسة والعرافة والقيافة — وهي أمور يمكن أن نردها في النهاية الى ارتباطات اجتماعية من واقع أحاسيسهم ومشاهداتهم واتصالات بعضهم ببعض .

وينبغي أن نسجل بوضوح هنا ، أن العلماء الأسلاف وقفوا من هذه المصطلحات موقف الحذر . فهم لم يستطيعوا شرحها بما يقربها الى مثيلاتها من عالم الانسان المشاهد . ولم يستطيعوا في الوقت نفسه تعطيلها وتجاوزها . فوقفوا الى حد متوسط بين التشبيه والتعطيل . وقد أشار صاحب الجوهرة الى هذا بقوله (١) :

وكل نص أوهم التشبيهها أَوْلُهُ أَوْ فَوَّضَ وَرَّمْ تَنْزِيهَا

الغيب :

على أن كلمة الغيب نفسها كلمة معروفة في الشعر الجاهلي . وقد استعملت بمعناها اللغوي أي كل ما غاب عنك . قال ابن الأعرابي : « والغيب أيضا ما غاب عن العيون وان كان محصلا في القلوب ، ويقال سمعت صوتا من وراء الغيب أي من موضع لا أراه ، وقال شمر « كل مكان لا يدري ما فيه فهو غيب ، وكذلك الموضع الذي لا يدري ما وراءه ، وجمعه غيوب » (٢) ، قال أبو ذؤيب الهذلي (٣) :

يرمى الغيوب بعينيهِ ومطرفه مغض كما كسف المستأخذ الرمد
وقال أيضا مستعملا كلمة الغيب بمعنى « من ورائي دون أن أعرف » (٤) :

أخالد ما راعيت من ذي قرابة فتحفظني بالغيب أو بعض ما تبدي

(١) حاشية العلامة الصاوي ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) لسان العرب مادة غيب .

(٣) ديوان الهذليين ، القسم الأول ، ص ١٢٥ .

(٤) المرجع السابق ، القسم الأول ، ص ١٥٨ .

وقال خالد بن زهير (١) :

يا قوم ما بال أبي ذؤيب كنت اذا أتوته من غيب
يشم عطفي ويس ثوبي كأنني قد ربته بريب

وقال عبد الشارق بن عبد العزى (٢) :

سمعنا دعوة عن ظهر غيب فجلنا جولة ثم ارعونا

وقال علقمة بن عبدة (٣) :

من ذكر سلمى وما ذكرى الأوان بها الا السِّفاهُ، وظن الغيب ترجيم

والغيب من الأرض ما غيبك ، وجمعه غيوب . وقد استعمل هذا المعنى في شعر العرب كثيرا ، وخاصة اذا علمنا أن حياتهم فرضت عليهم التنقل والتفتيش من الأماكن المخصصة أو المعشبة ، ثم الذهاب وراء الحيوانات الأليفة لاصطيادها ثم ترصد القبائل الواحدة للأخرى لغزوها والغارة عليها . ومن ذلك الشعر قول لبيد (٤) :

وتوجست رزَّ الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها

ويقول أبو دوداد الأيادي (٥) :

واذا ما فحِشَّتْها بطنَ غيب قلت نخلٌ قد حان منه صرام

وتدل الأمثلة السابقة كلها على أن كلمة الغيب استعملت في معناها اللغوي بمعنى الشيء الذي لا تدركه ، أو الحال الذي لا نعلمه ولا ندري عنه شيئا . وقد وردت مشتقات الكلمة مثل متغيب ، وغيب ، في شعر جاهلي كثير .

الغيبه :

وهي مشتقة من غاب على وزن فعلة . ويبدو أنها كانت معروفة في الشعر الجاهلي . ويفهم من بيت أبي ذؤيب السابق أنه يطالب خالدا أن يحفظه بالغيب فلا يغتابه ، كذلك ورد معناها صريحا في قول الغطّمش من بني شقرة بن كعب (٦) :

(١) ديوان الهذليين ، القسم الأول ، ص ١٦٥ .
(٢) ديوان الحماسة ، الجزء الأول ، ص ٢٥١ .
(٣) الفضليات ، ٣٩٨ .
(٤) شرح المعلقات السبع ١٠٣ .
(٥) الأصمعيات ، ١٨٨ .
(٦) ديوان الحماسة ، الجزء الأول ، ص ٥٩٩ .

أَلَا رَبُّ مَنْ يَغْتَابُنِي وَدَّ أَنْسِي أَبُوهُ الَّذِي يَدْعِي إِلَيْهِ وَيَنْسِبُ
وَيَقُولُ الْمَفْضَلُ الْبَكْرِيُّ (١) :

تَلَاقَيْنَا بَغِيَّةَ ذِي طَرِيفٍ وَبَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَنِيقٌ
وَقَدْ وَرَدَتِ الْغِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . وَمَعْنَاهَا ذَكَرَ إِنْسَانًا فِي غِيَّتِهِ بِمَا يَسُوُّهُ . فَإِنْ كَانَ مَا
يَذْكُرُهُ فِيهِ فَهُوَ غِيَّةٌ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَهُوَ بَهْتَانٌ . وَقَدْ حَرَّمَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، وَصَوَّرَ
الْمَغْتَابَ صُورَةً كَرِيهَةً مَنفَرَةً فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :

بَنَاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (٢)

وَمِنْ هُنَا يَبْدُو أَنَّ الْغِيَّةَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَمَلَتْ الْمَعْنَى الَّتِي عَرَفْتُ بِهِ فِي الشَّعْرِ
الْجَاهِلِيِّ .

وَلَمَّا كَانَ عَالَمُ الْغَيْبِ قَدْ وَرَدَ إِلَيْنَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ . فَقَدْ صَارَ مِنَ الْبَدْهِيِّ أَنْ يَكُونَ
أَوَّلُ مَا نَبْحَثُ فِيهِ فِي هَذَا الْفَصْلِ هُوَ مُصْطَلَحُ الْوَحْيِ ، مَعْنَاهُ الْإِسْلَامِيُّ وَمَعْنَاهُ فِي الشَّعْرِ
الْجَاهِلِيِّ .

الوحي :

مَعْنَاهُ الْعَامُّ هُوَ ابْلَاغُ الْإِنْسَانِ مَا تَوَدُّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ إِمَّا بِطَرِيقِ التَّصْرِيحِ وَإِمَّا بِطَرِيقِ
التَّلْمِيحِ . وَلِذَلِكَ عَرَفْتُهُ مُعَاجِمَ اللُّغَةِ بِأَنَّهُ الْإِشَارَةُ وَالْكِتَابَةُ وَالرَّسَالَةُ وَالْإِلْهَامُ ، وَالْكَلَامُ
الْخَفِيُّ وَكُلُّ مَا أَلْقَيْتُهُ إِلَى غَيْرِكَ (٣) . يُقَالُ وَحَيْتُ إِلَيْهِ وَأَوْحَيْتُ وَوَحَى وَحْيًا وَأَوْحَى أَيْضًا
كَتَبَ . وَقَدْ ذَكَرَ الْوَحْيَ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ بِمَعْنَى الْكِتَابَةِ . وَمِمَّا يُوَكِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي الْمَثَلِ
« أَبْقَى مِنْ وَحْيٍ فِي حَجَرٍ » (٤) . وَيُوَكِّدُهُ أَيْضًا قَوْلُ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيِّ فِي مَطْلَعِ مَعْلَقَتِهِ
(٥) :

(١) الْأَصْمَعِيَّاتُ ، ص ٢٠٠ .

(٢) سُورَةُ الْحَجَرَاتِ ١٢ .

(٣) لِسَانُ الْعَرَبِ الْحَيْطُ مَادَّةُ وَحْيٍ .

(٤) جَوَاهِرُ الْأَدَبِ م ١ ص ٣٢ .

(٥) شَرْحُ الْمَعْلَقَاتِ السَّعْصَعِ ص ٩٦ .

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدامع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحيّ سلاّمها
شبه بقاء الآثار لقدم الأيام ببقاء الكتاب في الحجر . والوحي هنا جمع وحي كما قالوا حلي
جمع حلي . ومن شعر زهير في هذا المعنى (١) :

لمن الديار غشيتها بالغرقد كالوحي في حجر المسيل المخلد
ويمكن أن يكون الوحي بواسطة الكلام ، ومن طريق الإشارة أيضا . قال أبو ذؤيب (٢) :

فقال لها وقد أوحى اليه الا لله أمك ما تعيف
وقال أبو اسحق في معنى الوحي « وأصل الوحي في اللغة كلها الاعلام في خفاء ،
ولذلك صار الالهام يسمى وحيًا ، وصارت الإشارة المتفق عليها تسمى وحيًا ... يؤكد هذا
ما روى أن السليك بن السليكة السعدي خرج مع صديقين له ، حتى أتوا جوف واد وهو
باليمن فاذا فيه نعم كثير . فقال سليك لهما : كونا مني قريبا حتى آتي الرعاء فاعلم لكما
علم الحي ، أقرب هو أم بعيد ، فان كانوا قريبا رجعت اليكما وان كانوا بعيدا قلت لكما
قولا أحيي به اليكما فأغيرا على من يليكما ... ، فانطلق حتى أتى الرعاء ، فلم يزل بهم
يتسقطهم حتى أخبروه خبر الحي ، فاذا هو بعيد فقال لهم السليك : ألا أغنيكم ؟ قالوا بلى :
فرفع عقيرته يتغنى :

يا صاحبيّ ألا لا حيّ بالوادي الا عبيد وآم بين أذواد
أتنظران قليلا ريث غفلتكم أم تعدوان فان الريح للغادي
فلما سمعا ذلك أطردا الابل فذهبا بها (٣) :

وهكذا فان العرب عرفوا معنى الوحي أنه كتابه أو إشارة ، أو الهام أو اتفاق خفيّ ، أو
أي وسيلة يصل بها الكلام الى الشخص المقصود .

ولم يخرج معنى الوحي في القرآن الكريم عن هذه المعاني : وقد ورد في ثمانين آية من
القرآن الكريم ، وفي معظم هذه الآيات كان معنى الوحي هو ما أبلغه الله أنبياءه ورسله

(١) ديوان زهير .

(٢) ديوان الهذليين ، القسم الأول ، ص ١٠١ .

(٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٨٢ .

لينشروه في الناس . وقد ورد الوحي في القرآن الكريم — في بعض الآيات — بمعناه اللغوي ، أي ايصال المعنى الى الآخرين بوسيلة من الوسائل . قال تعالى في قصة زكريا عليه السلام

نَخْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا^(١)

ومن المعروف أن زكريا عليه السلام كان صائما عندما خرج على قومه من المحراب ، كان صائما عن الكلام ، « قال تعالى :

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠٠﴾ نَخْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا^(٢)

ويكون الوحي أيضا بين أفراد الناس بعضهم مع بعض ، وجاء بيان ذلك في قوله عز وجل :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَبَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ^(٣)

وكذلك سمى الله عز وجل وسوسة الشيطان لبعض الانسان وحيا ، وذلك ما يفهم من قوله تعالى :

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوا وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ^(٤)

ولكن الوحي عرف واشتهر بين المسلمين على أنه وحي الله عز وجل لرسله . واذا أطلقت الكلمة الآن انصرف الذهن الى هذا المعنى . رغم أن المعنى اللغوي والمعنى الاسلامي

١ - مريم ١١ .

٢ - سورة مريم ١٠ - ١١ .

٣ - الأنعام ١١٢ .

٤ - الانعام ١٢١ .

للكلمة متشابهان .. الا أن تخصص الوحي بوحى الله عز وجل انما جاء من جهة تخصيص القرآن الكريم وجعله معنى اسلاميا مشهورا .

الأمر:

وردت كلمة الأمر، ومشتقاتها في الشعر الجاهلي، بمعنى الطلب على سبيل الالتزام . من أمري أمر أمرا . وتفرع عن هذا المعنى معنى جديد هو التشاور والاتفاق على رأي ما . وقد أخذ هذا المعنى من كلمة ائتمار وهي على وزن افتعال من ائتمر . وفي معنى الأمر قال دريد ابن الصمة (١) :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد (٢)
وفي هذا المعنى قال يزيد بن الصعق يهجو بني أسد (٣) :

ولعتم بئمرين السياط وأنتم يُشَنُّ عليكم بالفنا كل مربع
بنى أسد ما تأمرون بأمركم اذا لحقت خيلٌ تثوب وتدعي
وتقول العرب : إنه لأمر بالمعروف ، نهو عن المنكر . وأمرت فلانا أمره ، أي أمرته بما ينبغي له من الخير (٤) .

وفي معنى الائتمار قال النمر بن تولب (٥) :

أحار بن عمرو فؤادي خر ويعدو على المرء ما يأتمر
والائتمار هنا بمعنى التفكير والتخطيط وتدبير الرأي .

كذلك أخذت الكلمة في الشعر الجاهلي معنى الموضوع . فاذا قيل ما الأمر مثلا ، فكأنما يسأل عن الموضوع المعين الذي يتحدث عنه . ومن هذا قول عوف بن عطية (٦) :

وأبلغ قبائل لم يشهدوا طحا بهم الأمر ثم استدارا

١ - الأصمعيات ، ص ١٠٧ .

٢ - أمرتهم تكتب هكذا وتنطق باشباع الميم نحو حركة الضم .

٣ - الأصمعيات ، ص ١٤٤ .

٤ - أساس البلاغة ، محمود بن عمر الزمخشري ، القاهرة ، المطبعة الوهبية ، الطبعة الأولى ، ١٨٨٣ ، ج ١ ، ص ١٥ .

٥ - شعر النمر بن تولب ، صنعة الدكتور فوزي حمودي القيسي ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٩ ، ص ١٣٤ .

٦ - الفضليات ، ص ١٤١٤ .

وقول ابن أحر الباهلي (١) :

لو كنت ذا علم علمت ، وكيف لي بالعلم بعد تدبر الأمر ولم يخرج معنى الأمر في الشعر الجاهلي عن هذه المعاني .

أما في القرآن الكريم فقد حملت كلمة الأمر عدة معان هي :

١ - الأمر بمعنى الطلب على سبيل الالتزام ، وهو المعنى الأساسي للكلمة ، و يظهر ذلك في قوله تعالى :

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ (٢)

وقوله تعالى :

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (٣)

٢ - الأمر بمعنى الحكم . و يظهر في قوله تعالى :

فَقَاتِلُوا آلَ ابْنِ مَرْثَدَةَ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ (٤)

٣ - الأمر بمعنى الموضوع المعين ، كما في قوله تعالى :

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (٥)

٤ - على أن هناك آيات قرآنية كريمة تدل على أن الأمر شيء أكبر من هذه المعاني كلها وأنه واحد من الأشياء التي استأثرت بها الله عز وجل في علمه . وفي هذه الآيات يظهر الأمر بمعنى الحكمة الإلهية أو الإرادة التي تنتظم كل شيء . قال الله عز وجل :

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٦)

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٥ .

٢ - سورة هود ١١٢ .

٣ - سورة التوبة ٣١ .

٤ - سورة الحجرات ٩ .

٥ - سورة آل عمران ١٥٩ .

٦ - سورة الاسراء ٨٥ .

وقال تعالى :

قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ^(١)

وقال تعالى :

ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَدْبِرُ الْأَمْرَ ^(٢)

وقال تعالى :

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ^(٣)

وقال تعالى :

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ^(٤)

فما الأمر في هذه الآيات ؟ انه شيء أكبر من الطلب ، وأكبر من الموضوع ، وأكبر من الحكم . ان الله عز وجل جعل الروح ، وهي من عالم الغيب ، شيئا من أمر الله . وان الله عز وجل جعل الأمر من غيب السموات والأرض ، ولم أجد — في حدود ما طالعت — أحدًا من المفسرين أو الباحثين قال رأيا فاصلا في معنى الأمر في هذه الآيات . ورد في كتاب الأشباه والنظائر من أن تفسير الأمر على وجهين : « فوجه منهما الأمر بالمعروف يعني التوحيد والنهي عن المنكر يعني الشرك . والوجه الثاني : الأمر بالمعروف يعني اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، والتصديق به ، والمنكر التكذيب » ^(٥) . وواضح أن ما قاله المؤلف هنا انما هو تفسير للمعروف والمنكر وليس للأمر .

ونقل العقاد عن الامام الرازي قوله : « وثانيتها السؤال عن قدمها وحدوثها — أي الروح — فان لفظ الأمر جاء بمعنى الفعل ، كقوله تعالى « وما أمر فرعون برشيد » فقوله من أمر ربي معناه من فعل ربي ^(٦) » .

فالامام الرازي يريد بالأمر هنا الفعل . ولكن كيف نوفق بين هذا الفهم ، وبين قوله

١ - سورة آل عمران ١٥٤ .

٢ - سورة يونس ٣ .

٣ - سورة هود ١٢٣ .

٤ - الأحزاب ٣٨ .

٥ - الأشباه والنظائر ص ١١٣ .

٦ - الفلسفة القرآنية ، ص ١٢١ .

تعالى « وكان أمر الله مفعولا » (١) ، هل معناه « وكان فعل الله مفعولا » ؟ لا ، بديهية .

وقد أورد الخازن إشارة سريعة تؤيد ما ذهبنا إليه من أن الأمر هو الإرادة قال : « وقيل المراد بالأمر هنا — أي في تفسير آية سورة الاسراء — الإرادة ، لأن الغرض من الآية تعظيم القدرة » (٢) .

وهذا يدل على الأمر مصطلح قرآني جديد . لأنه فصل معنى الأمر اللغوي ، ووسع مدلوله ، وتجاوز المعاني المحدودة التي كانت معروفة في الشعر الجاهلي .

العرش :

العرش في اللغة مصدر الفعل عرش . يقال عرش الشيء يعرّشه ويعرّشه عرشا بمعنى عمله (٣) . ولكن هذا المعنى انتقل في استعمال الناس من المصدرية الى العلمية فصارت كلمة العرش تحمل عدة معان منها البيت . وسقف البيت ، والخشبة التي تدخل في صنع العرش . والعرش أيضا بناء مربع من خشب توضع فوقه بعض أغصان الأشجار وجريد النخل ، وقد يحمل من مكان الى مكان ، يستظل به الانسان من حر الشمس . وفي حديث معركة بدر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قائما في عريش يدعو الله عز وجل . وكان العرب يعرشون الآبار بالخشب بعد أن يطوى موضع الماء بالحجارة (٤) .

ومن هذا المعنى اللغوي تطورت للعرش عدة معان عن طريق المجاز ، فصاروا يسمون سرير الملك عرشا ، ثم صارت الكلمة تحمل الدلالات التي تتعلق بسرير الملك من قوة وعزة وسلطان . وبهذا المعنى خاطب عدي بن زيد النعمان قائلا له (٥) :

ولو هَلَكْتُ تركت الناس في وهَلٍ بَعْدَ الجميع وصار العرش أكسارا
وعرش الرجل قوام أمره . ومن هذا المعنى قولهم « ثَلَّ عرش فلان » أي انهذ بناؤه ، وذهبت قوته . قال زهير (٦) :

تداركتما الاحلاف قد ثَلَّ عرشها وذبيان اذ زلت بأحلامها النعل

١ - الأحزاب ٣٧ .

٢ - تفسير الخازن ، ج ٢ ، ص ١٩٨ .

٣ - لسان العرب مادة عرش .

٤ - المرجع السابق .

٥ - الزينة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

٦ - ديوان زهير ، دار صادر ، ١٩٦٤ ، ص ٦ .

وقال أوس بن حجر يرثي رجلا (١) :

لَعَمْرُ مَا قَدَرِ أَجْرِي لِمَضْرَعِهِ لَقَدْ أَخْلَلَ بَعْرَشِي أَيَّ إِخْلَالٍ
والعرش تعنى هنا قوة الانسان وعزته ومكانته . والعرش أيضا الفتى القوي الذي تعتز به قبيلته وأسرته ، قالت عمرة الخثعمية ترثي ابنها (٢) :

ولن يلبث العرشان يستل عنهما خيار الأواسي أن يميل غماهما
وهكذا يظهر أن كلمة العرش في العصر الجاهلي ، قد حملت المعاني التالية :

— البيت ، وسطح البيت ، والقصر .

— سرير الملك .

— السلطان والقوة .

— الرجل الكبير الذي به يقوم أمر القبيلة .

— الملك وقوته وسلطانه .

ويبدو أنه في أواخر العهد الجاهلي بدأ بعض الشعراء ، وبخاصة من عرف منهم بالتوجه نحو التفكير الديني ، والتأمل في الكون ، والتذكر للشرائع السابقة ، مثل أمية بن أبي الصلت ، بدأوا يربطون بين معنى العرش ، وتصورهم عن الله عز وجل ، أنه قوي عزيز ، خالق قادر . ويظهر مثل هذا المعنى في قول أمية بن أبي الصلت ، وإن لم يذكر كلمة العرش صريحة بل ذكر معناها (٣) :

سجدوا لله وهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذي سبق الناس وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا ما يناله بصر العين ترى دونه الملائك صورا

كان هذا — اذن — تصور الناس للعرش ، واستعمالهم للكلمة ، عندما نزل القرآن الكريم . وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في خمس وعشرين آية .

وفي هذه الآيات حملت الكلمة ثلاثة معان هي :

— المعنى اللغوي الأساسي ، وعليه ورد قول الله عز وجل :

١ - الزينة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ . ديوان أوس بن حجر ، دار صادر ١٩٦٠ ص ١٠٦ .

٢ - الحماسة ، ج ١ ، ص ٦٣٤ .

٣ - ديوان أمية بن أبي الصلت ، بيروت ، المكتبة الأهلية ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٤ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ^(١)

وقوله تعالى

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ
وَمَا يَعْرِشُونَ^(٢)

— العرش بمعنى الملك ، والقوة ، والعزة ، وسرير الملك ، وهو معنى معروف في العصر الجاهلي
وفيه قال الله عز وجل :

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا^(٣)

وقال تعالى

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ^(٤)

— والمعنى الثالث هو نسبة العرش الى الله عز وجل ، والحديث عنه كما لو كان شيئاً مجسماً
له جرم ، وله مكان معلوم ، ويفهم هذا المعنى في قوله تعالى

فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ^(٥)

وقوله تعالى

وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ^(٦)

وقوله تعالى

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى^(٧)

وقوله تعالى

وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ^(٨)

(٥) المؤمنون ١١٦ .

(٦) الزمر ٧٥ .

(٧) طه ٥ .

(٨) الخاقعة ١٧ .

(١) سورة الاعراف ١٣٧ .

(٢) سورة النحل ٦٨ .

(٣) سورة يوسف ١٠٠ .

(٤) سورة النمل ٢٣ .

فما معنى العرش هنا؟ ما المقصود به؟ ما معنى الاستواء على العرش؟ لقد وردت عدة تفسيرات لهذه المعاني على ألسنة العلماء السابقين، وقد اختلفت هذه التفسيرات باختلاف الفرق التي تحدثت عنها. وقد شغلت قضية الاستواء علماء الكلام، فمنهم من حمله على ظاهر القول ومنهم من تأوله. فقد روى أن رجلاً سأل مالك بن أنس رضي الله عنه عن قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والايان به واجب والسؤال عنه بدعه» (١). وقال الأشعرية: ان الاستواء هو الاستيلاء بالملك والقدرة (٢). وأمسك كثير من الصحابة والتابعين عن الحديث فيه. وفي تفسير أبي السعود قال ان الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف. والمعنى أنه تعالى استوى على العرش. على الوجه الذي عناه منزلها عن الاستقرار والتمكن. والعرش هو الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير الملك فان الأمور والتدابير تنزل منه (٣).

على أنه ليس من مجال هذا البحث السعي وراء معنى الاستواء وآراء العلماء فيه، وإنما أوردته لأبين أن فهم العلماء لمعنى كلمة العرش لم يخرج عن المعنى الذي حملته في العصر الجاهلي. ولكن يمكن القول إن القرآن الكريم قد وجه اهتمام الناس الى معنى دون آخر عندما نسب العرش الى ذات الله، فصار الناس يحاولون فهم حقيقة هذا العرش وكنهه في حدود ما ورد من آيات كريمة وأحاديث شريفة.

ولكنى أعود الى ما قرره الامام الغزالي في مقدمة هذا الفصل فأقول إن العرش واحد من الأمثلة لما في عالم الأرواح خوطبنا بها على قدر أفهامنا، والله عز وجل يخاطب الناس من واقع ما يتكلمون به، وما يتصورونه، أما معرفة حقيقة ما يذكره الله عز وجل من معانٍ عامة في الآيات القرآنية فهو مختص بعلمه هو جل ذاته، وهو العليم الخبير.

الكربي:

ذكرت معاجم اللغة هذه المادة بشكل موجز. ففي لسان العرب ورد أنها من تكرر الشيء وتكارس بمعنى تراكم وتلازب. وتكرر رأس البناء واشتد. ومنه كرسي البناء وكرسي الحوض، ورسم مُكرَس ومكرِس (٤). وذكر أبيات العجاج (٥):

١ - حاشية العلامة الصاوي ج ٢، ص ٧٨.

٢ - التسهيل ج ٢ ص ٣٤.

٣ - تفسير أبي السعود ج ٢ ص ١٦٩.

٤ - لسان العرب مادة كرس.

٥ - المرجع السابق.

يا صاح هل تعرف رسماً مُكْرَساً قال نعم أَعْرِفُهُ وَأَبْلَساً
وَأَنْحَلَبْتُ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى

وفي مختار الصحاح ، قال : الكرسي واحد الكراسي ، وربما قالوا كرسي بالكسر .
والكراسة واحدة الكراس والكراريس والكرارس . ونسب صاحب الزينة الكرسي الى
كرسي الملك (١) . و يبدو أن هذه المعاجم تريد أن تجد سببا بين هذه الكلمة وبين الأصل
العربي لها . الا أن الأستاذ الهمداني محقق كتاب الزينة قال ان هذا الرأي فيه تعسف
شديد ، وأنه بعيد عن معنى الأصل ، وعن الصيغ العربية المألوفة (٢) . ثم أورد رأيا للدكتور
مهدي حسن يرى فيه أن هذا اللفظ — بمعنى المقعد العظيم أو العرش — دخل قديما في
العربية من الصينية . وقال ان هذا الأصل انتقل الى اللغات الهندية الأوروبية ، وإلى
اللغات الهندية والفارسية القديمة والآرامية . ومن الآرامية أخذه العرب (٣) .

وربما يكون هذا الرأي أقرب الى الصواب ، لأن الكلمة لم ترد في شعر العرب بالمعنى
الذي أراده القرآن الكريم . ولو كانت عربية الأصل لوردت في أشعارهم ، كما وجدنا في
كلمة العرش . وبخاصة أن الشعر الجاهلي حافل بمذائح الملوك وأوصاف مجالسهم ، لما كانوا
يشاهدونه في بلاط ملوك الحيرة والغساسنة ومن ورائهم قصور الأكاسرة والقيصرة .

أما كتب التفسير فلم تبحث في أصل الكلمة ، بل وجهت كل اهتمامها في تفسير
الكلمة ، ومحاولة تعيين المراد منها ، خاصة أنها نسبت الى الله عز وجل .

وقد وردت كلمة الكرسي في آيتين اثنتين في القرآن الكريم ، أحدهما الآية المشهورة
بآية الكرسي ، وهي قوله تعالى :

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)

(١) الزينة ج ٢ ص ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٥٠ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) البقرة ٢٥٥ .

والآية الثانية هي قوله تعالى :

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (١)

وشهرة الكرسي — في المصطلح الاسلامي — انما وردت من الآية الأولى ، لأنه أضيف الى ضمير يعود على اسم الجلالة . ولذا صار الكرسي مجالا لعرض كثير من الآراء المختلفة ، كلها تبحث في الكرسي : ومكانه : وحجمه وما الى ذلك . أما الآية الثانية فقد أجمعت كتب التفسير على أن الكرسي فيها هو بمنعاه المعروف وهو المقعد .

وفي معنى الكرسي ذكرت كتب التفسير أنه جسم بين يدي العرش محيط بالسموات السبع (٢) . وأنه مخلوق عظيم فوق السماء السابعة يحمله أربعة ملائكة لكل ملك أربعة أوجه (٣) . وهو ايضا مخلوق عظيم بين يدي العرش وهو أعظم من السموات والأرض ، وهو بالنسبة الى العرش كأصغر شيء (٤) ثم هو أيضا في كتب التفسير هذه وفي غيرها علم الله وقدرته .

وربما كان أقرب الى الصواب اعتبار الكرسي هو الملك والقدرة والعلم ، أولا لأن كتب التفسير السابقة قد فسرت الكرسي بالعلم وإن أوردت أمامه تلك الأوصاف التي لم تؤكد بها بسند حقيقي من الدين . وثانيا لأن نفرا من (أهل العلم والنظر) من السلف الصالح أيدوا هذا المعنى وقالوا به . وقد روى عن ابن عباس — رضي الله عنهما — ان كرسيه هو علمه تعالى (٥) .

وقد فصل صاحب الكشف القول في معنى قوله تعالى « وسع كرسيه » على أربعة أوجه : أحدها أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته ، وما هو الا لتصوير عظمته ، وتخيل فقط ، ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد . والثاني وسع علمه وسمى العلم كرسيا تسميته بمكانه الذي هو كرسي العلم . والثالث وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك . والرابع ما روى أنه خلق كرسيا هو بين يدي العرش ودونه السموات والأرض وهو الى العرش كأصغر شيء (٦) .

١ - ص ٣٤ .

٢ - تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٨٩ .

٣ - حاشية العلامة الصاوي ج ١ ص ١٢٠ .

٤ - التسهيل ج ١ ص ٨٩ .

٥ - لسان العرب مادة كرس .

٦ - الكشف ج ١ ص ٣٨٦ .

مما سبق نستدل على أن كل أهل التفسير كانوا مترددين في تفسير الكرسي بين العلم والقدرة وبين الأوصاف الحسية التي سبق ذكرها . ونجد أحيانا أن روايتين أو أكثر تتناقضان رغم أنهما عن شخص واحد . فإلى جانب ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن الكرسي هو العلم ، جاء في رواية أخرى تنتهي بسندها إلى سعيد بن جبير قال فيها : الكرسي موضع القدمين وأما العرش فلا يقدر قدره . قال ومن روى عنه — أي عن ابن عباس — في الكرسي أنه العلم فقد أ بطل .

وسبب هذا التردد — فيما أرى — هو ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة في فلاة (١) » . ونحن نكبر ونجل هذا الورع وهذه النفوس وهذا الالتزام في استقبال الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة . ولكن يبقى الأمر في الآية والحديث على سبيل التمثيل والتخييل ، لا على سبيل الحقيقة ، حيث أن كل مسميات علم الغيب لا نستطيع الجزم بحقيقتها كما يعلمها الله سبحانه وتعالى .

وقد كان المفسرون المحدثون أكثر حسما للموضوع عندما اعتبروا أن الكرسي إنما هو من قبيل التعبير التصويري لتقريب المعنى من خيال الإنسان . قال في ظلال القرآن : « وقد جاء التعبير في هذه الصورة الحسية في موضع التجريد المطلق ، على طريقة القرآن في التعبير التصويري ، لأن الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقا ثابتا . فالكرسي يستخدم عادة في معنى الملك ، فإذا وسع كرسيه السموات والأرض فقد وسعهما سلطانه . وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية ، ولكن الصورة التي ترسم في الخس من التعبير المحسوس أثبت وأمكن » (٢) .

أما الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فقال : « ان السياق يدل على أن الكرسي هو العلم الالهي . ويقال كرس الرجل كفرح اذا كثر علمه وازدحم على قلبه ، وقيل انه تمثيل لعلم الله تعالى . والآية تدل على أنه شيء يضبط السموات والأرض ، ولا يتوقف التسليم بها على تعيينه والقول بأنه علم أو ملك أو جسم كثيف أو لطيف . فان كان هو العلم الالهي فالأمر ظاهر . وان كان خلقا آخر فهو من عالم الغيب الذي نؤمن به ولا نبحت عن حقيقته ، ولا نتكلم فيه بالرأي كما قال كثيرون انه هو الفلك الثامن المكوكب من الأفلاك التسعة التي

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٤٢٤ .

(٢) في ظلال القرآن م ١ ص ٤٢٣ .

كان يقول بها فلاسفة اليونان ومقلدوهم فذلك من القول على الله بدون علم وهو من أمهات الكبائر» (١).

ويظهر من هذا العرض لأقوال العلماء والمفسرين أن «الكرسي» أصبح مصطلحا في القرآن الكريم، له معنى محدد، وإن اختلف العلماء في تعيين المراد الدقيق له ولكنه إذا أطلق يتوجه الذهن إلى خلق من خلقه، نسبة إلى ذاته، لا يعلمه على حقيقته إلا هو، ولذلك هو من مصطلحات الغيب. وهو إذن مصطلح قرآني جديد، لأن العرب قبل نزول القرآن لم يكن عندهم إحساس بهذا المصطلح، ولا ورد ذكره في أشعارهم.

القلم:

عرف الجاهليون — لا شك — القلم، على الرغم من أن الأمية كانت منتشرة فيهم. ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن فيهم أفراد متميزون قارئين وكاتبين. ويدل على هذا ما روى في الشعر الجاهلي من أبيات حول القلم والكتابة والقراءة. وما ورد في القرآن الكريم من آيات تتحدث عن الكتابة والقراءة والقلم والعلم. وما كان القرآن الكريم ليحدث الناس عن أمور يجهلون بها.

وما ورد في الشعر الجاهلي حول القلم قول المرقش (٢):

الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم
ومنه قول أمية بن أبي الصلت (٣):

قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعا والقط والقلم
وقول شتيم بن خويلد الفزاري (٤):

تسمع أصوات كدري الفراه به مثل الأعاجم تغشى المهرق القلما

وقد بحث الدكتور ناصر الدين الأسد موضوع الكتابة وأدواتها في العصر الجاهلي في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» فقال: «فقد كان العرب — إذن — يكتبون في جاهليتهم

١ - تفسير المنارج ٣ ص ٣٣.

٢ - مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، القاهرة، دار المعارف، ص ٣٩. وانظر المفصلية ص ٢٣٧.

٣ - مصادر الشعر الجاهلي، ص ٥١. ودنوان أمية بن أبي الصلت، ص ٦٠.

٤ - المرجع السابق ص ٨٢.

ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون ، وقد أصبحت معرفة الجاهلية بالكتابة معرفة قديمة أمرا يقينا يقرره البحث العلمي ، القائم على الدليل المادي المحسوس ، وكل حديث غير هذا لا يستند الا الى الحدس والافتراض » (١) .

ثم ان آيات القرآن تؤيد ما ذهب اليه الدكتور ناصر الدين الأسد في تأكيده على معرفة أهل الجاهلية للكتابة والقلم ، قال تعالى :

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٢)

هذا بالإضافة الى الآيات التي ورد فيها ذكر القلم ، وسأتعرض اليها بعد قليل .

وقد تحدثت النصوص القديمة عن أوصاف القلم في العصر الجاهلي . يقول الدكتور ناصر الدين الأسد : « فالقلم حديثه طويل ، ولو أوردنا ما ذكره ابن قتيبة وابن النديم والصول وابن السيد البطليوسي والقلقشندي في وصفه وأنواعه لمألأنا صفحات ... والقلم في الجاهلية كما تصفه هذه النصوص مصنوع من القصب ، فيقط أو يبرى ثم يغمس في مداد الدواة ويكتب به » (٣) وقد أورد هذا الباحث شعرا كثيرا ، ورد فيه ذكر القلم والدواة والكتابة وما الى ذلك (٤) .

وقد ذكر القلم في القرآن الكريم في أربع آيات هي قوله تعالى :

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (٥)

وقوله تعالى :

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿١﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٢﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٦)

(١) المرجع السابق ص ٣٣ . (٤) انظر في هذه الشواهد المرجع السابق — مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٥) القلم ١ .

(٢) البقرة ٧٩ .

(٦) العلق ٣-٥ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٩٧ .

وقوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبِحِرٍ
مَا نَفِذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ (١)

وقوله تعالى :

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ
أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٢)

وقد أوردت القلم ضمن المصطلحات التي يضمها عالم الغيب لأن كثيرا من كتب التفسير ذكرت له صفات تخرجه عن معناه الحقيقي القريب السهل الذي يجب أن يفهم من آيات الله عز وجل . من ذلك ما روي عن ابن عباس أن أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب . قال ما أكتب ؟ قال : اكتب ما كان وما يكون الى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رق أو أثر . فجرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة . قال ثم ختم فم القلم فلم ينطق ولا ينطق الى يوم القيامة . وهو من نور طوله كما بين السماء والأرض (٣) . وقد روى عن الامام القرطبي أنه قال : الاقلام ثلاثة في الأصل : القلم الأول الذي خلقه الله تعالى بيده وأمره أن يكتب . والقلم الثاني : أقلام الملائكة جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال . والثالث أقلام الناس يكتبون بها كلامهم ويصلون بها الى مآربهم (٤) . وعن عمر رضي الله عنه . قال : خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده ثم قال تعالى لسائر الحيوان كن فكان ، وهي القلم والعرش وجنة عدن وآدم عليه السلام (٥) . وفي مكان آخر ورد في تفسير الآية أن القلم اختلف فيه على قولين : أحدهما أنه القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ ، فالضمير في يسطرون للملائكة . والآخر أنه القلم المعروف عند الناس أقسم الله به لما فيه من المنافع والحكم ، والضمير في يسطرون على هذا النبي آدم (٦) . وفي تفسير الآية الثانية من الآيات السابقة ، قال : فدل على أن نعمة التعليم أكبر نعمة وخص من التعليمات الكتابة بالقلم لما فيها من تخليد العلوم ومصالح الدين والدنيا (٧) .

١ - لقمان ٢٦ . ٥ - حاشية العلامة الصاوي ج ٤ ص ٣٣٦ .

٢ - التسهيل ج ٤ ص ١٣٧ .

٣ - المرجع السابق ج ٤ ص ٢٠٨ .

٤ - حاشية العلامة الصاوي ج ٤ ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

٥ - الجامع لأحكام القرآن طبعة دار الكتب ١٩٥٠ ج ٢٠ ص ١٢١ .

وهكذا فإن تفسير القلم في كتب التفسير لم يخرج عن هذين الوصفين . ولست بصدد تحقيق الصفات التي ذكرت للقلم على اعتبار أنه أحد المغيبات عنا ، فذلك فوق طاقة الانسان ، وفوق ما هو مطلوب منه من فهم عملي وسلوكي لأهداف القرآن الكريم . ولذا فأنى أميل الى اعتبار القلم المذكور في القرآن هو القلم العادي الذي هو آلة الكتابة . وهذا ما قاله المفسرون المحدثون . قال أحدهم « يقسم الله — سبحانه — بنون وبالقلم وبالكتابة . والعلاقة واضحة بين الحرف نون وبين القلم والكتاب . فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها وتوجيه اليها في وسط الأمة التي لم تكن تتجه الى التعليم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة ، فهو الوقت الذي كان دورها المقدر لها في علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها وانتشارها بينها » (١) .

أما القلم الذي ورد ذكره في الأحاديث السابقة ، والأقوال الصادرة عن بعض العلماء والمفسرين فأكل أمره الى الله ، فلعلة أحد مخلوقات الله المغيبة عنا ، التي لا نملك أدوات البحث عنها . ولذا أجعل القلم ضمن مصطلحات عالم الغيب ، وهو بهذا المعنى الاصطلاحي وارد من الأحاديث الشريفة ، أما ما ورد حوله في القرآن الكريم ، فهو — والله أعلم — لا يتجاوز معنى القلم المعروف على أنه آلة الكتابة .

اللوح المحفوظ :

هذا المصطلح الاسلامي الشائع ورد في آية واحدة فقط هو قوله عز وجل :

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢)

وسنبين فيما يلي مفهوم كلمة « لوح » في اللغة ، ودورها في حفظ الشيء المكتوب عليها ، ثم ما ذكرته كتب التفسير في مصطلح « اللوح المحفوظ » .

وفي كتب اللغة أن كل عظم عريض فهو لوح (٣) . واللوح كل صفيحة من صفائح الخشب . وعن الأزهري اللوح هو صفيحة من صفائح الخشب . والكتف اذا كتب عليها سميت لوحا . واللوح هو الذي يكتب فيه . والجمع منها ألواح . وأما ألا ويح فهو جمع الجمع

(١) في ظلال القرآن م ٨ ص ٢١٩ .

(٢) البروج ٢١ — ٢٢ .

(٣) فقه اللغة ٣٧ .

(١) . وألواح الجسد عظامه ما خلا قصب اليدين والرجلين . ويقال : الألواح من الجسد كل عظم فيه عرض . والمملوح العظيم الألواح . وأنشد : يتعبن أثر بازل ملوح (٢) .

وفد كان العرب يستخدمون العظام كأداة للكتابة في الجاهلية مع أدوات غيرها مثل الجلد والنبات والعشب والورق والأخشاب والحجارة وغيرها . وأشهر أنواع العظام التي كانوا يكتبون عليها الكتف والاضلاع وكان يكتب عليها الوحي (٣) .

و يؤيد ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لابنه عبد الله : يا عبد الله ائتني بالكتف التي كتبت عليها شأن الحجة بالأمس (٤) . ولم تكن الألواح مقصورة على العظم فقط ، بل ربما تكون من الخشب أيضا أو من الحجارة أحيانا . وقد ذكر الدكتور الأسد في كتابه أنه وجد كلمة « الألواح » تتردد فيما جمعه من أخبار عن مصادر الشعر الجاهلي . وقد وردت عدة شواهد تدل على أن كلمة لوح كانت أداة يكتب عليها . من ذلك ما ذكره عبيد الله بن أبي رافع قال : كان ابن عباس يأتي أبا رافع فيقول : ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا ؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها . ومنها ما قاله ابن أبي مليكة : رأيت مجاهدا يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح ، فيقول ابن عباس : اكتب . قال : حتى سألته عن التفسير كله (٥) .

من هذا العرض يظهر أن كلمة ألواح أو لوح بمعنى مكان الكتابة أو مجمع السطور كانت كلمة معروفة للعرب في الجاهلية . فاذا أضيفت الى كلمة محفوظ دلت على أن اللوح المحفوظ يفهم منها أنه المكان الذي حفظ فيه الشيء المكتوب . وبذلك يكون وصف القرآن بأنه قرآن كريم في لوح محفوظ يدل على المكانة التي أراد الله عز وجل أن يقدم بها القرآن الكريم للناس . ولكن مصطلح « اللوح المحفوظ » ورد في كتب التفسير على أنه مكان مخصص معين . وهو اللوح المحفوظ الذي في السماء (٦) . أو هو اللوح الذي في الهواء فوق السماء السابعة ، وهو محفوظ من الشياطين ومن تغير شيء منه طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وهو من درة بيضاء (٧) .

١ - لسان العرب مادة لوح .

٢ - المرجع السابق .

٣ - مصادر الشعر الجاهلي ص ٨٥ .

٤ - مصادر الشعر الجاهلي ص ٨٥ . والجد : هو الجذ بن قيس أحد كبار المنافقين .

٥ - المرجع السابق ص ٨٤ .

٦ - التسهيل ج ٤ ص ١٩١ .

٧ - حاشية العلامة الصاوي ج ٤ ص ٣٠٨ .

ويندرج هذا المصطلح ضمن الاطار العام الذي عاجلنا فيه مصطلحات الغيب . فنحن لا ننكر وجود لوح محفوظ عند الله وفي علم الله . ولكن الذي يمكن لنا أن نقرره بيقين أن الله عز وجل أراد أن يخبرنا بأن هذا القرآن الكريم محفوظ بحفظه له ، محفوظ من كل تحريف أو نقص أو تشويه أو تغيير . وقد تكفل سبحانه وتعالى بذلك بقوله الكريم

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١)

ولم تكن صورة الحفظ — في تصور الجاهليين — تتعدى كتابة الشيء في لوح أو على كتف مما كان يكتب عليه عهودهم . ومواثيقهم وموضوعاتهم الهامة .

الصراط المستقيم :

يتألف هذا المصطلح من كلمتين تعد الثانية منهما نعتاً للأولى . ولم يبحث العلماء في الكلمة الثانية . لأنها واضحة مفهومه ، اسم فاعل للفعل استقام . أما كلمة الصراط فقد اختلف حولها علماء اللغة ، فمنهم من رأى أنها عربية الأصل ، وأن الصراط سمي بهذا لأنه يسترط الناس أي يبتلعهم . وقيل للطريق صراط لأنه يسترطهم فيذهب بهم ، كما سمي طريقاً لطروقتهم الأزقة . واسترط معناه ابتلع ، ومنه السرطاط ، وهو طعام يبتلع من غير مضغ ، فكان الصراط سمي بذلك (٢) .

ولكن قوما آخرين رجحوا أنها كلمة معربة ، قال السيوطي في الاتقان : حكى النقاش وابن الجوزي أن الصراط الطريق بلغة الروم ، ثم رأته في كتاب الزينة لأبي حاتم . وأصل اللفظ في اللاتينية سطرطا ، أخذته اليونانية ثم دخل مع الحكم الروماني في الآرامية اسطرطي ، ومنها أخذته العرب (٣) .

ويبدو أن الصراط كلمة معربة . ويرجح هذا أن الكلمة لم ترد في الشعر الجاهلي بهذا اللفظ ، وإن كان هذا ليس سبباً كافياً ، فإن كثيراً من الكلمات المعربة قد ذكرت أحياناً في أشعارهم . والكلمة المعربة يمكن أن تنتشر على ألسنة الناس وتخضع للظواهر اللغوية التي تصطنعها اللغة . ولكن كلمة الصراط ظلت غريبة على ألسنة العرب قبل نزول القرآن وبعده ، ولم يذكرها اشتقاق في معاجم اللغة المعتمدة .

١ - الحجر ٩ .

٢ - الزينة ج ٢ ص ٢١٧ .

٣ - المرجع السابق .

ويؤكد هذا الرأي الدكتور حلمي خليل حيث يقول : « فمثلا لفظ الصراط هي من الألفاظ التي نطق بها القرآن الكريم والتي لا شك أنها عربت قبل الاسلام ، لا نجد لها مشتقات واضحة في اللغة العربية ، وذلك على الرغم من أننا نجدها في صيغة فعال العربية . وعلى العكس من ذلك نجد أن مادة (سطر) التي أقحمت فيها هذه اللفظة باعتبار أن الصاد هي السين المطبقة ، نجد لمادة (سطر) اشتقاقات كثيرة مما يؤكد أصلها في العربية . وتبقى بعد ذلك كلمة (الصراط) المعربة عن اللاتينية لتعلن عن أصلها الغريب عن اللغة العربية . أو كما يقول الأب هنري فليش أنها ليست سوى الصورة النهائية الاغريقية الآرامية للكلمة اللاتينية Strata (١) .

والصراط المستقيم مصطلح اسلامي مشهور . وقد ذكر في القرآن الكريم في خمس وأربعين آية كريمة . وقد صورته بعض كتب التفسير القديمة على أنه طريق بين النار والجنة . وأنه مقام فوق النار ، وأنه لا بد لكل انسان أن يجتاز عليه ، فمنهم من يمر كلمح البرق . ومنهم من يمر كطرف العين ، وكالريح ، والطير ، وأجاويد الخيل . ومن الناس من تزل قدمه عنه فيهوي في النار ، ومنهم من يتعثر مشيه ولا يصل شاطئ الأمان أو الطرف الآخر — حيث الجنة — الا بشق الانفس ، وأن ذلك يتم حسب أعمال الفرد في الدنيا . ولا شك أن هذا التصور مأخوذ من فهمهم للأحاديث النبوية الشريفة الواردة في شأن الصراط المستقيم . ومنها ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثم يضرب الصراط بين ظهرائي جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم أحد يومئذ الا بالرسول ، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم » رواه الشيخان (٢) . وفي حديث طويل في موضوع الشفاعة : « ونيكم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم . وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس في النار » (٣) وفي حديث آخر : « فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومكدوس في نار جهنم » (٤) . وهذه الأحاديث النبوية تتفق مع منهج القرآن الذي يصور للناس بعض أمور عالم الغيب تصورات مادية محسوسة تقر بها من أفهام الناس .

١ - المولد ، ص ١٤٠ .

٢ - التاج الجامع للأصول ج ٥ ص ٣٤٣ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - التسهيل ج ١ ص ٣٤ .

على أن مفهوم الصراط المستقيم الغالب في أذهان الناس الآن هو الطريق السوي ، وهو اتباع الدين الحق . وهو السير على هدى النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وأتباعه وإقامة أوامر الله عز وجل . وأن هذا الصراط في الدنيا هو الذي يؤدي الى ذلك الصراط المستقيم في الآخرة . فكأن الانسان مسافر بين الدنيا والآخرة على صراط واحد ممتد بين الحياتين . وهو صراط معنوي لا مادي . وقد تنبه الى هذا المعنى كثير من علماء التفسير السابقين وأفاضوا في شرح معنى الهداية ومعنى الصراط . وقد ورد في ذلك أن الصراط في اللغة هو الطريق المحسوس الذي يمشي عليه ثم استعير للطريق التي يكون عليها الانسان بين الخير والشر . ومعنى المستقيم القويم الذي لا عوج فيه .

فالصراط المستقيم اذن هو الاسلام . وقيل القرآن . والمعنيان متقاربان لأن القرآن تضمن شرائع الاسلام . وكلاهما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) . وفي تفسير آخر جاء بعد تحليل كلمة الصراط من ناحية لغوية : المراد به طريق الخير وهي الملة الخفيفة السمحة المتوسطة بين الافراط والتفريط (٢) . وفي ظلال القرآن ، قال عند تفسير قوله تعالى «اهدنا الصراط المستقيم» : وفقنا الى معرفة الطريق المستقيم الواصل ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته . فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة الهداية والرعاية والرحمة . والتوجه الى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحدة المعين . وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه . فالهداية الى الصراط المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين وهي في حقيقتها هداية فطرة الانسان الى ناموس الله الذي ينسق بين حركة الانسان وحركة الوجود كله في الاتجاه الى الله رب العالمين (٣) . وفي تفسير المنار : الصراط المستقيم هو الاعتدال في الأخلاق والأفكار والأعمال (٤) .

وتلاوة آيات الله عز وجل التي ذكر فيها الصراط المستقيم توضح أن المراد بالصراط هو طريق الحق والخير والايمان . من ذلك قوله تعالى :

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٥)

(١) التسهيل ج ١ ص ٣٤ . وحاشية العلامة الصاوي ج ٤ ص ٣٧٦ . والجواهر الحسان ٢٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٤ .

(٣) في ظلال القرآن م ١ ص ٢١ .

(٤) تفسير المنار ج ٢ ص ٤ .

(٥) الفاتحة ٦-٧ .

وقوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ^(١)

وقوله تعالى

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٢)

وقوله تعالى

قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(٣)

وكما يبدو واضحا من هذه الآيات الكريمات أن الصراط المستقيم هو الدين القيم .
وعلى هذا يبقى الصراط المستقيم واحد من أمور عالم الغيب التي لا يستطيع المسلم أن
يعطلها نظرا لما ورد فيها من أحاديث شريفة ، روتها كتب الصحاح ، ولا أن يشبهها .
وحسبه أن يعلم أن الله عز وجل يقرب له المعاني في حدود ما يعرفه في حياته الدنيا . والله عز
وجل أعلم بما خلق . وإيماننا بأن الصراط المستقيم هو دين الله الحق . هو الذي يهدينا في
سلوكنا وعملنا — في هذه الحياة الدنيا — الى الصراط المستقيم .

الجنين :

كلمة الجن كلمة عربية الاشتقاق . مأخوذة من جَنَّ الشيء يَجُنُّه جُنًّا ستره . وكل
شيء ستر عنك فقد جن عنك . وجنه الليل يجنه جُنًّا وجنونا^(٤) ، قال الشاعر الهذلي^(٥) :

وماء وردت على جفنه وقد جنه السدف الأدهم

وجن الليل وجنونه وجنائه : شدة ظلمته وادهمامه . قال الهذلي^(٦) :

حتى يجيء وجن الليل يوغله والشوك في وضع الرجلين مركز

١ - آل عمران ٥١ .

٢ - آل عمران ١٠١ .

٣ - الأنعام ١٦١ .

٤ - لسان العرب مادة جنن .

٥ - المرجع السابق .

٦ - المرجع السابق .

وقال دريد بن الصمة (١) :

ولولا جَنَانُ الليل أدرك رَكْضُنَا بذِي الرَّمْثِ والأرطى عِيَاضَ بَنٍ ناشب
فتكنا بعبد الله خيرَ لداتِهِ ذَوَابَ بَنٍ أَسْمَاءَ بن بدر بن قارب

وعلى هذا الأصل سمي الولد الذي لا زال في بطن أمه جنينا لأنه لم يظهر بعد . وسمي القلب بالجنان ، والترس بالمجن لأنه يوارى حامله ويستره . وكذلك سمي القبر بالجنن لأنه يستر الميت . قال الشاعر (٢) :

ما ان أبالي اذا مات ما فعلوا أحسنوا جَنَنِي أم لم يُجِنُونِي
وقال الأعشى في المعنى نفسه (٣) :

وهالك أهل يُجِنُونُهُ كآخِر في أهله لم يجن

وبهذا علل أصحاب المعاجم تسميته الجن : قال صاحب اللسان : وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم . وقال ابن سيدة : الجن نوع من العالم سمو بذلك لاجتنانهم عن الأبصار ، ولأنهم انجسوا عن الناس فلا يرون . وكذلك قال الجوهري (٤) .
وقد آمن عرب الجاهلية بوجود الجن ، وتحدثوا عنه كثيرا في أشعارهم وأخبارهم ، وسموا الانسان المختلط مجنونا ، ظانين أن جنا قد استولى عليه وذهب بعقله (٥) .

قال مدرك بن حصين (٦) :

ويحك يا جني هل بدا لك أن ترجعي عقلي فقد أنى لك
ومن هذا القبيل أيضا إيمانهم بشياطين الشعراء الذين يلهمونهم القول الرائع والمعنى القريب . قال بدر بن عامر (٧) :

١ - الأصمعيات ص ١١٣ .

٢ - لسان العرب مادة جنن .

٣ - ديوان الأعشى ، ص ١٨ .

٤ - لسان العرب مادة جنن .

٥ - أساس البلاغة ج ١ ص ٩١ .

٦ - أساس البلاغة ج ١ ص ٩١ .

٧ - المرجع السابق .

ولقد نطقت قوافيا انسية ولقد نطقت قوافي التجنين

وقد علل الجاحظ لذيوع الشعر المتصل بالجن تعليلا حسنا بقوله : « وما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومد لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار الا اعرابيا مثلهم والا غيباً لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق والشك . واما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر . فالرواية عنده كلما كان الاعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثه أكثر ، فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزوجها » (١) .

وربما كان الجاحظ يريد بذلك نفي وجود عالم الجن كما ذكر عن رأى المعتزلة في ذلك . الا أن هذا النص ، يثبت من جهة أخرى إيمان العرب بوجود عالم الجن وحديثهم عنه . ولا يتسع المجال هنا لذكر كل الشعر الذي ورد فيه ذكر الجن والغيلان والسعالي والأغوال . ونكتفي بالقول إن عالم الجن عالم كائن حقيقة وأن القرآن الكريم عندما ذكره كان يخاطب الناس عن عالم أحسوا به وشعروا بوجوده ، وتصوروا قدرته على التشكل والتأثير في حياة الانسان .

والجن من عالم الغيب ، لأنه عالم مغيب عن الانسان . وهو صنف من الخلق ذكر في القرآن الكريم . وقد حدثنا القرآن انهم يشاركون الانس في سكنى هذه الأرض . قال تعالى :

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَكِهِةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢)

والخطاب هنا للإنس والجن (٣) . وهم خلق مكلفون بالعبادة قال تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٤)

وبناء عليه فان منهم المسلم ومنهم الكافر

١ - الحيوان .

٢ - الرحمن ١٠ - ١٣ .

٣ - التسهيل ج ٤ ص ٨٣ .

٤ - الذاريات ٥٦ .

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ^(١)

وفي هذه السورة نفسها يقول عز وجل على لسان الجن :

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ^(٢)

وفيها أيضا يقول سبحانه وتعالى :

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا
رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ^(٣)

وقد تحدث الأستاذ عبد الرزاق نوفل في كتابه « عالم الجن والملائكة » عن هذا العالم فقال : « إلا أن هناك من العوالم ما تعتبر مجهولة تماما للانسان . ومن ضمن هذه العوالم المجهولة عالم الجن وعالم الملائكة (٤) . وقد حاول هذا الباحث أن يستقصي آخر ما وصلت اليه البحوث العلمية التي قررت أن مخلوقات أخرى — غير الانسان — تسكن هذا العالم الذي نعيش فيه ، يقول :- « وكهذا يقرر العلم في السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، وبعد أن اتسعت دائرة العلوم وتقدمت وسائل البحث أنه يوجد في الكون عالم آخر تسكنه مخلوقات من مادة ذات درجة حرارة مرتفعة ، وبذلك فهي من نار .. فهل هو عالم الجن الذي ذكره القرآن الكريم » (٥) .

وقد أثار عالم الجن الباحثين قديما وحديثا . فمنهم من أنكره واعتبر ذكره في القرآن الكريم دليلا على أنه فكرة الشر الكامنة في النفس الانسانية ، وتقابلها فكرة الخير . وهذا الفريق يرى أن الشيطان اما هو وساوس النفس ودوافع الشهوة والطمع والغضب والخديعة . وقد تبني بعض المعتزلة هذا الرأي قديما (٦) . واستندوا في رأيهم على فهمهم الخاص لحديث النبي عليه السلام « ان الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق (٧) . وقد ارتآه

١ - الجن ١-٢ .

٢ - الجن ١١ .

٣ - الجن ١٤-١٥ .

٤ - عالم الجن والملائكة ٩ .

٥ - المرجع السابق ١٦ .

٦ - حاشية العلامة الصاوي ج ١ ص ٢٢ .

٧ - صحيح البخاري ج ٣ ص ٦٤ ، وج ٤ ص ١٠٠ ، ص ١٥٠ ، وج ٨ ص ٦٠ .

أيضا فريق من العلماء والباحثين المعاصرين وليس من مهمة هذا البحث تفصيل القول في حجج كل فريق . ولكنني أود أن أذكر بأن القرآن أقر ما كان معروفا في الحياة الجاهلية من الجن ، وتأثيره في الانسان . وأن الحقائق العلمية المعاصرة تثبت أيضا وجود عالم آخر غير عالم الانسان يعيش في هذا العالم ، وهو عالم الجن .

والذي يهمنا في المقام الأول أن كلمة الجن استخدمت في القرآن الكريم بالمعنى الذي عرفت به في الشعر الجاهلي .

ابليس :

كلمة ابليس علم على واحدٍ هو من الملائكة وظيفته ومن الجن نسباً وأصلاً ، عصى ربه عز وجل ، فطرده الله من رحمته ، وأخرجه من جنته ، وأسكنه هذه الأرض ، التي سكنها الانسان أيضا ، فصار كل منهما عدوا للآخر ، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد عرضت قصته في سبعة مواضع من القرآن الكريم في سور البقرة والاعراف والحجر والاسراء والكهف وطه ، وورد ذكره في موضعين آخرين في سورتي الشعراء وسبأ . ومما يدل على أنه من الملائكة قول الله عز وجل :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١)

ومما يدل على أنه من الجن قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٢)

فما الملائكة ؟ وما الجن ؟ ومن أي خلق منهما يكون ابليس ؟ . أما الملائكة فسوف يأتي الحديث عنهم بعد قليل . وأما الجن فقد سبق توضيح حقيقتهم ، وأما ابليس فهو أبو الجن (٣) . وقال بعض العلماء أنه أبو الشياطين — وهم فرقة من الجن لم يؤمن بها أحد ، وأنه

١ - البقرة ٣٤ .

٢ - الكهف ٥٠ .

٣ - حاشية العلامة الصاوي ج ١ ص ٢٢ .

كان بين الملائكة ، وأن الاستثناء في الآية الكريمة — من سورة البقرة السابقة — منقطع .
وابليس ليس من الملائكة (١) . وجاء في الكشف لما اتصف ابليس بصفات الملائكة جمع
معهم في الآية (٢) . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ، ولكنه كان يلي شيئا من أمر السماء
(٣) .

وأقول إن ابليس كان من الملائكة من حيث وظيفته ووظيفتهم . فالملائكة صنف من
الخلق اختصهم الله عز وجل بوظيفة أو وظائف تتفق مع خصائص خلقهم . وكلمة الملائكة
— كما سنفصل القول فيها بعد قليل — تحدد تلك الوظيفة وليست تحمل خصائص ذلك
الصنف من الخلق . ولما كان ابليس أهلا للقيام بتلك الوظيفة كان من الملائكة ، ولما فقد
مؤهلاته طرد من وظيفته وفقد مكانته . وهذا لا يتنافى مع كونه — في أصل خلقته — من الجن

وفيما يتعلق باشتقاق هذا الاسم انقسم العلماء والباحثون الى فريقين :
فريق يرى أنه اسم أعجمي في الأصل . وهذا رأي أبي عبيدة (٤) من العلماء القدماء ،
ورأي بعض الباحثين في اللغات من المحدثين الذين يرون أن الكلمة دخلت محرفة من
اليونانية ديابولوس ، وهذا الرأي نفسه ذكر في البحوث القديمة . فقد جاء في المعجم الكبير أن
العرب حذف (ديا) في أول الكلمة وتوصلوا للنطق بالسكن بزيادة الألف في أوله ، وأنه
لم يرد ذكره في المعاجم الآرامية والسريانية . وقد يكون العرب أخذته من اليونانية مباشرة
باتصالهم بنصارى العرب الموالين للكنيسة البيزنطية كما أشار اليه جيفري ٤٧ - ٤٨ هـ .
(٥) .

وقد تعرض الأستاذ العقاد في كتابه « ابليس » لهذه الكلمة ، وناقش آراء علماء الغرب
هؤلاء فقال : « ويرى بعض الغربيين أن الكلمة في أصلها يونانية من كلمة « ديابولوس
Diapolos » ، التي تفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين ، كما تفيد معنى الوقعة ،
وأصلها في اليونانية من (ديا Dia) بمعنى أثناء ، و (بالين Ballein) بمعنى يقذف أو يلقي .
ومعنى الكلمتين معا قريب من معنى الاعتراض والدخول بين الشيئين أو قريب من ثم الى

١ - حاشية العلامة الصاوي ج ١ ص ٢٢ .

٢ - الكشف .

٣ - الزينة ج ٢ ص ١٩٢ .

٤ - المرجع السابق ص ١٩٢ .

٥ - هذه الآراء ساقها محقق كتاب الزينة ج ٢ ص ١٩٣ .

معنى الوقیعة» (١) ویضی العقاد معلقا على هذا الرأي ... «وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلین أن كلمة دیفل Devil أي الشیطان فی اللغات السکسونیة مأخوذة من فعل الشر Do-evil أي من كلمة دو یعنی یفعل ، وكلمة ایفل بمعنی الشر . وقد أجمع اللغویون والدینینون على نبذ هذا التركيب مع أنه أقرب الى صفة الشیطان من الصفة التي توحی بها الكلمتان بعد التمحّل والاعتساف» (٢) .

وذهب فريق آخر أن الكلمة عربیة مشتقة من أبلس الرجل اذا انقطع ولم تكن له حجة (٣) . وقيل مشتق من أبلس ابلاسا بمعنی بلس . وفي معاجم اللغة أبلس الرجل قطع به ، وأبلس سكت ، وأبلس من رحمة الله أي یئس وندم ومنه سمي ابليس وكان اسمه عزازیل ، وسمي أيضا لأنه أبلس من رحمة الله أي أو یس (٤) . و يقال ناقة مبلّاس لا ترغو من شدة الضبعة . وقد أبلست ومنه أبلس فلان فهو مبلّس اذا سكت من یأس (٥) . ومن هذا الفريق الثاني الاستاذ العقاد الذي ناقش آراء من زعموا بعجمتها ثم قرر عروبة الكلمة فی قوله : «ولسنا على یقین من انقطاع الصلة بین الكلمة الیونانیة والكلمة العربیة . ولكننا على یقین من أن شخصیة ابليس تحتاج ، بل تتوقف على الدلالة التي تستفیدها من مادة الابلاس ، أي فقد الرجاء . فان ضیاع الأمل ألزم صفات ابليس على ألسنة الخاصة والعامة ، وليس أشهر من المثل الذي یضرب بأمل ابليس فی الجنة مرادفا لمعنی الأمل الضائع كل الضیاع . وقد فرق هذا المعنی بین كلمة ابليس وكلمة الشیطان فی ملامح شخصیة . فهذا قد ضیع الحق وهذا قد ضیع الرجاء . وكذلك فرقت بینهما شروح الفقهاء وفرقت بینهما الدلالة الملموحة بین الشیطنة والابلاس (٦) .

وأعتقد أن الرأي الثاني هو الأقرب الى الصواب لعدة أسباب منها :

— أن الأصل فی القرآن الکریم أنه عربی اللسان .

— ومنها أن مادة الكلمة واشتقاقاتها وردت فی القرآن الکریم . فقد وردت فیہ کلمات

(١) ابليس ص ٤٤ .

(٢) ابليس ص ٤٤ .

(٣) الزينة ج ٢ ص ١٩٣ .

(٤) لسان العرب م ٦ ص ٢٩ .

(٥) أساس البلاغة ج ١ ص ٤٢ .

(٦) ابليس ص ٤٤ .

يبلس ومبلسون ومبلسين في عدة مواضع وفي سور مختلفة منها قوله تعالى :

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ^(١)

وقوله تعالى :

حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ^(٢)

وقوله تعالى :

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ ^(٣)

— ومنها أن العرب استعملوا هذا المعنى في اشعارهم ، فقد ورد من في أراجيزهم ^(٤) :

وعرفت يوم الخميس الأخماس وقد نزت بين التراقي الانفاس
وفي الوجوه صفرة وابلاس من يرد الموت وقد هاب الناس

— ومنها أن ما ورد من شعر في هذه الكلمة ، وما ورد من آيات القرآن الكريم فيما وُصِفَ ابليس ، يتفق في المعنى من حيث دلالة هذه الكلمة على ما كان معروفًا على ألسنة الناس . فابليس في آيات القرآن الكريم يائس من رحمة الله ، ومطروود منها ، وقد قطع به ، وأهبط الى الأرض ، وسيظل فيها عدوًّا لله وللإنسان الى يوم الدين . ولتقرأ هذه الآيات الكريمات :
قال تعالى :

قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ
كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ
طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَانْجِرْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ

(١) الروم ١٢ .

(٢) الأنعام ٤٤ .

(٣) الروم ٤٩ .

(٤) الزينة ج ٢ ص ١٩٣ .

لَا غُورِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (١)

لهذه الأسباب جميعها أرحح أن كلمة ابليس كلمة عربية الاشتقاق . والكلمة بعد ذلك صارت في المفهوم الاسلامي مصطلحا شائعا مشهورا ، وهي من المصطلحات الجديدة التي صنعها القرآن الكريم بآياته الكريمة .

ابليس والشیطان :

ابليس في القرآن الكريم هو شيطان . ولكن الشيطان في القرآن الكريم ليس مقتصرا على ابليس . ذلك أن ابليس هو الاسم العلم على ذلك المخلوق الذي هبط الى الأرض بعد أن عصى ربه . والشيطان — في استعمال القرآن — وردت صفة لذلك المخلوق ، وصفة أيضا لكل من يقوم بعمله سواء أكان من الجن أم من الانس . والآيات الكريمة الواردة في قصة ابليس تدل دلالة قاطعة على أنه هو الشيطان .. وأن هذه الكلمة الأخيرة صفة لزمته الى يوم الدين . قال تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ اسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ
الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَآذَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا
أهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢)

وقال تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا
يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى
إِنَّ لَكَ إِلَّا أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى

١ - سورة ص ٧٥-٨٣ .

٢ - البقرة ٣٤-٣٦ .

فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَّا يَبْلَى ﴿١٢٥﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَقَا يَحْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢٦﴾ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ
فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٧﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١﴾

والذي ينعم النظر في قوله تعالى « ان هذا عدو لك ولزوجك » يجد أن الإشارة فيها الى ابليس ، ثم عندما ينظر في قوله تعالى « فوسوس اليه الشيطان » يتأكد أن المقصود بالشيطان هو ابليس . ولكن الشيطان مستعملة على أنها صفة في المعنى لذلك العلم المعروف بابليس .

هذا وقد أجمع العلماء المسلمون وغير المسلمين من المستشرقين أن كلمة الشيطان من اشتقاق عربي . وإنما اختلفوا في أصل اشتقاقه فقال قوم « ان الشيطان فيعال من شطن اذا بعد فجعل النون أصلاً . وقولهم الشياطين دليل على ذلك . والشيطان كل عاتٍ متمرد من الجن والانس والدواب . وتشيطان الرجل وشيطان اذا صار كالشيطان وفعل فعله » (٢) . وأصل الشاطن البعيد عن الحق . وتشطن الدار شطونا بعدت . وغزوة شطون كذلك . والشيطان البعيد . ونوى شطون بعيدة شاقة (٣) . قال النابغة (٤) :

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانث والنفؤاد بها رهين

والشطن مصدر شطنه يشطنه شطنا خالفه عن وجهته ونيته . والشاطن الخبيث . ولعل الشيطان وصف بهذا الوصف لأنه يبعد الانسان عن نيته بخبثه ووسوسته . قال محمد بن اسحق : انما سمي شيطانا لأنه شطن عن أمر به (٥) . قال عدي بن الرقاع (٦) :

كلما ردّ ناشطاً عن هواه شطنت ذات ميعة حقباء

١ - طه ١١٦ - ١٢٣ .

٢ - لسان العرب مادة شطن .

٣ - المرجع السابق .

٤ - ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٠٤ .

٥ - الزينة ج ٢ ص ١٧٩ .

٦ - المرجع السابق .

وفي جمهرة اللغة أن النون فيه أصلية من شطن شاطن أي بعد عن الخير (١) . واستأنسوا بقول أمية بن أبي الصلت يذكر سليمان النبي عليه السلام (٢) :

أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقي في السجن والاغلال

وقال قوم آخرون أنه اشتق من شاط يشيط أي احترق من الغضب . فيكون على وزن فعلان نحو حيران وهيمان . وهي أمثلة في المعتل الأجوف . وفي جمهرة اللغة : « قال قوم من أهل اللغة اشتقاق الشيطان من شاط يشيط وتشيط اذا لفحته النار فأثرت فيه . والنون زائدة والياء فيه أصلية ، قال الراجز أبو النجم : كشائط الرب عليه الاشكل (٣) . وهو هنا يصف فحلا من الابل قد جسد ولبد خطره على فخذه فشبهه برب السمن الذي نالت منه النار فاسواد (٤) . وفي لسان العرب « وقيل الشيطان فعلان من شاط يشيط اذا هلك واحترق مثل هيمان وغيمان من هام وغام . قال الأزهري : والأول — يعني اشتقاقه من فيعال — أكثر (٥) .

وأما المحدثون من المستشرقين فقد انقسموا فريقين أيضا . فبينما يرى بروكلمان أن الشيطان من شطن على وزن فيعال مثل هيذام وهيذار وهيصار من أمثلة الأسماء الثلاثية الصحيحة . نجد أن جيفري يحتاج على ذلك و يقول أن هذه الأسماء نعوت نادرة ولا يقاس بها شيطان بالمعنى الذي ورد في القرآن (٦) .

وربما كان أصحاب الرأي الأول أقرب إلى الصواب . فالشيطان من فيعال أعجب اليّ منه على فعلان . وأرجح هذا الرأي لعدة أسباب :

- ١ - ورود الكلمة في الحديث الشريف من شطن يشطن في قوله عليه السلام : « كل هوى شاطن في النار » .
- ٢ - أن وصف عمل الشيطان في القرآن الكريم هو اغواء الناس وابعادهم عن طريق الحق والخير ، وإيقاع العداوة والبغضاء بينهم ، وصدّهم عن سبيل الله . قال تعالى :

١ - جمهرة اللغة ج ٣ ص ٥٨ .

٢ - ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٥١ ، وانظر الزينية ج ٢ ص ١٧٩ .

٣ - جمهرة اللغة مادة شطن .

٤ - المرجع السابق .

٥ - تهذيب اللغة : مادة شطن .

٦ - الزينية ج ٢ ص ١٨٠ .

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ^(١)

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
مَا زَكَّيْنَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ^(٢)

وقال تعالى :

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾
مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾
مِنَ الْخَنَّاسِ وَالنَّاسِ ^(٣)

٣ - أن أكثر العلماء وأصحاب المعاجم قد رأى هذا الرأي ورجحه .

٤ - ان اشتقاق الشيطان من شطن بمعنى بعد عن الخير ومال عن طريق الحق أقرب الى
الحقيقة من اشتقاقه من شاط بمعنى احترق . ذلك أن عمل الشيطان هو ابتعاد الناس
عن الحق . والذي يبعد الناس عن الحق والخير يكون هو نفسه بعيدا عنه . أما مسألة
الاحتراق فهي موضوع مؤجل الى يوم القيامة حيث يحاسب كل مخلوق على ما قدمت
يداه .

وقد سبق القول إن الشيطان مصطلح معروف مشهور قبل نزول القرآن . والعرب يقولون
لكل منفرد بقوته وجلده . قوى مستقل بنفسه ، منهمك في أمره شيطان ^(٤) . وقد سمي
العرب بعض رجالهم المعروفين بهذه الصفات شيطانا ، ومنهم شيطان بن مدلج من بني

١ - سورة المائدة ٩١ .

٢ - سورة النور ٢١ .

٣ - سورة الناس كلها .

٤ - التزيينة ج ٢ ص ١٧٩ .

جشم . وشيطان بن الحكم ، والشيطان بن بكر بن عوف من أجداد علقمة ، وبنو شيطان من كندة (١) .

وقد وردت هذه الصيغة ذاتها في أشعارهم ، ومن ذلك قول ضابيء بن الحارث يصف ناقته (٢) ...

كأن بها شيطانةً من نجائها إذا واكف الذفرى على الليت شُلْشِلَا
هأنشدها لرجل يذم امرأته (٣) ...

عن جرد تحلف حين احلف كمثل شيطان الحمام أعرف
وقال شاعر آخر يصف ناقته (٤) :

تُلاعب مثني حُزْمِي كأنه تمعُّج شيطان بذي خِرْعٍ قفر

العفريت :

أما العفريت فقد ورد ذكره في القرآن الكريم في آية واحدة فقط هو قوله عز وجل

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٥)

وواضح من نص الآية الشريفة أن العفريت أيضا من الجن ، كإبليس والشيطان ، ولكن يبدو أن هذا العفريت هو من الجن المسلمين . وقد سبق أن الجن منهم المسلمون ومنهم الكافرون . وما دام العفريت من الجن فهو إذن يقوم بأعمال لا يستطيع الانس أن يقوموا بها . والعفريت الذي ذكر في الآية الشريفة من الجنة الأشداء كما ذكر في تفسير الآية (٦) .

وقد حاول علماء اللغة أن يجدوا الأساس اللغوي الذي أخذ منه لفظ « عفريت » وأن يربطوا بينه وبين القوة والشدة . جاء في أساس البلاغة ما على عفر الأرض مثله أي ما على

١ - المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨١ .

٢ - الأصمعيات ١٨١ .

٣ - لسان العرب مادة شطن والشيطان هنا بمعنى الحية التي لها عرف قبيح .

٤ - الزينة ج ٢ ص ١٨١ .

٥ - النمل ٣٩ .

٦ - حاشية العلامة الصاوي ج ٣ ص ١٩٦ .

وجهها (١) . وقال ابن مالك القيني : أنا حديا كل من يشي بظهر العفر ، وأتانا عن عفر أي بعد حين (٢) . وقال أبو عبيدة : هو من كل شيء المبالغ فيه . يقال فلان عفرية نفرية وعفارية وهو مثل عفريت (٣) . قال ابن قتيبة : العفرية الموثق الخلق الشديد المصحح وأصله العفر زيدت الهاء والياء . قال وأصله من العفر وهو التراب ومنه يقال عافره اذا صارعه كأن أحدهما يلقي الآخر بعفر الأرض . ويقال رجل عفر — بتشديد الراء — ويقال أشجع من ليث عفرين (٤) . وقال الأستاذ حسين الهمداني شارح كتاب الزينة ومحققه : « وقد صعب على أهل النحو اشتقاقه من عفر الأرض ، وكذلك اشتقاقه من عافره اذا صارعه وألقاه بالعفر ليس بشيء . وإذا كان معنى العفريت الموثق الخلق المبالغ في جسمه كما ذكره ابن قتيبة فالأقرب الى هذا المعنى اللفظ البهلوي « آخرتيان » ومنه بالفارسية الحديثة « آفريده » أي المخلوق . وهذا رأي جيفري وفولرس (٥) .

وأعتقد أن العفريت مصطلح اسلامي جديد ، استعمله القرآن الكريم وأشاعه في الناس بعد ذلك . وربما كان الأقرب الى حقيقة أصل الكلمة أنها معربة عن لغة أخرى قد تكون هي الفارسية كما ذكر الأستاذ الهمداني . ولو كانت الكلمة عربية الأصل لوردت في أشعار العرب كثيرا كما وردت كلمة الشيطان ، خاصة وأن الشعر الجاهلي حافل بأخبار الغزو والحرب والقتال والانتقال مما يتلاءم مع معنى العفريت ، ويفتح مجالا كبيرا للحديث عنه .

الملائكة :

الملائكة خلق من خلق الله وجزء من عالم الغيب الذي أمر الانسان بالايان به كما تنص الآيات الكريمة . قال تعالى :

ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ ۚ وَكُتِبَ عَلَيْهِ ۚ وَرُسُلُهُ ۚ (١)

(١) أساس البلاغة ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الزينة ج ٢ ص ١٩٠ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق .

(٦) البقرة ٢٨٥ .

ويمثل الملائكة في نظر المؤمنين جانب الخير والرشد في مقابل الشياطين الذين يمثلون جانب الغي والضلال . وفي البحث المستمر عن أسرار القرآن الكريم الذي لا تنتهي عجائبه وجد... « أن لفظ الملائكة قد تكرر في القرآن الكريم ثمان وستين مرة وهو نفس (١) العدد الذي تكرر فيه لفظ الشيطان . وأن عدد ما ورد في الآيات الشريفة من مختلف صور الملائكة كملك وملكاً وملكين وملائكة هو ثمان وثمانين مرة ، وهو نفس العدد أيضاً الذي تكرر فيه مختلف صور لفظ الشيطان كالشياطين وشياطينهم » (٢) .

وقد استقر في عقيدة المسلمين أن الملائكة خلق من نور، اختارهم الله عز وجل ليكونوا رسله الى الناس . وفي كتب التفسير قيل إن الملائكة أجسام لطيفة هوائية خلقت من النور، وتقدر أن تتشكل بأشكال مختلفة مسكنهم السموات . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أظن السماء وحق لها أن تنط ما فيها موضع أربع أصابع الا وملك واضع جبهته لله ساجدا » (٣) .

وفي كتب الفقه والتفسير تفصيلات واسعة لأعمال الملائكة ووظائفهم وأعمالهم ومساندتهم لأهل الحق في الدنيا . وهناك نجد ذكر أشهرهم ممن ذكروا في القرآن بأسمائهم كجبرائيل وميكائيل ومالك عليهم السلام أو بصفاتهم ووظائفهم كنافخ الصور وملك الموت .

وقد اشتقت كلمة مَلَك من أصل غير الذي اشتقت منه كلمة مَلِك ، مع أن بعض الدارسين يرى أن الكلمتين من أصل واحد ، ويقولون في ذلك أن الملائكة سموا بذلك لأن الله خلقهم ووكل كل ملك فيهم بأمر من الأمور . واستحفظه واسترعاه ، وجعل تدبيره اليه ، وملكه منه ، فسمى ملكاً ، وفتحت اللام منه فرقا بينه وبين الملك البشري ف قيل للبشرى مَلِك وللروحاني مَلَك (٤) .

والحق أن الطريق التي سلكته كل كلمة في اشتقاقها تختلف عن الأخرى . فالملك

(١) هذا خطأ شائع وقع فيه المؤلف ، ويقع فيه كثيرون ، فليس صحيحاً أن نقول : نفس العدد ونفس الصفحة ونفس الكتاب . بل الصحيح أن نقول : العدد نفسه . والصفحة نفسها ، وقرأت الكتاب نفسه .

(٢) عالم الجن والملائكة ص ١٠٥ .

(٣) تفسير الخازن ج ١ ص ٣٩ ، ومسنّد أحمد ج ٥ ص ١٧٣ .

(٤) الزينة ج ٢ ص ١٦٦ .

بكسر اللام من مَلَكَه يَمْلِكُه مُلْكًا وَمِلْكًا وَمَلَكًا . وقد فسر ابن سيدة بأنه احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به (١) .

أما الملك بفتح اللام فهو من أَلَك بين القوم اذا ترسل بينهم أَلَكًا وَأَلُوكًا . والاسم منه الأَلُوك وهو الرسالة . وكذلك الأَلُوكَة والمَأَلُوكَة ، والمَأَلُوك . فان نقلته بالهمزة قلت أَلَكته اليه رسالة ، والأصل أَلَلَكته فأخرت الهمزة بعد اللام وخففت بنقل حركتها على ما قبلها ، وحذفها . فان أمرت بهذا الفعل المنقول بالهمزة قلت أَلَكني (٢) . ومنه قول عمرو بن شاس (٣) :

أَلَكني الى قومي السلام رسالة بآية ما كانوا ضعافا ولا عزلا
وقول عدي بن زيد (٤) :

أبلغ النُعمانَ عني مَأَلُكا أنه قد طال حبسي وانتظار
وقال ابن الأنباري : أَلَكني إليه : كن رسولي إليه (٤) .

والمَلَك مشتق منه ، وأصله مَلَأك ثم خففت الهمزة بأن أَلَقيت حركتها على الساكن الذي قبلها فقليل مَلَك . وقال ابن بري : مَلَأك مقلوب من مَأَلك ومَأَلك وزنه مَفْعَل في الأصل من الأَلُوك . قال وحقه أن يُذَكَّرَ في فصل أَلَك لا في فصل مَلَك . وجمع مَلَأك ملائكة . ومنه قول أمية بن أبي الصلت (٥) :

وكان برقع والملائك حوله سدرتواكله القوائم أجرب
وقال علقمة بن عبدة يمدح الحارث بن أبي شمر الغساني (٦) :

ولست لأنسى ولكن لمألك تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

(١) لسان العرب م ٣ ص ٥٢٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

(٥) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٢٤ .

(٦) المفضليات ص ٣٩٤ .

وقد تابع المفسرون أقوال أصحاب المعاجم في هذا الاشتقاق . قال صاحب الكشف :
والملائكة جمع ملائكة على الأصل كالشمائل جمع شمائل ، والحاق التاء لتأنيث الجمع (١) .

ومما يؤكد اختلاف مصدر الاشتقاق في كل من الكلمتين ورود كثير من الشواهد
الشعرية في العصر الجاهلي في كل منهما . وقد أوردت آنفا بعض الشواهد على اشتقاق
الكلمة من الألوكة بمعنى الرسالة . وفيما يلي بعض الأمثلة الشعرية التي وردت فيها مادة
« مَلَكَ » وما اشتق منها ، قول علباء بن أرقم (٢) .

وأي مليك من مَعَدَّ عَلِمْتُمْ يعذب عبدا ، ذي جلال وذو كرم
أمن أجل كبش لم يكن عند قرية ولا عند أذوادٍ رِثَاعٍ ولا غَنَمٍ
وقول لبيد (٣) .

فاننع بما قسم المليك فانما قسم الخلائق بيننا علامها
وقول عمرو بن كلثوم (٤) ..
إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نُقِرَّ الذَّلَّ فينا
وقول عمرو كذلك (٥) .
فآبوا بالنساء وبالسبايا وأبنا باللوكة مصفدينا

ويتضح من ذلك أن لفظ الملائكة ليس مشتقا من المُلْكِ ، بل هو من الألوكة بمعنى
الرسالة . وهذا الاشتقاق يلقي ضوءاً على الدور الذي يقوم به الملائكة في أنهم رسل الله الى
الناس ، وأعتقد أن الملائكة بهذا اللفظ هي في الأصل لمهمة هذا الصنف من الخلق ، ثم
غلبت عليه حتى صارت علما له . والله وحده يعلم كيفية خلقهم ، وإن كانت الأخبار
المتواترة تقول إنهم خُلِقُوا من نور . وحتى لو كان الأمر كذلك فنحن لا ندرى شيئا عن حقيقة
هذا الخلق ، وإنما الذي نعلمه فقط أن الملائكة صنف من الخلق وَكَلَهُ الله عز وجل بمهمات

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٢٧ . وانظر تفسير الخازن ج ١ ص ٣٨ .

(٢) الأصمعيات ص ١٥٨ .

(٣) ديوان لبيد ص ٢٣٧ .

(٤) شرح المعلقات السبع ١٣٢ .

(٥) المرجع السابق ص ١٤٠ .

كثيرة وخطيرة تتناسب مع قدرتهم وفطرتهم التي فطرهم الله عليها . من تلك المهمات ما ذكر في القرآن الكريم مثل نقل الوحي ، ونصرة جند الله المؤمنين المجاهدين في سبيله ، ونفخ الصور عند الساعة وعند البعث ، وقبض الأرواح حين يجيء الموت ، وما الى ذلك من أعمال تتعلق بصلة الملائكة بالناس كالتعاقب على بني الانسان ، وقيام الملائكة بحفظ البشر بأذن الله ، كما يفهم من قوله تعالى

إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ^(١)

وما الى ذلك من أعمال أخرى .

أما من وردت أسماءهم من الملائكة مثل جبرائيل واسرافيل وميكائيل فانها من غير شك أسماء غير عربية في الأصل . ولكنها من الأسماء الأعجمية التي عربت وخضعت لخصائص الاشتقاق العربي حسب الرأي الشائع الذي يجعل العربي كل ما دار على ألسنة العرب ودخل في تراثهم .

ولقد درس الدكتور عبد الصبور شاهين هذه الأعلام الأعجمية وغيرها دراسة موفقة^(٢) . وفيما يتعلق بهذه الأعلام ، قال : « وأول الأمثلة التي نتناولها تلك الاعلام المنتهية بكلمة (ايل) مثل جبريل واسرائيل وميكائيل ، ولا شك أنها أعلام أجنبية ، أخذتها العربية عن اللغات السامية الأخرى ، وبخاصة العبرية . فنهاية هذه الاعلام (ايل) هي ما تستعمله العبرية ، والعربية الجنوبية القديمة (ال) بمعنى لفظ الجلالة وقد ركب معها في العبرية كلمات صدور ليصبح المركب علما على مسميات مختلفة . فالعلم (جبرال) مركب من « جبر » = رجل + كلمة أل = رجل الله . والعلم (ميكا ال) مركب من (مي) = من + كا = مثل أو شبيهه + ال = (من) (هو) مثل الله . وهو سيد الملائكة لدى بني اسرائيل . وهذا التركيب واضح أيضا في أعلام أخرى مستعملة في العربية منها (عزرائيل واسرافيل) . وكذلك العلم اسماعيل الذي يتكون في العبرية من الفعل يشمع + ال = أي يسمع الله . وقد ورد هذا العلم في العربية الجنوبية بنفس النطق . يسمع ايل . وصورته العربية كما نعرف اسماعيل . وانما نقول بأن هذه الاعلام بعناصرها ومركباتها أجنبية لأن ما تدل عليه من المعاني أساسا غريب عن الذوق الاسلامي . فالعرب في جاهليتهم

(١) سورة الطارق ٤ .

(٢) تراجع في شأن الألفاظ الأعجمية في القرآن الدراسة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الصبور شاهين في كتاب القراءات القرآنية

في ضوء علم اللغة الحديث .

واسلامهم لا يعرفون تسمية رجل الله أو شبه الله أو يسمع الله . وانما نقلوا هذه الاعلام بصيغتها دون ملح معانيها . والأسماء لا تعلق . والعرب من ناحية أخرى يسمون عبد الله ، ولا يسمون رجل الله كما ينفرون من تسمية شبيه الله » (١) .

الى جانب ذلك نؤكد أن هذه الأسماء أصبحت مصطلحات اسلامية بعد أن أوردها القرآن الكريم . ولا يخفى على كل مسلم اليوم معنى جبرائيل واسرافيل وميكائيل ، لأنها صارت ضمن مكونات العقيدة الصحيحة لدى كل مسلم .

١ - القراءات القرآنية ص ٣٩١ - ٣٩٢ . وانظر الزينة ج ٢ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

الفصل العاشر

دلالات جديدة في السياق القرآني

سميت هذا الفصل « دلالات جديدة في السياق القرآني » وأردت أن اعرض فيه بعض المصطلحات القرآنية التي صنعها القرآن الكريم ، ولم تكن معروفة من قبل . والمزج في التعرف إليها هو السياق القرآني الذي وردت فيه . وقد وجدت أن الآيات القرآنية . تضيف على بعض الكلمات دلالات جديدة لم تكن معروفة من قبل . وسوف نجد لأثر السياق في بيان الدلالة دورا ملحوظا في هذه المصطلحات . وفي هذا الفصل عالجنا مصطلحات : القرآن ، تلا وقرأ ، السورة ، والآية ، والتوكل والاستخارة ، والتوفيق ، والغيث والمطر ، والريح والرياح ، والحلف والقسم ، والقدرة والاستطاعة والطاقة ، والكسب والانفال والفيء ، والسعي ، وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال

القرآن :

وردت كلمة القرآن بهذه الصيغة في ثمان وخمسين آية في القرآن الكريم . ووردت كلمة « قرآنا » في عشر آيات ، وكلمة قرآنه في آيتين . وقد اجتهد العلماء في بيان أصل هذه الكلمة . فمنهم من قال إنه اسم مرتجل على الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم من قال إنها كلمة عربية . وأوردوا بعض الأدلة على الآراء التي ساقوها .

وقد عدد صاحب « مباحث علوم القرآن » هذه الآراء بالتفصيل . وذكر أسماء أصحاب كل رأي . ويمكن تلخيص الآراء التي ساقها بما يلي :

- ١ - القرآن اسم مرتجل جامد ليدل على اسم الكتاب الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم . ويستدل على ذلك بعدم ورود الكلمة في الشعر الجاهلي .
- ٢ - القرآن كلمة عربية الاشتقاق ، وهي إما أن تكون اشتقت من قرأ يقرى بمعنى جمع الشيء وضم بعضه الى بعض . وأما من قرأ يقرأ بمعنى تلا ، وسمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر (١) .

والأخير أقوى الآراء وأرجحها ، فالقرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾

(١) مباحث في علوم القرآن ص ١٨ - ١٩ .

(٢) القيامة ١٧ - ١٨ .

هذه سطور من كتاب «مباحث في علوم القرآن» لاحق فيه مؤلفه أقوال العلماء السابقين في اشتقاق لفظ القرآن ، وقد وضع فيه اختلافهم حول أصل هذه الكلمة . وأحب أن أورد بعض ما ذكرته كتب اللغة في معاني قرأ ، تمهيدا لعرض الرأي الذي ارتضيه مما سبق . وقد ورد عن العرب قولهم : قرأت الناقة والشاة بمعنى حملت ، وقرأ الشيء جمعه وضم بعضه الى بعض ، وقرأت الشيء قرآنا جمعته وضممت بعضه الى بعض ، ومنه قولهم ما قرأت هذه الناقة سلاقط ، وما قرأت جنينا قط أي لم تضم رحها على ولد (١) . وفي هذا المعنى يقول عمرو بن كلثوم (٢) :

ذراعي عيطل آدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا
وأرى أن القرآن كلمة عربية أصيلة ، مصدر من فعل قرأ . بالمعنيين المتقدمين وهي التلاوة وجمع الشيء بعضه الى بعض . والذي يقرأ آيات القرآن الكريم التي وردت فيها كلمة القرآن يلاحظ أن معنى كلمة قرآن تدور حول هذين المعنيين . وأوضح مثل على ذلك قوله تعالى

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)
فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (٣)

وفي تفسير هذه الآيات قالوا : « كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى اليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه الى استذكار الوحي فقرة فقرة في أثناء تلقيه ، وتحريك لسانه به ، ليستوثق من حفظه فجاءه هذا التعليم « لا تحرك به لسانك لتعجل به » ان علينا جمعه وقرآنه » جاءه هذا التعليم ليطمئن الى أن أمر هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن وجمعه وبيان مقاصده ، كل أولئك موكول الى صاحبه ، ودوره هو ، هو التلقي والبلاغ ، فيطمئن بالا ، وليلتق الوحي كاملا فيجده في صدره منقوشا ثابتا ، وهكذا كان » (٤) ويقول ابن كثير « هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في كيفية تلقيه الوحي من الملك . فانه كان يبادر الى أخذه ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل اذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن ييسره

(١) تاج العروس مادة قرأ ، واللسان كذلك مادة قرأ .

(٢) شرح المعلقات السبع ١٢٩ .

(٣) القيامة ١٦ - ١٩ .

(٤) في ظلال القرآن ٣٧٧/٨ ، وانظر تفسير القرطبي ، المجلد العاشر ، تفسير سورة القيامة ص ٦٨٩٧ .

لأدائه على الوجه الذي ألقاه اليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه» (١) .
ومثل هذا القول ذكره السيوطي في كتابه «لباب النقول في أسباب النزول» (٢) . وواضح
أن كلمة قرآنه الأولى في الآيات السابقة تعني جمعه وضم بعضه الى بعض وحفظه ، والثانية
تعنى قراءته كما أنزل عليك . وهذا قول معظم المفسرين الذين شرحوا تلك الآيات . وفي
كتاب آخر ذكر أسماء القرآن والسورة والآية قال « هو القرآن وهو الكتاب وهو الفرقان وهو
الذكر ، فالقرآن مصدر من قولك قرأ الرجل اذا تلا يقرأ قرآناً وقراءة ، وقال قتادة القرآن
معناه التأليف قرأ الرجل اذا جمع وألف قولاً ، وبهذا فسر قتاده قوله تعالى : « ان علينا جمعه
وقرآنه » أي تأليفه والقول الأول أقوى أن القرآن مصدر من قرأ اذا تلا . ومنه قول حسان
ابن ثابت يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً (٣)

ولا شك أن كلمة قرأ كانت معروفة في الوقت الذي نزل فيه القرآن ، سواء أكانت هذه
الكلمة عربية الأصل — وهي عربية كما سبق بيانها في معاجم اللغة — أم كانت مأخوذة
من أصل آرامي كما يرى صاحب مباحث القرآن (٤) متابعاً في ذلك عدداً من المستشرقين
منهم برجشتراسر وكرنكوو وبلاشير ، فان الكلمة عرفت واستعملت في لغة العرب ، وبها
نزل القرآن الكريم . وقد ذكرت الكلمة في آيات كثيرة بهذا المعنى منها قوله تعالى :

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ (٥)

وقوله تعالى

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (٦)

ويتبين مما سبق أن « القرآن » كلمة عربية وأنها مصطلح قرآني جديد ، حيث إن
العرب لم يعرفوا « القرآن » بهذا المعنى الذي حدده القرآن الكريم . ولا يدحض هذا الرأي

١ - تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٩ .

٢ - لباب النقول في أسباب النزول ص ٧٧٧ .

٣ - ديوان حسان ، ص ٢١٦ .

٤ - مباحث في علوم القرآن ص ٢٠ .

٥ - ناسرا ١٠٦ .

٦ - المعلق ١ .

قول الامام الشافعي أنه لو كان كذلك لكان كل شيء يقرأ قرآنا . فقد ثبت في هذا البحث أن القرآن الكريم كان يستعمل الكلمة في معنى معين فتصبح علما على ذلك المعنى . وبالتالي تصبح مصطلحا يشيع عند الناس . مثال ذلك البيت العتيق مصطلحا وعلما على المسجد الحرام . والمسجد الأقصى ، والمسجد الحرام ، وغيرها ، ومعلوم أن البيوت والمساجد كثيرة ، ولكن استعمال القرآن الكريم جعل من هذه الكلمات أعلاما على مسمياتها .

تلا - وقرأ :

وهنا ينبعث سؤال هو من طبيعة هذا البحث ، وهو ما الفرق بين معنى قرأ ومعنى تلا في القرآن الكريم . فقد وردت الكلمتان في آيات القرآن وهذا يؤكد أن لكل منهما معنى محددًا مختلفًا عن معنى الأخرى .

والذي أراه أن في تلا معنى أوسع من قرأ . فالتلاوة هي تدبر آيات الله وفهمها واستيعابها والعمل بها . بينما تقتصر قرأ على التعبد ، وحفظ الآيات وترديدها . وأن تلا خاصة بالقرآن الكريم وقرأ تستعمل في القرآن وغيره . ونستطيع أن نلمح هذا الفرق اذا وضعنا أمامنا قائمة بالآيات التي وردت فيها كل من الكلمتين ثم أجرينا مقارنة بينهما في المعنى . قال تعالى :

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ ۚ (١)

وقال تعالى

وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ إِن فَرِحَ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۚ (٢)

وقال تعالى

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ (٣)

وقال تعالى :

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٤)

(١) يونس ١٦ .

(٢) النمل ٩٢ .

(٣) البقرة ٤٤ .

(٤) البقرة ٢٥٢ .

وقال تعالى

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ^(١)

وهكذا تسيّر الآيات في هذه المعاني ، و يلاحظ القارئ أن معنى التلاوة هنا هو التلاوة المفسّرة التي يعقبها فهم عميق وعمل بآيات الله وأحكامه . وقد ورد عن بعض المفسرين اشارة الى هذا الفهم . قال أحدهم في تفسير قوله تعالى « والذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته » أنهم يتبعونه حق اتباعه ^(٢) . وهذا المعنى متوافق مع المعنى اللغوي لكلمة تلا وهو تبع . ففي معاجم اللغة تلوت الشيء أتלוه اذا تبعته ^(٣) . وأتلى فلان على فلان اتبع عليه ^(٤) . ومن هذا المعنى أخذ تعبير تلوت القرآن تلاوة اذا قرأته كأنك اتبعت آية في أثر آية . وأنشد ثعلب :

واستمعوا قولاً به يكوى النطف يكاد من يتلى عليه يُجْثَأُفُ
وشبيه بهذا المعنى قوله عز وجل

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا^(٥)

ولا أشك أن التلاوة هنا أمر غير مجرد القراءة .
وأما القراءة فهي قراءة آيات القرآن إما للتعبد وإما للحفظ والدراسة . وتدل آيات القرآن الكريم على هذا المعنى :

قال تعالى :

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ^(٦)

وقال تعالى :

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(٧)

١ - آل عمران ١٠١ .

٢ - لسان العرب مادة تلا .

٣ - جرة اللغة مادة تلا .

٤ - أساس البلاغة مادة تلا .

٥ - مريم ٥٨ .

٦ - النحل ٩٨ .

٧ - الاعراف ٢٠٤ .

وقال تعالى :

وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ. ^(١)

وقال تعالى :

فَأَمَّا مَنْ أُوثِيَ كِتَابَهُ وَيَمِينَهُ فَيَقُولُ هَذَا أُمُّ أَقْرَأُ وَانْكَبَتْ ^(٢)

وقال تعالى :

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ^(٣)

السورة :

السورة من المصطلحات القرآنية الجديدة . وهو مصطلح يتعلق بالقرآن الكريم لأنها اسم للقطعة التي تكون وحدة مستقلة من القرآن وتتألف من عدة من الآيات الكريمة . وقد سماها الله عز وجل سورة ، وذكرت في القرآن تسع مرات بلفظها المفرد « سورة » وفي آية واحدة في صورة الجمع « سور » ومن تلك الآيات : قال تعالى :

وَلِإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ^(٤)

وقال تعالى :

سُورَةٌ أُنزِلَتْهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأُنزِلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ^(٥)

وقال تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا
مَنْ أَسْطَعَتْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ^(٦)

١ - الاسراء ٩٣ .

٢ - الحاقة ١٩ .

٣ - الأعلى ٦ .

٤ - البقرة ٢٣ .

٥ - النور ١ .

٦ - هود ١٣ .

والسورة بهذا المعنى الاصطلاحي لم تعرف في لغة العرب قبل نزول القرآن لسبب واحد بسيط هو أن القرآن كله كان عليهم جديداً ، وكلمة القرآن نفسها مصطلح جديد . ولكن السورة عرفت في لغتهم بمعان أخرى . وقد اختلف العلماء في تحديد المعنى الذي أخذت منه السورة بمعناها القرآني . فأما أبو عبيدة فإنه زعم أنها مشتقة من سورة البناء ، لأن السورة عرق من أعراق الحائط وكذلك الصورة تجمع صوراً « بضم الواو » واحتج بقول الشاعر : سرت اليه في أعالي السور (١) .

وروى الأزهري بسنده عن أبي الهيثم أنه رد على عبيدة قوله تعالى : « إنما تجمع فُعلة على فُعل بسكون العين إذا سبق الجمع الواحد مثل صوفة وصوف وسورة البناء وسُورة . فالسور جمع سبق وُحدانه في هذا الموضع . قال الله عز وجل « فضرِب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة » والسور عند العرب حائط المدينة وهو أشرف الحيطان ، وشبه الله تعالى الحائط الذي حجز بين أهل النار وأهل الجنة بأشرف حائط عرفناه في الدنيا ، وهو اسم واحد لشيء واحد ، إلا إذا أردنا أن نعرف العرق منه قلنا سورة كما قلنا التمر وهو اسم جامع للجنس فاذا أردنا معرفة الواحدة من التمر قلنا تمرة . وكل منزلة رفيعة فهي سورة مأخوذة من سورة البناء وأنشد للنابعة (٢) :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
معناها أعطاك رفعة ، شرفاً ومنزلة ، وجمعها سور أي رفع . وأما سورة القرآن فإن الله جل ثناؤه جعلها سُوراً مثل غرفة وغرف ورتبة ورتب وزلفة وزلف . فدل على أنه لم يجعلها من سورة البناء لأنها لو كانت من سور البناء لقال : « فأتوا بعشر سُورٍ مثله ولم يقل بعشر سُورٍ ، والقراء مجتمعون على سُورٍ وكذلك اجتمعوا على قراءة سور في قوله « فضرِب بينهم بسُورٍ » ولم يقرأ أحد بسُورٍ ، فدل على تمييز سورة من سُور القرآن على سورة من سور البناء » (٣) .

على أن أبا الهيثم في تحليله هذا لم يذكر الأصل الذي أخذت منه السورة وإنما اكتفى برد القول الذي يقول بأن السورة هي من سورة البناء .

و يرى بعضهم أن السورة من أسأرا إذا أبقى ، وقالوا إن قريشا ومن جاورها من قبائل

(١) لسان العرب مادة سور .

(٢) ديوان النابعة ، ص ٧٣ .

(٣) لسان العرب مادة سور .

العرب كهذيل وسعد بن بكر وكنانة يقولون سورة بغير همز، وتقيم كلها وغيرهم يهزمون . فأما من همز — على رأي هذا الفريق — فالسورة عندهم كالبقية من الشيء والقطعة منه وهي سؤور وسؤرة من أسأرا إذا أبقي ومنه سؤر الشراب . أما من لم يهمز فانهم يرون أنها من الفعل السابق على تخفيف الهمز أو هي مشبهة بسورة البناء أي القطعة منه لأن كل بناء إنما يبنى قطعة بعد قطعة ، فكل قطعة منها سورة فكأن سور القرآن هي قطعة بعد قطعة حتى كمل القرآن (١) .

وإذا راجعنا الآراء السابقة نستبعد بسرعة أن تكون السورة مأخوذة من أسأرا بمعنى أبقي لأنه لا وجه لتأويل ذلك مع سور القرآن . وإذا كان بعض العرب يهزمون سورة فانها إحدى لهجات العرب فقط كما يقول بعضهم النبيء والنبوءة وغير ذلك .

وأما أن تكون السورة مأخوذة من سورة البناء فأعتقد أنه أقرب الآراء إلى الصواب . فكما أن البناء يقوم سورة بعد سورة كذلك قام القرآن في حياة الناس ، لأن الله عز وجل نزل على رسوله صلى الله عليه وسلم متفرقا في ثلاثة وعشرين عاما حتى اكتمل بناؤه . والذي دفع أبا عبيدة على انكار أن تكون السورة أخذت من سور البناء أنه رأى القرآن الكريم قد جمع سورة على سُور وليس على سُور ، بينما قال في ذكر سور البناء « فضرِبَ بينهم بسور » . ويمكن دفع هذا الاشكال إذا علمنا أن معاجم اللغة قد ذكرت أن السورة يمكن أن تجمع على سُور وسُور فهي تجمع على سُور إذا كان المقصود بها عرقا من عروق البناء . وعلى سُور إذا كان المقصود بها سورة من سور القرآن الكريم ، وقد تنزل القرآن الكريم بالصورتين .

وأما من رأى أن السورة هي المنزلة الرفيعة فيمكن أن يرد ذلك إلى سورة البناء أيضا ، لأن البناء عندما يعلو يصبح في نظر الناس ساميا وذا درجة رفيعة لا يمكن اجتيازها ، وعليه يكون هذا المعنى المجازي مستمدا من ذلك المعنى اللغوي . وقد ذكرت السورة في شعر العرب بهذا المعنى المجازي . قال النابغة في مدح النعمان ابن المنذر (٢) :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
وقال النابغة أيضا (٣) :

(١) انظر الجواهر الحسان في تفسير القرآن ج ١ ص ١٨ .

(٢) ديوان النابغة ، ص ٧٣ .

(٣) ديوان النابغة ، ص ٢٣٧ .

الى خير دين نسكه قد علمته وميزانه في سورة البرماتع
وقال أيضا (١) :

ولرھط حرّاب وقدّ سورة في المجد ليس غرابها بمُطار
وقال عمرو بن الاھتم (٢) :

لقد أوصيت ربعي بن عمرو اذا حزبت عشيرتك الأمور
بألا تفسدن ماقد سعيننا وحفظ السورة العليا كبير

ومما يشفع لهذا الرأي أن المفسرين أجمعوا على تعريف السورة أنها قطعة من القرآن الكريم وأن الله عز وجل أنزل القرآن على نبيه شيئا بعد شيء وجعله مفصلا وبين كل سورة بخاتمها وبدايتها . يقول الخازن : « السورة اسم للمنزلة الرفيعة ومنه سور البلد لا ارتفاعه ، سميت سورة لأن القارئ ينال بها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن » (٣) .

ومهما يكن من أمر اشتقاق الكلمة فانه لا شك أن السورة في معناها الاسلامي هو احدى المصطلحات الجديدة التي صنعها القرآن الكريم .

الآية :

ذكر النحاة عدة أقوال في اشتقاق كلمة آية وفي وزنها الصرفي . فقال الخليل إن وزنها فَعْلَةٌ ، وقال غيره إن أصلها فَعْلَةٌ فقلبت الياء ألفا لانفتاح ما قبلها ، وهذا قلب شاذ كما قلبوها في طائي ، الا أن ذلك قليل غير مقيس عليه . وقال آخرون إن وزنها فَعْلَةٌ من الأصل أَوْيَةٌ ، على أن الواو فيها قلبت ياء ، وقد قلبت الواو ياء لأنهما اجتمعا في كلمة وسبقت احدهما بالسكون . ورأى آخر يرى أن وزنها فاعلة فذهبت منها اللام أو العين تخفيفا (٤) . ولكنهم مجمعون على أن الكلمة مأخوذة من الفعل تأيا الشيء تعمد آيته أي شخصه . وآية الرجل شخصه . يقال تأيسته وتأيتته ، وقال الشاعر (٥) :

(١) ديوان النابغة ، ص ٩٩ .

(٢) الفضليات ٤٠٩ .

(٣) تفسير الخازن ٣٣/١ .

(٤) لسان العرب مادة أيا .

(٥) المرجع السابق .

الحصن أدنى لو تأييتِه من حَشِيك الترب على الراكب
وقال لقيط بن معمر الايادي (١) :

أبناء قوم تَأْيُوكُم على حَنَقٍ لا يشعرون أضر الله أم نفعنا
وأيا آية : وضع علامة . وآية القوم جماعتهم ، قال برج بن مسهر الطائي (٢) :

خرجنا من النقبين لا حَيِّ مثلنا بايتنا نزجي اللقاح المطافلا
وجع الآية — بمعنى العلامة — أَيْ وآياء وآيات ، والجمع الثاني نادر ، وعليه قول الشاعر (٣) :

لم يبق هذا الدهر من آيائه غير أثافيهِ وأرمدائه
وفي معنى العلامة قال أبو ذؤيب (٤) :

ألكنسي إليها وخير الرسو بآية ما وقفت والركا
فقلت تبررت في حجنا وقال الحارث بن ولة (٥) :

لمن الديار عفون بالرَّضْم وقال طرفة (٦) :

فغيرن آيات الديار مع البلى وقال النابغة (٧) :

توهمت آيات لها فعرفتُها وقال زهير (٨) :

بلين وتحسب آياتهن عن فرط حولين رقا محيلا

(١) المرجع السابق .

(٢) ديوان طرفه ، ص ١١٧ .

(٣) ديوان النابغة ، ص ٤٣ .

(٤) ديوان زهير ، ص ١٩٤ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) لسان العرب مادة أيا .

(٧) المرجع السابق .

(٨) ديوان الهذليين ١٤٧/١ .

وقال الحصين بن الحمام المري (١) :

ولكن خذوني أيَّ يومَ قَدَرْتُمْ على فَحُزُوا الرأسَ أنْ أَتَكَلِّمَ
بآيةٍ أني قد فَجَعْتُ بفارس اذا عرد الأقوامُ أقدمُ مُغْلَمًا

وفي القرآن الكريم وردت كلمة آية في أربعة وثمانين موضعا ، وكلمة «آيات» في مئة وثمانية وأربعين موضعا ، وكلمة «آياتنا» في اثنين وتسعين موضعا ، وآياتها في سبعة وثلاثين موضعا ، وآيات في أربعة عشر موضعا ، وقد استعملت الآية بمعنى العلامة وبمعنى الآية من القرآن وهو المعنى الاصطلاحي الذي غلب عليها فيما بعد حتى أصبحت لا تُعرف الآن إلا بهذا المعنى عند عامة الناس . وفي استعمال الآية بمعنى العلامة قال أحد المفسرين في تحليل ذلك « وأما الآية فهي العلامة في كلام العرب ، ولما كانت الجملة التامة من القرآن علامة على صدق الآتي بها ، وعلى عجز المتحدّي بها سميت آية . وقيل سميت آية كما كانت جملة وجماعة كلام كما تقول العرب جئنا بآيتنا أي بجماعتنا . وقيل لما كانت علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها سميت آية » (٢) .

وفي معنى العلامة قال الله تعالى :

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ (٣)

وقال تعالى :

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا (٤)

و يندرج تحت هذا المعنى مفهوم العظة والعبرة في بعض الآيات ، قال تعالى :

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً (٥)

وقال تعالى :

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦)

(١) الفضليات ، ص ٦٩٨ .

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ص ١٨ .

(٣) البقرة ٢٤٨ .

(٤) آل عمران ٤١ .

(٥) المؤمنون ٥٠ .

(٦) العنكبوت ١٥ .

ومن الجدير بالذكر أن الذين بحثوا في معاني الكلمات الاسلامية لم يخرجوا معنى كلمة آية عن هذين المعنيين ، قال صاحب الأشباه والنظائر « تفسير آية على وجهين : فوجه منها آية يعني عبرة ، والوجه الثاني آية يعني علامة » ثم مضى يورد الآيات الشاهدة على ذلك (١) .

على أن معظم الآيات القرآنية — بعد ذلك — أوردت الآية على أنها الجملة من القرآن الكريم وهذا هو المعنى الاصطلاحي لها . لأننا اذا قلنا آية الآن لا نعني بها الا هذا المعنى . قال تعالى :

الْمَرِّ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ (٢)

وقال تعالى :

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَةُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٣)

التوكل والاستخارة :

يقابل التوكل والاستخارة في القرآن الكريم التوكل والتطير فيما عداه ، وبخاصة في عادات الجاهليين . وقد عرف الجاهليون معنى التوكل ولكن بتصور يخالف التصور الاسلامي فيه . عرفوه بمعنى الاتكال على شخص ما أو جهد ما ، أو أي جهة ينتظرون منها المساعدة على انجاز مهمة . لأن التوكل عندهم بمعنى اظهار العجز والاعتماد على الغير . ومنه الوَكَلُ والوكلة أي الرجل العاجز الذي يكثرا الاتكال على غيره . قالت منقوسة بنت زيد الخيل (٤) :

أشبه أبا أمك أو أشبه عمل ولا تكونن كِهْلُوفٍ وَكَل
وقال الراجز (٥) :

لما رأيت أنني راعي غنم وأنما وَكَلُّ على بعض الخدم
عجز وتعذير إذا الأمر أزم

وتواكل القوم مواكلة ووкала بمعنى اتكل بعضهم على بعض — قال أبو طالب (٦) :

١ - الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ٣٠٠ .

٢ - الرعد ١ .

٣ - مريم ٥٨ .

٤ - لسان العرب مادة وكل .

٥ - لسان العرب مادة وكل .

٦ - لسان العرب مادة وكل .

وما ترك قوم - الا أبالك - سيدا يحوط الذمار غير ذرب مواكل
ولكن التوكل في القرآن الكريم حمل معنى آخر يقوم على أن الله عز وجل هو الوكيل
الوحيد للإنسان ، لأنه تعالى توكل بالقيام بجميع ما خلق . وعلى هذا فان المتوكل في القرآن
هو الذي يتجه الى الله عز وجل بثقله ، ويطلب منه وحده المعونة ، والتوفيق . ولما كان الله
عز وجل قد أقام نظام الحياة على أسباب ومسببات منظمة ، تخضع لقانون محكم ، يشمل
كل ما في الكون من علاقات وارتباطات ، فان التوكل في المفهوم الاسلامي يستلزم أخذ
الأسباب في أي عمل يقوم الانسان به . فالتوكل - دون الاستعداد بالأسباب - مخالف
لشرع الله تعالى ومناف لمعنى التوكل الصحيح . وهذا ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم
بقوله الشريف « اعقل وتوكل (١) » . ويؤكد هذا أن القرآن الكريم لم يورد مادة التوكل
الا مسندة لله عز وجل . وفي الآيات الشريفة يظهر أن التوكل مقرون بالاستعداد والعمل
لاستحقاق توفيق الله ووكالته .. قال تعالى :

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ
عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢)

وقال تعالى :

اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٣)

وقال تعالى :

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (٤)

والتوكل على الله - بهذا المعنى من صفات المؤمنين حقا ، وقد قدمه الله عز وجل على الصلاة
والزكاة في قوله تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٠﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

(١) موارد الظمان الى زوائد ابن حبان ، الهيثمي ، المكتبة السلفية ، ١٣٥١ هـ ، رقم ٢٥٤٩ .

(٢) هود ١٢٣ .

(٣) الزمر ٦٣ .

(٤) آل عمران ١٥٩ .

وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ^(١)

ومن معنى التوكل واعتمادا عليه تقوم الاستخارة . وهي طلب الخير من الله . والله مالك الفضل والخير ومعطيه ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وطلب الخير من الله له مؤهلات لا بد أن يتصف بها المرء ، وهي نفسها صفات المتوكل على الله حق التوكل . وقد سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستخارة ، وتكفلت كتب الفقه ببيان كيفيتها وذكر دعائها ومتى يقوم الانسان بها . وقد استبدل الله عز وجل الاستخارة بعادة زجر الطير الجاهلية . وتروي كتب الأدب أن العرب في الجاهلية كانوا اذا حز بهم أمر ، أو احتاروا بين أمرين ، أو أرادوا القيام بعمل هام ، استأنسوا قبل ذلك كله بالرجز . وهي أنهم كانوا يأتون بطير ، ويدفعونه أمامهم ، فان طار نحو اليمين فهو طير سانح يتفألون به و يقدمون على ما هم فيه ، وان طار نحو الشمال فهو طير بارح يتشاءمون منه و يقلعون عما هم فيه . وقد صور الشعر العربي ذلك ، مثاله قول النابغة ^(٢) :

زعم الغراب بأن رحلتا غدا وبذاك خبرنا الغداف الأسود
وبدهي أن الطير عندما يطلق يطير بحسب الاتجاه الذي يتيسر له ، إما بحسب شدة الريح ، أو اتجاه قوة الدفع ، أو طبيعة المكان ، وليس هناك قانون حتمي يدفعه للسريمين أو شمالا . وبذلك تكون هذه العادة قائمة على أسس غير ثابتة ، وأسباب واهية ، وشتان بين الاعتماد على الله ، اللطيف الخبير ، وبين الاعتماد على طيران طير أبكم ، وهنا يظهر الفرق الكبير بين شرع الله الحكيم وبين أباطيل الناس الزائفة .

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم استغل هذه العادة كتعبير لغوي ، فقال تعالى :

وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا
يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ^(٣)

١ - الانفال ٢- ٤ .

٢ - ديوان النابغة ، ص ٨٩ .

٣ - الاسراء ١٣ .

وطائره هنا بمعنى عمله ، وقد اعتبر هذا التعبير من الأدلة القاطعة على نزول القرآن بلغة العرب ، حتى في تصوير عاداتهم ، واستغلالها في اثرء لغة التعبير من غير أن يجيز ما كان منهما خارجا على مقتضى الحكمة الالهية ، والتشريع السماوي .

التوفيق :

من المصطلحات القرآنية الجديدة التي لم يتنبه كثير من الناس لمعناها القرآني ، مصطلح التوفيق . فالتوفيق في القرآن الكريم مقصور على الله عز وجل ، وقد وردت المادة اللغوية في ثلاث آيات كريمة تثبت كلها هذه الحقيقة . قال تعالى :

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ^(١)

وقال تعالى على لسان سيدنا شعيب عليه السلام :

قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ^(٢)

ويلاحظ أن هذه الآية وردت بأسلوب الحصر « وما توفيقي الا بالله » . والآية الثالثة تؤكد المعنى من زاوية أخرى ويقول تعالى فيها في وصف المنافقين

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ قَالُوا هَؤُلَاءِ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوَفَّقُوا ^(٣)

١ - النساء ٣٥ .

٢ - هود ٨٨ .

٣ - النساء ٦١ - ٦٢ .

وسيرد بعد قليل في مصطلح الحلف والقسم أن الحلف هو اليمين الكاذب وهذا يعني أنهم يحلفون كاذبين بأنهم يريدون الاحسان والتوفيق ، وأنى لهم ذلك ، والاحسان ليس من خلقهم ، والتوفيق ليس من اختصاصهم .

وقد شاع بين الناس أن التوفيق معناه النجاح . والصحيح أن معناه القرآني هو رعاية الله للإنسان وتسييره للعمل الصالح الذي يؤدي به الى الفوز في الآخرة والفلاح في الدنيا . وهذا التوفيق له شروط لا يتحقق الا بها ، وهي الشروط التي تجعل الانسان أهلا لرعاية الله وعنايته . والنجاح الذي يصيبه المرء خارج هذا النطاق ليس توفيقا ، بل هو نجاح دنيوي في حكم الناس ، ليس له في الآخرة من خلاق

وهذا المعنى القرآني للكلمة يحدده ويفسره الحديث النبوي الشريف « لا يتوفى عبد حتى يوفقه الله » (١) .

ولم تعرف الكلمة في الجاهلية الا بمعناها اللغوي ، قالوا الوفاق كل شيء يكون متفقا على تيفاق واحد (٢) . ومنه قول الشاعر (٣) :

يهوين شتى ويقعن وَفقا

ووفقت أمرك تفق أي صادفته موافقا (٤) . قال النابغة الذبياني (٥) :

رأيت نعما وأصحابي على عجل والعيش للبين قد شدت بأكوار
فريع قلبي وكانت نظرة عرضت حيناً وتوفيق أقدار لأقدار
وقال شاعر آخر :

فلوفهموا أو وفقوا رشد أمرهم لعدنا عليهم بعد بؤس بأنعم
والنابغة هنا لم يقصد بالتوفيق قدر الله بل أراد توفيق المصادفة التي تتحكم في أقدار الناس . والشاعر الآخر بنى الفعل للمجهول لأن فاعل التوفيق عنده غير معلوم . وهذا يبين أن التوفيق كان في لغة الناس وفي اعتقادهم قائم على الصدفة . وهو الأمر الذي استبعده القرآن الكريم . فليس في الحياة شيء يقوم بالصدفة ، وليس لهذه الكلمة مدلول في النظام

١ - لسان العرب مادة وفق .

٢ - لسان العرب مادة وفق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - المرجع السابق .

٥ - ديوان النابغة ص ٢٠٢ . وجواهر الأدب ٤١/٢ .

والفكر الاسلاميين . وقد ناقشت كتب الفلسفة الاسلامية هذا المبدأ واستبعدته ورفضته (١) . فليس للصدفة في الحقيقة مكان الا في قاموس الجاهليين أو المتواكلين . أما في القرآن الكريم الذي قدم للناس نظاما محكما تقوم عليه الحياة كلها ، فان التوفيق فيه لا يقوم الا على أسباب ملموسة معروفة ، وهي الأسباب التي تؤهل الانسان أن يكون عبد الله ، مستحقا هدايته وتوفيقه .

وقد كان أهل التفسير يقتربون أحيانا من هذا المعنى عند التعرض لشرح الآيات السابقة ، ولكنهم لم يوضحوا معنى التوفيق توضيحا جليا . قال العلامة الصاوي في شرح « وما توفيقى الا بالله » أي قدرة على ذلك وغيره من الطاعات (٢) . وقال صاحب الظلال فيها « فهو القادر على انجاح مساعي في الاصلاح بما يعلم من نيتي وبما جيزى على جهدي » (٣) ولكن هذا الشرح كان ينتظر بالتأكيد اعلانا واضحا يضع التوفيق في مكانه الصحيح من المصطلحات القرآنية .

الغيث والمطر:

لم يعرف الشعر الجاهلي فرقا بين الغيث والمطر . كان الشعراء يستعملون الكلمتين كأنهما مترادفتان . وربما كان الوزن الشعري ، والسياق اللغوي ، هو الذي يفسر قول الشاعر كلمة منهما دون الأخرى . مثال ذلك قول أبي الفضل الكنانى (٤) :

فنهنتُ عنه القوم حتى كأنما حبا دونه ليث بخفان خادر
شتيم أبو شبلين أخضل مئنهُ من الدجن يوم ذو أهاضيب ماطر
وقول أعشى بأهله يرثي أحد الرجال (٥) :

نَعَيْتُ مَنْ لَا تُغِبُّ الْحَيَّ جَفَّتْهُ إذا الكواكبُ أخطأ نوءُهَا المطر
يريد أنه ينعى رجلا كريما لا تنقطع عن الحي جفنته وبخاصة في أيام الشدة حيث ينقطع المطر ، ولا شك أن كلامه يضيف على المطر معنى جميلا ، ومدلولا حسنا ، لأنه شيء يتمناه

(١) راجع كتاب — مناهج الأدلة في عقائد الملة للدكتور محمود قاسم ، مبدأ السببية .

(٢) حاشية العلامة الصاوي ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) في ظلال القرآن م ٤ ص ٦١٥ .

(٤) الأصمعيات ص ٧٧ . وهو يتحدث عن رجل — تذكره الأبيات السابقة — على أنه ضعيف ، وقد تناوشه الاعداء من كل جانب ، فجاء الشاعر وأنجده بقوة كأنه أسد ضخم قوي بل ظهره مطر غزير .

(٥) الأصمعيات ٨٩ .

الناس . وهذا أيضا ما يفهم من قول علباء بن أرقم يمدح النعمان (١) :

أُخَوِّفُ بالنعمان حتى كأنما قتلْتُ له خالاً كريماً أو ابن عم
وان يد النعمان ليست بِكَزَّةٍ ولكن سماء تُمطر الوبل والدِّيم

ومن قول الورك الطائي (٢) :

لا در در رجال خاب سعيهم يستمطرون لذي الأذباب بالعشر
أجاعل أنت بيقورا مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر

ونلاحظ في النصوص السابقة أن الشعراء اعتبروا المطر سببا للخير ولذا فهم يطلبونه ، ويشبهون الأمراء به ، ويجعلونه معنى ساميا ، وينشرونه بين الناس بأشعارهم ، وفي هذا المعنى نفسه استخدم الشعراء الجاهليون كلمة الغيث ، حيث لا فرق عندهم بينه وبين المطر ، فالغيث هو المطر ، وهو أيضا النبات الذي يعقب المطر (٣) . وأنشد ثعلب لأحد الشعراء في ذلك (٤) :

وما زلت مثل الغيث يركب مرة فيعلو ويولى مرة فيثيب
وقال المخبل السعدي (٥) :

لها لجب حول الحياض كأنه تجاوب أغياث هن هزيم
ويلاحظ أن الشطر الثاني من هذا البيت الأخير يشبه في معناه قول أبي الفضل الكناني السابق « يوم ذو أهاضب ماطر » .

وقال سبيع بن الخطيم (٦) :

ولقد هبطت الغيث أصبح عازبا انفا به عود النعاج عُطُوف
حتى معاجم اللغة فسرت الغيث والمطر منهما بالآخر . ولم تجعل بينهما فرقا (٧) . قال صاحب اللسان . الغيث : المطر والكلأ . والجمع أغياث وغيوث . والمطر الماء المنسكب من السحاب والجمع أمطار . ورجل مستمطر طالب للخير ، وأمطرني بخير أصابني .

(١) الأصمعيات ١٥٩ .

(٢) الأوائل ص ٢٨ .

(٣) لسان العرب مادة غاث .

(٤) المرجع السابق . ويقصد الشاعر أنه كشجر يؤكل ثم يصيبه الغيث فيرجع .

(٥) المرجع السابق .

(٦) الفضليات ٣٧٣ .

(٧) لسان العرب مادة غاث . ومادة مطر .

وأشدد ابن الاعرابي (١) :

وصاحب قلت له : صالح انك للخير لمستمطر

وتابع بعض المفسرين هذا الاتجاه نفسه ، ولم يلحظوا الفرق بين المطر وبين الغيث في القرآن ، فتحدثوا عن المطر أنه سبب الرحمة والخير . قال الخازن في تفسير قوله تعالى : « بين يدي رحمته » (٢) : يعني أمام المطر الذي هو رحمته وانما سماه رحمة لأنه سبب لحياة الأرض الميتة (٣) ..

أما القرآن الكريم فقد جعل بينهما فرقا واضحا وأعطى كلا منهما دلالة مميزة . وجعل كلا منهما مصطلحا قائما بذاته عند كل من يتحرى الدقة في فهم آيات الله ومعانيه .

أما الغيث — في القرآن — فهو الماء المنسكب من السماء رحمة للعباد . وهو سبب الخير والنماء والري والعطاء والزرع ، الاخضرار ، هو متاع للناس وللانعام . هكذا تحدثت الآيات الكريمة الثلاث التي ذكر فيها الغيث . قال تعالى :

(٤)
وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ

وقال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ (٥)

وقال تعالى :

أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ (٦)

وأما المطر فهو في القرآن الكريم عكس ذلك كله وقد وردت الكلمة ومشتقاتها في خمس عشرة آية ، وهو نعمة الله على الكافرين والمعرضين ، يرسله الله عز وجل عقابا للأمم الكافرة .

١ - لسان العرب مادة مطر .

٢ - الاعراف ٥٧ .

٣ - تفسير الخازن ٢/ ٢٠٠ .

٤ - الشورى ٢٨ .

٥ - لقمان ٣٤ .

٦ - الحديد ٢٠ .

والأقوام السادة في غيرها الذين لا يتيحون الفرصة لرسول الله ، ودعاة الحق ، أن يقوموا بمهمتهم . وآيات القرآن تقرر ذلك بوضوح ، بطريقة تشعر أن المطر صار علما على وسيلة العقاب والعذاب فهو يذكر في الآية الكريمة مفردا دون أن تتبعه صفة تحدده ، لأنه أصبح محددًا معروفا . قال تعالى :

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ^(١)

وقال تعالى

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ^(٢)

وقال تعالى :

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ ^(٣)

وقال تعالى :

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ^(٤)

وقال تعالى :

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَكُمْ ^(٥)

وقال تعالى

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوْءِ ^(٦)

(١) سورة الاعراف ٨٢ - ٨٤ .

(٢) سورة هود ٨٢ .

(٣) سورة الحجر ٧٤ .

(٤) سورة الشعراء ١٧٣ وسورة النمل ٥٨ .

(٥) سورة النساء ١٠٢ .

(٦) سورة الفرقان ٤٠ .

وهكذا وهكذا .

وما من شك أن هذا التمييز بين دلالة الغيث ودلالة المطر في القرآن الكريم لم يأت عفوا . انما هو مقصود لله عز وجل . وهو دليل على نفي الترادف في القرآن الكريم . ومظهر من مظاهر الاعجاز في التعبير لم يتعود عليه العربي بله أن يأتي بمثله ، وقد رأينا أنهم لم يفرقوا بينهما في الاستعمال . وأن كثيرا من الناس — حتى اليوم — لم يتنبهوا لهذه الدلالات الدقيقة والعجيبة بين الكلمات . وهذا يكفي للتأكيد على أن الغيث والمطر كليهما من المصطلحات الجديدة في القرآن الكريم . وأن القرآن الكريم كتاب الله المعجز ، وأن التطور الدلالي دليل جديد ، ودليل أكيد ، على اعجاز القرآن الكريم .

الريح والرياح :

ويقال في الريح والرياح مثل ما قيل في الغيث والمطر . فهما كلمتان وردتا في الشعر الجاهلي بمعنى واحد ، لم يفرق الشعراء بينهما في الاستعمال . وكان الفيصل في استخدام أي منهما هو الوزن الشعري ، أو السياق الذي يتأتى للشاعر . قال لبيد ابن ربيعة (١) :

ويكَلَّلون إذا الرياح تناوحت خُلُجًا تَمَدُّ شوارعا أيتامها
يقول إنهم يبذلون للمساكين والجيران جفانا عظاما مملوءة مرقا ، مكللة بكسور اللحم في كَلْب الشتاء وضنك المعيشة . وهذا يضاف على الرياح معنى الشدة والقسوة . ومثل هذه الصورة العنيفة في مدلول الرياح ، يقول النابغة الذبياني (٢) :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار
أقوى واقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهابي الترب موار
ومثلها أيضا قول دريد بن الصمة (٣) :

ولا بَرَمًا إذا الرياح تناوحت برطب العضاه والضريع المعضد
أي أنه لا يقاطع جلسات الميسر حتى إذا اشتد هبوب الرياح وحل معه أشواك العضاه والضريع . وهناك أبيات أخرى تصف الرياح بأنها تهب على الآثار والاطلال فتقتلعها وتذهب بها حتى لا يبقى منها أثر ، منها قول الاسود بن يعفر (٤) :

١ - ديوان لبيد ص ١٧٨ .

٢ - ديوان النابغة ، ص ٢٠٢ . وهابي الترب سافيه ومواريجي و يذهب .

٣ - الأصمعيات ١٠٨ .

٤ - الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٧ .

ماذا أومل بعد آل مخرق تركوا منازلهم ، وبعد اياد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات والسنداد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد

وصورة الرياح الكريهة الشديدة هذه لا تختلف عن الصورة التي رسمتها أقلام الشعراء
للريح . وتحدد هذه الصورة اذا قرأنا بعض الأبيات الشعرية ومنها قول مهلهل بن ربيعة
(١) :

فلولا الريحُ أسمعَ أهلَ حَجَرٍ صليلَ البيضِ يُقَدِّعُ بالذِّكُورِ
أي لولا شدة الريح لأسمعت أهل حجر— وهي مدينة باليمامة — صليل السيوف من أرض
الجزيرة . وتقول سيدة من بني سليم ترثي أخا لها قتله رجال من خثعم (٢) :

لعمري وما عمري على بهين لنعم الفتى غادرتم آل خثعما
وكان اذا ما أورد الخيل بَيْشَةً الى حين إسراج أناخ فألجما
فأرسلها رهوا رعالا كأنها جراد رمته ريح نجد فأتهما
وقال طرفة بن العبد (٣) :

ترد على الريح ثوبِيَّ قاعدا لدى صدي بالحنيّة بارك

وقد لاحظت خلال بحثي في الشعر الجاهلي أن كلمة الرياح ترد أضعاف ما ترد كلمة
الريح . وأن الكلمتين تحملان الصورة نفسها والدلالة ذاتها في كلام الشعراء . وكل
منهما تعني عندهم الريح الشديدة القوية التي تسفي الرمال وتعصف بالناس ، وتهد
البيوت ، وتقتلع النباتات ، وتزجر بالأصوات المرعدة ، وما الى ذلك مما هو كثير في بيئة
صحراوية خالية من مرتفعات الجبال ، وشواهد الأبنية التي تهدد من قسوة الريح
وتخفف من سرعتها وتقلل من أخطارها .

أما في القرآن الكريم فان للريح معنى ودلالة خاصة ، كما للرياح معنى ودلالة
أخرى . فالريح في القرآن تحمل المعنى نفسه ، والصورة ذاتها التي ذكرت لها في الشعر

١ - الأصمعيات ١٥٥ .

٢ - الأوائل ص ١٠٠ .

٣ - ديوان طرفة ٨٣ .

الجاهلي . الريح الضارة الشديدة القاسية العاصفة . واذا تلونا آيات القرآن الكريم التي أوردتها نجد أنفسنا أمام زوابع وعواصف تكاد تقتلع المرء من مكانه . قال تعالى :

أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ
فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا^(١)

وقال تعالى :

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ
الرَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ^(٢)

وقال تعالى :

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ^(٣)

وقال تعالى :

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ
هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٤)

وهكذا في آيات أخرى كثيرة . وقد وردت الريح بالاضافة الى هذا المعنى العام ، بمعنيين آخرين أحدهما ورد في آية واحدة هي قوله تعالى :

وَلَا تَنْزِعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا^(٥)

وهي هنا بمعنى القوة والبأس ، ولا يخفى ما بين المعنيين من صلة قوية . أما المعنى الثاني فهو بمعنى الراحة و يظهر في قوله تعالى

١ - الاسراء ٦٩ .

٢ - الحج ٣١ .

٣ - الحاقة ٦ .

٤ - الاحقاف ٢٤ .

٥ - الانفال ٤٦ .

حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ^(١)

والريح الأولى في الآية السابقة بمعنى الرائحة والاطمئنان ، وهو ما يفهم أيضا من قوله عز وجل

وَلَمَّا فَصَلَ الْغِيَاثُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ^(٢)

وليس في القرآن من الآيات التي ذكرت الريح غير هاتين الآيتين بمعنى الرائحة ، وتبقى الآيات الأخرى كلها لتؤكد ذلك المعنى الاصطلاحي وتحده وتظهره أمام كل باحث .

أما الرياح — في القرآن الكريم — فهي على العكس من ذلك تماما . هي الرياح الهادئة المطمئنة الطيبة التي تحمل في نسائنها الخير ، وتجمع في هبوبها السحب والغيوم وتسبب نزول الغيث ، وتنقل بين النباتات حاملة عناصر الذكورة والأنوثة لتؤدي عملية التلقيح ، فتنتج الأثمار والأزهار ، ويطعم الإنسان ويسعد . الرياح في القرآن الكريم خير كلها ، وهي كذلك ، بل إن الإنسان لا يستطيع أن يصور أبعاد الدلالة المعنوية التي أضفتها الآيات على كلمة الرياح . قال تعالى :

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ^(٣)

وقال تعالى :

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ^(٤)

وقال تعالى :

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ^(٥)

(١) يونس ٢٢ .

(٢) يوسف ٩٤ .

(٣) الاعراف ٥٧ .

(٤) الحجر ٢٢ .

(٥) الروم ٤٦ .

وقال تعالى :

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ (١)

وهكذا وهكذا .

وكم يبدو هذا المعنى الذي وضعه القرآن الكريم للرياح عجيبا في مقابل ذلك المعنى الذي حملته كلمة الريح . الرياح نسائم خيرة طيبة ، والريح عاصفة قاصفة ، مع أن المعروف أن الرياح جمع للريح ، والمفروض أنها تجمع أيضا أضعاف ما في الريح من قسوة وشدة . إن هذا من أسرار القرآن ، التي ربما ينكشف العلم عن بعض الحكمة فيها . خاصة وأن اللسان العربي كما رأينا لم يفرق بينهما . وهكذا تكون هاتان الكلمتان من الدلالات الجديدة التي صنعها القرآن الكريم .

الحَلْفُ والقسم :

لم يكن الجاهليون يفرقون بين فعلي حلف وأقسم في أقوالهم . وقد رويت عنهم أبيات شعرية عديدة استخدمت فيها الكلمتان بمعنى واحد ، كأنهما مترادفتان . من ذلك قول عنتر بن شداد (٢) :

حلفت لهم والخيـل تردى بنا معا نفارقهم حتى يهروا العواليا
عوالي زرقا من رماح رُدَيْنِيَّة هرير الكلاب يتقين الافاعيا
وهو يريد « لا نفارقهم » ، يؤكد لهم صادقا بأنه لن يفارقهم حتى يشفى غليله منهم .

ومنه قول علباء بن أرقم يصف ما كان يحدث بينه وبين زوجته من شراسة وأذى وخصومة يتعالى فيها القسم من كل منهما (٣) :

نسبت كأننا في خصوم عرامة وتسمع جاراتي التآلي والقسم
ولا شك أن الحلف في النص الأول والقسم في النص الثاني بمعنى واحد . ومن شعرهم في ذلك أيضا قول زهير بن أبي سلمى في معلقته (٤) :

ألا أبلغ الاحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

(١) الروم ٤٨ .

(٢) ديوان عنتر ، دار صادر ، ١٩٦٦ ، ص ٨٠ .

(٣) الأصمعيات ١٥٨ .

(٤) شرح المعلقات السبع ٨٥ .

و يريد : أبلغ ذبيان وحلفاءها أنكم قد حلفتم على ابرام حبل الصلح كل حلف فتخرجوا من الحنث وتجنبوا . وفي القصيدة نفسها يقول (١) :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
بينما نجد النابغة يقول في إحدى اعتذارياته (٢) :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثم ذو إمّة وهو طائع
ونستطيع أن نؤكد أن النابغة - وهو في موقف الاعتذار - يريد أن يكون في أعلى درجات الصدق حتى يسمع الملك كلامه و يقبل اعتذاره . وهذا يدل على أن القسم في بيت زهير والحلف في بيت النابغة لا فرق بينهما من حيث المعنى . ومن شعر المرقش الأصغر (٣) :

وآلى جناب حلفة فأطعته فنفسك ولّ اللوم ان كنت نادما
ومن شعر امرئ القيس يصف قيصر ملك الروم (٤) :

اني حلفت يمينا غير كاذبة انك أقلف الا ما جلا القمر
اذا طعنت به مالت عمامته كما تجمع تحت الفلكة الوبر
من الأبيات السابقة ، وغيرها مما ورد في الشعر الجاهلي حول هذا المعنى ، نجد أنهم يقصدون بالحلف والقسم معنى واحدا ، ولا يفرقون بينهما في الاستعمال .

ولكن القرآن الكريم فرق بين الفعلين في الدلالة . فقد استعمل فعل حلف وما يشق منه في معرض اليمين الكاذب ، الذي يصدر عن أناس منافقين أو غير ملتزمين بأيمانهم . بينما لم ترد مادة أقسم في القرآن الكريم الا في معرض الصدق الصراح ، وغالبا ما أسند القسم الى الله عز وجل . ولنتدبر الآيات الكريمة التالية : قال تعالى :

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥)

١ - المرجع السابق .

٢ - ديوان النابغة ، ص ٣٥ .

٣ - الشعر والشعراء ١/ ١٤٣ .

٤ - ديوان امرئ القيس ص ٢٨٠ .

٥ - المائدة ٨٩ .

والكفارة لا تكون الا عند الحنث باليمين ، فكأن الله عز وجل يقول : ذلك كفارة ايمانكم اذا حنثتم أو اذا كذبتهم . وقال تعالى في سورة التوبة وهي السورة التي ورد فيها حديث طويل عن المنافقين وموقفهم المخزي في غزوة تبوك :

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ
إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ
لَكُمْ لَنُرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ (١)

قال ابن عباس نزلت في الجذ بن قيس ومُعْتَب بن قُشَيْر وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تجالسوهم ولا تكلموهم . قال مقاتل نزلت في عبد الله ابن أبي حَلَفَ للنبي صلى الله عليه وسلم بالذي لا اله الا هو أنه لا يتخلف عنه بعدها ، وطلب منه أن يرضى عنه فأنزل الله عز وجل هذه الآية (٢) . ومن الآيات التي تبين معنى الحلف قوله تعالى في قصته مسجد الضرار

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ
يَسْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٣)

ودلالة الآية وقصة مسجد الضرار معروفة تغني عن التعليق . كذلك يقول عز وجل

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ
وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٤)

١ - التوبة ٩٥-٩٦ .

٢ - تفسير الخازن والبغوي على هامشه ١١٢/٣ .

٣ - التوبة ١٠٧ .

٤ - المجادلة ١٤ .

ولعل أوضح آية تقدم هذا المعنى للحلف هي قوله تعالى

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ^(١)

وأما الآيات التي ورد فيها القسم فمنها ما هو واضح لا يحتاج الى شرح ، أعني بها تلك الآيات التي يكون فيها من الله عز وجل مثل قوله تعالى

فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ^(٢)

وقوله تعالى

فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ ^(٣) وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ^(٤)

وقوله تعالى

فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ^(٥)

وهناك بعض الآيات القرآنية تشعر عند قراءتها للوهلة الأولى أن القسم فيها ربما صدر عن أناس غير صادقين ، وأنه أريد به اليمين الكاذب ، مثل قوله تعالى :

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ^(٦)

وقوله تعالى

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ^(٧)

١ - القلم ١٠ .

٢ - الواقعة ٧٥ .

٣ - الحاقة ٣٨ .

٤ - المعارج ٤٠ .

٥ - ابراهيم ٤٤ .

٦ - الانعام ١٠٩ .

وقوله تعالى :

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ^(١)

وقوله تعالى :

(٢)

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ

ونقول في هذه الآيات أن القسم صدر عن هؤلاء الناس وليس في نيتهم الكذب ، بل كانوا صادقين في أيمانهم حسب اعتقادهم . والقاعدة في الفقه الاسلامي أن القسم على نية المقسم لا على نية السامع . فهؤلاء الناس أقسموا — صادقين — حسب اعتقادهم ما لهم من زوال . وأصحاب الجنة أقسموا — صادقين — حسب تخطيطهم لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ، وهم لا يعلمون أن الله عز وجل يكيد لهم كيذا فأرسل عليها طائفا في الليل فأصبحت كالصرير . والمجرمون أقسموا أنهم لم يلبثوا غير ساعة . وهذا ينطبق على كل انسان ، حيث إن الزمن الماضي ، عند نومه ، أو عند وفاته ، لا يكون عنده الا ساعة أو بعض الساعة . وهكذا . فالقسم اذن يكون اذا قصد الانسان أن يؤدي يمينا صادقا على ما يعتقد ، وهذا هو مدلول آيات الله تعالى . وبهذا يكون القرآن الكريم قد خصص معنى الحلف ومعنى القسم ، وجعل منهما مصطلحين جديدين يساهمان في اثبات اعجاز القرآن الكريم . وفي الاشارة الى كنوزه الكثيرة التي لا تنتهي مهما فسر المفسرون ، واجتهد الباحثون .

القدرة والاستطاعة والطاقة :

فرق القرآن الكريم بين معاني هذه الكلمات الثلاثة ، بينما لم يفرق بينهما الشعراء في العصر الجاهلي . ويظهر هذا الفرق في السياق أكثر ما يظهر في نطق الكلمات مفردة . ومن المقرر في فقه اللغة أن كل كلمة تأخذ دلالتها من السياق الذي ترد فيه ، حيث إن الكلمة المفردة لا تكون مضمونا لغويا يمكن فهم شيء منه . وفي معاجم اللغة القدر والقدرة بمعنى القوة من قدر عليه يقدر ويقدر . وقدر بالسكرة قدرة وقدارة وقدورة وقدورا وقدرانا وقدارا^(٣) . ويهمننا من معاني الكلمة هنا هذا المعنى اللغوي . وقد وردت هذه الكلمة في اثنتين وثلاثين ومئة آية في القرآن الكريم . وكانت تارة بمعنى القدر وهو حكمة الله في

١ - القلم ١٧ .

٢ - الروم ٥٥ .

٣ - اللسان ، وجهرة اللغة ، وتاج العروس مادة قدر .

ترتيب الأحكام والخلق ، وتارة أخرى بمعنى القوة . وكل ما في القرآن الكريم من كلمات قادر وقادرون وقادرين وغيرها من المشتقات هي بمعنى القوة والفعل . والذي يتلو آيات القرآن يجد أن القدرة عندما تضاف الى الله عز وجل أو يصف بها ذاته هي بمعنى القيام بالأمر دون أي مشقة أو جهد بل في يسر ونفاذ تام . وفي تعبير آخر يجد أن القدرة الالهية هي ما يفهم من قوله تعالى

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١)

هكذا دون ابطاء ، ودون اعتراض ، وفي غير ما زمن يقاس به الفعل ، وكل هذه أمور لا تجوز على الله تعالى ، فهو الخالق القادر على كل شيء . ويكفي أن تتوجه الارادة الالهية الى شيء يريد الله فيكون حالا كما أراد الله له أن يكون . ولذلك وصف الله عز وجل ذاته بأنه قادر ، وبأنه على كل شيء قدير . والتقدير بمعنى القادر ، وهو فاعل من فاعل . وهو في معنى الغلبة والقهر والتمكن من الشيء . ولذا فإن القادر والتقدير من صفات الله عز وجل — ومن أسمائه الحسنى — بمعنى الغالب على كل شيء (٢) .

وينسحب معنى (قَدِيرٌ يَقْدِرُ) هذا على الانسان ، ولكن مع مراعاة الفارق بين القدرة الالهية ، وبين قدرة الانسان . فالانسان اذا قام بالعمل بيسر وسهولة وقوة وغلبة عليه يقال قدير عليه ، وهو على عمله قادر . أي أنه يقوم بعمله دون أي عناء ، ودون بذل مزيد من الجهد ، ولبيان ذلك نقول ان الانسان يقدر أن يحمل كيلو غراما واحدا اذا كان سنه يتجاوز العاشرة مثلا . ويقدر أن يمشي مئة متر مثلا اذا كان صحيحا وفي حالته الطبيعية .

أما الاستطاعة فهي درجة دون القدرة . وهي أن يقوم الانسان بالعمل الذي يتفق مع جهده ، لا يدخر منه ولا يبالغ فيه . فالاستطاعة اذن تساوي جهد الانسان الطبيعي . فاذا قام المرء بعمل ما بحسب ما يتفق له من جهد ، دون أن يجهد نفسه أو يشعر بالراحة التامة فيه يقال أنه استطاع أن يقوم بذلك العمل وهو عليه مستطيع . ومثال ذلك أن الانسان يستطيع حمل عشرين كيلو غراما مثلا اذا كان في سن العشرين ، ويستطيع أن يمشي خمسة كيلو مترات مثلا أو ربما عشرة دون أن يشعر بجهد ثقيل .

والطاقة أو الاطاقة فهي درجة ثالثة دون الاستطاعة . وهي أن يقوم المرء بعمل ما بمزيد

١ - النحل ٤٠ .

٢ - الزينة ج ٢ ص ٦٥ .

من العناء والجهد ، ولا يتم عمله ذلك الا بعد أن يستفرغ فيه كل قوته وكل جهده ، وقد يَعْجِزُ عن ذلك أيضا . ومثاله أن يُطلب من الانسان ذي العشرين عاما أن يحمل مئة كيلو غرام فهذا فوق طاقته ، مهما بذل من جهد . أو يطلب منه أن يسير خمسين كيلو مترا دون أن يستريح أو يتوقف .

ويدل على ذلك أن الله عز وجل وصف ذاته بأنه قادر ، ولم يرد في القرآن الكريم مطلقا أنه الله مستطيع أو يستطيع ، لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . بل ورد وصف الاستطاعة للانسان فقط . قال تعالى

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ (١)

فالله عز وجل يطلب منا أن نبذل ونعد ما في أيدينا ، لا نبخل بما نجد ، ولا نتكلف مالا نجد ، ما نستطيع فقط . فاذا أعددنا ما نستطيع بصدق واخلاص ، نصرنا الله ، لأن الله قادر على نصره عباده اذا أخلصوا العمل وأعدوا ما يمكنهم أن يعدوه . ولذلك نصرهم الله في بدر وكانوا ثلاثمائة رجل ليس معهم سوى فرسين وسبعين بعيرا ، نصرهم على ألف رجل مدججين بالسلاح والعتاد والمتاع . ونصرهم الله يوم الخندق ، ولم يستطيعوا عمل شيء سوى حفر الخندق . نصرهم على عشرة آلاف أحاطوا بهم كالسوار في المعصم . ولكن الله قادر على كل شيء .

وكذلك فان الله عز وجل لم يصف ذاته بأنه مطيق ، وحاشا لله عز وجل ، بل الانسان الضعيف هو الذي يطيق . ولذلك علم الله عز وجل الانسان هذا الدعاء ،

رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (٢)

أي لا تحملنا يا ربنا ما لا يمكن أن نقوم به ولو بذلنا كل ما في وسعنا ، فاننا لا نحب أن تأمرنا بأمر لا نطيع القيام به .

وعلى هذا يفسر قوله تعالى في شأن صيام الشيوخ والمرضى والمسنين والضعاف

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ (٣)

١ - الانفال ٦٠ .

٢ - البقرة ٢٨٦ .

٣ - البقرة ١٨٤ .

فالاطاقة هنا الاحتمال بأقصى جهد^(١) ، ولذا جعل الله لهم هذه الرخصة . وأحب أن أسجل أن بعض كتب التفسير قد تكلفت كثيرا في تفسير هذه الآية ، فقالت ان هاهنا حرفا مقدراً هو (لا) على قراءة لا يطيقونه ، وما الى ذلك من تأويلات . وما أجل أن نستشير اللغة واستعمالاتها في شرح آيات القرآن الكريم لأن الله عز وجل أنزله بلسان عربي مبين^(٢) .

وانما قلت إن هذه من المصطلحات القرآنية الجديدة لأن الشعر الجاهلي لم يفرق في الاستعمال بين القدرة والاستطاعة والطاقة . بل وردت هذه الكلمات كأنها بمعنى واحد . من ذلك قول صخر بن عمرو بن الشريد^(٣) :

أهم بأمر الحزم لو استطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
فهو هنا يريد لو أطيعه ، بدليل عجز البيت الذي صار يضرب مثلاً لمن يريد القيام بعمل ولكنه لم يتمكن منه . ومن ذلك أيضاً قول عمرو بن معد يكرب^(٤) :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع
فكلمة تستطع في صدر البيت معناها (تطق) ، حسب المعنى الذي قصده الشاعر .

الكسب :

الكسب قضية فلسفية شغلت الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين كثيرا . ولكني هنا سأتناول الكسب على أنه مصطلح قرآني جديد ، انفرد القرآن الكريم باعطاء الكلمة معنى خاصا لم يرد من قبل في أي نص شعري أو نثري ، ولم يحدد معناه القرآني علماء اللغة أو علماء الفقه الاسلامي ، أو الفلاسفة الذين خاضوا فيه كثيرا بعد نزول القرآن الكريم .

وقد كان الكسب في شعر الجاهليين لا يعني سوى الربح والفوز . وقد وصف الرجال بأنهم كسابون ومكسابون اذا فازوا في غزواتهم أو غنموا في حروبهم ، أو ربحوا في تجارتهم . وقد وردت أشعار كثيرة تحدد هذا المعنى ، منها قول أسماء بن خارجة^(٥) :

١ - في ظلال القرآن ٢٤٤/١ .

٢ - تراجع في معنى هذه الآية الملاحظة القيمة التي ذكرها العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه الاركان الأربعة ص ١٩٠ .

٣ - الأصمعيات ص ١٤٦ . والقيصر حمار الوحش والنزوان وتؤبؤه على أنثاه .

٤ - الأصمعيات ١٧٥ .

٥ - الأصمعيات ص ٥٠ .

ولقد أَلَمَّ بنا لنقربه بادى الشقاء محارف الكسب
وقال السموأل (١) :

فاجعلن رزقي الحلال من الكسب وبرا سريرتي ما حييت
وقول أعشى باهله يرثى أخاه (٢) :

أخو حروب ومكساب اذا عدموا وفي المحافل منه الجدة والحذر
وقول لبيد (٣) :

لُمَعَقْرَقَهْدٍ تَنَازَعِ شَلَوَه غُبْسٌ كَوَاسِبٍ لَا يُمَنُّ طَعَامُهَا

وبعد نزول القرآن الكريم ظل الناس يستعملون هذا المعنى للكلمة ، ولم يفتنوا الى ما أضفاه عليها القرآن من ظلال وإحجاءات خاصة ، كما سنذكره بعد قليل . ومثال ذلك ما ورد في مقدمة ابن خلدون ، باب بعنوان : « في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يُعرف في ذلك كله من الأحوال وفيه مسائل » والفصل الأول « في حقيقة الكسب والرزق وشرحهما » وأن الكسب هو قيمة الاعمال البشرية « (٤) . وظل هذا المعنى يدور بين الناس في كل مجال . والكتب تبحث في وسائل الكسب الحرام والحلال . ولم أعرف — في حدود ما طالعت وما سمعت — أحدا من الناس استعمل الكسب في غير معناه هذا الشائع منذ الشعر الجاهلي .

أما في القرآن الكريم فان الكسب يعني اقتراف فعل السوء ، أو القيام بما يسيء الى الانسان ويسبب له الشر والهلاك ، خاصة عند عمل ما يخالف شرع الله وأحكامه . وقد وردت هذه المادة اللغوية في سبع وستين آية في القرآن الكريم ، معظمها يؤدي هذا المعنى ويحدده . منها قوله تعالى :

يَا مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَةُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ (٥)

وقوله تعالى :

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا (٦)

١ - الأصمعيات ص ٨٥ .

٢ - الأصمعيات ٩٠ .

٣ - ديوان لبيد ، طبعة دار صادر ، ١٩٦٦ ، ص ١٧١ .

٤ - مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٠ .

٥ - البقرة ٨١ .

٦ - المائدة ٣٨ .

وقوله تعالى :

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ^(١)

وقوله تعالى

وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^(٢)

وعشرات الآيات الأخرى . وواضح من سياق الآيات أن الكسب فيها معنى عام هو الفعل السيء .

وهذا وقد وردت بعض الآيات كان فيها معنى الكلمة يفيد نتيجة العمل دون وصفه بخير أو بشر ، وهذه الآيات تتحدث عن الأمم السابقة في مثل قوله

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ^(٣)

ولكن في القرآن آية واحدة فقط وردت فيها الكلمة تحمل معنى طيبا هي قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ^(٤)

ولا يلغى المصطلح القرآني الذي أشرت اليه وبرود آية واحدة فقط ضمن أكثر من ستين آية أخرى تتضافر كلها لتكريس المعنى المشار اليه . وقد سبق أن بني أن آيات القرآن الكريم كانت تحدد المصطلح القرآني في جل المواضع الذي يرد فيها ذكره ، وربما يرد المعنى المخالف للمعنى الاصطلاحي في آية أو آيتين ، ولا يكون ذلك كافيا لنقض المعنى الاصطلاحي التي اتفقت الآيات الأخرى على بيانه مثال ذلك ما ورد في مادة الكفر ، التي ذكرت في القرآن بمعنى الاعراض عن عبادة الله ، ولكنها في آيات قليلة وردت بمعناها اللغوي وهو الستر والتغطية . ومثل ذلك في مصطلحات الزكاة والصلاة والجاهلية وغيرها . ويمكن أن نقرر في مصطلح الكسب هذا الحكم نفسه .

١ - فاطر ٤٥ .

٢ - الانعام ١٢٩ .

٣ - البقرة ١٤١ .

٤ - البقرة ٢٦٧ .

ولنا في النهاية أن نتساءل لأمر ما ربط الله عز وجل بين الكسب وبين العمل السيء ذي النتائج الوخيمة ؟ ان هذا الربط لم يكن جزافا ، ربما كان في ذلك اشارة الى أن الانسان يميل غالباً مع أهوائه ، ورغباته ، خاصة في مجال العمل ، وأن الانسان الذي يشقى في سبيل هدف ما ، لابد أن يتذكر أن هذا الهدف قد يكون في النهاية وبالا عليه . وليس المقياس في العمل هو الجهد الذي يبذل فيه ، بل هو النتيجة التي يوصل اليها . فكم من انسان يشقى ويكون عمله ضلالا وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، فليتذكر الانسان أن الكسب ، وفيه دلالة الجهد في العمل ، لا يكون خيرا له إلا اذا كان موافقا لما سنه الله عز وجل من وسائل العمل الشريف ، والربح الحلال . ويدل على هذا المعنى قوله تعالى في شأن الكفار الذين يعملون بهجد وتعب ، ولكن نتيجة أعمالهم وبال عليهم . قال تعالى :

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾

وقوله تعالى :

عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿١٠٥﴾ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴿١٠٦﴾

وقد روى في تفسير هذه الآيات من سورة الغاشية عن الحسن قال : لما قدم عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — الشام أتاه راهب شيخ كبير ، عليه سواد ، فلما رآه عمر بكى : فقيل له : يا أمير المؤمنين ما يبكيك . قال : هذا المسكين طلب أمرا فلم يصبه ، ورجا رجاء فأخطأه ، وقرأ قول الله عز وجل : « وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة » (٣) .

الأنفال والفيء :

هما من المصطلحات الجديدة في القرآن ، لأن ما فيهما في معنى سام لم يكن ليعرف قبل نزول القرآن الكريم ، وما سنه القرآن من أحكام الدعوة التي قد يكون القتال أحد مراحلها أو ضروراتها ، ثم ما يتبع القتال من نصر وفتح ، وما يكون في الفتح من أنفال وأفياء .

(١) الكهف ١٠٣ — ١٠٤ .

(٢) الغاشية ٣ — ٤ .

(٣) تفسير القرطبي ، المجلد العاشر ، ص ٧١١٧ .

١ - الانفال :

ذكرت الانفال مرتين في القرآن الكريم ، في الآية الأولى من سورة الانفال ، وهي قوله

تعالى

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا
ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ^(١)

وقد نزلت هذه السورة مع أحداث معركة بدر ، وقد بينت كل أحداث المعركة ونتائجها . ومن هذه النتائج ما غنمه المسلمون من قريش وأحلافها . وقد اختلف المسلمون حول كيفية توزيع هذه الغنائم وحول من هم أحق بها . وهذا أمر قد فصلته كتب التفسير ، ويعنينا هنا معنى الانفال والفرق بينه وبين الغنائم .

والغنائم هي ما يغنمه الناس من عدوهم بعد قتال . والأمري في الغنيمة — كما قرر القرآن ، وكما سيتضح بعد قليل — الا يفكر الجندي المسلم فيها الا بعد انتهاء المعركة ، وانتهاء مقاومة العدو للدعوة الاسلامية ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم « الا تخان في الأرض » ، وهذا لا يكون الا بعد الانتصار الشامل للجيش الاسلامي ، والانهيار التام للجيش المعادي حيث لا تكون لديه مقاومة بعدها . بعد ذلك — وبعد ذلك فقط — يمكن أن ينظر المجاهدون في أمر جمع المغانم — باذن القائد — وفي أمر توزيعها — باذن القائد أيضا — حسب ما قرره الشريعة الاسلامية . وهذا يعني أن الغنائم ليست هي هدف الجيش المسلم عند خروجه ، لا هي هدفه الأول ولا هي هدفه الأخير ، انما هدفه هو الجهاد في سبيل الله ، لاعلاء كلمة الله ، ويجب الا يدخر المسلمون جهدا في سبيل تحقيق ذلك . وقصة غزوة أحد قدمت درسا للمسلمين — فعندما اهتم قسم منهم بالغنائم قبل تحقيق النصر التام دارت عليهم الدائرة ، في الشوط الثاني من المعركة ، وزلزلوا زلزالا شديدا ، ولولا حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن قيادته ، لاندحروا تماما ، ولكنه عليه السلام جمع صفوف جيشه من جديد ، ونظم الجنود ، وتابع قريشا ، في الجولة الثالثة من المعركة ، وولت امامه خائفة مذعورة ، وتحقق للمسلمين في النهاية النصر . درس للمسلمين في الهدف من القتال ، وفي قيمة الغنائم الرخيصة الزائلة ، بجانب الهدف الأسمى وهو تحقيق النصر ، ومن بعده الفتح ، واعلاء كلمة الله في الأرض . ولكي يقرر الله عز وجل هذه المعنى ويثبتها في نفوس

(١) الانفال ١

المسلمين سمي مغنم بدر انفالا (١) . والانفال جمع نفل وهو الزيادة ، فالانفال هي — في الاصل — الزيادات ، وهذا هو معناها اللغوي . وهو المعنى الذي عرفت به الكلمة في الشعر الجاهلي . وهذا يظهر من قول لبيد العامري (٢) :

وكثيرة غرباؤها مجهولة ترجى نوافلها ويخشى ذامها
أي عطاياها ، وقال أبو ذؤيب الهذلي (٣) :

فان تك انشى في معد كريمة علينا فقد أعطيت نافلة الفضل
وقال النابغة (٤) :

يوما بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد
وقال أيضا (٥) :

جمعوا من نوافل الناس سيبا وحيرا موسومة وخيولا

ولكن الانفال في القرآن اتخذت معنى أخص من هذا المعنى اللغوي العام . فالانفال هي هبة الله عز وجل للمقاتلين الذين حققوا بخروجهم الهدف الأول من القتال ، وهو اعلاء كلمة الله ، فاذا ما حققوا هذا الهدف ، زادهم الله خيرا وكافأهم بأن وهبهم هذه الغنائم التي حصلوا عليها ، والتي لم ينظروا إليها حتى ائخذوا في الأرض وألغوا كل مقاومة لاعداء الاسلام .

فالانفال اذن كلمة فيها تشريع وتوجيه ، تشريع لتثبيت الغرض من الخروج للقتال ، وتوجيه لمشاعر المسلمين لكي يسارعوا في تحقيق غاية الانسان في الأرض ، وبذل ما في الوسع ، دون الاهتمام بمغنم قريب أو عرض زائل . فاذا ما فعلوا ذلك وحققوا لدينهم النصر ولأمتهم الخير ، لا بأس اذن أن ينالوا بعض الثواب في الدنيا ، زيادة على أجرهم المقدر لهم في الآخرة . وما أجل ما صورت آيات القرآن الكريم هذا المعنى السامي ، وهذا الهدف

١ - حقيقة أن معركة أحد حدثت بعد غزوة بدر بسنة واحدة ، ولكن المعروف أن الأحداث التي جرت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت كلها تبياناً لحقيقة الدعوة الإسلامية ، ومراحلها ، وما تتضمنه خلال ذلك كله من فقه في الدعوة ، وفهم لواجب المسلمين . فان لم يدرك بعض المسلمين معنى الانفال في الغزوة الأولى ، كان لابد لهم من درس قاس ليعلموا حقيقة ما يجب أن يجاهدوا من أجله في المرات القادمة ، وبعد ذلك في الحياة كلها .

٢ - ديوان لبيد ، ص ١٧٧ .

٣ - ديوان الهذليين ، ١/ ٣٧ .

٤ - ديوان النابغة ، ص ٢٤ .

٥ - ديوان النابغة ، ص ١٤٢ .

النبيﷺ : قال تعالى :

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَافِرُونَ
﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ
يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ
ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ^(١)

ويؤكد معنى الانفال في القرآن ، أن الله عز وجل بعد أن ذكر سؤال الناس عن الانفال في أول آية من هذه السورة الكريمة ، أخذ يعدد للمسلمين وسائل النصر ، والحكمة من الخروج ، وامداد الله لهم بجند من عنده ، وكشف لهم عن خدع الشيطان ، وصور أحداث المعركة كما جرت بين الفريقين ، والمنن التي امتن الله بها على المسلمين ، وبعد ذلك كله ، وبعد أربعين آية من هذه السورة ، ذكر الله تعالى الآية التي يشرع فيها كيفية توزيع الغنائم

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٢)

ذلك ليؤكد للمسلمين أن الهدف ليس هو الغنائم وإنما هو الجهاد ، ولذا أعرض الله عز وجل عن سؤالهم ، وبين لهم ما ينبغي أن يفهموه ، ثم شرع لهم في النهاية كيفية توزيع الغنائم إذا حصلوا عليها ، وهذه الغنائم عندئذ انفالا — بالمعنى القرآني لهذه الكلمة — لا غنائم بالمعنى الجاهلي الذي يفهمه الناس .

٢ - الفية :

هو ما يردده الله تعالى على أهل دينه من أموال من خالف دينه بلا قتال . إما بأن يجلوا

(١) الانفال ٥ - ٨ .

(٢) الانفال ٤١ .

عن أوطانهم ويخلوها للمسلمين ، أو يصالحوا على جزية يؤدونها عن رؤوسهم ، أو مال غير الجزية يفتدون به من سفك دمائهم . قال صاحب اللسان : الفيء في كتاب الله تعالى على ثلاثة معان ، مرجعها الى أصل واحد وهو الرجوع :
— الفيء من الإيلاء وهو الرجوع الى ما حلف الا يفعله .
— وتفيأت المرأة لزوجها تثنت عليه وتكسرت له تدللا . قال الراجز :

تفياأت ذات الدلال والخفر لعابس جاني الدلال مقشعر
— والفيء : الغنيمة والخراج . والفيء ما حصل للمسلمين من أحوال الكفار من غير حرب ولا جهاد (١) .

ومن هنا يظهر الفرق بين الفيء وبين الغنائم . فالفيء بالمعنى الأخير السابق في كلام صاحب اللسان ، وكما ورد في تعريفه ، مصطلح جديد لم يكن معروفا عند الجاهليين . فهم لم يعرفوا غير الغنيمة التي تكون أثر الغارات والغزوات ، وأيام العرب حافلة بذكر هذه الغنائم .

والفيء مأخوذ من معنى الرجوع . ومنه أخذت الكلمة كل معانيها المتداولة سواء بمعنى الظل أو بمعنى الغنيمة . وقد فرق علماء اللغة بين الظل والفيء ، فقالوا : الظل هو في أول النهار فاذا نسخته الشمس ثم رجع فهو فيء حيثنذ (٢) . أي أنه الظل الذي يكون بعد الزوال ، وقت العصر أو الأصيل . قال الشاعر (٣) :

لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأقعد في أفيائه بالأصائل
وقال آخر يصف سرحة وكنى بها عن امرأة (٤) :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشى تذوق

ويمكن تفسير معنى الفيء في القرآن على هذا الأصل . فلأموال التي كانت للأعداء رجعت للمسلمين لأنهم رفضوا الدخول في دين الله . أو قاموا بعمل عدواني ضد المسلمين فعوقبوا بالاجلاء ، ومصادرة الأموال . وقد وردت آيات القرآن الكريم بالمعنى الأساسي

(١) جبهة اللغة مادة فاء .

(٢) لسان العرب مادة فاء .

(٣) المرجع السابق .

لكلمة فيء وبالمعنى الاصطلاحي أيضا . ففي معنى رجع قال تعالى
وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ
إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ^(١)

وفي معنى الغنيمة قال تعالى

وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ^(٢)

وقال تعالى :

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىٰ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ
مِنْكُمْ وَمَا تَنَكَّرُ الرَّسُولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ^(٣)

وهذه الآية الأخيرة من سورة الحشر، ومن المعروف أنها نزلت في قضية يهود المدينة الذي
أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنها بعد محاولة غدرهم بالنبي وفتحهم بالمسلمين .

وهكذا يكون الفيء والانفال من المصطلحات الجديدة التي صنع معناها القرآن
الكريم .

السعي :

وأعني به هنا السعي بمعنى العمل ، وليس السعي الذي هو أحد مناسك الحج ، وإن
كان هذا السعي سيضفي مزيدا من الايضاح على المعنى الاصطلاحي الذي نريده . والسعي
من المصطلحات العجيبة التي يقدمها القرآن الكريم . فعند قراءة الآيات الكريمة التي ذكر
فيها السعي نجد أنها كلها تتضافر على تقديم معنى جديد للسعي . فمن المعروف أن السعي

١ - الحجرات ٩ .

٢ - الأحزاب ٥٠ .

٣ - الحشر ٧ .

يعني المشي او الانتقال من مكان الى مكان . وهذا هو المعنى العادي المألوف الذي ورد في معاجم اللغة وفي أشعار العرب قبل نزول القرآن الكريم . فقد ورد السعي بمعنى القصد والمشي السريع ، والتصرف في كل عمل ، والكسب أي التحصيل . وبهذه المعاني عرف الشعر الجاهلي هذه الكلمة . قال الشاعر (١) :

أُسعى على جل بني مالك كل امرئ في نفسه ساعٍ
وقال زهير يصف سعاة الصلح الذين كانوا يسمونهم أصحاب الحملات لحقن الدماء (٢) :
سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم
وقال عمرو بن الاهتم (٣) :

لقد أوصيت رباعي بن عمرو اذا حزبت عشيرتك الامور
بألا تفسدن ما قد سعيننا وحفظ السورة العليا كبير

ولكن آيات القرآن الكريم حملت الكلمة دلالة أوسع من هذا المعنى . ان السعي في القرآن الكريم يقصد به العمل الجاد الذي يصاحبه التفكير والتخطيط والتنظيم ، ولا يتم الا ببذل الجهد ومعاونة الأمر . فمن السهل أن نقول عَمِلَ الانسان عملا ما ، ولكن هذا لا يرادف قولنا سعى فلان في عمل ما . ولتقرأ آيات الله عز وجل :

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ
سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا (٤)

وسعي الآخرة يحتاج — من المسلم — الى ارادة وعزيمة وثبات على الأمر حتى يكون من الفائزين . وقد ورد في تفسير هذه الآية قولهم : « أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم » (٥) وكذلك ورد في شرحها « والذي يريد الآخرة لا بد أن

١ - تاج العروس مادة سعي .

٢ - ديوان زهير ص ١٤ . وأنظر تاج العروس مادة سعي .

٣ - الفضليات ٤٠٩ .

٤ - الاسراء ١٩ .

٥ - تفسير ابن كثير ٣/٣٣ .

يسعى لها سعيها فيؤدي تكاليفها وينهض بتبعاتها ، و يقيم سعيه لها على الايمان ، وليس الايمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل « (١) وقال تعالى :

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيْءَايَتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٢)

قال مجاهد يشبطون الناس عن متابعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذا قال عبد الله بن الزبير . وقال ابن عباس معاجزين مراغمين « (٣) وقيل في تفسيرها أيضا « وأما الذين بذلوا غاية جهدهم في تعطيل آيات الله عن أن تبلغ القلوب وتتحقق في حياة الناس — وآيات الله هي دلائله على الحق وهي شريعته كذلك للخلق — فأما هؤلاء فقد جعلهم مالكين للجهنم ، ويا لسوءها من ملكية في مقابل ذلك الرزق الكريم « (٤) . ويمكن أيضا أن نتأمل معنى السعي في الآيات الكريمة التالية : قال تعالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا (٥)

قال تعالى :

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا (٦)

وقال تعالى :

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ (٧)

وقال تعالى :

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (٨)

وهكذا وهكذا ..

- | | |
|--------------------------------|-----------------------|
| ١ - في ظلال القرآن م ٥ ص ٣١٤ . | ٥ - البقرة ١١٤ . |
| ٢ - الحج ٥١ . | ٦ - المائدة ٣٣ . |
| ٣ - تفسير ابن كثير ٢٢٨/٣ . | ٧ - الأنبياء ٩٤ . |
| ٤ - في ظلال القرآن ٦١١/٥ . | ٨ - الكهف ١٠٣ - ١٠٤ . |

فالسعي اذن هو العمل مع الجهد ، ومع التصميم ، ولذلك سَمَى الله عز وجل الطواف حول الصفا والمروة سعيًا لما يبذله فيه الحاج من جهد ، وما يشعرفيه من تعب ، خاصة اذا تذكرنا الساعية الأولى فيه وهي السيدة هاجر زوج رسول الله ابراهيم عليه السلام .

وبهذا يتحقق أن السعي مصطلح قرآني جديد . وهذا المصطلح انما يعرف من دراسة آيات الله عز وجل التي تعطي الكلمة مدلولًا خاصًا ، تميزها عن غيرها من الكلمات ، فالسعي اذن غير العمل . وهذا دليل جديد أو مثل آخر على اعجاز القرآن الكريم ، وعدم وقوع الترادف فيه .

أصحاب اليمين وأصحاب الشمال :

استقر في القرآن الكريم ما كان شائعًا في العصر الجاهلي من الاهتمام باليمين والتفاؤل به والاعراض عن الشمال والتشاؤم منه . وقد استعمل القرآن الكريم اليمين والشمال بمعناها العادي وبالمعنى الاصطلاحي القرآني الذي أضفاه على كل منهما . ففي المعنى الأول ترد كلمة اليمين أو الشمال دون أن تحمل أي دلالة سوى تعيين الجهة المقصودة في الحديث . قال تعالى :

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ (١)

وقال تعالى :

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ (٢)

وقال تعالى :

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (٣)

ولكن القرآن الكريم تجاوز هذا المعنى المحدود واتخذ من اليمين والشمال مصطلحين جديدين هما أصحاب اليمين وأصحاب الشمال . واعتبر أن أصحاب اليمين هم المؤمنون في

(١) الكهف ١٧ .

(٢) سبأ ١٥ .

(٣) ق ١٧ .

الدنيا . وهم الذين سيكونون أصحاب الجنة في الآخرة . وسمي الذين يموتون على الكفر أصحاب الشمال لأنهم سيكونون أصحاب النار في الآخرة ، ولنقرأ أولا هذه الآيات الكرعة ، ثم نحاول بعدها البحث عن السبب الذي من أجله حل اليمين والشمال في القرآن هذه الدلالة : قال تعالى :

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَلَكَهٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٢﴾ وَفَرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً فَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٤﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٥﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلِّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لِأَبَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ^(١)

وقال تعالى :

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدرَ مَا حِسَابِيَهٗ ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ ﴿٢٨﴾ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ ^(٢)

(١) الواقعة ٢٧ - ٤٤ .

(٢) الحاقة ١٩ - ٣٠ .

ان السحر في البيان والاعجاز في التعبير والتصوير غني عن الشرح والتعليق . ولكن تبقى مناقشة سؤال آخر : كيف اتخذ اليمين والشمال هذا المعنى عند العرب ؟

ان الحياة في الصحراء قد أورثت الناس كثيرا من الصفات المادية والمعنوية التي يكون للبيئة أثراً أساسيا فيها . وسكان الجزيرة العربية ، بصحاريها المترامية الاطراف من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ، كانوا يعانون حرارة الصيف و يغالبون قسوة الشتاء . ويحترقون بلهب الشمس نهارا ، ويرتجفون من لسعة الزمهرير ليلا . وهم لذلك يتأثرون بكل ظاهرة طبيعية من شأنها أن تزيد في حرارة النهار أو برودة الليل . وريح الشمال ، حسب ما جرت عليه ملاحظة الناس — وأهل البادية متفوقون في الملاحظة والفراسة ومعرفة الأنواء — ريح شديدة البرودة قوية العصف ، اذا هبت ليلا ، وهي أيضا ريح تسفى الرمال ، وتعمي العيون ، وتلفح الوجوه اذا هبت نهارا . ولذلك كثرت شكاوى الشعراء منها ، وتذمر الناس من أهوالها : قال لييد بن ربيعة (١) :

وغداة ريح قد وزعت وقرة قد أصبحت بيد الشمال زمامها
يقول : كم من برد وقرة جاءت بها ريح الشمال كففت غرب عاديته باطعام الناس .
وقال الزيفان (٢) :

تلفه نكباء أو شمال

وقال آخر ولعله متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا

ثوى مالك ببلاد العدو تسفى عليه رياح الشمال
وقال طرفة (٣) :

فأنت على الأدنى شمال عرية شامية تزوي الوجوه بليل
ونتيجة لذلك صار الشمال مكروها عند العرب وصار يقابله اليمين وهو موضع الخير والرجاء والأمل . ومن هنا بدأ ينبت الاحساس بخير اليمين وشر الشمال وصار اليمين موضعاً للتفاؤل والشمال موضعاً للتشاؤم . وقد صور الشعر الجاهلي هذا الاحساس النفسي ، قال أبو ذؤيب الهذلي (٤) :

١ - ديوان لييد ص ١٧٦ .

٢ - ديوان طرفة ، ص ١١٩ .

٣ - ديوان الهذليين ، ١/٧٠ .

٤ - لسان العرب مادة شمل .

زجرت لها طير الشمال فان تكن هواك الذي تهوى يصبك اجتنابها
وقال أبو ذؤيب أيضا (١) :

اذا كان عامٌ مانعُ القَطَرِ ريحُه صبا وشمال قَرَّةٌ ودَبُور
وقال آخر (٢) :

رأين بني العلات لما تضافروا يحوزون سهمي دونهم في الشمال
وقصة التطير في العصر الجاهلي معروفة ، الطير السانح والطير البارح ، وقد استبدل الله عز
وجل بها الاستخارة ، كما هو مذكور في مصطلح التوكل والاستخارة . والعرب تقول فلان
عندي باليمن أي منزلة حسنة ، واذا ساءت منزلته قالوا هو عندي بالشمال . وأنشدوا
لعدي بن زيد يخاطب النعمان بين المنذر في تفضيله اياه على أخيه (٣) :

كيف ترجو رد المفيض وقد أخر قدحيك في بياض الشمال
يقول له : كنت أنا المفيض لقدحك وقدح أخيك ففوزتك عليه ، وقد كان أخوك قد أخرك
وجعل قدحك بالشمال .

واليمن عند العرب موضع البركة ومحل الفخر ، يقول عمرو بن كلثوم (٤) :

وكنا الايمنين اذا التقينا وكان الأيسرون بني أبينا
وفي القصيدة نفسها يقول :

صبت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا
حتى اليد اليمنى عندهم أقوى وأفضل من اليد اليسرى . قال الشماخ (٥) :

رأيت عرابة الأوس يسمو الى الخيرات منقطع القرين
اذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمن
وقال النابغة (٦) :

١ - ديوان الهذليين ، ١٣٩/١ .

٢ - اللسان مادة شمل . ويعني الشاعر أنهم ينزلونني في المنزل الخسيسة .

٣ - اللسان مادة شمل .

٤ - شرح المعلقات السبع ١٢٧ .

٥ - ديوان الشماخ ، ص ٣٣٦ .

٦ - ديوان النابغة ، ص ١٥١ والشعر والشعراء ٩٥/١ .

فلو كفى اليمين بغتتك خونا لأفردت اليمين من الشمال
وقال المثقب العبدى (١) :

ولو أنى تخالفنى شمالي بنصر لم تصاحبها يميني
وقد تنزل القرآن من بعد عبادة الجاهليين في تفضيل اليمينى على اليسرى فقال تعالى :

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٢)

أي بقوة وشجاعة وتصميم لأن اليمين أقوى من الشمال .

وقد حاولت مؤلفة (التعابير القرآنية في البيئة العربية) تفسير سبب اتخاذ اليمين سببا للتفاؤل والشمال سببا للتشاؤم فقالت إن ذلك بسبب فكرة الزجر التي كانت شائعة بينهم (٣) . وأعتقد أن هذا السبب نفسه بحاجة الى تعليل لأنه نتيجة وليس سببا كما أسلفنا . ومن الأفضل أن نرد ذلك الى أثر البيئة في حياة العربي وهو الأمر الذي انتهت اليه المؤلفة دون بيان شاف في هذه المسألة .

وبهذا يكون « أصحاب اليمين وأصحاب الشمال » مصطلحين قرآنيين جديدين في الاستعمال ، ولكنهما مستمدان من البيئة ، فما كان المسلم الذي يتلو القرآن ليفهم سبب تفضيل أصحاب اليمين على أصحاب الشمال لولا تلك الذخيرة الكثيرة من الأشعار والأخبار التي توارثها الناس عن الحياة في الجاهلية .

١ - الشعر والشعراء ٩٥/١ .

٢ - الصافات ٩٣ .

٣ - التعابير القرآنية ص ١٩٥ .

خاتمة

وبعد هذه الجولة الطويلة مع المصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم أود أن أسجل في هذه الخاتمة بعض الملاحظات والنتائج التي توصلت اليها . وبعض التصورات والمسائل التي اقترح دراستها ، في مجال الدلالة القرآنية .

١- من أول ما يثير انتباه الدارس في مجال الدلالة القرآنية أن القرآن الكريم مبين في كل ما يريد أن يقرره من أحكام ، وما يعرضه من قصص ، وما يسرد من أمثال ، مبين في كل وقت ، ومبين لكل دارس مهما كان مستواه العلمي . وقد شرحت من قبل في تمهيد هذا البحث ، معنى كلمة مبين . وأود هنا أن أقرر أن الابانة القرآنية ساطعة واضحة ، مع وجود ملاحظتين :

الأولى : أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب التي كانوا يتكلمونها . بل نزل بعاداتهم اللغوية التي تعارفوا عليها . حتى إن العربي كان يسمع القرآن الكريم فيستوعب معانيه ، ويتذوق ألفاظه وكلماته وتعبيراته . وفي ذلك تروي القصص الكثيرة المعبرة . وما أكثر ما سمع زعماء الكفر القرآن الكريم من فم النبي صلى الله عليه وسلم ، فتغيرت ألوانهم ، واضطربت قلوبهم .

الثانية : أن تطور الدلالة القرآنية واضح ، وشواهد متعددة ، على الرغم من قرب المسافة بين نزول القرآن الكريم والعصر الجاهلي . بل انهما فترتان متداخلتان في مقاييس اللغة ، والدلالة . والمعاني . وهذا أيضا أمر يسترعي الانتباه كثيرا . فكأن القرآن الكريم — الذي أراده الله عز وجل منهاجا للوجود الى قيام الساعة — قد استوعب كل عوامل التغير في المعنى ، والتطور في الدلالة ، وجاء بالتعبير القرآني الموحى ، المؤثر ، المعبر ، الواضح ، لكل قارئ ، فصنع مئات من الدلالات الجديدة ، من واقع اللغة نفسها التي قيلت فيها آلاف الشواهد الشعرية والنثرية . وسمع الناس القرآن الكريم ، فاذا بألفاظه تختصر الزمن ، وتطوي المسافات ، وتجمع العوامل المختلفة التي تؤثر في نمو اللغة ، واذا بالصلاة والزكاة ، والايمان ، والاسلام ، والجزية ، والشهادة ، والنفاق ، والفسوق ، وغيرها ، كلمات محددة المعاني واضحة الدلالة ، وان كان الناس يسمعونها في هذه الصيغ لأول مرة ، ولم يتعرفوا من قبل الى هذه الدلالات المتوالية الواضحة .

وقد سجل الاستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الاسلام هذه الملاحظة بقوله :
« صحيح أن القرآن نزل بلغة العرب ، ونصه لا يحتمل الشك ، وهو يفيدنا في تعرف
كثير من حياة الجاهلية العقلية فيما يحكى من أقوال المعاندين ، وفيما يصور من
حياتهم الاجتماعية والاقتصادية . ولكن ألفاظه وتعبيراته ومعانيه لا تمثل لغة
الجاهليين بأكملها ، لأن القرآن استعمل ألفاظا لم يكن يستعملها الجاهليون .
وخصص ألفاظا لمعان لم يكن يخصصها الجاهليون . واستعمل استعارات ومجازات
خارجة عن الدائرة التي كان يستعملها الجاهليون . وله أسلوب أخاذ كان بعيدا عن
أسلوب الجاهليين » (١) .

٢ - وثمة ملاحظة أخرى وهي أن المصطلحات القرآنية كانت تتألف من كلمة واحدة
أحيانا ومن عدة كلمات أحيانا أخرى . وهذا دليل على أن السياق له الدور الأول
في صياغة هذه المصطلحات . فمن حيث المصطلحات ذات اللفظ الواحد كنت أجد
المعنى يتأكد من خلال موقع اللفظة في الآية . وتضافر الآيات الكثيرات على
استعمال المعنى . فإذا قلت أن « النعمة » في القرآن الكريم مصطلح على ما ينعم الله
به عز وجل على الانسان في الدنيا ، فان ذلك لا يظهر الا بوجود كلمات أخرى تحدد
هذا المعنى وتؤكدده .

ومن مصطلحات القرآن الكريم ذات الالفاظ المتعددة ، مصطلح « في سبيل الله
و « يشهدون الزور » و « في قلبه مرض » و « أصحاب اليمين » و « أصحاب
الشمال » وكثير غيرها

٣ - كذلك أكد هذا البحث أنه لا ترادف في القرآن الكريم . والترادف بحث طويل
خاض فيه علماء اللغة كثيرا ، فمنهم من أجازوه ومنهم من أنكره . ولعل أفضل ما
يقال فيه أن الترادف في اللغة غير موجود الا من باب ضيق ، وهو ما يمكن أن يدخل
في نظام اللغة من لغات أخرى نتيجة العوامل السياسية والاجتماعية والدينية التي
يمكن أن تنقل ألفاظا من لغة ما الى لغة أخرى ، فتلتقي مع ألفاظ اللغة الأخرى تحمل
الدلالة نفسها .

ولكنني لم أجد خلال بحث الدلالة في المصطلحات القرآنية مثلا على الترادف
في القرآن الكريم . وقد سبق أن بينت الفروق الدقيقة بين جاء الموت وحضر الموت

(١) فجر الاسلام ، أحمد أمين ، ص ٥٣ .

مثلاً . وبين النعمة والنعيم ، والغيث والمطر ، والريح والرياح . والحق أن هذه القاعدة التي أكدها هذا البحث يمكن أن تكون أساساً صالحاً لبحوث أخرى كثيرة ، في مجال الدلالة في القرآن الكريم . فقد لاحظت أن دلالة الأفعال في القرآن تحتاج إلى بحث خاص . فقد استعمل القرآن الكريم أفعالاً يبدو للقارئ بادية الرأي أنها متشابهة في المعنى . مثل يصنعون ويعلمون ويفعلون . ومثل أنزل ونزل ، ومثل قسط وأقسط . ومثل أتى وحضر . ولكن هذه الأفعال ، وكثير غيرها ، بينها فروق دقيقة في الدلالة ، وبينها وبين استعمالها في الشعر الجاهلي فروق في المعنى . كذلك يمكن النظر في صياغات هذه الأفعال من حيث التجريد والزيادة والبناء للمعلوم والبناء للمجهول . كل ذلك يمكن أن يؤسس قاعدة صالحة لبحث في دلالة الأفعال في القرآن الكريم يقوم على اعتقاد أن الترادف في القرآن الكريم غير موجود .

٤ - ومن الملاحظات أيضاً هذا الفرق الواضح بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم . فقارئ الشعر الجاهلي يصطدم بألفاظ كثيرة غريبة في السمع ، ثقيلة على الأذن ، وهي وإن كانت مفهومة ومألوفة للناس في العصر الجاهلي ، إلا أن هؤلاء الناس أنفسهم وجدوا فرقاً كبيراً بينها وبين صياغة القرآن الكريم . فقارئ القرآن الكريم لا يكاد يجد لفظة غريبة في أصواتها ، ثقيلة في جرسها .

فما السر وراء ذلك ؟ إن هاهنا يكمن بحث جديد يستحق أن تحفز إليه الهمم وهو ما يمكن أن يسمى « الانسجام الصوتي في الكلمة العربية » . أننا كثيراً ما نقرأ في المعاجم اللغوية أن ألفاظاً من اللغة مهجورة . وألفاظاً غير مستعملة ، وألفاظاً شاذة في الاستعمال . وألفاظاً ماتت على الألسنة ، لماذا هذه الظواهر ؟ ولماذا لم تمت ألفاظ من القرآن الكريم ؟ لقد استوعب القرآن الكريم الحياة الإنسانية السائدة في فترة نزوله ، واستوعب الحياة الإنسانية في كل العصور التالية له ، والتي سيشهدها الإنسان إلى قيام الساعة . وما زال قرآننا يتلى ، لا يخلق على طول الرد ولا تنتهي عجائبه . إن النظام الصوتي للكلمة العربية بحث جدير بأن ينهض له علماء اللغة ، فيفسروا هذه الظواهر ، وكثيراً غيرها مما يجتهد للباحث عندما يتوفر على هذه الدراسة في خطة منهجية منظمة .

٥ - وهناك ملاحظة مهمة في هذا البحث ، هي ان المصطلحات الاسلامية في القرآن الكريم ، عندما قورنت باللغة العربية في الشعر الجاهلي : توزعت في ثلاث طوائف رئيسية هي :

أ - مصطلحات ثبتت دلالتها في القرآن الكريم على ما كانت عليه في الشعر الجاهلي . ومن ذلك مصطلحات : الجنة ، الفردوس ، الجحيم ، السعير ، الضريع ، الجن ، الله ، الملائكة ، رب ، الحج ، العمرة ، وغيرها كثير ، أشرت اليه في هذه الدراسة .

ب - مصطلحات تغيرت دلالتها عما كانت عليه في العصر الجاهلي . وهذا التغير اتخذ أشكالا عدة توافق ما أثبتته في الفصل الأول من مظاهر التغير اللغوي . فهناك مصطلحات كانت عامة الدلالة جاء القرآن الكريم وخصص دلالتها في معنى اصطلاحي خاص من ذلك الشريعة ، والرسول ، والنبي ، والصلاة ، والصيام . وهناك مصطلحات كانت خاصة في دلالتها على معنى محدد جاء القرآن الكريم وأعطاه دلالة عامة مثل الكفر ، والفسق ، والنفاق . وهناك مصطلحات تطورت عن طريق المجاز اللغوي الى معنى جديد في القرآن الكريم مثل التسبيح ، والمغفرة ، والجنة .

ج - مصطلحات أعطاه القرآن دلالة جديدة لم تكن معروفة لها في الشعر الجاهلي . مثل الجزية والحد والتعزيز والغسلين ، وابليس ، والواحد ، والجبار ، وغيرها .

٦ - كما أنه يمكن القول إن القرآن الكريم قد أحدث مصطلحات جديدة من خلال السياق القرآني ، حيث أعطى بعض الكلمات دلالات لم تعرفها في الشعر الجاهلي . فقد فرق القرآن الكريم بين الفلاح والفوز ، والأجر والثواب . والعذاب والعقاب ، والريح والرياح . والغيث والمطر . والنعمة والنعيم . والانفال والفيء . وهذه المصطلحات أخذت دلالتها القرآنية من تضافر الآيات الكريمة على تكريس معنى محدد للكلمة . فقد أصر القرآن الكريم على استعمال المطر في حالات العذاب والعقاب في الدنيا ، مثلما أصر على استعمال الغيث في معاني الخير والنماء . ومثل ذلك يقال في الريح والرياح . وما الى ذلك . وهذا أسلوب جديد لم يعرفه الشعر الجاهلي الذي لم يفرق بين دلالة هذه الكلمات التي يبدو أنها مترادفة .

٧ - وثمة ملاحظة أخيرة هي أن القرآن الكريم استعمل الكلمة في موقعها المحدد الذي لا تغني فيه كلمة غيرها . ولا يمكن للدارس أن يفصل في دراسة القرآن الكريم بين اللفظ والمعنى ، إنما أمران متلاحمان متلازمان . فالكلمة في القرآن الكريم يراد منها - في موقعها - صورتها الصوتية ، وجرس أصواتها ، ومعناها ، وموقعها ، وارتباطها بغيرها من الكلمات السابقة واللاحقة ، في نظام قرآني فريد . وهذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز القرآني ، تحدث عنها العلماء كثيرا . واني أثبتها هنا للتأكيد على أنها كانت أساسا ثابتا من أسس هذا البحث . وقد تحدثت عنها قليلا في المقدمة . وأوردت أمثلة كثيرة لها خلال سياق هذا البحث .

بعد تلك الملاحظات كلها ، وبعد هذه الجولة الواسعة في مظاهر التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ؛ أحب أن أقرر أن هذا التطور دليل جديد على إعجاز القرآن الكريم ، ودليل أكيد على أن القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل ، ذلك لأن مظاهر التطور الدلالي هذه لا تستطيع أمة من الأمم ، بـلّة فرد واحد من أفرادها ، أن تأتي بها ، أو تصطنعها في مثل هذا البيان الخالد .

إن التطور في كل لغات الدنيا ينتج عن اضطراع عوامل عديدة في حياة الناس الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية في عديد من القرون المتوالية ، يشترك فيها أفراد المجتمع جميعهم بصورة تلقائية طبيعية في سياق حياتهم العادية . ومن المعروف أن التطور في اللغات كلها بطيء جداً ، حتى إن عدة قرون قد تمر على اللغة دون أن تلمس فيها مظاهر واضحة على التطور اللغوي بأشكاله المتنوعة . أما في اللغة العربية فقد صنع القرآن الكريم هذه اللغة الإسلامية الجديدة ، بين عشية وضحاها ، من واقع ما كان يتحدث به الناس في حياتهم ، اذ فوجيء الناس - ذات صباح - على قرآن يتلى عليهم فيه من الدلالات والاشتقاقات والتراكيب الجديدة ما لم يخطر لهم على بال ، في نظم قرآني فريد ، تحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وإن هذه النتيجة التي توصل إليها هذا البحث تجعل من قول بعض المستشرقين إن القرآن من عند محمد - عليه الصلاة والسلام - قضية هابطة سخيفة ؛ تشبه قول أحدهم إنني سأخرج على الدنيا غدا بلغة جديدة ، يتداولها الناس جميعا باعزاز وإكبار .

واني اذ أقدم هذا البحث لأشعر أنه ما زال ينقصه الكثير من الجهد . وأقرر أن ما مضى كله ان هو الا تعبير موجز جدا عما يمكن أن يكون عليه هذا البحث في صورته الكاملة فقد كنت أورد بيت الشعر الذي يحمل الشاهد المعين ، ولا أشرح موضع الشاهد فيه ، معتمدا على فهم القارىء له . وكنت أورد الآية الكريمة ، ولا أشرح دلالة الكلمة فيها ، ولو فعلت ذلك ، لطال هذا البحث الى أضعاف ما هو عليه الآن . ولكنه بحث أرجو أن يكون قد مهد الطريق ، لبحوث أخرى ، في مجال الدلالة القرآنية ، في مختلف جوانبها .

واني أرجو الله عز وجل أن يكتب لي أجر هذا العمل ، في الدنيا والآخرة ، وهو سبحانه يعلم النية التي دفعتنني لكتابته ، والأمل الذي أرجوه به سائلا الله عز وجل أن يجعله وسيلة تقربني من رضاه . وأن ينفع به أهل القرآن ، وحمة العلم . وأن يجزى الله عز وجل جزاء حسنا كل من أسهم فيه بالنصيحة والارشاد والاشراف والعون . و « ان وَلِيَّيَ الله الذي نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية أو المترجمة الى العربية مرتبة بحسب أسماء مؤلفيها
ترتيباً أبجدياً

الأبشهي: الشيخ شهاب الدين أحمد:

* المستطرف في كل فن مستظرف، مكتبة الشيخ محمد المليجي الكتبي. القاهرة.

أحمد بن فارس:

أ - الصحابي - المكتبة السلفية - القاهرة ١٩١٠.

ب - مقاييس اللغة - تحقيق عبد السلام هارون - البابي الحلبي - الطبعة الأولى

١٣٦٨ هـ.

أمين، أحمد:

* فجر الاسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٦٩ م.

الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد:

تهذيب اللغة - تحقيق عبد الكريم الغرباوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

الأسد: الدكتور ناصر الدين:

* مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار المعارف بمصر - الطبعة الثالثة -

١٩٦٦ م.

الأصفهاني: الراغب:

* المفردات في غريب القرآن، المطبعة الميمنية، القاهرة، ١٣٢٤ هـ.

الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك:

* الأصمعيات. تحقيق أحمد محمد شاكر. عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر

١٩٦٤ م.

الأعشى: ميمون بن قيس:

* ديوان الأعشى. شرح وتعليق محمد محمد حسين. المكتب الشرقي للنشر والتوزيع،

بيروت ١٩٦٨ م.

امرؤ القيس: ابن حجر الكندي:

* ديوان امرؤ القيس - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة

الثالثة ١٩٦٩ م.

أمية بن أبي الصلت :

* ديوان أمية بن أبي الصلت — المكتبة الأهلية — بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٤ م .

أنيس : الدكتور ابراهيم :

* في اللهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٥ م .

أوس بن حجر :

* ديوان أوس بن حجر ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ،

الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ م .

أولمان ، ستيفن :

* دور الكلمة في اللغة ، ترجمة الدكتور كمال بشر ، دار الطباعة القومية ، القاهرة ،

١٩٦٢ .

ابراهيم — الدكتور طه أحمد :

* تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري ، دار

الحكمة ، بيروت .

ابراهيم : محمد اسماعيل :

* معجم الألفاظ والأعلام الإسلامية . دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ،

١٩٦٨ م .

ابن جنى : أبو الفتح عثمان :

* الخصائص ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

ابن حنبل ، أحمد :

* مسند الامام أحمد بن حنبل ، المكتب الاسلامي .

ابن خلدون :

* مقدمة ابن خلدون ، دار البيان ، بيروت .

ابن دريد الأزدي :

* جهرة اللغة ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة .

ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن اسماعيل :

* المخصص ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، ١٣١٦ هـ .

ابن العربي - أبو بكر محمد بن عبد الله :

* أحكام القرآن ، مكتبة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٣١ هـ .

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم :

أ - أدب الكاتب ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٦٣ م .

ب - تأويل غريب القرآن ، شرح وتحقيق أحمد صقر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٨ م .

ج - تأويل مشكل القرآن ، شرح وتحقيق أحمد صقر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٨ م .

د - الشعر والشعراء : دار الثقافة بيروت ١٩٦٩ م .

ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي :

أ - تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ م .

ب - البداية والنهاية ، مكتبة المعارف بيروت ، مكتبة النصر ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م .

ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري :

* لسان العرب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري :

* السيرة النبوية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٥ م .

أبو تمام الطائي : حبيب بن أوس :

* ديوان الحماسة ، مختصر من شرح التبريزي ، مكتبة محمد علي صبيح ، القاهرة ،

١٩٥٥ م .

أبو السعود : محمد بن محمد العمادي :

* تفسير أبي السعود المسمى ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ، المطبعة

المصرية ، الأزهر الشريف بمصر - الطبعة الأولى ، ١٩٢٨ م .

الباقلاني : القاضي أبو بكر :

* التمهيد ، نشر يوسف الكارثي اليسوعي ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، ١٩٥٧ م .

البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل :

* صحيح البخاري ، طبعة الشعب ، القاهرة .

بدوي : الدكتور أحمد أحمد :

* أسس النقد الأدبي عند العرب ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ م .

بشر ، الدكتور كمال :

أ — دراسات في علم اللغة — دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .

ب — علم اللغة العام ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ م .

البصير ، أبو الفضل ولي الدين :

* النهاية ، تحقيق لجنة من علماء الأزهر ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الرابعة ،

البهي ، الدكتور محمد :

* الدين ، والحضارة الانسانية ، كتاب الهلال ، العدد ١٥٧ ، ابريل ١٩٦٤ م .

الترمذي ، الحكيم :

* تحصيل نظائر القرآن ، تحقيق حسن نصر زيدان ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة

الأولى ، ١٩٧٠ م .

الثعالبي ، الشيخ عبد الرحمن :

* الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، مطبعة السيد جوردان بالجزائر ١٩٠٥ م .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر :

أ — البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ،

الطبعة الثالثة ١٩٦٨ م .

ب — الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون — البابي الحلبي ، القاهرة ، الطبعة

الثانية ١٩٦٥ م .

حاتم الطائي :

* ديوان حاتم الطائي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٤ م .

حسب الله ، الشيخ علي :

* أصول التشريع الاسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٦ م .

الحسنى ، السيد عبد الرزاق :

* الصابئون في حاضرم وماضيهم ، مطبعة الوفاق ، صيدا ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ م .

حسين ، الدكتور طه حسين :

* حديث الأربعاء ، الجزء الأول ، دار المعارف بمصر ، الطبعة التاسعة .

حسين ، الدكتور محمد محمد :

* الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ، دار النهضة العربية ، بيروت — ١٩٧١ م .

الحوفى ، الدكتور أحمد :

* الحياة العربية في الشعر الجاهلي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة .

الحيني ، الدكتور محمد جابر عبد العال :

* فى العقائد والأديان ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧١ م .

الحازن ، علاء الدين ابراهيم البغدادي :

* تفسير الحازن ، المسمى لباب التأويل فى معاني التنزيل ، المكتبة التجارية الكبرى ، وبهامشه : تفسير البغوي المسمى ، معالم التنزيل ، أبو الحسن الحسين الفراء البغوي .

الحفاجي ، ابن سنان ، عبد الله بن محمد بن سعيد :

* سر الفصاحة ، شرح عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة محمد علي صبيح ، القاهرة

١٩٦٩ م .

خليل ، الدكتور حلمي :

* المولد ، دراسة فى نحو اللغة العربية بعد الاسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع

الاسكندرية ١٩٧٨ م .

الرازي ، أبو حاتم محمد بن ادريس :

* الزينة فى الكلمات الاسلامية العربية . دار الكتاب العربي بمصر ، الطبعة الثانية

١٩٥٧ .

الزبيدي ، محمد مرتضى :

* تاج العروس فى جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، دون

تاريخ .

الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر:

أ — أساس البلاغة ، المطبعة الذهبية ، القاهرة الطبعة الأولى ، ١٨٨٣ .

ب — الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار الفكر ، بيروت .

وبهامشه الانصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال للامام ناصر الدين أحمد بن محمد المستنير ، الاسكندرية .

وتنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات — محب الدين أفندي .

زهير بن أبي سلمى :

* ديوان زهير بن أبي سلمى ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة ، والنشر ،

١٩٦٤ م .

الزوزني : أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين :

* شرح المعلقات السبع ، البابي الحلبي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٩ م .

السكري : أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الله :

* شرح ديوان كعب بن زهير ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٠ م .

السيوطي : الحافظ جلال الدين :

أ — الاتقان في علوم القرآن ، القاهرة ، البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥١ م .

ب — المزهر في علوم اللغة وآدابها . تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، البابي الحلبي — القاهرة ، دون تاريخ .

ج — تنوير الحوالك في شرح موطأ مالك ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، توزيع دار الفكر .

د — لباب النقول في أسباب النزول ، على هامش القرآن ، مطبوعات دار مروان ، دار

العربية .

السمرقندي : علاء الدين محمد بن أحمد :

* تحفة الفقهاء ، تحقيق محمد المنتصر الكتاني والدكتور وهبة الزحيلي ، دار الفكر ،

دمشق .

شاهين ، الدكتور عبد الصبور:

أ - تاريخ القرآن ، دار القلم - القاهرة - ١٩٦٦ م .

ب - القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث - دار القلم القاهرة ١٩٦٦ م .

ح - في التطور اللغوي ، مكتبة دارالعلوم ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

الشرقاوي ، محمود :

• الأنبياء في القرآن الكريم ، دار الشعب ، ١٩٧٠ م .

الشعراوي ، الشيخ محمد متولي :

• معجزة القرآن ، كتاب اليوم ، العدد ١٨٧ ، يونيو ١٩٨١ م .

شلتوت : الشيخ محمود :

• الى القرآن الكريم ، دار الهلال .

الشماخ بن ضرار الذيباني :

• ديوان السماخ بن ضرار الذيباني ، حققه وشرحه الدكتور صلاح الدين الهادي ، دار

المعارف بمصر ١٩٦٨ م .

شوقي أبو خليل :

• من ضيع القرآن ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٥ م .

الصالح ، الدكتور صبحي :

• مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

الصاوي : أحمد بن محمد :

• حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين ، ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد

حنفي ، القاهرة .

الصفار ، الدكتور ابتسام مرهون :

• التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة ، مطبعة الآداب في النجف

الأشرف ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م .

الصفوري ، الشيخ عبد الرحمن الشافعي :

• نزهة المجالس ومنتخب النفائس ، المكتبة الشعبية ، بيروت .

الضبي ، المفضل بن محمد بن يعلى :

* المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ م .

ضيف ، الدكتور شوقي :

* العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٠ م .

الطائي ، أبو زيد :

* شعر أبي زيد الطائي جمعه وحققه الدكتور نوري حمودي القيسي ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٧ م .

طبارة ، عفيف عبد الفتاح :

أ — روح الصلاة في الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٨ م .

ب — اليهود في القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦ م .

طرفة بن العبد :

* ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق الدكتور علي الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٢ م .

عبد الباقي ، محمد فؤاد :

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مطابع الشعب ، ١٣٧٨ هـ .

عبد التواب ، الدكتور رمضان :

* لحن العامة والتطور اللغوي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى .

عبد اللطيف ، محمد عبد الرحمن :

* وعد الله ليس لبنى اسرائيل ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ،

١٩٧١ م .

عروة بن الورد :

* ديوان عروة بن الورد — والسموأل ، دار صادر ١٩٦٤ م .

العسكري ، أبو هلال :

أ — كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي وآخرين ، الباب

الحلبي .

ب — الأ وائل ، نشر أسعد طرابزون الحسيني ، مطبعة دارأمل ، طنجة ، المغرب
الأقصى ، مارس ، ١٩٦٦ م .

عطوان ، الدكتور حسين :

* مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م .

العقاد ، عباس محمود :

أ — ابليس ، كتاب الهلال — القاهرة — العدد ١٩٢ ، مارس ١٩٦٧ م .

ب — مطلع النور ، كتاب الهلال ، رقم ٢١٣ ، ديسمبر ١٩٦٨ م .

ج — الفلسفة القرآنية ، كتاب الهلال ، العدد ٢٢٩ ، مارس ، ١٩٧٠ م .

العلمي ، الشيخ عبد الله :

* مؤتمر تفسير سورة يوسف ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١ م .

الغزالي ، أبو حامد :

* جواهر القرآن ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت — الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ م .

الغمراوي ، محمد أحمد :

* النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي ، دار الحكمة ، بيروت ، ١٩٧٠ م .

فراج ، أحمد :

نور على نور ، كتاب الهلال ، العدد ٢٥٠ ، نوفمبر ١٩٧١ م .

الفيروزبادي ، مجد الدين :

أ — بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . تحقيق محمد علي النجار . المجلس

الأعلى للشؤون الإسلامية . القاهرة ، ١٩٦٣ م .

ب — القاموس المحيط ، المطبعة المصرية . الطبعة الثالثة . ١٩٣٥ م .

الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي المقرئ :

* المصباح المنير في الشرح الكبير للرافعي — تحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي ، دار

المعارف . ١٩٧٧ م .

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري :

* الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب ، كتاب الشعب ، دون تاريخ .

قطب ، سيد :

- أ — في ظلال القرآن ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة السابعة ١٩٧١ م .
ب — مشاهد القيامة في القرآن .

القيرواني ، ابن رشيق :

- * العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٥ م .

القيرواني ، أبو اسحق — ابراهيم الحصري :

- * زهر الآداب وثمر اللباب ، تحقيق الدكتور زكي مبارك ثم محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٣ م .

قيس بن الخطيم :

- * ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، مكتبة دار العروبة ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ م ، دار صادر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ م .

كعب بن زهير :

- * ديوان كعب بن زهير — شرح أبو سعيد السكري ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٠ م .

الكلبي ، أبو المنذر : هشام بن السائب :

- * الأصنام ، الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٥ م .

الكلبي ، محمد بن أحمد بن جزي :

- * كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٥ هـ .

كلكل ، محمد أديب :

- * الفقه المبسط ، دار الدعوة ، حماة ، سورية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢ م .

ليبد بن ربيعة :

- * ديوان ليبد بن ربيعة ، دار صادر بيروت ، بدون تاريخ .

المبارك ، الدكتور مازن :

- * نحو وعي لغوي ، مكتبة الفارابي ، دمشق ، ١٩٧٠ م .

المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد :

* الكامل في الأدب ، مكتبة محمد علي صبيح ، ميدان الأ زهر — القاهرة .

محمود ، الدكتور مصطفى :

* من أسرار القرآن ، كتاب اليوم ، مؤسسة أخبار اليوم ، ١٩٧٦ م .

مسلم بن الحجاج النيسابوري :

* صحيح مسلم ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

مطلوب ، الدكتور أحمد :

* عبد القاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الأولى ،

١٩٧٣ م .

المعري ، أبو العلاء :

* رسالة الغفران ، بيروت ، الشركة اللبنانية للكتاب ، دون تاريخ .

مقاتل بن سليمان البلخي :

* الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، دراسة وتحقيق د . عبد الله محمود شحاته ،

القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ م .

مندور ، الدكتور محمد :

* النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ م .

الشيخ منصور علي ناصف :

* التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول « صلى الله عليه وسلم » المكتبة

الاسلامية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٢ م .

المودودي ، أبو الأعلى :

أ — مبادئ الاسلام ، نشر وزارة التربية والتعليم الأردنية ، عمان ، الطبعة الثانية ،

١٩٧٤ م .

ب — المصطلحات الأربعة في القرآن ، تعريب محمد كاظم سباق ، دار القلم ،

الكويت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧١ م .

الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري :

* مجمع الأمثال — نشر عبد الرحمن محمد ، ميدان الجامع الأ زهر بمصر ، ١٣٥٢ هـ .

الميمني ، عبد العزيز :

* الطرائف الأدبية « مجموعة من الشعر تتألف من قسمين ، القسم الأول : ديوان الأفوه الأودي ، وديوان الشنفرى وتسع قصائد نادرة . القسم الثاني : ديوان ابراهيم الصولي وقصائد أخرى دار الكتب العلمية بيروت .

النابعة الذيباني :

* ديوان النابعة الذيباني ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، رقم الايداع ١٩٧٧ م .

الندوي ، السيد أبو الحسن علي الحسني :

* الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ م .

النمر بن تولب :

* شعر النمر بن تولب ، صنعة الدكتور نوري حمودي القيسي ، مطبعة المعارف بغداد ، ١٩٦٩ م .

نوفل ، عبد الرزاق :

- أ — عالم الجن والملائكة ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- ب — تلاوة القرآن الكريم ، دار الاسلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .
- ح — الرحمن الرحيم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٣ م .
- د — أسرار وعجب ، دار الاسلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

الهاشمي ، السيد أحمد :

* جواهر في الأدب في أدبيات وانشاء لغة العرب ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة السادسة والعشرون ١٩٦٥ م .

ديوان الهذليين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م .

وافي ، الدكتور علي عبد الواحد :

* علم اللغة ، دار نهضة مصر للطباعة ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، دون تاريخ .

ياقوت الحموي :

* معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٧ م .

(٢) ثانيا : المراجع الأجنبية ، باللغة الانجليزية :

- 1) Chomsky, N., Aspects of the Theory of Syntax, The M.I.T. Press, 1965.
- 2) Dillon, George L., Introduction to Contemporary Semantics, Printice-Hall, INC., New Jersey.
- 3) Leech, G. N., A Linguistic Guide to English Poetry, London, 1969.
- 4) Lyons, John, Semantics, Cambridge University, Press, Cambridge, 1977.
- 5) Palmer, F. R., Semantics, Cambridge University, Press, Cambridge, 1976.
- 6) Turner, G. W., Stylistics, Penguin, 1973.

_____ + _____ + _____ + _____ + _____